

فراس السّواح

الرحمن والشيطان

الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية



من خلال منهجه العلمي الجذاب والمميز في تناول الميثولوجيا وتاريخ الأديان، يبحث المفكر السوري المعروف فراس السواح مسألة من أخطر المسائل في الفكر الفلسفي وأكثرها حساسية في الفكر الديني، هي مسألة وجود الشر في العالم وفي النفس الإنسانية، والكيفية التي عالجت بها معتقدات التوحيد بشكل خاص هذه المسألة، من خلال تركيزها على مفهوم جديد على الفكر الديني هو مفهوم "الشیطان الكوني". فالشیطان ليس كائناً شريعياً من تلك الكائنات الماورائية التي لم يخلُ منها معتقد ديني قط، بل هو المبدأ الكوني للشر، والمصدر الأصلي الذي ينشأ عنه كل شر جزئي معين. وهذا ما يجعله في تناقض وتعارض مع مصدر الحق والخير.

من تعارض هذين المصدرين وتناقضهما تنطلق صيرورة الزمن والتاريخ من بداية العالم إلى نهايته في اليوم الأخير. من هنا فقد اتسع مجال الدراسة عند المؤلف ليشمل ما يدعوه بـ "لاهوت التاريخ"، وانتقل من دراسة فكرة الشيطان في معتقد ما، إلى المعنى الذي يسبغه الفكر الديني على الزمن والتاريخ، وإلى طبيعة فهمه لله والعالم والإنسان، والعلاقة بين أركان هذا الثالوث الذي تدور حوله كل الأيديولوجيات الفلسفية والدينية على حد سواء. الكتاب التاسع لفراس السواح يقدم لك ألف وخمسمئة سنة من الهزيع الأخير لتاريخ الأديان المشرقية في تسلسلها وترابطها ووحدتها الداخلية.

الناشر



دار علاء الدين

منشورات دار علاء الدين

فاتحة

إن مفهوم التوحيد، الذي صاغته الديانات الشرقية بشكل خاص، في سياق الألف الأول قبل الميلاد، يترافق مع صعوبة ذات طبيعة فكرية وعاطفية في آن معاً. ذلك إن الإيمان بإله واحد هو علة الوجود والمتحكم بجميع مظاهره، يجعل مشكلة وجود الشر في العالم بدون حل، ابتداءً. فلقد كان من السهل تعليل الشر في المعتقدات الوثنية التعددية بأنه نتاج تناقض أهواء الآلهة ومقاصدها، أو بأنه نتيجة طبيعية لوجود آلهة خبيثة وأخرى شريرة. أما في معتقد التوحيد الذي يترافق مع تصورٍ لله على أنه كلي القدرة وكلي المعرفة وكلي الحضور، وعلى أنه منبع العدل والخير، فإن تعليل الشر يغدو بمثابة المهمة الأولى والملحة المطروحة أمام أي معتقد توحيدى. كما أن طريقته في الإجابة عن أسئلة مثل: كيف ينشأ الشر عن الخير أو لماذا يسمح الخير المحض بوجود الشر؟ هي التي تحدد موقع هذا المعتقد من المعتقدات التوحيدية الأخرى، وترسم تصوره الخاص لبنية الحقيقة، ولعلاقة الله بالكون وبالإنسان.

ولقد حلت معتقدات التوحيد هذه الصعوبة على أربعة أوجه. يصير الحل الأول على مفهوم صارم للتوحيد يستبعد أية قوة ماورائية حرة ومسؤولة وتنشط في استقلال عن الله، يمكن أن يُنسب إليها وجود الشر. وينجم عن ذلك بشكل منطقي أن يُنسب الشر إلى الله مثلما ينسب الخير إليه، فهو صانع الخير وصانع الشر أيضاً، يسيرهما وفق خطة خفية عن أفهام البشر. وهذا هو حل المعتقد التوراتي، الذي يعبر عنه النبي أشعيا كأوضح ما يكون في قوله على لسان يهوه: "أنا الرب وليس آخر مصور النور وخالق الظلمة، صانع السلام وخالق الشر، أنا الرب صانع كل هذا" - أشعيا ٤٥: ٦-٧. وذلك مع الأخذ بعين الاعتبار بأن التوحيد التوراتي لم يصل مرتبة التوحيد العالمي

الشمولي، بل بقي ضمن مفهوم "وحدانية العبادة"، أي عبادة إله قومي واحد مع عدم إنكار وجود آلهة الشعوب الأخرى.

يجعل الحل الثاني من الله كياناً مفارقاً يسمو فوق الخير والشر، ولكنه رغم سموه يقف إلى جانب الخير ويدعمه في مقابل الشر. ولقد ظهر الخير والشر إلى الوجود نتيجة خيار بدئي حر، عندما صدر عن الواحد الأزلي روحان توأمان اختار أحدهما الخير واختار الآخر الشر، ودخلا في تنافس وصراع. وهذا هو حل المعتقد الزرادشتي.

يتصور الحل الثالث وجود أصليين أزليين لا أصل واحد، وهما الله والمادة. فالله روحٌ بحت ونور صرف، والمادة كثافة مطبقة وظلمة دامية. ولشدة كثافة الظلمة في أسفل طبقاتها فقد تحولت إلى مادة. يتجاور عالم الظلمة وعالم النور منذ الأزل ويواجه كل منهما الآخر بصفحته. وفيما عدا ذلك لا حدود للنور من أعلاه، ولا من يحمته ولا من ميسرته، ولا حدود للظلمة أيضاً من تحتها ولا من يحميها. ثم إن المادة أُنْجبت الشيطان الذي ليس أزلياً في عينه رغم أن عناصره أزلية. وقد تولد الشيطان عن الظلمة كما تتولد العفونة من الأجزاء الرطبة، وتولدت أفلاك القوى الملائكية عن الله مثلما تُشعل الشموع من مشعل متقد. وهذا هو حل المعتقد المانوي.

يؤكد الحل الرابع على الأصل الواحد للوجود وعلى وحدانية الله وخبره وعدله، إلا أنه يعزو الشر إلى شخصية ما وراثية كبرى ذات أصل سماوي تنشط في استقلال عن الله. وهذه الشخصية ليست أزلية بل مخلوقة من قبل الله الذي أعطاها الحرية منذ البدء، فقامت وبكل وعي وحرية برفض التبعية لخالقها والاستقلال عنه. ولما كانت غير قادرة على ممارسة دور الإله نفسه فقد قررت أن تلعب دور المعارض والمناقض لإرادته، وتعمل على إفساد خلق الله وخصوصاً الإنسان الذي هو مركز الخليقة وسيد الأرض. وهكذا ظهر الشيطان وظهر الشر إلى الوجود وتأصل فيه منذ الأيام الأولى للتكوين. وهذا هو حل المعتقدين المسيحي والإسلامي.

أما لماذا سمح الله بظهور الشر على هذا النحو، فإن جواب الحل الرابع هو أن الله لم يسمح بظهور الشر بل سمح بالحرية، وليس الشر إلا ناتجاً من نواتج الحرية. فالله ليس مسؤولاً عن الشر وهو سيقاومه ويأتي به وبأصله إلى نهاية محتومة في لحظة مقررّة من صيرورة الزمن. لقد كان الله قادراً على محق الشيطان لحظة عصيانه، ولكنه آثر

الإبقاء على مبدأ الحرية الذي استنتجته لخلقها، وتركزت خطته في مقاومة الشيطان على الإنسان الذي أعطاه العقل والحرية أيضاً، وعليه أن يستخدمهما في محاربة الشر وعدم الإذعان لسلطته. إن دراما صراع الخير والشر عبر زمن البشرية، قوامها مواجهة بين حرية بدئية تحولت إلى جبرية أحادية عندما تبين الشيطان الشر خياراً واحداً أبدياً، وبين حرية مازالت تنطوي على جوهر الخيار وهي حرية الإنسان. قد يخطئ الإنسان ولكن خطأه لا يتحول إلى خيار نهائي واشتياز إلى معسكر الشيطان، ومن خلال جدلية هذه الجبرية المفتوحة على كل الاحتمالات عليه أن يصل في النهاية إلى خيار وحيد ومطلق، بمعونة الله ونعمته.

وبذلك يتخذ معتقد التوحيد طابعاً ثنوياً على هذه الدرجة من الجذرية أو تلك تراوح بين ثنوية مطلقة تعتقد بقيام أصليين للوجود لا أصل واحد، وثنوية أخلاقية تقصر تناقض الرحمن والشيطان على المجال الأخلاقي والاجتماع الإنساني من دون بقية مظاهر الوجود. هذه المعتقدات سوف تكون موضع بحثنا في ما يلي من فصول هذا الكتاب. فلقد وجدنا أنها تشكل مجموعة متميزة في تاريخ الدين الإنساني، قاسمها المشترك فكرة الشيطان التي ظهرت لأول مرة في تعاليم زرادشت (حوالي مطلع الألف الأول قبل الميلاد)، ثم تابعت ظهوراتها بتنوعات ومضامين مختلفة خلال أكثر من ألف عام تلت، ودخلت في صميم معتقدات يدين بها اليوم أكثر من نصف سكان المعمورة.

ونحن عندما نتحدث هنا عن الشيطان، وهو مفهوم متأخر نسبياً في تاريخ الدين، فإننا نميز بينه وبين الكائنات الماوائية الشريرة التي لم يخل منها معتقد ديني قط. فالشيطان ليس كائناً شريراً بل هو المبدأ الكوني للشر والمصدر الماورائي الذي يصدر عنه كل شر معين وجزئي ولموس. إنه يشعل مكان المركز في المعتقدات الثنوية، لا من حيث مكانته النسبية أمام الله، وإنما من حيث تأثيره على المجتمع الإنساني وصورته التاريخية. فالتاريخ يستهل بسقوط الإنسان الأول من الفردوس وينتهي بيسوم الحساب الأخير. وليس الزمن الفاصل بين البداية والنهاية إلا عصر اختبار للإنسانية في مواجهة قوى الشر.

رغم أن المبدأ الكوني للشر سيكون في بؤرة هذه الدراسة، إلا أن مجال البحث سوف يتسع ليشمل ما يمكن أن ندعوه بـ بلاهوت التاريخ، أي الاعتقاد بأن ضرورة

الزمن الدنيوي وفعالية الإنسان فيه هما ناتج لتدخل المشيئة الإلهية وتكشف عن القصد الإلهي في عالم البشر والطبيعة والمادة. وبذلك يتحول تقصينا لفكرة الشيطان في معتقد ما إلى تقصٍ أشمل يطال جوهر هذا المعتقد في مسائل الخلق والتكوين، ومراحل الزمن التالية، وصولاً إلى اليوم الأخير وانقضاء الدهر، فالحياة الثانية. أي تقصٍ لمفهوم ذلك المعتقد عن التاريخ، بداياته وأواسطه ونهاياته، وطبيعة فهمه لله والعالم والإنسان، وللعلاقة بين أركان هذا الثالوث الذي تدور حوله كل الأيديولوجيات الدينية. فبدون الشيطان الذي شبك الشر إلى نسيج العالم الحسن والطيب لم يكن ثمة تاريخ. وبدون ما تلا ظهور الشيطان من صراع بين الخير والشر لم يكن ثمة صيرورة تدفع عجلة الزمن إلى غايته الأخيرة المتمثلة في القضاء على الشر واستعادة خلق الله حسناً وطيباً كما كان عند البدايات.

سوف نخصص الفصل الأول والثاني لتقديس شروحات حول المصطلحات الواردة في عنوان الكتاب، فنعرّف بمصطلح الثنوية الكونية في الفصل الأول، وبلاهوت التاريخ، أو المفهوم الديني للتاريخ في الفصل الثاني. في الفصل الثالث نتقصي الأصول البعيدة لمفهوم الثنوية الكونية وبذور فكرة الشيطان، والتي وجدناها في الديانة المصرية القديمة وضمن العبادة الأوزيرية تحديداً. في الفصل الرابع ندرس الديانة الزرادشتية التي أسست للاهوت الشيطان ولاهوت التاريخ. في بقية الفصول نتابع دراسة الديانات التوحيدية الشرقية، فنستجلي في معتقداتها مفهوم التوحيد وظلاله الثنوية، ومنعكس ذلك على مفهومها للتاريخ بشكل رئيسي. كما سنتوقف عند تيارات روحية ذات صلة بموضوعنا مثل الغنوصية، والأسفار التوراتية المخفية (أو غير القانونية) التي أحدثت ثورة صامتة ضمن الفكر التوراتي الرسمي، ومهدت الطريق أمام المسيحية.

أما بخصوص المنهج، فقد حاولت قدر الإمكان التزام فينومينولوجيا الدين، وهو منهج ظاهراتي وصفي يعتمد وصف الظاهرة الدينية المعنية وسير معناها من داخلها، بمعزل عن الأفكار والمواقف الشخصية المسبقة. فالباحث الفينومينولوجي لا يصدر في دراسته عن موقف بعين، ولا يتعدى وصف ما يتبدى له إلى إصدار حكم قيمة عليه. إنه أقرب إلى المشاهد المتفحص منه إلى القاضي الذي يجد من واجبه التوصل إلى قرار

بخصوص ما هو حسن وما هو ردي، استناداً إلى لائحة تشريعية بغيتها^(*). إضافة إلى ذلك، فقد عمدت إلى معالجة الموضوعات وترتيب أفكارها داخلياً بطريقة تُسهّل مقارنة بعضها ببعض، رغم أنني لم أُلجأ إلى المنهج المقارن إلا في الحدود الدنيا وفيما يتعلق ببعض التفاصيل. وسوف يجد القارئ نفسه في النهاية أمام حصيلة تسلم نفسها للمقارنة دون جهد.

أخيراً، لا بد من بوح شخصي بخصوص دوافع هذه الدراسة وبواعثها، ولماذا الشيطان في هذا الأوان!

في هذه الفترة القائمة من زمن الإنسان، آن يبدو الشيطان وقد أمسك بزمام العالم، وأن ينمو الشر مثل الفطر في كل تربة وأرض، نحن أحوج ما نكون إلى تقصي طبيعة الشر على كل مستوى. ولعل الابتداء بالرمزية الدينية (وهي اختصاصي على كل حال) تكون فاتحة لمثل هذا التقصي الضروري في أعماق النفس وفي الآفاق. علّنا نمسك ببعض الخيوط التي تتحكم بالمستقبل المجهول، الذي تلوح لنا سنواته القريبة المقبلة وكأنها ترف فوق هاوية الجحيم.

كانون الثاني - يناير / ٢٠٠٠ /

^(*) لقد قلت أعلاه أنني حاولت الترام المنهج الظاهراتي قدر الإمكان، لأن الموضوعية المطلقة في قناعتي مستحيلة عند الإنسان. والباحث لا يستطيع أحياناً إلا إظهار إعجابه بهذا أو نفوره من ذلك.

التنوية الكونية

التنوية الكونية هي معتقد تم تطويره في ارتباط مع معتقد التوحيد، وذلك في المنطقة الشرقية^(*) فيما بين أوائل الألف الأول قبل الميلاد وأواسط الألف الأول بعد الميلاد. وقد نشأ معتقد التوحيد عن معتقد "وحدانية العبادة" السابق عليه، والذي يقوم على عبادة إله واحد والإخلاص له من دون بقية الآلهة التي لا يُنكر وجودها. كما نشأت وحدانية العبادة بدورها عن الوثنية التعددية التي تقوم على عبادة مجمع للآلهة مؤلف من مراتبية هرمية للقوى الإلهية، تُقدم لها جميعاً فروض العبادة كل بما يناسب مقامه وأهمية القوة الطبيعية التي يمثلها بالنسبة إلى حياة الجماعة.

يمكن تعريف التنوية الكونية بأنها المعتقد الذي يقول بقيام مبدئين أو أصليين متناقضين وراء مظاهر الوجود وصرورة الزمن والتاريخ. وهذان المبدآن شيمتهما الصراع من أجل أن يلغى أحدهما الآخر، وصراعهما يدفع عجلة الزمن وتاريخ العلم والإنسانية نحو نهاية محتومة عبر ثلاث مراحل. المرحلة الأولى هي مرحلة العصر الذهبي للحليقة قبل أن يعدو الشر على الخير، والثانية هي مرحلة امتزاج الخير بالشر، والثالثة هي مرحلة الفصل بين الخير والشر والقضاء نهائياً على قوى الشر لكي يعود العالم طيباً ونقياً وكاملاً كما كان، أو من أجل الارتقاء به من حالة الوجود المادي إلى حالة الوجود الروحاني.

(*) أو منطقة الشرق الأدنى القديم - وبمصطلح آخر منطقة آسيا الغربية.

وبشكل عام يمكن تقسيم المعتقدات الثنوية من حيث شكلها ومضمونها إلى ثلاث فئات هي: ١- الثنوية المطلقة. ٢- الثنوية الجذرية. ٣- الثنوية المعتدلة.

تقول الثنوية المطلقة بوجود مبدئين أو أصليين مستقلين ومتعارضين، لكل منهما عانه وسلطانه المطلق على ذلك العالم. فعالم للروح وللنور الأزلي، وعالم للمادة وللظلمة الأزلية. ولم يدخل هذان العالمان في صلة مباشرة مع بعضهما إلا عندما عدت الظلمة على النور ودخلت في نسيجه، فكان لا بد من الفصل بينهما مجدداً، وهذا هو معتقد المانوية. أما الثنوية الجذرية فتقول بوجود مبدئين متساويين في القيمة النسبية وفي علاقتهما بالوجود. ولكن هذين المبدئين ليسا أزليين بل حادثين ومتولدين عن الإله الأزلي الواحد القديم، وهما في حالة صراع دائم منذ صدورهما. وهذا هو معتقد الزرادشتية. وأما الثنوية المعتدلة فتقول بمبدأ واحد وأصل واحد قدم وأزلي هو إله الأنوار الأعلى. ثم إن هذا الإله الأعلى قد خلق إلهاً أدنى منه مرتبة قام بدوره بخلق العالم المادي. فالمادة، شرٌّ بطبيعتها، ولا يمكن للإله الواحد الخير أن يخلق الشر أو يكون مسؤولاً عن وجوده. وهذا هو أساس المعتقدات الغنوصية على تعدد فرقها واختلاف مذاهبها.

وبشكل المعتقدان المسيحي والإسلامي ثنوية خاصة بما يمكن أن ندعوها بالثنوية الأخلاقية. ذلك أن التناقض بين الله والشيطان لا يطل كل مظاهر الوجود، وإنما يقتصر على الإنسان والمجتمعات الإنسانية. والشيطان لا سلطة فعلية له إلا على النفس الإنسانية يعمل على إفسادها وحرفها عن طرق الله. فالثنوية هنا شكلية لا أساسية، ونحن نطلقها استناداً إلى أن الإنسان هو بؤرة خلق الله، وأن العالم قد خلق من أجله، فهو خليفة الله على الأرض وسيدها. من هنا، فإن سلطة الشيطان على الإنسان هي نوع من المشاركة في السلطة على العالم، خصوصاً في المعتقد المسيحي حيث نجد إنجيل يوحنا يدعو الشيطان برئيس هذا العالم (يوحنا ١٢: ٣١) ويدعوه بولس الرسول بإله هذا الدهر (الرسالة الثانية إلى أهالي كورنثة ٤: ٤).

ولكي يتضح لنا مفهوم الثنوية بشكل أفضل، لا بد من التمييز بينه وبين مفهوم القطبية الذي لا يتضمن معنى الصراع بقدر ما يتضمن معنى التكامل والتعاون.

فالنقطبية هي معتقد يقول بوجود ثنائية أصلية قوامها قطبان متعارضان ومتناقضان - في كل شيء، ولكنهما في الوقت نفسه متعاونتان ولا قيام لأحدهما بدون الآخر. وعن تناقضهما وتعاونهما تنشأ مظاهر الوجود المادي والحيوي وبهما تستمر. إن النموذج الأكمل عن معتقد القطبية هو التاوية الصينية التي وضع أسسها الفكرية المعلم لاو - تسو في القرن السادس قبل الميلاد. يقول لاو-تسو في الكتاب الوحيد المعزى إليه، بوجود مبدأ أزلي قدم يُدعى بالتاو. والتاو ليس شخصية إلهية بل هو القاع الكلي للوجود، والحقيقة المطلقة التي يقوم بها كل نسبي. وطبيعة عمله هي أقرب إلى مفهوم القوانين الطبيعية في العلوم الحديثة، والتي تفعل دونما قصد منها أو إرادة. عن هذا المبدأ الكلي صدرت قوتان مجردتان، هما قوة الـ يانغ الموجبة وقوة الـ ينغ السالبة، وبدوران هاتين القوتين على بعضهما نشأت "الآلاف المولفة" من كل شيء، على حد تعبير المعلم. تُمثَلُ قوة اليانغ باللون الأبيض الذي يرمز إلى النور، وقوة الين باللون الأسود الذي يرمز إلى الظلام. ولكن النور والظلام هنا لا يعلمان أية دلالة قيمة أو أخلاقية، ولا فضل لواحد منهما على الآخر. وبالتالي فإن أحدهما لا يسمى إلى التغلب على الآخر أو إقصائه، لأن مثل هذه العُلبة تعود بالكون إلى حالة الهوى التي نشأ عنها. وأفضل ما يوصف به هذان القطبان هو تشبيههما بقطبي المغناطيس.

في الديانات التقليدية للشرق القديم نجد أشكالاً من المعتقدات الثنائية التي تنتمي إلى القطبية لا إلى الثنوية، وذلك رغم عنصر الصراع الشكلي بين طرفي هذه الثنائية، والذي هو ناتج من نواتج القص الميثولوجي. ونموذج هذه الثنائيات عبادات الخصب الكنعانية التي مثلت الخصب والجفاف في شخصيتين إلهيتين هما بعل وموت. فالإله بعل هو المتحكم بأسباب الخصب والحياة، والإله موت هو المتحكم بأسباب الجفاف والموت. وتصور الأسطورة الأوغارية هذين الإلهين في حالة صراع دائم لا يُحسم لصالح واحد منهما، فكلما سقط بعل صريعاً بُعث بعد فترة إلى الحياة ودعا موت إلى النزال، وكلما وقع موت صريعاً قام إلى جولة ثانية وتحدى بعل. فالإلهان والحالة هذه هما ترميزان على مستوى الأسطورة لواقع حياة الطبيعة وتناوب الفصول ودورات الخصب والجفاف، وما الصراع الشكلي بينهما إلا من قبيل تناوب قوتي اليانغ والين في

الناوية. فهما قطبان في ثنائية طبيعية لا طرفان في ثنوية كونية، رغم الطابع شبه الكوني لصراعهما. والأهم من ذلك فإن تناقض هذين القطبين لا يتطوي على دلالة أخلاقية، لأن موت ليس مبدأ للشر الأخلاقي ولا حتى كائناً شريراً، والإله بعل ليس مبدأ للخير الأخلاقي. كما أنه ليس لتناقضهما وصراعهما أي أثر على النفس الإنسانية ولا على الأخلاق الاجتماعية. يضاف إلى ذلك أن الإلهين يتمتعان بالمكانة ذاته! في البابليون الأوغاريين، وتقدم إليهما فروض العبادة على قدم المساواة.

على أن الإلهين بعل وموت، وأضرهما في ميثولوجيات الثقافات الأخرى، يمثلان ما يمكن أن ندعوه بالخير الطبيعي والشر الطبيعي. فإذا كان الخير هو كل ما يؤدي إلى الصحة والسعادة والحياة، والشر هو كل ما يسبب الألم والشقاء والموت، فإن الآثار الخيرة أو الشريرة قد تكون من مصدر طبيعي أو من مصدر إنساني. فالفيضانات المدمرة والزلازل والبراكين والأعاصير هي شرور طبيعية. وأما القتل العمد والاعتصاب والسرقة والظلم والكذب، فشرور أخلاقية تنجم عن العلاقات الاجتماعية. وتعبير آخر فإن الشر الطبيعي ينجم عن ظواهر فيزيائية بينما ينجم الشر الأخلاقي عن نقائص إنسانية. وبما أن الفكر الميثولوجي يرى في أحداث الطبيعة انعكاساً لعواطف وإرادات إلهية، فقد نسب الخير والشر على مستوى الطبيعة إلى هذا الإله أو ذاك. ولم يعقد صلة بين هذا النوع من الخير والشر والنوع الآخر المنسوب إلى عواطف وإرادات الذوات الإنسانية الواعية. فحركة الطبيعة وما وراءها من فعاليات إلهية، لا تحمل في حد ذاتها أية قيمة أخلاقية، رغم آثارها السلبية أو الإيجابية على عالم الشر. إن صانع الشر على مستوى الطبيعة ليس بالضرورة حافزاً للشر على مستوى الحياة الإنسانية، كما أن صانع الخير على مستوى الطبيعة ليس بالضرورة راعياً للخير وباعتباره في النفس الإنسانية. لهذا كنه، فقد بقيت الأخلاق في المعتقدات القديمة شأنًا اجتماعياً تحكمه قوانين المجتمعات الداخنية، ولم تتصل بالدين إلا في فترات متأخرة نسبياً من تاريخ الدين، وخصوصاً مع ظهور المعتقدات الثنوية التي طابقت بين الخير الطبيعي والخير الأخلاقي وأرجعتهما إلى مصدر واحد، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالشر الطبيعي والشر الأخلاقي.

إلا أن المعتقدات الثنوية تختلف في موقفها من هذه المسألة. فالثنوية نير دنيية
 عبر كل شر طبيعي وأخلاقي إلى الشيطان. وكل خير طبيعي وأخلاقي يـ
 ثنوية الغنوصية ترى أن العالم كله شر لأنه ينتمي إلى المادة، وما الخير إلا المعرفة في
 تعبر الروح الإنسانية على التعرف على أصلها النوراني الأعلى، وبذلك يتم خلاصه
 ونصاها بأصلها مجدداً. وهنا لا تكتسب الأخلاق والسلوك القويم في الحياة أية قيمة
 خلاصية مباشرة، ولكنها تُهيء النفس في التماسخات المقبلة إلى المعرفة المخلصة. فإذا
 جئنا إلى الثنوية الأخلاقية وجدناها تعزو الشر والخير الطبيعيين إلى الله، لأن الشيطان
 لا يملك سلطاناً على مظاهر الكون والطبيعة. وليس ما يبدو من شر على المستوى
 الطبيعي إلا تعبيراً عن غضب الله وعقابه، وكذلك ما يبدو من خير، فهو رضى من
 الله ونعمة على عباده. فالخير والشر الطبيعيان هما أداتان في يد الخالق يستخدمهما
 وفق قصد إلهي قد يبدو للناس وقد يخفى عليهم.

لقد صاغت الثنوية عدداً من المفاهيم الميتافيزيكية حول طبيعة الألوهة، وأصل
 العالم، ومبدأ الشر، وصراع القوايين، والمخلص المنتظر، ونهاية الازدهار والحياة الأخرى.
 ولكن هذه التصورات كلها في اعتقادنا تخدم في النهاية مفهوماً فلسفياً "وجودياً" يدور
 حول حرية الفرد في الاختيار: اختيار ما هو عليه واختيار مصيره، وحرية الإنسانية في
 رسم مستقبلها الذي يسير في حط صاعد أبداً نحو الكمال. فالإنسان هو المخلوق
 الوحيد الذي لا يخصص لحرية الطبيعة، ولا تنجم أفعاله بالضرورة عن حتمية السبب
 والنتيجة مما يسود في عالم المادة. ذلك أن روحه هي قيس من عالم الروح الأسمى وعالم
 الحرية الإلهية، وليس شقاؤه في التاريخ إلا اختباراً لصلابة هذه الروح وامتحاناً
 لجدارتها بالحرية ولقدرتها على التغلب على حرية المادة. وسوف نبرر النتائج التي
 ستحلي عنها نهاية الزمن كل بؤس التاريخ ووطأته.

المفهوم الديني للتاريخ

إن ثنائية الفكر الديني والفكر العلماني (*) هي ثنائية حديثة نسبياً، ولا تعود في صحتها إلى ما قبل عصر النهضة الأوروبية. ولعل أفضل طريقة لتعريف أحدهما وفهمه هي مقابلته بالآخر وتوصيف الفروق الجذرية بينهما.

يرى الفكر الديني إلى الوجود، كوناً وطبيعة وحياة، على أنه مؤلف من مستويين: الأول مادي متبدل في كل ما حولنا من مظاهر حية وجمادة، والثاني غيبي يقع وراء المادة وتبدلاتها المتنوعة. الأول حادث ومتغير وقابل للفساد، والثاني قديم وثابت وأزلي. الأول واقع في إطار الزمن والتاريخ، والثاني يقع وراء الزمن والتاريخ ولكنه يتدخل فيهما ويحقق مقاصده من خلالهما. ويستتبع ذلك أن معني تاريخ الكون والإنسان يكمن خارج هذا التاريخ لا في جدليته الداخلية الخاصة، لأن هذا التاريخ مُسَيَّر من قبل قدرة غلوية توجهه وفق غايات خبيثة على الأفهام أنا وبادية لها أنا آخر.

أما الفكر العلماني فيرى إلى الوجود، كوناً وطبيعة وحياة، في مستوى واحد هو المستوى المادي المتبدل. فامادة قائمة بداتها، أزلية بطبيعتها، وتعمل وفق قوانينها الخاصة. وهذه القوانين كانت قادرة منذ البدء على تشكيل الكون والوصول به إلى صورته الحالية، وعلى توليد الحياة التي توجت بالإنسان وبالوعي الإنساني صانع الحضارة. أي أن الفكر العلماني قد أحل قوانين التطور وأفعال الإنسان، باعتبارها محركاً للتاريخ، محل مشيئة وأفعال الألوهة، مستبعداً بذلك وجود غائية أو معنى خارج جدلية التاريخ نفسه.

(*) نسبة إلى العالم لا إلى العلم. والعلماني هو الدنيوي.

ينطلق الفكر الديني في تصوره لبدايات من اللحظة التي خرجت عندها الألوهة من كمونها وتجلت في الزمان وفي المكان الدينيين، مبتدئة فعاليتها في الأزمنة الميثولوجية الأولى، أزمنة الخلق والتكوين، عندما أطلقت الزمان ومدت المكان وتواشحت مع تاريخ الكون وتاريخ الإنسان. فهذا تتحول الألوهة من مفهوم نظري إلى مفهوم عملي وتتجلى في شخصية ذات إرادة وقصد وفعل، وفي إله يعلن عن نفسه في سياق رمزي تاريخي، مبتدئاً تاريخاً مقدساً يشمل على فعاليات الألوهة ومعكساتها في العالم وفي المجتمع الإنساني. وهنالك ثلاثة أنماط لضرورة هذا التاريخ المقدس في الفكر الديني للثقافات العليا. النمط الأول هو التاريخ المفتوح، حيث يسير الزمن من لحظة البدايات نحو مستقبل مفتوح بلا نهاية. والنمط الثاني هو التاريخ الدوري المتناوب، حيث يسير الزمن في دارات معلقة يتبع بعضها بعضاً إلى ما لا نهاية، ومع اكتمال كل دورة ينهار الكون القديم ليستدئ كون جديد مع انطلاق الدارة الثانية. والنمط الثالث هو التاريخ الدينامي الذي يتطور بشكل خطي منذ لحظة الخلق، عبر عدد من المراحل إلى لحظة النهاية حيث ينتهي التاريخ وتنتفح الأبدية، ويتم تحويل العالم القديم، بعد عملية تطهير شاملة إلى حالة من الكمال تليق بخلق الله. هنا تنتهي تسايفات المقدس والديني، والله والعلم، والروح والمادة، والغبي والمظفور، والخير والشر، وتدوب أطرافها في وحدة لا اردواجية فيها إلى الأبد.

يتصل هذه المفاهيم الثلاثة للتاريخ الديني في الثقافات العليا، ثلاثة أشكال اعتقادية في طبيعة الألوهة وعلاقتها بالعام وهي: المعتقد الربوبي والمعتقد الحسولي (وحدة الوجود)، والمعتقد الألوهي. سوف نتوقف قليلاً عند هذه الأشكال الاعتقادية الرئيسية قبل الانتقال إلى شرح المفاهيم الثلاثة لتاريخ.

١ - المعتقد الربوبي

يقوم المعتقد الربوبي في طبيعة الأروحة وعلاقتها بالعالم على الفصل التام بين الألوهة وخلقها، واعتبارهما من طبيعتين مختلفتين لا اتصال بينهما رغم أن واحدهما هو نتاج الآخر. فرغم أن الإله (أو الآلهة) قد خلق العالم بجميع مظاهره المادية والخيوية والروحية، إلا أنه مستقل عنه ومفارق له على كل صعيد. ورغم أنه قد أسس، في الزمان الأولي، لجميع أسباب الحضارة الإنسانية ولجميع المؤسسات الاجتماعية الكفيلة

جمع الإنسان على سكة التاريخ، إلا أنه لا يتدخل في مسار هذا التاريخ بشكل سحجي، وليس لديه خطة توجهه وفق مقاصد معينة ونحو أهداف بعيدة مرسومة. كما أنه لا يؤسس لصلة وحي دائم بينه وبين خلقه. قد تتدخل القدرة الإلهية في بعض الأحداث الجسام، أو تعلن عن حضورها في العالم من خلال الكوارث الطبيعية كالطوفان المدمر أو الأعاصير التي تحرب ما بناه الإنسان، إلا أن مثل هذا التدخل عرضي ولا يسير على خطة محكمة مسبقة. يضاف إلى ذلك أن سلسلة التدخلات لا تنتظم في تتابع يفصح عن رابطة بينها، ولا تتم عن تكشف تدريجي لمقاصد محددة.

ويجسم عن مفارقة الألوهة واستقلالها عن خلقها، عدم اتصافها بالعدالة وبالتالي عدم ممارسة هذه العدالة على الأرض وبير الناس. من هنا فإن أعمال الفرد في الحياة الدنيا لا تلقي مكافأة أو عقاباً في الحياة الثانية، ولا وجود لبعث أو حساب أو لعالم آخر أفضل من الأول. فالآلهة وحدها هي الخالدة أما مصير البشر فيلزم موت يتبعه وجود سحجي في العالم الأسفل المظلم، الذي توول إليه كل الأرواح بعد مفارقة أجسادها. إن الخط الصارم الحاد الذي يفصله عن عالم الألوهة يجعل الإنسان أسير شرطه الأرضي، ولا يعطيه أي أمل بتدخل الآلهة من أجل خلاصه وتحويل وجوده إلى مستوى أعلى قريب من وجودها، ناهيك عن انعدام أي فكرة عن تحويل العالم المادي بأكمله إلى حالة أسمى وأرقى من الوجود. من هنا تقوم العلاقة الطقسية بين الإنسان والألوهة باعتبارها الوسيلة الوحيدة للاتصال بين العالمين المتمايزين. فمن خلال الطقس، وخصوصاً طقس الذبائح وقرابين، يعمل الإنسان على استرضاء القوى العلوية وحثها على تحقيق أغراضه الدنيوية، واتقاء غضبها غير المفهوم أو المبرر من وجهة نظره. أما الأخلاق فتشأن دنيوي تنظمه الجماعة ولا علاقة له بالآلهة التي لا تتصف بالخير ولا نأبه لتحقيقه بين الناس.

٢ - المعتقد الحلولي(*)

يقف المعتقد الحلولي، أو معتقد وحدة الوجود، على الطرف النقيض من المعتقد

(*) استعمل هنا مصطلح حلول بشكل تبادلي مع مصطلح وحدة الوجود الأكثر دقة، وذلك لأن النسبة إلى الأول أسهل من الثاني، فنقول حلولي وحلوية وما إليها، بدلاً من أن نقول وحد - وجودي وما إلى ذلك.

الربوبي، ويتميز عنه بتقديمه إرضاء أكثر للنزوع الديني في النفس الإنسانية، لأنه مفهوم صوفي عن العلاقة بين الإله والإنسان يذيب الفوارق بينهما ويجمعها في واحد. فهما من طبيعة واحدة، وما الروح الفردية إلا قبس من روح الله الكلية رغم حجاب الجهل الذي يستر عنها هذه الحقيقة في الحياة الدنيا. وبالمقابل، فإن الله ليس شخصية محددة مفارقة للعالم وممارس تأثيرها عليه عن بُعد، بل هو الحقيقة الكلية التي تتمظهر في العالم وتحتفي وراءه في آن معاً. فكما يظهر الماء تحت أشكال وأسماء متعددة، منها البخار والغيم والجليد والثلج والبرد، بينما هو في حقيقة الأمر واحد، كذلك تتحول الألوهة إلى مالا يحصى من الظواهر المادية والنفوس الحية، مع بقائها في جوهرها واحدة غير مجزأة. وكما صدرت هذه الأجزاء عن الحقيقة الواحدة فإنها تعود إليها وتذوب فيها كما تذوب الأنهار في لجة الغمر العظيم.

إن عدم اتحاد الألوهة في المعتقد الحلولي قناع إله مشخص يدخل الإنسان معه في علاقة ثنائية من أي نوع، يقود إلى إحلال العرفان الداخلي محل الطقوس والعبادات، حيث العبادة معرفة والطقس انكفاء نحو الداخل في محاولة لتلمس الألوهة في أعماق الذات الفردية. وعندما تغلخ النفس، التي تعان نفسها كدرة مستقلة، في إدراك وهم استقلالها وحقيقة تطابقها مع النفس الكلية، تكون قد حققت الانعتاق وتمأت للالتحاق بالمطلق العظيم الذي منه قد نشأت. فالخلاص والحالة هذه لا يتم بتدخل قوة علوية مفارقة ولا بعمه ومئة منها، بل بالكدح الداخلي الذي يؤدي إلى استنارة النفس العافية.

كما ينجم عن لا شخصانية الألوهة ارتفاعها فوق الخير والشر بمفهومهما الاجتماعي، فالإله ليس الخير المحض ولا يتسم سلوكه لا بالخير ولا بالشر. من هنا فإن مفهوم العدالة الإلهية عائب عن معتقد الحلول، ويجري العقاب والشواب بشكل أوتوماتيكي في الحياة من خلال مبدأ كوني يدعى بمبدأ الكارما، أي الفعل وحزؤه. في أبسط أشكاله، ينضوي مبدأ الكارما على أن الوضع الحالي للفرد محكوم بأعماله السيئة بهذا في حياته السابقة، كما أن أعماله في حياته الراهنة سوف تقرر وضعه في التاسخات المقبلة، التي سوف تتألى إلى مالا نهاية إذا لم تحقق النفس عرفانها الداخلي وتصل إلى الاستنارة التي تحررها من دون الميلاد والموت. ورغم أن الأعمال الصالحة

هي التي ترحل صاحبها لتحسّد أفضل وأرقى في الحياة الدنية. إلا أن هذه الأعين
توصل في حد ذاتها إلى التحرر، بل تمسّ النفس لمراحل أعلى وأعلى من العود. حتى
يحين موعد الإفلات من العالم والالتحاق بالأبدية.

وكما أن الأرواح الفردية أسيرة لدورة التناسخ الحيوية، فإن الكون بكامله مسير
أيضاً لدورة تناسخ عظمى، كلما ولد كون شاخ وآل إلى الغناء في مياه المطلق العظيم.
ليعقبه كون جديد آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية. وبذلك ينعدم التاريخ ويدور الزمن
على نفسه دوغماً هلف أو غاية.

٣ - المعتقد الألوهي

يقع المعتقد الألوهي في نقطة الوسط بين المعتقد الربوبي والمعتقد الحلولي. فالإله
مفارق للعالم من جهة ومتصل به كل الاتصال من جهة ثانية. ذلك إن الحاجات
الروحية الدفينة عند الإنسان تتطلب الإحساس بالألوهة مستحصّة يمكن الدخول معها في
علاقة ثنائية، سواء أكانت علاقة الأب بالابن، أو علاقة المحب بالمحجوب، أو علاقة
النسب بالبعد. وهذه الألوهة رغم مفارقتها واختلافها من حيث الطبيعة مع العالم، إلا
أنها حاضرة فيه على الدوام، في كل هبة ريح وفي تفتح كل زهرة وفي تنفس كل
كائن حي. يقول محي الدين ابن عربي: «وأما أهل الكشف فإنهم يرون أن الله يتجلى
في كل نفس ولا يكرر التجلي. ويرون أيضاً أن كل جعل يعطي خلقاً جديداً ويذهب
بخلق»^(١). وأيضاً: «فالخلق خلق على الدوام، والعالم مفتقر إليه على الدوام افتقاراً
دنياً»^(٢). إن الله في حالة انغماس دائم بمسائل العالم ويبدل عناية لا تبي بتطويره في
الزمن وفي التاريخ نحو غاية مبطورة ومشتركة بيه وبين خلقه، رغم كونه خارج
التاريخ. فمن خلال فعاليات الآلهة في الزمن وفي التاريخ تتخذ الألوهة وجه الإله
المشخص، ومن خلال محافظتها على موقعها المفارق خارج التاريخ تحافظ الألوهة على
طبيعتها الغفلة غير المشخصة مما تؤمن به عقيدة الحلول.

١- فصوص الحكم: ١٣.

٢- الفتوحات: ٢٠٨/٦.

يستدعي اتصال الله بالعالم تحويل مفهوم العدالة الأوتوماتيكي الذي يعمل من خلال مبدأ الكارما، في المعتقد الخولي، إلى صفة من صفات الله. فالله عادل. وكما تتجلى عدالته على المستوى الكوني في النظام المتوازن الدقيق الذي يحكم عالم المادة والطبيعة، كذلك تتجلى على المستوى الكوني في النظام الأخلاقي الذي يحكم علاقات الأفراد والجماعات. هذه العدالة هي أهم التحليات العملية لصفة الخير عند الله. فالله خير، بل هو الخير المطلق على ما تنص عليه الآية الكريمة من القرآن: « فالله خير، حافظاً، وهو أرحم الراحمين ». وتؤدي عدالة الله وخيره إلى مطلبه الأساسي من الناس الالتزام بحياة أخلاقية قوامها المحبة والعمل الصالح يبذله الإنسان تجاه أخيه. قال يسوع: « قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل، ومن قتل يكون مستوجباً الحكم. وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجباً الحكم ... فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصططح مع أخيك ... سمعتم أنه قيل تُحب قريبك وتبغض عدوك، وأما أنا فأقول لكم أجروا أعداءكم، باركوا لاعبيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم ... لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأجر لكم ؟ أليس العشارون يفعلون ذلك أيضاً » - متى: ٥. كما أن مطلب الحياة الأخلاقية الناشئ عن خير الله وعدله، يستدعي بدوره الثواب والعقاب سواء عند نهاية حياة الفرد أم مع نهاية الزمن والبعث العام والحسب الأخير.

وبذلك تقوم الصلة بين الله والبشر، في المعتقد الألوهي، على ثلاثة عناصر هي لإيمان والأخلاق والعبادات. كما أن العبادات وما يتصل بها من طقوس ليست وسيلة لاتقاء غضب السماء أو نيل مكاسب دنيوية منها، أو حاجة الألوهة إليها، كما هو الحال في المعتقد الربوبي، لأن "الله غني عن العالمين" وعدالته الثابتة لا تحرفها عن مسارها طقوس شكلية. بل إن العبادات والشعائر هي وسيلة اتصال دائم وتحقيق عياني للحضور الإلهي في العالم. ورغم أهمية هذه العناصر الثلاثة مجتمعة على طبيعة الصلة بين الله وخلق، وأثرها على خلاص الإنسان، إلا أن الخلاص في النهاية يبقى رهناً بالعمة الإنهية والمنة العلوية، فالله يمنُّ على العالم بالخلاص وهو ملتزم به.

ننتقل الآن إلى معالجة الرؤية الدينية للتاريخ في صلتها بالأفكار لا عندية
معتقدات العليا، من خلال ثلاثة نماذج رئيسية.

آ- المعتقد الربوبي والتاريخ المفتوح بلاد الرافدين نموذجاً

تقدم لنا ديانة بلاد الرافدين النموذج الأمثل عن مفهوم التاريخ المفتوح، حيث
نستطيع تمييز أربع مراحل للتاريخ المقدس تكشف عنها الأسطورة. المرحلة الأولى هي
السرمدية الساكية عندما كانت الألوهة منكفئة على نفسها مكثفة بذاتها. المرحلة
الثانية هي الزمن الكوزموغوي، أو زمن الخلق والتكوين، عندما خرجت الألوهة من
كمونها فأطلقت الزمان ومدت المكان وحركت دائرة الوجود. المرحلة الثالثة هي زمن
الأصول والتنظيم، عندما عمد الآلهة إلى تنظيم شؤون العالم والمجتمع الإنساني، من
خلال عدد من الفعاليات المبدعة التي نشطت عند جذور التاريخ الإنساني. المرحلة
الرابعة هي زمن البشر المفتوح على اللاهية.

يرسم لنا مطلع أسطورة التكوين البابلية صورة شديدة التأثير عن مرحلة
السرمدية الساكية. فقبل ظهور المكان وانطلاق المكان، كانت دائرة الألوهة «مغلقة»
على نفسها تطوي على ثلاثة جواهر مائية غير متميزة. هي: تعامة الأم وأبسو الأب
ومو الابن. وعلى حد تعبير النص:

عندما في الأعالي لم يكن هنالك سماء
وفي الأسفل لم يكن هنالك أرض
لم يكن سوى أبسو ومو
وتعامة التي حملت بهما
عزجرون أمواهم معاً

وهنا يقول الكاهن البابلي برغوشا الذي ألف كتاباً باليونانية، في القرن
الثالث قبل الميلاد عن تاريخ البابليين ومعتقداتهم، إن تعامة هي الماء المالح وأبسو هو
الماء الحلو، ولكنه بصمت عن مو الذي ترجح مع بعض الباحثين الآخرين أن يكون

النصباب المنتشر فوقهما. ونلاحظ هنا أن في اختيار النص للماء كجوهر هذه الآلهة البدئية، تأكيداً على الحالة العمائية والشوائية السابقة على الكون المنظم. فالماء هو أكثر العناصر تمثلاً لما لا شكل له ولا نظام. إنه اللاشكل واللائظام بكل امتياز، والهيولى السابقة على ظهور التحديدات والتقسيمات والأبعاد التي تميز الكون. وهكذا تقوم ثنائية: كون - عماء، أو كوزموس - كايوس بالمصطلح الإغريقي، عند جذور الزمن، وتستمر عبر تاريخ الكون اللاحق، في الفكر الميثولوجي الذي يتصور قوى العماء والقوى في حالة تأهب دائم للانقضاض على الكون والعودة به إلى المحيط المائي الشوائي الذي نشأ عنه.

بعد ذلك تبدأ إرهابات الزمن عندما أنجب الآلهة الثلاثة الجيل الأول من الآلهة، وأنجب هذا الجيل بدوره الجيل الثاني، الذي خرج منه الإله مردوخ فقاد الصراع ضد الآلهة البدئية وقهرها. ومن جسد الأم الأولى تعامة صبح السماء والأرض وبقية مظاهر الكون، ثم التفت بعد ذلك إلى تنظيم العالم والحياة الطبيعية. خلق الغيوم وحملها بالمنطر، وفجر عيون الماء وملأ الآبار، وأنبث من الأرض عشباً وشجراً، وأوكل إله الشمس بالأيام ففصل بين نخوم الليل ونخوم النهار، وأخرج القمر فسطع بنوره وأوكله بالليل وجعله جلية له وزينة. ثم توح فعالياته المبدعة هذه بخلق الإنسان.

تتابع بقية أساطير التكوين والأصول البابلية إعطاءنا مريداً من التفاصيل عن مرحلة الأصول. فلقد ابتدر الآلهة في هذه المرحلة كل أصول التحضر على الأرض، فصنعوا القنوات والسدود، وأحروا المياه في السواقي والأهبار، ورووا الأرض وحولوها إلى مراعي وحقول للقمح ومساكن للبستنة، وعمدوا إلى تربية الماشية وحلبوها فصنعوا اللبن والزبدة والجبن، وابتكروا الفأس والمول وقوالب الآجر فاستخدموها في بناء المدن والمعابد الأولى. وعندما أسلموا ذلك كله للإنسان فيما بعد، عملوا على تأصيل مؤسساته الاجتماعية مثل الأسرة والكهوت والملوكية. وباختصار فإن الإله لا الإنسان هو صانع الحضارة على الأرض.

وكان الآلهة في زمن الأصول هذا يكدون ويعملون من أجل تحصيل قوتهم. حتى بلغ بهم التعب والإرهاق حداً لا يُحتمل، وطفح كيلهم فتنادوا إلى خلق الإنسان ليحمل عنهم عبء العمل ويركثوا هم للراحة. ولدينا عدة نصوص تروي عن خلق

الإنسان من أجل خدمة الآلهة. نقرأ في نص سومري، أن الآلهة في بداية عهدهم لم يعرفوا أكل الخبز ولا لبس الثياب، بل كانوا يأكلون النباتات بأفواههم مثل الحيوانات، ويشربون الماء من الينابيع والحدائق. ثم أوكلوا بعد ذلك مهمة تأمين الغذاء لهم إلى الإله هار وأخته أشنان. فكان هار يكثر المواشي ومنتجاتها على الأرض، وأشنان تزيد في غلال الأرض ومحاصيلها. ولكن منتحات هذين الإلهين لم تسد جوع الآلهة، فعمدوا إلى خلق الإنسان ليكفيهم غائلة الجوع والعطش^(١).

ولدينا نص بابلي يعكس باختصار شديد عن قصة التكوين وزمن الأصول وخلق الإنسان وهذه قراءته: «بعد أن أخرجت الأرض وشكلت، وحددت مصلث الأرض والسماء، واستقرت شيطان دجلة والفرات. عندها جلس الآلهة الكبار آنو ونليل وإيا وبقية الآلهة المبحلين، جلسوا جميعاً في مجتمعهم المقدس واستعادوا ما قاموا به من أعمال. فقال إنليل: أما وقد حددنا مصائر الأرض والسماء، وجرت القنويات في مجاريها وتوضعت الخنادق، واستقرت شيطان دجلة والفرات. ماذا بقي علينا أن نفعل؟ ماذا نستطيع بعد أن نخلق؟ فأجاب الحضور من الآلهة المنبحلين، بقسميهما الأنوناكي والإيجي، أجابوا إنليل قائلين: لنذبح بعض آلهة اللاعما. ومن دمائهم فلنخلق الإنسان وبوكله بخدمه الآلهة على مر الأزمان. سصع في يده السلة والمنول، فبني للآلهة العظام هياكل مقدسة تليق بهم. سيسقي الأرض بأقاليمها الأربعة ويخرج من جوفها الخيرات، جاعلاً حقول الأنوناكي تنتج غلالاً وفيرة. سيسصح الماء العذب ويحتفل بأعياد الآلهة.. الخ»^(٢).

وفي ملحمة أتراسيس البابلية يتخذ تدمير الآلهة من العمل شكل تمرد وعصيان على الآلهة الكبرى السبعة التي كانت تفرص الكدح على البقية، وتلزم مساكنها في دعة وراحة بال. نقرأ في مطلع النص: «همنوا لعباء، عانوا المتسقة. تعب الآلهة عظيم، العمل ثقيل، الشقاء شديد. آلهة الأنوناكي العظيمة السعة، كانت تُحمّل آلهة الإيجي العمل. القنويات حفروا، لاستمرار حياة الأرض. الأنهار حفروا، لاستمرار حياة الأرض. حفروا هر دجلة ثم حفروا هر الفرات. فحجروا الينابيع

١ - انظر النص ومراجعته في مؤلفي: معامرة العقل الأولى، فصل التكوين السومري.

٢ - انظر النص ومراجعته في مؤلفي: مغامرة العقل الأولى، فصل التكوين البابلي.

من العمق، لاستمرار حياة البلاد. تحملوا العمل ليل نهار. أحصوا سنوات التعب فزادت عن أربعين عاماً. صاحوا من الحفرة: الآن أعلنوا الحرب لنمزج الحقد بالمعركة... صبوا على أدواتهم ناراً، وعلى رؤوسهم. سلاهم رموها إلى إله النار، وساروا نحو باب البطل إنليل. حاصروا البيت والإله لم يعلم»^(١).

عندما وصل الخير إلى إنليل، أمر بإغلاق الأبواب والاستعداد للدفاع عن قصره، ثم عقد اجتماعاً للآلهة العليا تدارسوا خلاله الأمر، وأوفدوا الإله نُسكو لمعرفة دوافع المتمردين وتحديد المسؤول عن الشعب. فخطبهم نُسكو قائلاً: «أرسلني أبوكم أنسو، ومشيركم البطل إنليل، وحاجبكم نورتا وكبيركم إنوجي. من الذي يحرض على المعركة؟ من يثير العدوان؟ ومن أشعل الحرب؟ فأجابوه: جميعنا أعلن الحرب، كل الآلهة أعلن الحرب. لبثنا طويلاً في الحفرة. العناء الشديد قتلنا. شاق عملنا وعظيم كربنا. والكل، كل الآلهة أئدنا». نقل نسكو إلى إنليل ما دار بينه وبين المتمردين، فتأثر إنليل حتى دمعت عيانه، ثم تداول مع بقية الآلهة العظمى في كيفية إصاف الآلهة المكذوبة، وقرروا في النهاية خلق الإنسان ليحرر الآلهة من العمل ويخدمهم. فخلق الإنسان من طين معجون بدم إله قتييل قُدِّم لهذه الغاية. وقامت بهذه المهمة الآلهة مامي، ربة الولادة الملقبة بسيدة الآلهة، بالتعاون مع إنكي إله الماء.

وفي المقطع الخاص بخلق الإنسان في الإيموما إليش، يصف مردوخ للآلهة خير بنائه لمدينة بابل ولعبيدها الكبير الذي سيكون معداً لهم: «سيكون مفتوحاً لاستقبالكم وبه تبتون، أو تهبطون من السماء للاجتماع. سأدعوا. سمه بابل، أي بيت الآلهة الكبرى، وسيهض لبنائه أمهر لبنائين... فما انتهى آباؤه من سماع كلامه، توجهوا بالسؤال لبيكرهم مردوخ: بعد كل ما صنعت يداك، من ستوكل سلطانتك؟ فوق الأرض التي ابتكرتها يداك من ستوكل حكمتك؟ لسماعه حديث الآلهة حفزه قلبه لخلق مبدع. فأسرَّ للإله إيا بما يعتمل في نفسه وأطلعه على ما عقد عليه العزم: سأخلق دماء وعظاماً، منها سأشكّل الإنسان - لائو. نعم، سوف أخلق لائو الإنسان وسنفرض عليه خدمة الآلهة فيحلدون إلى الراحة. فقال إيا مبدئياً رأيه: ليقوموا بتسليم أحدهم فيُقتل ومه تصنع الإنسان. ليجتمع كبار الآلهة هنا ويسلموا إليسا

١- عن الترجمة الكاملة لنص الملحمة، بقلم الزميل باسم ميخائيل حبور. وهي رسالة ليل شهادة ادراسنت العليا في اللغات السامية محفوظة في جامعة حلب.

بأنه المذنب من أجل راحة الباقين. فقام مردوخ بدعوة الآلهة الكبار وقال لهم: تريد منكم قول الصدق وقسمي لكم ضمان. من الذي خلق النزاع ؟ من دفع تعامة وحرص على القتال ؟ سلموا لي من خلق النزاع فيلقى جزاءه وتخلدون إلى الراحة. فأجابها الآلهة: إنه كيغو الذي خلق النزاع ودفع تعامة وحرص على القتال. ثم قيدوه ووضعوه أمام إيا. أزلوا به العقاب فقطعوا شرايين دماؤه، ومن دماؤه جرى خلق البشر. وفرض إيا عليهم العمل وحرر الآلهة^(١).

على هذا النحو ينتهي زمن الأصول. ويبدأ زمن الإنسان. وعلى هذا النحو ترسم الأسطورة الأراذينية أصل الإنسان وتحدد علاقته بعالم الآلهة ودوره في الحياة. فلقد حلّو منذ البداية لغرض واحد هو خدمة الآلهة ورفع عبء العمل عنها. والعلاقة بين الطرفين كانت وتبقى أبداً علاقة السيد بالعبد. الآلهة خالدة، وأما الإنسان ففان، والخط الفاصل بين العائين حاد وحاسم، لا يعطي أملاً للإنسان حتى بمجرد التفكير بالخلاص من شرطه الأرضي، والالتحاق بالعوالم القدسية بعد فناء جسده وانتهاء كدحه على الأرض، أو تبديل عالمه وتحويله إلى عالم أفضل. ولذا فبدأ أفضل ما يصيبوا إليه هو اللذائذ الحياتية الصغيرة، حلال عُمرٍ قصيرٍ ينتهي به إلى العالم الأسفل. وهذا ما عبر عنه نص ملحمة جلجامش من خلال حديث فتاة الخان التي قالت لجلجامش الباحثة عن الخلود: «إني أين تمضي يا جلجامش ؟ وإلى أين تسعى بك القدم ؟ الحياة التي تبحث عنها لن تجدها، لأن الآلهة لما خلقت البشر، جعلت انوت لهم نصيباً وحسبت في أيديها الحياة. وأما أنت يا جلجامش فاملاً بطنك، وأفرح ليلتك وهارك. اجعل من كل يوم عيداً، وارقص لاهياً في الليل والنهار. اخطر بثياب بطيفة راحية. اغسل رأسك وتحمم بامياه. دُلّ صغيرك الذي يحسك بيدك، أسعد زوجك بين أحضانك. هذا هو نصيب البشر»^(٢).

في ظل مثل هذه العلاقة، تبقى الرابطة الوحيدة بين الأرض والسماء هي رابطة الشعائر والطقوس. فالآلهة لا تتصف بالعدالة ولا بالخير، وكل ما تسعى إليه هو

١ عن ترجمتي الكاملة للملحمة التكوينية البابلية - إينوما إيليش، في مؤلفي معامرة العقل الأولى - فصل التكوين البابلي.

٢ - اللوح التاسع من الملحمة، العمود التاسع. انظر ترجمتي الكاملة للنص في مؤلفي: جلجامش - ملحمة الراعدين الخالدة.

عبادة الإنسان وقريبه التي يقدمها إليها. ومن خلال الشعائر والقرايين يستطيع استمالتها وحثها على اتخاذ مواقف إيجابية منه. نقرأ في ملحمة أتراسيس البابلية أن القحط قد حل في البلاد حتى عم الجوع وهلك الناس. فالتمس الحكيم أتراسيس وجه ربه إيا، الذي نصحه بتقديم القرايين وفروض العبادة لأداد إله المطر وحده، من دون بقية الآلهة، علّه يحل من هدية الإنسان: «لاتخشوا أهتكم، لا تصلوا نعتشاركم. فقط التسموا باب أدد، احضروا الخبز أمامه، عسى أن يمطر الندى خلقة في النساء ليحمل الحقل الحبوب». نقل أتراسيس نصيحة إيا إلى قومه فعملوا بها: «بوا بيتاً للإله إيا. احضروا الخبز أمامه. أسعده قربان الدقيق. خجل من الهدية فكف يده. في الصباح أرسل ضاباً وجلسة في النساء أمطر الندى. خلقة حمل حقل الحبوب. غادرهم القحط وعادوا إلى أعماهم»^(١).

ومع ذلك فإن خدمة الآلهة والصراعة إليها في كل حين وتقديم القرايين لا تؤدي بالضرورة إلى حصول الإنسان على بغيته منها، لأن مشيئتها خافية عني البشر، قد ترفع بواحد من الناس إلى أرفع مقام وتحوي بالآخر إلى الخفيض دوماً سبب واضح. نقرأ في نص بابلي معروف بعنوان "صلاة إلى جميع الآلهة" ضراعة لإنسان متألم غصبت عليه الآلهة وتسببت في مرضه بغير جريرة أو ذنب، ولذا فإنه يعترف بها بذنوب لم يرتكبها: «ليهدأ قلب إلهي العاضب علي. وليرض عني الإله الذي أعرف والإله الذي لا أعرف. بجهل مني أكلت طعاماً حرمه إلهي، بجهل مني وطعت مكاناً حرمته إلهي. فيا ربي إن آثامي عديدة وخطاياي عظيمة، ويا ربي إن آثامي عديدة وخطاياي عظيمة. إني جاهل حقاً بما اقترفته من ذنوب، وإني جاهل حقاً بما ارتكبته من معاصي. ولكن الإله نظر إلي بقلب غاضب، وإلهي في غضبها تسببت في مرضي. الإنسان مخلوق قاصر التفكير، لا يدري متى يجني حسنة ولا متى يصنع إثماً»^(٢). ومن نص بابلي طويل معروف بعنوان "سأثني على رب الحكمة" أقتطف هذه السطور: «رفعت دعائي إلى إلهي فأشاح بوجهه عني. صليت إلى إلهي فلم تلتفت بوجهها إلي. لقد صرت كمن لم يقدم لإله قرباناً، وصرت كمن لم يشكر إلهه

١- عن ترجمة باسم ميخائيل جبور. انظر المرجع السابق.

٢- عن النص الكامل للصلاة: انظر فصل الصلوات البابلية في موسوعة:

- James Pritchard, ed, Ancient Near Eastern Texts

سد كس طعام. صرت كمن فقد صوابه ونسي ربه، وكمن حلف قسماً غصباً بـرجسه كذباً. ولكن ما يبدو للإنسان حسناً قد يكون في عين إله رديئاً. وهل يعرف حـ متينة الآلهة في السماء؟ وهل يعرف أحد خطط الآلهة على الأرض؟^(١)».

والآلهة الرافدينية تصنع الخير مثلما تصنع الشر، وليس بمقدور الإنسان انتبؤ برودود أفعالها، لأنها لا تلتزم القواعد الأخلاقية ولا تجعل من سلوكها قدوة في هذه المجال لبني البشر، وغالباً ما اتسمت مواقفها بالفطرية ورد الفعل الآني والبعد عن الإحساس بالمسؤولية. ففي أسطورة الطوفان البابلية يقرر مجمع الآلهة تدمير شوريابك وبقية المدن الإنسانية الأولى بغير سبب أو حريرة. نقرأ في مطلع القصة كمل وردت في ملحمة جلجامش: « فقال أوتنابشتيم لجلجامش: سأكشف لك أمراً كان محبوباً، وأبوح لك بسر من أسرار الآلهة. شوريابك مدينة أنت تعرفها. لقد شاحت المدنية والآلهة في وسطها، فحدثتهم نفوسهم أن يرسلوا طوفاناً. كان بينهم آنوا أبوهم، وإنليل مستشارهم، ونورتا ممثلهم، وإيوجي وزيرهم. ونجيكو الذي هو إيا كان حاضراً أيضاً». وفي النص السومري المعروف بعنوان "هلاك مدينة أور" يتخذ مجمع الآلهة رئاسة إنليل قراراً بتدمير مدينة أور وإهلاك أهلها، قدراً من السماء وأمرًا مقضياً. يندي النص ببيكائية للإلهة نرجال إلهة مدينة أور تنسب فيسيها مدينتها. ثم نجد الإلهة تسعى يائسة لدفع الكارثة عن أور وتستعطف مجمع الآلهة الذي انعقد لاتحاد القرار الحاسم: «... ثم توجهت بتصميم إلى المجمع قبل انفضاضه، بينما كان آلهة الأمواكي جلوساً يتعاهدون. خرجت قدمي، فتحت ذراعي، درفت الدموع أمام الإله آن، بكيت بحرقة أمام الإله إنليل. قلت لهما: عسى أور لا تدمر عسى مدينتي أور لا تدمر قلت لهما. ولكن آن لم يعط دعائي أذنًا، وإنليل لم يثلج صدري بكلمة، بل أصدر الأمر بهلاك المدينة، أصدر الأمر بهلاك أور. وسيفنى أهلها وفق القضاء النافذ»^(٢).

ويتضح موقف الألوهة المتناقض والمتاوس بين الخير والشر، بشكل خاص، في شخصية وأفعال الإله إنليل رئيس الباشيون الرافديني. ففي ملحمة أنراحاسيس، وبعد

١- انظر النص الكامل في المراجع نفسه وهو نص طويل جداً يصل عدد سطوره ٤٠٠ سطر.

٢- عن نص جاكوبسن. انظر:

- Th. Jacobsen, The Treasures of Darkness, Yale, New Haven 1976, P. 87ff

خلق الإنسان لخدمة الآلهة، يتكاثر البشر وتكثر صوضاؤهم التي تقض مضجع إنليل ونحرمة الرقاد، فيضع خطة شريرة لإنقاص عددهم حتى يتخلد إلى الراحة: «لم يبيض ألف ومثنا عام. توسعت الأرض كثر الناس. الأرض تخور كثور هائج. اضطرب الآلهة من ضجيجهم. إنليل سمع صوضاءهم. قال للآلهة الكبرى: ضجة البشر ثقلت علي، من ضجتهم أفقدت الرقاد. افطعوا المؤونة عن الناس. لجوعهم فليقل الزرع. ليكف الإله أدد مطره عنهم. عسى ألا يخرج فيض من الأعماق. لتعصف الرياح، ولتجف الأرض. ليققل الحقل غلته. لتحبب نيسابا إلهة الغلال والمحاصيل صدرها الخصب، عسى ألا يصل الفرح إليهم. يا ليتني أخرج الأرض». قام الآلهة بتنفيذ أوامر إنكي، فلم يسز المطر من الأعلى ولم يفص ماء اليباييع من الأسفل. أغلقت رحم الأرض، ييس الزرع والحقول السود ابيضت، الأرض الواسعة ملئت ملحاً ومرض الطاعون نفشى. ثم يتابع النص: «سنة واحدة أكلوا العشب. سنة ثانية علنوا الحكمة. في السنة الثالثة تغيرت هيئاتهم من الجوع. عاشوا الحياة في عذاب، حضراء بدت وجوههم. باحساء يمشون في الشارع. أكتافهم العريضة صاقت. أرجلهم الطويلة قصرت»^(١). وعندما لم تنفع كل هذه الأساليب في إنقاص عدد الناس قرر إنليل إرسال طوفان عظيم يقضيهم عن آخرهم، وأقنع مجمع الآلهة بالموافقة على القسرار، عدا الإله إنكي الذي نقل الخبر إلى حكيم القوم أتراسيس وأمره ببناء سفينة وفق مخطط معين، ليحمل عليها أهله وما يستطيع إنقاذه من حيوان البر وطير السماء، من أجل استمرار الحياة الجديدة بعد الطوفان.

ومع ذلك فإن الجانب الخير في شخصية إنليل يطفئ على جوانبه العنصرية المدمرة، في أحيان كثيرة. نقرأ هذه المنتخبات من ترتيلة سومرية طويلة في مدح الإله: «لولا إنليل الجبل العظيم، لم تبن المدن ولا القرى. ولم يفيض البحر بكوزه الوفسيرة. ولم يضع السمك بيوضه بين أجمات القصب، ولم تصنع طيور الحو أعشاشها. لولاه لم تفتح الغيوم المناطرة في السماء أفواهها، ولم تمتلئ الحقول والمروج بخيرات الحبوب، ولم تطلع الحشائش والأعشاب بهية في الوادي، ولم تحمل الأشجار في البساتين ثمرها. لولا إنليل الجبل العظيم لم يكن لمقرة أن تضع عجلها في الاسطبل، ولم يكن لغمة أن

١- عن ترجمة باسم ميخائيل جبور. انظر المرجع السابق.

تجنب حملها في الخطيئة. إن أعمالك البارعة تثير الروع. ورميها عصية كحجر متشابهك لا يمكن فكه»^(١).

إن عدم توصل الألوهة إلى جسم مسألة الخير والشر في شخصيته وسمو كج. ينعكس على علاقتها بعالم الإنسان والمجتمعات البشرية. فالآلهة الرافدية - نكس أخلاقية من جهة ولم تستل لعبادها شرائع أخلاقية يتبعونها، بل بقا ترك مجتمع الرافديني يُستمر تنوونه الاجتماعية بنفسه، ويتعامل أفرادها وفق اللوائح الأخلاقية المتعارف عليها والموسسة منذ القدم. وقد كان حكماء المجتمع يعيدون صفراء هذه اللوائح والتذكير بها في كل مناسبة، وهذا ما تطلعنا عليه نصوص الحكم ونرمي - التي وصلنا منها الكثير. وأهم ما يميز نصوص الحكمة الرافدينية أنها لم تكن تعري على لسان كهان مرسومين يطقونها وحياء من السماء، بل على لسان حكماء صاحين خبروا الحياة وأفادوا من غيرها، وعرفوا مسالك الحق والباطل. ولم يكن لينتقص من قيمة لوائح الأخلاق الاجتماعية ووصايا حكماء الحياة الدنيا كون هذه اللوائح والوصايا ذات طبيعة دنيوية لا سماوية؛ وأن مؤيداتها تأتي من ضمير الجماعة لا من متيثة الآلهة. لا أدل على ذلك ما نلمسه من الحساسية الخلقية العالية للإنسان الرافديني وسيادة القانون الأخلاقي الوضعي على علاقات الأفراد والجماعات. يضاف إلى ذلك ما نشأ من تشريعات زمنية رافدينية راقية منذ أواخر العصر السومري، بُيت على القانون الأخلاقي القديم وزادت في تشعيه ووسعت من مجالاته. ولقد استمر الفصل بين الدين والأخلاق منذ البدايات الأولى للحضارة الرافدينية وحتى نهايتها، وبقي السلوك الديني للأفراد وسلوكهم الأخلاقي بمثابة خطين متوازيين لا يتداخلان ولا يلتقيان. تشترك الحضارة الرافدينية في هذه النظرة إلى الأخلاق مع الحضارة الإغريقية، وبقية الحضارات التي تقوم معتقداتها الدينية على المفهوم الربوبي، وتنظر إلى التاريخ باعتباره سيالة مفتوحة على اللاهية. وذلك على عكس حضارات أخرى طورت تدريجياً مفهوماً دينياً للأخلاق، مثل الحضارة المصرية التي سنقف مطولاً عند معتقداتها الدينية في فصل قادم.

١- عن موسوعة نصوص الشرق الأدنى القديم. انظر المرجع السابق، فصل التراث السومري.

ويتصل بمفهوم الخير عند الآلهة مفهوم العدالة. فإذا كانت الآلهة لا تقيم وزناً للخير في سلوكها مع الإنسان، ولا تطلب منه بذل الخير كعنصر لازم في العلاقة بينهما، فإنها بالتالي ليست معنية بالخير يبذله الفرد تجاه أخيه ومجتمعه أو بالشكر بفعله بهم، طالما أنه ملتزم بالصيغة الطقسية الشعائرية التي من خلالها وحدها يتم الجمع بين الإنسان وإلهه. كما أنها ليست معنية بثواب الإنسان وعقابه على أعماله، وفق مرجعية أخلاقية سماوية، ناهيك عن عنايتها بخلاصه إلى عدم آخر يعرضه عن بؤس التساريف وشقائه. وبما أنه لا يوجد إلا هذا العالم، وما من خطة هناك لإصلاحه أو تطهيره أو تحويله إلى عالم أسمى وأرقى، فإن تاريخ الإنسان مفتوح ودوناً غاية منظورة. أما تاريخ الفرد فمغلقل حيث يتقل بعد الموت وشقاء الحياة إلى عالم الظلمات السفلي حيث تعيش الأرواح وجوداً شبحياً ظلياً لا معنى له ولا نكهة، لا فرق في ذلك بين أمير وفقير وبين من قدم حسنة ومن قدم سيئة، رغم أن اتباع طقوس الدفن الصحيحة وتقديم القرابين الدورية عند القبور لراحة أرواح الموتى قد تخفف من معاناتها هناك. نقرأ في أكثر من نص نابلي عن أحوال العالم الأسفل وأهله. ومنها ما تنقله لنا ملحمة جلجامش على لسان إنكيبدو الذي يحضر على فراش الموت ويرى أحوال ذلك العلم بأحلامه. فلقد جاءه قابض الأرواح واقتاده إلى هناك: «ظهر أمامي رجل معتم الوجه. وجهه كوجه طائر الزو ومخالبه كمخالب العقاب. أمسك بفصلات شعري فتمكن مني. قام بتحويل شكلي فغدت ذراعي مكسوتين بالريش كما الطيور. غاص بي وقادني إلى بيت الظلام مسكن الإله إرجالا. إلى دار لا يرجع منها داخل إليها، إلى درب لا يرجع صاحبه من حيث أتى، إلى مكان لا يرى أهله نوراً وفي الظلمة يعمهون. التراب طعام لهم والطين معاش. لباسهم كالطير أجنحة من ريش. وفي بيت التراب حيث دخلت رأيت الملوك وقد نُزعت تيجانها، تلك التيجان التي حكمت البلاد ومنذ القدم..»^(١).

وهنا أريد التوقف قليلاً عند مقطع من ملحمة جلجامش جرى تفسيره أحياناً على أنه يقدم دليلاً على وجود مفهوم كوني للشكر في الدين الرافديني، أو على الأقل وجود بذور نثل هذه الفكرة بشكلها الجنيني. فعندما كان جلجامش يششاور مع

صديقه إنكيدو في موضوع رحلة غابة الأرز يقول له: « في الغابة هناك يعيش حور و الرهيب. هيا أنا وأنت نقتله، هيا نسمح الشر كله عن وجه الأرض ». وقبل أن يشرع في رحلته يزور أمه ننسون راجياً بركتها: « إلى اليوم الذي به أعود، إلى أن أصل غابة الأرز، إلى أن أقتل حواوا الرهيب فأخمو عن الأرض كل شر يكرهه الإله شمش، صلي من أحلي إلى شمش ».

استناداً إلى هذين المقطعين، وما تلاهما من مشاهد مغامرة غابة الأرز التي انتهت بقتل حواوا الوحش الرهيب حارس الغابة، يرى بعض المفسرين في حواوا رمزاً لمبدأ الشر المجرد وفي الإله شمش رمزاً لمبدأ الخير المجرد. وهذا في واقع الأمر بعيد كل البعد عن العقلية الدينية والفلسفية البابلية التي لم تتوصل إلى مثل هذا التجريد قط. ودلينا على ذلك المدلول الحرفي الدقيق لكلمة "الشر" الواردة هنا وهي بالأكادية "ميما - ليمو". والكلمة تشير إلى كل ما هو مؤلم ومؤذ وغير موآت لحياة وسعادة الإنسان، ولا يوجد ما يدل على استخدامها للدلالة على الشر الأخلاقي^(١). نقرأ على سبيل المثال في سص تعويذة بابلية مخصصة لاستنهاض أرواح الأسلاف من أحل شفاء المريض: « أقف اليوم في حضرة جلجامش وشمش: أحكما في قضيتي، أصدر قراراً بحقي، انزع ما في خمي وعظمي من ميما - ليمو^(٢). وفي تعويذة أخرى تستنهض روح جلجامش باعتباره أحد الأسلاف العظام الصالحين: « لقد تمكن في المرض، فاحكم في قضيتي. إنني أركع أمامك، فأصدر قراراً بحقي. انزع المرض من جسدي خذ عني الميما - ليمو الذي يهدد حياتي. خذ عني المرض الذي يعشعش في لحمي وعظمي وأوصاني^(٣). إن الشر المقصود في هاتين التعودتين هو الألم والمرض، ومرتل التعويذة يستنهض روح جلجامش الذي أجهز على واحد من ممثلي هذا النوع من الشر الذي يكرهه شمش على حد تعبير نص الملحمة. وهو النوع الذي وصفناه في موضع سابق بالشر الطبيعي تمييزاً له عن الشر بالمعنى الأخلاقي الاجتماعي.

وكان لمثل هذا الشر الطبيعي ممثلون يجسدونه في مجمع الآلهة الرافدينية. فإلى جانب آلهة البانيون الرئيسية التي تميز سلوكها بالتفاض حيال الخير والشر، فإننا

1 - J. H. Tigay, The Evolution of the Gilgamesh Epic, University of Pennsylvania, 1982, P 79

2 - Ibid, P. 30.

3 - Ibid, P. 80

بُحْدَ آلهة أخرى موكلة بشؤون الشر الطبيعي وخصوصاً ما يتعلق منه بحياة الإنسان من ألم ومرض وموت. وجميع هذه الآلهة ينتمي إلى قوى الظلام والعالم الأسفل. فهناك إريشكيغال ربة العالم الأسفل التي تعمل على ملء مملكتهما من الناس جمعين، وزوجها نرجال الذي كان يرسل عفاريت الظلام لتجوس في الأرض وتؤدي أناس حلال الليل. ونرجال هذا هو مظهر من مظاهر الإله شمش، الذي يغيب في باطن الأرض جهة المغرب ليسير في العالم الأسفل نحو المشرق فيقطع في اليوم الثاني. إنَّه الشمس السوداء في مقابل الشمس المنيعة البيضاء، ويمثل الجانبين الأشام من فعاليات إله الشمس حيث يتسبب بالخراب والظوفانات والأوبئة. وهناك نمتار رسول إريشكيغال وصلة الوصل بينها وبين آلهة العالم الأعلى، وكان يلعب دور ملاك الموت قابض الأرواح، يعاونه في ذلك سبعة عفاريت تحف به في غدوه ورواحه. وهناك إيرا إله الطاعون والأوبئة الفتاكة التي تحصد الناس بالآلاف، يصعد من العالم الأسفل وهو يجر وراءه ستين مرضاً وعلّة يطلقها على من يشاء من الناس. وهناك ليليث شيطانة القفار الجميلة التي تمثلها الأعمال الفنية على هيئة امرأة عادية لها جاحان ومخالب الطير الكاسر، وكانت تخطف الأطفال الرضع عن صدر أمهاتهم. إن جميع هذه الكائنات لماورائية المرعبة ليست كائنات أخلاقية انحازت إلى جانب الشر عن خيار ووعي، بل هي تجسيد على المستوى الميتولوجي لوجود الشرور الطبيعية في معزل عن الحكم الفيمي الأخلاقي، وضمن عقيدة دينية لم تتوصل إلى مفهوم للخير والشر باعتبارهما مبدعان كونيان مجردان.

خلاصة

لقد قاد هذا التصور الديني للعلاقة بين أركان الثلاث الأساسي في الوجود وهي: الإله - الكون - الإنسان، إلى تصور للزمن على أنه سيالة متدفقة أبداً من لحظة الخلق وحتى آفاق غير منظورة في الأبدية، وإلى تصور لتاريخ الإنسان على أنه سلسلة من الأحداث المتكررة المتشابهة التي تتابع في حركة خطية، لا تنبئ عن معنى ولا تهدف إلى غاية. سيبقى هنالك بشر طالما بقي هنالك آلهة، وسيبقى هؤلاء البشر أسرى الشرط الأولي الذي أحاط بخلقهم. حيل يمضي وحيل يأتي، والشمس تشرق كل يوم وتسرع إلى مغربها، على حد قول كاتب سفر الجامعة في التوراة، والذي يعبر أبلغ

تعبير عن مفهوم الربوبية والتاريخ المفتوح: «الريح تذهب إلى الجنوب وتندور إلى الشمال. تذهب دائرة دورانياً، وإلى مداراتها ترجع الريح. كل الأتهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملاقن. إلى المكان الذي جرت منه الأتهار إلى هناك تذهب راجعة... من كان فهو ما يكون، والذي صُنِعَ فهو الذي يُصنع، فليس تحت الشمس من جديد. من وجد شيء جديد يُقال عند انظر هذا جديد. ولكنه منذ زمان كان، في ندهور نتي كانت قبلنا. نيس ذكر للأولين، والآخرين أيضاً الذين سيكونون لا يكون هم ذكر عن الذين من بعدهم. وجهت قلبي للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عُش تحت السماوات. هو عناء رديء جعلها لبني البشر ليعنوا فيه. رأيت كل الأعمال نتي عُمِلت تحت الشمس، فإذا الكل باطل وقبض الريح».

روح البشرية خالدة، على ما يفيدنا به نص ملحمة أتراسيس، لأن الشر والآلهة طرفان في معادلة واحدة. نقرأ في مشهد خلق الإنسان: «نمزج الإلهة نتو الطين، ليجتمع الإله والإنسان معاً في الطين. لنسمع الطبل إلى آخر الأيام. ولتكن الروح البشرية من حسد الإله، ولتعلمه أن الحياة أضحت رمزه. ولتكن الروح البشرية خالدة. في الاجتماع، آلهة الأنوناكي مقرر المصائر، أحلبوا نعم. في اليوم السابع، وفي اليوم الخامس عشر من الشهر، جهّزوا مكاناً طهوراً. ذبحوا الإله دي - إبلا في اجتماعهم، وبلحمه ودمائه عجننت نتو الطين. لآخر الأيام سمعوا الطبل. وحدثت الروح البشرية من حسد الإله، وعلمته أن الحياة أضحت رمزه. وجدت الروح البشرية إلى الأبد»^(١). ولكن الخلود المعني هنا ليس خلود النفس الفردية بل خلود الجنس البشري مما يقتضيه مفهوم التاريخ المفتوح. أما الأفراد فيسيرون نحو نهاية محتومة في العالم الأسفل، بعد حياة قصيرة يجزون خلالها على خدمتهم للآلهة. ثواباً أم عقاباً، بطريقة مادية بحتة، فتطول هم الأيام ويجنون الثروة ونعمة الصحة والبين وما إلى ذلك، أو يبلون بالآلام والأمراض والموت المبكر. فلا

١- عن ترجمة باسم جبور مع تعديلات طفيفة. انظر المرجع السابق.
يستطيع القارئ، المهتم أيضاً بالإطلاع على أحدث ترجمة صدرت في العرب للمحمة أتراسيس، وعسى ترجمة Stephanie Dally في كتابها الصادر عام ١٩٩١ عن جامعة أوكسفورد.
- S. Dally, Myths from Mesopotamia, Oxford, 1991.

بعث ولا نشور وما من حياة ثانية ترتقي بالفرد إلى وجود يسمو على وجوده السابق. وحتى العدالة الأرضية مشكوك بتحقيقها، فقد ترى من خدم الآلهة بكل إخلاص تقصُر به الأيام بعد مرض وألم وفقر، ومن أدار ظهره للآلهة يمتد به العمر ويزداد صحة ووفرة وغنى. وعلى حد قول كاتب سفر الجامعة: « وأيضاً رأيت تحت الشمس موضع الحق هناك الظلم، وموضع العدل هناك الجور. فقلت في قلبي: الله يمتحن البشر ليربهم أنه كما البهيمة هكذا هم. لأن ما يحدث للبهيمة يحدث لبني البشر، وحادثة واحدة لهم. موت هذا كموت ذاك، ونسمة واحدة للكل. فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن كليهما باطل. يذهب كلاهما إلى مكان واحد. كان كلاهما من التراب وإلى التراب يعود كلاهما. من يعلم: روح البشر هل تصعد إلى فوق؟ وروح البهيمة هل تنزل إلى أسفل الأرض؟.... حادثة واحدة للصدّيق وللشّرير، للصالح وللظّاهر ولننجس. للذّاح وللذي لا يذبح. الحاطئ كالصالح. الخالف كالذي يخاف الخلف.... الكلب الحي حير من الأسد الميت، لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون، أما الموتى فلا يعلمون شيئاً وليس لهم أحر بعد، لأن ذكرهم قد نسي، ومحبتهم وبُغضتهم وحسدُهم هلك منذ زمان، ولا نصيب لهم بعد إلى الأبد في كل ما عُمل تحت الشمس... كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوّتك. لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها ».

وأخيراً، فإن افتقاد المعنى في المفهوم الرافديني للتاريخ، قد جعله بعيداً عن تلمس مفهوم عام عن "الإنسانية" و "المجتمع الإنساني"، وعن فهم قوانين تطور هذا المجتمع وارتقائه نحو تحقيق غاية ما. وحتى في العبادات التمزوية التي طورت تدريجياً مفهوماً للخلاص الروحي نحو عالم أفضل، فإن المختصّ الإلهي بقي مخلصاً فردياً، وبقيت عملية التحرر والخلاص مرتبطة بالطقس السحري الذي يوحد العابد بالهه، أكثر من ارتباطها بمفهوم مجرد عن الخير والشر، ودور الإنسانية الإيجابي في تاريخها الخاص وتاريخ العالم. كما أن غياب المعنى عن مفهوم التاريخ المفتوح، وغياب فكرة العدالة الإلهية، وفكرة البعثة الإلهية، التي تحرر الإنسان من شرطه الأرضي دون قيد أو شرط، من شأنها مجتمعة أن تجعل التساؤل حول الحرية والحرية أمراً لا معنى له، لأن

كل عمل للإنسان سواء بُذل عن حرية أم عن جبرية سوف لن تكون له قيمة خلاصية لا على مستوى الفرد ولا على مستوى الكون.

ب - الحلولية والمفهوم الدوري للتاريخ الهندوسية نموذجاً

تطالع الهندوسية دأرسها لأول وهلة تمزيج من المعتقدات التي لا يربطها رابط ولا تجمعها جامعة. كما ويبدو العدد الهائل من آلهتها التي تملأ أرض الهند وسماءها، تنصياً عن الانتظام في مجمع واحد يضم شتاتها. ولعل السبب كامناً وراء ذلك التلويح الطويل من التطور البطيء الذي تجره وراءها هذه الديانة التي تعود بأصولها إلى ما وراء الألف الثاني قبل انيلاد. ولكن هذه المعتقدات ما تلبث حتى تنتظم أمام الدارس الصبور تحت عدد قليل من الأفكار والمفاهيم الدينية، وعدد أقل من التصورات الماورائية. أما حشد الآلهة فما يلبث حتى تظهر حقيقته النسبية، عندما تبدو الشخصيات الإلهية بلا قوام أو جوهر حقيقي، وتسفر عن وجهها ككائنات تشارك البشر بؤس الحياة وموت في عالم السمساراء، عالم تناسخ الأرواح والدورة الكونية الأزلية.

إن ما يميز المعتقد الهندوسي (أو المعتقدات الهندوسية) عن المعتقد الشرقي أوسطي، هو بالدرجة الأولى لا مركزية فكرة الله. فالهندوسية تبدي تحملاً واضحاً من أية دوغمائية تتعلق بطبيعة الإله. وجوهر الدين لديها لا يقوم على الاعتقاد بوجود الإله أو عدمه، أو على تعدد الآلهة أم التقائها في واحد. فمن الممكن للهندوسي أن يُعدّ مؤمناً وملتزماً بدينه سواء آمن بـله واحد أم بآله متعددة، أم لم يؤمن بالآله طراً؛ لأن هذه المسألة لم تكن أبداً بمثابة حجر زاوية للديانة الهندوسية. وفي المقابل، فإن الطوائف الهندوسية تشترك بعدد من الأفكار والمعتقدات الأساسية التي لا يصح دين الهندوسي بغيرها. أول هذه المعتقدات ورأسها هو الإيمان بتناسخ الأرواح، يليه معتقد الكارما الذي يرتبط به أشد الارتباط والكارما تعني في الأصل الفعل، ولكنها في السياق الإيديولوجي المعني هنا، تعني الفعل وجزأه ثواباً كان أم عقاباً على أن ما يميز فكرة

الثواب والعقاب في الهندوسية عن نظيرتها في الديانات الشرق أوسطية؛ هو أن الجزاء غير مفروض من قبل شخصية إلهية تتصف بالعدل، بل يتم بشكل أوتوماتيكي من خلال قانون الكارما الكوني، وهو قانون غفل غير مشخص وغير متصل بحد من الشخصيات الإلهية. فما تُراكمه الروح من كارما في تجسدها الحالي سوف يؤثر على سلسلة تاسخاتها التالية، مثلما أن وضعها الحالي محكوم بكارما التاسخات مسببات. وهكذا تتبع الروح الفردية تجسداً في دورة سببية أزلية لا تنتهي تدعى بالسنسكريتية سمسارا. وهي دورة لا بداية لها ولا نهاية تتجاوز عالم الإنسان لتطال عالم الظواهر المادية بأكمله. كل شيء واقع في إसार الزمن وفي إसार الرعبة في إتيان الفعل (كارما) والزمن نفسه عبارة عن عجلة تدور على نفسها، كلما بلغت دورة منتهىها عادت إلى نقطة البداية، دون أن تنشذ غاية أو تسعى إلى هدف. ومع ذلك فإن الانعتاق (- موكشا) من هذه الدورة ممكن التحقيق، وهو بؤرة الحياة الندية للهندوسي والنهاية التي يطمح إليها من كدحه الروحي. إلا أن الطوائف الهندية تختلف في كيفية تحقيق هذا الانعتاق. وفي الحالة التي تصير إليها الروح المتحررة بعد انعتاقها.

من هنا يدعو الهنود ديهيم بالدهارما الخالدة، أي سنّة الكون الأبدية. والكلمة تُستخدم بمعنىين، فهي تدلّ من جهة على مُحمل الكتابات المقدسة وشروحها، ومن جهة أخرى على القانون الأبدي الثابت الذي يحكم الكون برمته. وبالمعنى الثاني فإن سنّة الكون تتطابق مع ما نفهمه اليوم من مصطلح القانون الطبيعي الذي تجعل منه العلوم حقلاً لدراستها، ولكن مع فارق هام؛ وهو إن هذا القانون الطبيعي بالسببية للهندوسي، لا يقوم بذاته وإنما يستند إلى مستوى أعمق للوجود، هو الأرضية غير المتغيرة لكل عرص متغير، ويدعى براهمن: القاع التحتي غير المشخص للوجود، الذي صدر عنه الناس والآلهة ومظاهر الوجود طراً. ولبراهمن نفس تدعى أتمان وهي مبثّة في جميع الكائنات الحية من آلهة وبشر، ومن كل ما يدب على الأرض أو يطير في الهواء أو يسبح في الماء. فالنفوس رغم تحزنتها الظاهرية وتباينها هي في حقيقة الأمر نفس واحدة. وإلى هذه النفس الواحدة ترجع النفوس المتحررة المنعتقة لتذوب فيها.

وبهذا يتحصل لدينا ستة مفاهيم أساسية تشكل أساس العقيدة الهندوسية وهي:

١ - سمسارا: الدورة السببية الكبرى، والعالم الذي تتناسخ فيه أرواح الكائنات الحية وأرواح الآلهة.

٢ - كارما: الفعل وتبعاته الأخلاقية.

٣ - دهارما: السنّة الكونية.

٤ - موكشا: الانعتاق من الدورة السببية.

٥ - براهمان: الثابت الأبدي والقاع الكلي للوجود.

٦ - أتمان: النفس الكية في تجزئتها ووحدتها.

بين هذه المفاهيم جميعاً، لا نجد واحداً منها يتطابق مع مفهوم الإله الأعلى حائق الكون. إلا أن هذا المفهوم في حال وجوده، ليس إلا وهماً من أوهام عالم الظواهر الذي تعيش الأرواح فيه أسيرة لدورة التناسخ. وهذا ما يقودنا إلى المفهوم الأساسي السامع وهو: المايا. والكلمة في الأصل تعني الوهم أو الظواهر الخادعة. تقوم فكرة المايا أساساً من حلّ الربط بين الواحد غير المتجزئ والكثرة التي صدرت عنه، لأن الواحد لا يمكن أن يكون سبب الكثرة، ولا بد أن هذه الكثرة من عناصر الطبيعة هي وهم يحث إلى عالم الظواهر الخداع. وما دامت الأرواح تعيش في إसार دورة السببية (سمسارا) فإنها واقعة تحت سلطة المايا، تعانين الكثرة والتنوع؛ كثرة الموضوعات الطبيعية وتنوع النفوس البشرية. أما عندما تفلح في الانعتاق، فإن الوهم الكبير يحلّ، ويبدو لها كشيء متوحد في انطلق العظيم، فتتمحى الحدود بين الظواهر وتدوب الفروق بين الأرواح التي كانت تعيش وهم التمرد والاستقلال. وأما الإله المشخص الذي عرفته النفوس خلال دهور دوراتها في السمسارا، فيبدو لها على حقيقته: براهمان الأري الحق، بعد أن كان براهمان + مايا، مثلما كانت النفوس الحية أيضاً نفساً + مايا. وهذا يتحقق التطابق في الهوية بين النفس أتمان وانطلق براهمان. إن ما يحقق للنفس هذا النوع من الانعتاق النهائي هو انكشاف بصيرتها الداخلية على حقيقة أن هذا العالم المتكثر هو واحد في جوهره، وإن كل ما في الوجود هو براهمان.

على أن نفهم الواضح للمعتقدات الهندوسية لن يتحصل لنا إلا إذا تابعنا الكيفية التي تطورت بها هذه المعتقدات خلال تاريخ الهندوسية الطويل، والذي يتبدى مع دخول الأقوام المدعوة بالهندو - آرية إلى شبه القارة الهندية.

التطور التاريخي

١ - ديانة الفيدا

حوالي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، غزت شبه القارة الهندية جماعات محاربة من الشعوب المعروفة تاريخياً باسم الهندو - آرية، والتي كانت تنساح من موطنها الأصلية في السهوب الأوراسية نحو مناطق غرب آسيا وأوروبا الشرقية منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. احتل الآريون أولاً وادي هر الأندوز (السند) في شمال غرب الهند، حيث دمروا حضارة عريقة تشبه حضارة وادي الرافدين، ثم تابعوا بعد ذلك تقدمهم ببطء إلى حوض الغانج، ولم يصلوا إلى الجنوب إلا بعد منقلب الألف الأول قبل الميلاد. وقد حمل هؤلاء الآريون إلى الهند الديانة المعروفة بالفيدية، نسمة إلى الفيدا، وهي مجموعة أشعار تحتوي على أناشيد دبية تم تأليفها بعد استقرار الآريين، وعلى امتداد فترة لا بأس بها من الزمن، باللغة السنسكريتية وهي لغة قريبة من اللغة التي تكلمها وكتبها الفرع الآخر من الهندو - آريين الذين دخلوا إيران في نفس الوقت تقريباً.

والفيدية هي ديانة طقسية تقوم على معتقد ربوبي شبيه بمعتقد وادي الرافدين. ففي الأناشيد الفيدية التي كانت تتلى في الاحتفالات الدينية، كان الشعراء في ذلك العصر يسألون الآلهة أن تمنح عبادها قطعاً كثيرة من الماشية، وثروة وحياة مديدة مقابل ما يقدمونه إليها من قربان. وكانت خدمة الآلهة وتقديم القرابين إليها هسي العنصر الحاسم في تقرير مصير الروح وحياة ما بعد الموت. أما الأخلاق فكانت شأنًا دينوياً تنظمه الأعراف والعادات القبيلة المؤسسة منذ القدم. ولم يكن لأولئك الآريين في بداية عهدهم معابد ولا بقع مقدسة معينة لأداء الطقوس، بل كانوا يقيمون شعائرتهم في الهواء الطلق وعلى أرض يمهدها هذه العاية، ويجهزونها بمذبح وموقد سار لإحراق الأضاحي. وكان القربان يتألف في العادة من منتجات حيوانية مثل الزبدة والحب، ومن الحبوب، ومن عدد من الحيوانات تذبح تبعاً هي التيس والخروف والثور

والخصان. وفي نهاية الطقس الذي غالباً ما يدوم يوماً كاملاً. يؤتى بـ شراب نسروما
نخدر فيسكب منه أمام الآلهة ويتم تناوله من قبل المشتركين بنطقس ليحصل منه
السماء في زيارة محاطة.

وقد اتسعت أسفار الفيدا حتى شملت أربعة مجموعات ضخمة من الأدبيات
والتراثيل والصيغ السحرية، التي كانت تتداول شفاهة حتى وقت متأخر من الألفية
الأول قبل الميلاد. وهذه المجموعات هي: رج فيدا، ساما فيدا، ياجور فيدا. ثم ويس.
وكلمة الفيدا هنا تعني المعرفة المقدسة، وهي نفس الجذر الإنكليزي wisdom. واللاتيني video، والألماني wissen. وجميعها تؤدي معنى المعرفة أو الحكمة. ورغم كبر
التطورات التي طرأت على الهندوسية وأشكالها اللاحقة، فقد بقيت قداسة هذه
الأسفار فوق كل مساءلة، وبقي الاعتراف بها كمصدر للعقيدة هو الفاصل بين
المذاهب القويمة والمذاهب الهرطقية.

على أن معتقد الفيدا ما لبث حتى أفسح المجال لمعتقد جديد هو المعتقد البراهماني
الذي تحول معه معتقد الربوبية تدريجياً إلى معتقد حلوي، صوفي، وذلك بتأثير طبقة
البراهمانيين (أو البراهمة)، وهم فئة من الكهان كانت تشرف في الماضي على طقوس
القرابين، ثم أحدثت تدريجياً بتكوين مفهوم عن الآلهة مختلف تماماً، والظفر إلى الآلهة
الفيدية، التي كانت آلهة مظاهر الطبيعة المختلفة، باعتبارها وجوه لحقيقة كلانية واحدة
هي براهمن: المطلق غير المشخص، والقدرة الشمولية التي تسند مظاهر الكون المتبدية
وقد تطور الفكر البراهماني عبر الأسفار المعروفة بالبراهمانات، وهي تعليقات وشروح
على الفيدا، بلغت ذروة نصحتها في مجموعة الأوبانيساد التي شكلت قمة من قمم
التأمل الحكومي العالمي. وقد تم تأليف البراهمانات والأوبانيسادات خلال النصف
الأول من الألف الأول قبل الميلاد.

٢ - البراهمانية

من خلال تفرغهم الكامل للشؤون الدنية، وإشراقهم على أداء الطقوس المعقدة
المصحوبة بأناشيد الفيدا، طور البراهمانيون مفاهيمهم النظرية الفلسفية عن معنى
الطقس وعائته، والقوة الخافية التي تمسحه الفعل والتأثير. فالتضحية ليست قرباناً يُقدم
للآلهة مع الصلاة والشكر، بمقدار ماهي عمل سحري يضع تحت تصرفهم القوة فوق

الطبيعية السارية في الكون برمته، والتي ينبغي على الآلهة أنفسهم أن يقدموا لها فروض الطاعة. هذه القوة فوق الطبيعية التي تجعل السحر فعالاً وممكناً هي براهمن. وكلمة براهمن في الأصل تشير إلى الصيغة السحرية المستخدمة لاستنهاض "انقورة" ودفعها إلى تفعيل الأداء السحري. ثم تحولت لتصبح دلالة على القوة الخافية نفسها. وشيئاً فشيئاً أخذت الآلهة الفيدية القديمة تفقد شخصيتها لتغدو رموزاً طقسية لا أكثر. فبدلاً من التأثير على "القوة" من خلال الصيغ السحرية، صار سعي البرهمناني يتجه نحو التوحد مع تلك القوة القدسية التمولية السارية في الكون، وذلك عن طريق رياضات روحية معينة واحتساء شراب السوما، مما يوصل إلى الوجد والإحساس بالتماهي مع "القوة" واكتساب قوى فوق طبيعية. وهم في سعيهم هذا لم يُظهروا أي اهتمام بتطوير الديانة الشعبية، ولم يهتموا قط بالأخلاق، لأن التفكير بالكون عندهم لا يمكن أن يقود إلى استحلاص أخلاقيات معينة، والاتحاد بالسرمدى هو عمل روحاني بحث لا علاقة له بالسلوك اليومي. من هنا كان كهنوتهم وقدرتهم الكهنوتية، لا الدين بمعناه الأوسع والأشمل، هما اللذان يشكلان موضوع تأملاتهم. فقد كان جهدهم موجهاً لأن ينفذوا أكثر فأكثر إلى سر الطبيعة عن طريق الممارسات الطقسية، وبه يتحدون في الوجد. وهذا الاتحاد الذي يعيشه البراهمني في نوبات الوجد هو مقدمة للاتحاد النهائي مع عالم الألوهة بعد الممات. وهو بشكلٍ ما وقف على طبقة البراهمانيين دون غيرهم من الطبقات.

مع شوء البراهمانية بدأ أيضاً نظام الطبقات الهندوسي بالترسخ في حياة الهند الدينية والاجتماعية. فقد انقسم المجتمع إلى أربع شرائح متميزة ومستقلة. الأولى شريحة الكشاتريا وهم النبلاء، والثانية البراهمانيون من رجال الدين، والثالثة الفايصيا وهم عامة الآريين من مزارعين وحرفيين، والرابعة الشودرا أو الخدم وهم السكان الأصليون من ذوي البشرة الداكنة. ورغم أن اختلاط الطبقات الثلاثة الأولى كان يحصص لعدد من القواعد الصارمة، إلا أن الحد الفاصل بين طبقات الآريين هذه والطبقة الرابعة المولفة من السكان الأصليين كان صارماً جداً. ومع الزمن نشأت طبقة خامسة هي طبقة السبودين التي اعتُبرت بحسب وحارج إطار الحياة الاجتماعية كلية. ورغم أن نظام الطبقات الاجتماعية هذا قد صُمم في البداية للحفاظ على نقاء عرق الشريعة الحاكمة، إلا أنه قد أعطي بعداً ديبياً فيما بعد عندما تبنت البراهمانية معتقد التماسخ

ومعتقد الكارما، مما ستعرض له في حينه بعد قليل.

كانت أسفار الأوبانيشاد قمة إنجاز البراهمانية. ورغم أن الأوبانيشاد جاء نتيجة طبيعية لمجدلية الفكر البراهماني وممارساته الطقسية، إلا أنه قد عمل على إحداث تغييرات عميقة في البراهمانية، تجلت في انفلاين رئيسيين على صعيد الفكر والممارسة. الأول عزوف البراهميين عن الطقوس الشكلانية الخارجية واستبدالها بالطقوس الداخلية، والثاني اعتراف البراهمانيين لبقية الطبقات بإمكانية الانعتاق من العالم والانحد براهيمن. تضوي الطقوس الداخلية على عدد من الممارسات الجسدية والرياضات الذهنية. فالى جانب السك والتقصف وإنكار متع الدنيا والعزوف عن أي نشاط عملي شيئاً كان أم صالحاً، هنالك عدد من الرياضات الذهنية التي تقوم على التسأمل الباطني الهادف إلى التواصل مع منبع الحقيقة والتطابق معه.

رغم أن الأوبانيشادات (فصول أو أسفار الأوبانيشاد) تختلف في تصورها للحقيقة المطلقة التي يدعوها براهمن، إلا أن الاختلافات هي من قبيل تنوع أساليب التعبير، والميل أحياناً إلى استخدام المجازات اللغوية. فبعض الأوبانيشادات تدرى إلى براهمن على أنه الحقيقة الكلانية الخافية غير المشخصة، والتي لا يمكن تصورها تحت أي شكل أو صفة أو خصيصة؛ فهو المطلق بكل امتياز. عنه نشأت الأكوان والحجرات وإليه تعود. وبعض الأوبانيشادات يرى إني براهمن كوله متشخص كلي القدرة والمعرفة والخصور، وكحاكم للعالم ومدبر لشؤوه. هذا التناقض المتبدي على مستوى التعبير بين الألوهة غير المشخصة والألوهة المشخصة، يجد تفسيره في أوبانيشادات أخرى توحد بين وجهي الألوهة المختلفين ظاهراً واستحدين ضمناً، فتتحدث عن براهمن في حالين، حال الحفاء وحال التجلي. فلقد أطلق براهمن الخافي نحو الخارج قوته الخلاقة الكامنة فتشكلت منها بيضة ذهبية طعت على سطح مياه السرمدية عند فجر الحقيقة؛ ومن هذه البيضة خرج الإله الخالق برهما (لاحظ الفرق بين الاسمين: برهما وبراهمان) الذي خلق كل شيء بواسطة الماء؛ أي القوة الخلاقة للإله براهمان. هذا الوجه الخلق للمطلق هو الرب الذي يتوجه إليه الناس بالعبادة والصلوات، وهو بوابة عبور الوعي الإنساني نحو المطلق السرمدي الساكن.

وكما أن براهمان الخافي هو القاع التحيي لكل مظاهر لعالم

الموضوعي، فإنه في الوقت ذاته القاع التحتي لكل ما يجري على النطاق الذاتي من وعي وإحساس وتفكير. إنه أتمان، جوهر النفس في تمايزها عن الجسد. نقرأ في مقطع من أحد الأوبانشادات: « هو الذي يقيم في الأرض وفي المياه وفي النار وفي الجو وفي الرياح وفي السماء وفي الجهات الأربعة ... هو الذي يقيم في كل الأشياء ومع ذلك هو غيرها. هو الذي يدرك كل شيء من الداخل. هو النفس. يقيم في الأنفاس وفي الكلام وفي العين وفي الأذن ... هو الرائي الذي لا يرى، والسامع الذي لا يسمع، والمفكر الذي لا يفكر به، والفاهم الذي لا يفهم. هو نفسك: أتمان ». في هذا المنقطع وأمثاله، يؤكد الأوبانشاد على أن جوهر الفرد وروح العالم هما شيء واحد. وهذا ما تعبر عنه الجملة الشهيرة الواردة في شانودجيا أوبانشاد: هو أنت. أي أن النفس الفردية هي من ذات طبيعة النفس الكلية، وأن الحقيقة العليا هي براهمن - أتمان، الذاتي والموضوعي في واحد. وعندما تعرف النفس الفردية من خلال حدسها الخلاق تظايقها مع براهمن تصل حالة السعادة الأرضية الكاملة، وتفلح في الانعتاق والاتحاد مع براهمان بعد الممات.

لم يُعَلمَ البراهمانيون في البداية سوى أن النفوس التي هي من طبيعة واحدة، ترجع إلى مصدرها بعد حياة واحدة في الجسد وفي العالم المادي. ولكن مذهب التناسخ بدأ يفرض نفسه على البراهمانية بقوة منذ عصر الأوبانشاد، وذلك بتأثير معتقدات سكان الهند الأصليين التي بقيت حية، رغم تأثرهم بديانة الفاتحين. يقول مذهب التناسخ بوجود حواهر فردية مستقلة هي الأرواح. وهذه الأرواح تُخل في أحساد حية لتعيش دورة في عالم السمسارا، وتُراكم سلسلة من الكارما التي من شأنها تحديد طبيعة تناسخها أو تناسخاتها المقبلة. والكارما هي كل الأعمال والأفكار والأقوال، مظهراً إليها. معيار أخلاقي، والتي ستحدد ثوابها وعقابها في التجسد المقبل. فالكارما الحسنة سوف تقود الروح إلى تجسد أعلى، أما الكارما السيئة فسوف تقود إلى تجسد أدنى قد يصل حد التجسد في حيوانات أو حشرات. وتدوم دورة التناسخ هذه إلى ما لا نهاية، إذا لم تستطع الروح شق طريقها بنبات في طريق صاعد أبداً نحو تجسيدات أفضل فأفضل، حتى تفلح أخيراً في الانعتاق من الدورة السببية. وهنا قام الفكر الديني الهندوسي بعقد الصلة بين نظام الطبقات الاجتماعي وقانون الكارما، ووجد التصلوات

الاجتماعي واللامساواة في النظام الطبقي تفسيره البسيط. فإذا كان البراهمني يتمتع بكل ما تقدمه له طبقة من مزايا، والشودرا يعاني من كل الشروط الحياتية البائسة المحيطة بطبقة الخدم، فلأن كلاهما قد قدم في حياته الماضية ما أهله لهذه الحياة الحالية. وبالطبع فإن أية محاولة لإزالة الفوارق بين الطبقات هو عمل يرقى إلى مستوى الهرطقة لأنه يعاكس القانون الكوني للسبب والنتيجة.

على أن البراهمانية بقيت أمينة لموقفها السابق من الأخلاق رغم تبنيها لعقيدة التناسخ. فالسلوك الأخلاقي في حد ذاته لا يوصل إلى الانعتاق بل يؤهل صاحبه إلى تجسد أفضل. لقد كان على البراهمني الصالح أن يلتزم بالقواعد الأخلاقية الخاصة بطبقته. ولكن سلوكه الأخلاقي هذا وقف على انشطار الأول من حياته، وهي فترة التي يمارس خلالها حياته الاجتماعية كاملة فيتزوج وينجب الأولاد ويساهم في كل نشاط إيجابي تتطلبه حياة الجماعة. أما في الشطر الثاني من حياته، فلأن البراهمني يسحب من العالم ويهجر أسرته التي لم تعد بحاجة إليه، فيذهب إلى الغاية ليعيش حياة انزهد والتنسك والتأمل، تاركاً العالم بخيره وشره معاً، مبتدئاً رحلته الداخلية العرفانية التي يأمل منها أن تقوده إلى الانعتاق. نقرأ في أحد الأوبانيشادات: «إن الخالد ليس لديه خوف مما ارتكبه من شر ولا أمل فيما فعله من خير. فلا الخير ولا الشر يتحكمان به؛ وإنما هو الذي يسيطر عليهما كليهما. لا شيء مما فعله ولا شيء مما أعمل فعله يمكن أن يكون له أهمية عنده». وفي أوبانيشاد آخر نجد أن الأرواح بعد مغادرتها أجسادها تصعد إلى القمر وتقيم فيه رديحاً قصيراً، ثم يتابع بعضها سيره نحو السماء، وبعضها الآخر يعود إلى الأرض مع الأمطار. يمتلئ القمر بحلول هذه الأرواح فيتزايد وعند مغادرتها يتناقص. ولكل قادم جديد يتقدم القمر بالسؤال: من أنت ؟ فإذا أجابه أنا أنت (وهي الصيغة التي تدل على وصوله إلى العرفان الداخلي الحقيقي بالتردد مع براهمن) تركه يمر، ومن لم يجر جواباً عاد إلى الأرض ليولد من جديد في جسدٍ ما بحسب ما قدمته يداها وما حقق من معرفة. أي أن كل ما يمكن للعمل الصالح أن يفيد به صاحبه هو إتاحة الفرصة أمامه للتجسد في صورة إنسانية تعطيه فرصة جديدة لمعرفة نفسه ومعرفة ربه.

ولقد أدى تلاؤم البراهمانية مع عقيدة التناسخ والكارما إلى تشكيل المذهب البراهماني المتأخر، الذي حاول التوفيق بين جوهر البراهمانية وعقيدة التناسخ القائمة على الأخلاق. وتعد هذه الصياغة التوفيقية شكلها الأكثر وضوحاً في مذهب الفيدانتا. يقول مذهب الفيدانتا بوجود حقيقتين، الأولى ظاهرية وهي ذات رتبة دنيا، والثانية باطنية وهي ذات رتبة عليا. بموجب الحقيقة ذات الرتبة العليا يستطيع الفرد تحقيق الاتحاد مع النفس الكلية عن طريق العرفان الداخلي. وبموجب الحقيقة ذات الرتبة الدنيا يستطيع أولئك الذين لا يعرفون براهمان تحقيق الخلاص عن طريق التبعيد لإله الشخص الخالق، وإنجار واجباتهم على أنفسهم. لقد أدرك أصحاب هذه البراهمانية المتأخرة أن صوفية الاتحاد مع براهمن هي أمر مختلف تماماً عن مذهب التناسخ ذي القاعدة الأخلاقية، ففصلوا تركهما متعايشين جنباً إلى جنب من خلال مذهب الحقيقتين. ولقد قاوم المعلم شنكارا، وهو أهم معلمي الفيدانتا، بعناد فكرة أن الانعتاق مرتبط بالموقف الأخلاقي للإنسان، وكان يردد بالحاح أن الأخلاق ليست إلا محرّكاً للحقيقة الظاهرية، ولم يجد لها إلا مكانة ثانوية في السعي الحقيقي إلى الاتحاد المباشر ببراهمان.

إلى جانب معتقد التناسخ والكارما فقد تست البراهمانية معتقد الدمار الدوري للعالم وإعادة خلقه محدداً. ففي الزمن الخطي الذي يتقدم دوماً نحو الأمام منطقياً على ناربح للكون وللإنسان مفتوح على اللانهاية، مما آمنت به الديانة الفيدية والبراهمانية المبكرة، صار لدى البراهمانية في عصر الأوبانيشاد تصور دائري للزمن وللتاريخ. فالزمن يدور على نفسه دورة كاملة لينتهي من حيث ابتداء، وبعد هدأة في حصن مياه السرمدية ينطلق إلى دورة تالية، وهكذا إلى ما لانهاية. فالزمن لا بداية له ولا نهاية، والعالم لم يُخلق مرة واحدة في زمن معين، ولن يؤول إلى فناء تام. وبذلك تتسع دورة السمسارا التي تتناسخ فيها الأرواح لتشمل العالم بأسره، حيث كل شيء آيل إلى الدمار وكل شيء معد للميلاد الجديد. وللزمن في دورانه على نفسه دورتان، الأولى تدعى ماها - يوغا وهي الدورة الصغرى، والثانية تدعى كالبا وهي الدورة الكبرى. تسير الدورة الصغرى ماها - يوغا عبر أربعة عصور تتدرج من الكمال التام في العصر الذهبي إلى الفساد التام في العصر المظلم، وعدد سنواتها ٤,٣٢٠,٠٠٠ سنة. أما الدورة الكبرى كالبا فتتألف من ألف دورة صغرى، وتشكل يوماً واحداً من أيام برهما. في نهاية كل كالبا، وفي آخر لحظة من غسق يوم برهما، تشطر الأكران

وتنتهى عائدة إلى الماهية القدسية التي نشأت عنها، ويهدأ إيقاع الزمن في ليل برهمه الطويل. وفي أول لحظة من فجر اليوم التالي، يولد الإله الخالق برهما مرة أخرى من أعماق المطلق براهمان ليقيم بخلق كون آخر يدخل في كالبه جديدة. وهنا تعود الأرواح التي بقيت غافلة عن نفسها ناسية أعمالها الماضية في الليل، فتنبه من غفلتها وتحمل كل واحدة منها أعمالها لتدخل في دورة تناسخ جديدة تمتد مليارات السنين قبل أن تجمع مع هجعة الكون في آخر الكالبه. وهكذا إلى مالا نهاية. وقد استمر هذا المعتقد في جميع أشكال الهندوسية اللاحقة.

٣ - الهندوسية الكلاسيكية

تقوم الهندوسية الكلاسيكية، التي بدأت بالتشكل منذ القرون الأولى للميلاد، على معتقد الألوهية ولكن دون تحمل تام عن معتقد الوجود، لأنها نشأت وتطورت تحت نفوذ الفكر البراهمني المتأخر. فخلال الفترة ما بين ٢٠٠ و ٧٠٠ ميلادية، عندما دخلت الحضارة الهندية عصرها الذهبي برعاية الإمبراطور غوبتا وخلفائه، ظهر معنمون روجيون ينتمون إلى الفكر البراهمني، ولكهم في الوقت نفسه راغبون في سد حاجة السواد الأعظم من الناس إلى إله مشخص قريب يمكن محبته وعبادته والدخول في علاقة شخصية معه. وقد حصلت القفلة الحاسمة بين البراهمانية المتأخرة والهندوسية الكلاسيكية، عندما صاغ أوثنك المعلمون الروجيون عقيدة تقول بأن المطلق غير المخصص براهمان يتجلى في العالم من خلال ثلاث ألوهات تمثل الوظائف الإلهية الثلاثة، وهي: برهما الخالق، وفيستو الحافظ، وشيفا المدمر. وبذلك نشأت عبادات محلية تدور حول واحد أو أكثر من هذه الآلهة الثلاثة.

إن براهمان حاضر في العالم من خلال إله مشخص يديره ويسيره ويهتم بشؤون خلقه، ويؤم لهم سبل الانعتاق والخلاص. وهنا تحمل محبة الإنسان للإله والإخلاص له محل انكدح الروحي الذي يقوم على العرفان، وتحمل الأعمال وتأدية الواجبات على أتمها محل الممارسات الزهنية والنفسية. إن محبة الإله والاستسلام الكامل له، تفود إلى اتحاد محبة معه لا إلى اتحاد عرفان. وبذلك تستطيع الشرائع الشعبية الواسعة التي ليس عقودورها الدخول في اتحاد عرفان مع المطلق، أن تتخذ إلى الله طريقاً أقل مشقة وأقرب

إلى مقدرتها الذهنية وطاقاتها على الكدح لروحي. وهذا الطريق لا ينكر طريق العرفان بل يعتبره طريقاً أعلى وأنبل لمن يستطيع السير فيه.

في عبادة الإله شيفا، يتبدى المعتقد الهندوسي في أوضح أشكاله الألوهية. فالعلاقة بين الله وخلقه هي علاقة محبة، وكل عمل من أعماله يصدر عن اهتمام بمخلوقاته. الوجود كله مؤلف من الله ورعيته (= الأرواح) والأصفاة. وهذه الأصفاة ثلاثة: ١- عالم الظواهر (=مايا). وهو عالم أزلي أبدي لا بداية له ولا نهاية ٢- الكارما. وهي الفعل وثماره مما تراكمه الأرواح خلال تجسدها في عالم الظواهر. ٣- التجزئة. وهي التي تجعل الروح متغلقة على نفسها ومفصنة عن الله. في حالتها الدنيا تكون الروح جوهراً فردياً بلا شكل ولا وعي ولا حركة، وغير قابلة للقضاء في الوقت ذاته. ثم تصير الروح إلى المرحلة الوسيطة عندما تحل في جسد وتتحول إلى ذات واعية شطة تتحرك في عالم الظواهر المادية وتراكم الكارما الخاصة بها، وبذلك تصير أسيرة الأصفاة الثلاثة. وهذه الحالة الواعية في الأصفاة الثلاثة هي التي تهيئها للانعتاق وتجمعها إلى الله، وهي المرحلة الثالثة. غير أن الروح المعتقة لا تذوب في الله، كما هو الحال في التصوف البراهماني، وإنما تصم إليه مع بقائها واعية لوجودها ووجوده، رغم أنها صارت إلى طبيعة أقرب إلى طبيعته.

ولقد شابه موقف الهندوسية الكلاسيكية من الأخلاق، في بداية عهدها، موقف البراهمانية. فمحبة الله هي محبة شخصية موجهة من الفرد إلى الخالق، ولا تتسع بالضرورة لتشمل محبة الآخرين. والأعمال التي يتوجب على المؤمن إتقانها لم تكن تتجاوز الواجبات التي يحددها انتماءه لطبقة معينة والالتزام بأخلاقياتها الرسمية. ولم يكن هذا الموقف من الأخلاق ليعني بأية حال من الأحوال أن الهندوسي ليس معيماً بمحبة جاره والسلوك بشكل أخلاقي كامل، بل إن السلوك الأخلاقي يجب ألا يُذل استجاباً لكفاة ما إلهية كانت أم اجتماعية، وأن يكون حراً من أي قيد أو شرط. على أن الهندوسية الكلاسيكية ما لبثت حتى سارت بمعتقداتها إلى نتيجته المنطقية، ونحو الإله من كائن فوق الخير والشر إلى كائن أخلاقي، ودخلت الأخلاق في صلب السلوك الديني. فإذا كان الإله أخلاقياً. فإنه يحض على مكارم الأخلاق ثم يحزى بها.

على أن الأخلاق الهندوسية بقيت أسيرة معتقد حري يجرمها من جودها كسلوك حر ومسؤول. فلقد طورت الهندوسية الكلاسيكية عقداً بحرية تنحلي تلك الكائنات الحية مثلما تطال الكون بأكمله. إن الفعل الذي يقوم به الفرد. وما يحرم عنه من كارما، ليس إلا جزءاً من كارما الكون بأسره. وكرما تكون هي جزء من كارما الله. فالله في حالة فعل دائم مثلما هو في حالة سكون دائم أيضاً. وكرما تتم في الزمن، فالزمن يتطابق مع القدر. والله يتحكم بالقدر والإنسان في حدة عجز تام أمام القدر. ويستتبع ذلك أن الإنسان ليس هو فاعل الخير والشر لأنه ليس كائن مستقلاً، بل الله هو الذي ينجز الخير والشر على يديه. ومع ذلك فإن على الإنسان أن يفعل دوماً ما هو صالح في عينيه ثم لا يلتفت إلى نتيجة أو منفعة منه، وأن يمارس كمن نشاط بدافع من حبه لله واستسلام كامل ما يتمه الله على يديه. هذا هو مضمون الحرية الإنسانية.

تظهر هذه الأفكار بكل قوة ووضوح في ملحمة الماههاراتا، التي تعادل مكانتها في الهندوسية الكلاسيكية والأوبانيشاد في البراهمانية. ففي مشهد تجلي الإله كريشنا للبطل أرجونا قبل المعركة الحاسمة، يطلب الإله من أرجونا أن لا يتردد في قتال أساء عمومته في الفريق الخصم، لأن على البطل أن يفهم أنه ليس هو الذي يقتل وإنما بحجز عملاً أرادته الله. ومن خطابات كريشنا لأرجونا نقراً هذه المقتطفات: « إن على الإنسان ألا يتهرب من عمل فرضه عليه منبهه الطبعي، حتى لو كان فيه ما يسوء. فكل المشروعات مصحوبة بأمور سيئة مثلما هي النار مصحوبة بالذخا ». « حتى اغريم الكبير إذا مجلني من كل قلبه ولم يفكر إلا بي وحدي، يجب أن يُعتبر على صواب فيمل فعل لأنه قام بعمله بروح طيبة ». « حتى لو كنت من بين الخاطئين أكثرهم، فإنك على زورق المعرفة الحقيقية سوف تختار محيط الشر ». « مهما فعلت يا أرجونا، فإن أولئك المحاربين المصطفين للمعركة سيموتون. والحقيقة أنهم قد هلكوا على يدي. أما أنت فكن الأداة فقط. ذلك إن من يولد صائر إلى الموت، ومن يموت صائر إلى الولادة. وأمام ما لا مفر منه لا يجدي التذمر ».

خلاصة

من هذا العرض الموجز والمكثف، نستطيع استخلاص أهم النتائج ذات الصلة بموضوعنا

١- رغم تسرب بعض أساطير الخلق والتكوين من الديانة الفيدية القديمة إلى الهندوسية، إلا أن الهندوسية، وعبر جميع أطوارها، لم تأخذ مسألة الأصول والبدائيات بشكل جدّي. فالعالم لم يُخلق مرة واحدة ابتداءً، وليس له نهاية منظورة، أو مقسب يرتفع به من مستوى أدنى من الوجود إلى مستوى أعلى. فالزمن يدور على نفسه، ومع كل دورة يفنى الكون القديم ويُخلق كون جديد ليسير في الحلقة المفرغة نفسها، فلا بداية ولا نهاية، بل عوداً أبدي بلا هدف ولا غاية. هذه الرؤية للزمن التدريجي المتناوب عند الهندوسية تنطوي على إصرار شديد على رفض التاريخ باعتباره حركة دائبة تهدف إلى تطوير الكون وتطوير الجنس البشري، ولا ترى فيه سوى تُسخاراً يكرر بعضها بعضاً إلى ما لا نهاية. وبالتالي فلا وجود لخطة إلهية تتجلى في هذا التاريخ بشكل تدريجي وتهدف إلى تخليص الكون وتخليص الإنسانية.

٢- لم تتوصل الهندوسية إلى مفهوم واضح عن "الإنسانية" ولم تجد لها دوراً فاعلاً في دفع حركة التاريخ. وما الإنسانية إلا تجمع من الذوات العابرة التي يسعى كل منها بشكل فردي إلى الانعتاق من دورة الحياة والموت.

٣- ترتفع الأنوثة فوق الخير والشر، ولا تلعب الأخلاق دوراً مهماً في علاقة الإنسان بالله. وفي المذاهب التي مزجت بين السلوك الأخلاقي والسلوك الديني، بقي الاعتقاد بالجزيرية الكونية حائلاً دون تكوين مفهوم واضح عن حرية الفرد ومسؤوليته.

٤- يعمل مبدأ الكارما على تقديم حل بدهي لمسألة وجود الشر في العالم. فكل ما يصيب الفرد من نوائب وكوارث وحظ عاثر في حياته، وكل ما يلقاه من نعم ووفرة ورغد عيش، هو نتيجة لكارما سابقة راكمتها روحه في تجسدها الماضية. أما ما يراكمه هو من كارما حسنة أم سيئة فإنه لا يُجزى بها إلا في حياته ولا في حياة أخرى، بل إنه يُجبرها للتجسد التالي. وبما أن مبدأ الكارما يعمل بشكل آلي، فإن مفهوم الشر الجرد والخير الجرد هو مفهوم غريب على الفكر الهندوسي. وليست العدالة صفة لكائن إلهي، بما يعاقب ويثيب.

٥- تتصل دورة الحياة والموت في عالم السمسار بدورة الكون الكبرى. فكما يفنى الكون عن نفسه ليعيش في كون آخر جديد، كذلك يفنى الجسد عن نفسه ليعيش في جسد آخر جديد. وعندما تنتهي الدورة الكونية الكبرى، إلى القضاء وتعود

٦- مياه السرمدية الساكنة، تغفو الأرواح في ليل برهما الطويل. ومع بداية الدورة جديدة تصحو لتحمل كارماها مجدداً إلى ملايين التجسّدات المقبلة وملايين الدورات كونية المقبلة. فلا بعث ونشور، ولا دينونة ولا حساب ولا عقاب.

٦- أمام هذه الأرقام الفلكية لعدد الدورات الكونية والتناسخات الفردية، مما يدير الرأس، لا يوجد أمام الفرد إلا طريق واحد: الإفلات. ولكن من الذي سيفلت ويحقق الانعتاق أخيراً؟ هل هو التجسد الأول للروح في البدايات الضاربة في الأزلية، أم هو هذا التجسد الذي يفكر بالإفلات، أم هو ذلك التجسد الأخير بعد بصعة مليارات من السنين؟ سؤال لا معنى له يلقي على الأيديولوجيا الهندسية ظلالاً من العدمية.

ج - الألوهية والتاريخ الدينامي الزرادشتية نموذجاً

في الديانة الزرادشتية يبلغ المعتقد الألوهي كمال رؤيته للعلاقة بين الله والعالم، ويظهر مفهوم التاريخ الدينامي لأول مرة في تاريخ الدين مكتملاً وناجزاً. فهنا يقوم الوجود بأسره، وجود الله ووجود ما سواه والعلاقة بينهما، على ثلاثة مفاهيم أساسية مترابطة هي: الأخلاق - الحرية والمسؤولية. ولأول مرة في تاريخ الدين يظهر مفهوم متسق ومتكامل عن "الإنسانية"، وعن دورها الإيجابي والفعال في خطة الخلق وضرورة التاريخ ومصير الكون والحياة. فالإنسان لم يعد عبداً للآلهة ولا أداة في يد القدر، بل كائن حر ومسؤول. وهذه الحرية والمسؤولية لا تنسحب على مصيره الفردي أو الجمعي فقط، بل تتسع لتشمل الكون بأسره وتتحكم بمآل التاريخ.

في البدء، لم يكن سوى الله، الذي يدعو زرادشت أهورا مزدا، وجود كمال وتام، ألوهة قائمة بذاتها مكثفة بنفسها غنية عن ما عداها. ثم إن هذه الألوهة اختارت الخروج من كمونها والظهور فيما سواها، فصدر عنها روحان توأمان هما سبينتا ماينو وأنجرا ماينو. وقد وهبهما الله منذ البداية أهم خصيصة تميزهما عن مصدرهما وتجعل منهما كيانيين مستقلين، وهي خصيصة الحرية الكاملة. ومنذ البداية أيضاً استحدث

هذان الروحان حريتهما في الاختيار، واختار لأول الخير، ومن هنا جاء اسمه سبينتا مانيو أي الروح المقدس، واختار الثاني الشر. ومن هنا جاء اسمه أنجرا مانيو أي الروح الخبيث. وبذلك تحددت القوتان الكونيتان لتتدور حولهما الوجود المادي والروحاني المقبل، وجرى زرع المبدأ الخلقى في أصل الوجود ومبثته. فكل ما في الوجود الجديد حر وأخلاقي في آن معاً.

بعد الخيار الأخلاقي للتوأمين. كان لا بد من تعارضهما وتصادمهما دخولهما في صراع. وبما أن التوأمين يتمتعان بالطبيعة الإلهية التي لأهورا مزدا، وبما أنه قد وهبها أيضاً ما له من حرية، فقد قرر عدم التناقض مع نفسه، والسير بخطته التي تقوم على الحرية إلى آخرها. هما عمد الله بمشاركة الروح المقدس سبينتا مانيو إلى إظهار ستة كائنات قدسية إلى الوجود تدعى بالأميشا سبينتا، أي المقدسون الخالدون، يستعين بها على مقاومة الروح الخبيث أنجرا مانيو، فشكلت بطانته الخاصة التي تحيط به على الدوام وتعكس مجده. وقد شارك هؤلاء الخالق في ما تلى أعمال الخلق والتكوين، وصاروا حافظين لخلق الله ووسطاء بينه وبين العالم. ثم إن هؤلاء قد أظهروا إلى الوجود عدداً من الكائنات القدسية الطيبة المدعوة بالأهورا. وراح الجميع يكافح الشر كل في مجاله. وبالمقابل فإن أنجرا مانيو قد استنهض عدداً من القوى الروحانية المندعوة بالديفا ثم عمل على ضلالتهم فاحازوا إلى جانبه وتحفز الجميع للانقضاض على خلق الله القادم.

فوق الروحين المتنافسين، وفوق فريق الأهورا وفريق الديفا يسمو أهورا مزدا في عليائه متجاوزاً ثنائيات الخلق. غير أن سمو أهورا مزدا فوق الثنائيات لم يكن يعني اتخاذه موقفاً سلبياً مما يجري. فبعد أن تأسس الشر على المستوى الروحاني، عرف الله بواسطة علمه الذي يطال البدايات والنهايات، أن القضاء على عناصر الشر دون الإحلال بمبدأ الحرية، لن يكون متيسراً إلا بخلق العالم المادي الذي سيكون المنسرح المناسب لصراع طويل ينتهي بمحق الشيطان أنجرا مانيو وأعوانه. فلسوف يعتمد الشيطان إلى مهاجمة العالم بكل قواه لأنه خلق حسن وطيب، ولكن عدوانه سيؤول إلى خسران في نهاية الزمن ويحسم الصراع لصالح الخير، ويتم تخليص الكون إلى الأبد من شوائب الشر وإعادة كونه حسناً وطيباً إلى الأبد. وهكذا شرع أهورا مزدا بحقق

الكون على ستة مراحل، وكان الإنسان آخر ما خلق الله في اليوم السادس. ومع خلق الإنسان ينطلق التاريخ.

يسمى التاريخ عبر ثلاث مراحل. المرحلة الأولى هي مرحلة الخلق الطيب الحسن الكامل. المرحلة الثانية هي مرحلة امتزاج الخير والشر في نسيج العالم عقب هجوم أنجرا ماينو عليه وتلوينه. المرحلة الثالثة هي مرحلة الفصل بين الخير والشر ودحر الشيطان ورهطه، والارتقاء بالعالم نحو المستوى الواحد والجليل الذي ينتظره في نهاية التاريخ. خلال المرحلة الثانية الحاسمة من التاريخ، يقف الإنسان على قدم المساواة مع الأُمُيشا سبيتا وبقية الكائنات الروحانية الأخرى في مسؤوليته عن مكافحة الشر في العالم، ويكون دوره حاسماً في الوصول بالتاريخ إلى نهايته المرتقبة. فالإنسان هو أنبل خلق الله والأقدر على مكافحة الشر، لأنه يعيش في العالم المادي الذي تحمده الشيطان مسرحاً لمقاومة خلق الله وإفساده، ولأنه صار في ثورة الصراع الكوني وعرضة دائسة للغواية الناجمة عن سلطة الشيطان على العالم ومخلوقاته. وأما سلاح الإنسان في المعركة فوعيه وحرته وخياره الأخلاقي. ويتجلى الخيار الأخلاقي من الناحية العملية في عناية الإنسان بأخيه الإنسان، وبقية الكائنات الحية لأهم جميعاً صفة الخالق الواحد. كما أن عليه أن يرعى جسده وروحه في آن معاً. وتأتي رعاية الجسد من اتباع قواعد النظافة والطهارة والصحة العامة، والاعتدال في الطعام والشراب وتجنب الإفراط في كل شيء، وأما رعاية الروح فتأتي من اتباع النظام الأخلاقي الذي اختطه زرادشت، وأداء فروض العبادة لله وحده. من هذا المنظور تتخذ الإنسانية مكان المركز من خلق الله. وهي في سعيها نحو خلاصها إنما تخلص العالم بأسره.

في المرحلة الأخيرة من التاريخ، سوف يظهر المنخلص المنتظر المدعو ساو شيه، وهو الذي سيقود المعركة الفاصلة الأخيرة ضد الشيطان ويقضي عليه. ومع القصاص على الشيطان يتم تدمير العالم القديم الملوث بعناصر الشر وتجديده بطريقة ما تكون إلى خلق جديد. ثم تُفتح القبور وتلفظ الأرض ما أُنحمت به من عظام عبر الزمن. فتسقط الأرواح من الرزخ، مكان إقامتها المؤقت. لتتحد مع أجسادها وتأتي إلى يوم الحساب الأخير الذي يفصل بين الأخيار والأشرار. فأما الأشرار فيحرقهم تيار ناري ويمحو عن الأرض أثرهم بعد عذاب أليم، وأما الأخيار فيعبرون الصراط المستقيم إلى العالم

الجديد، ويعيشون حالدين في جنة أرضية. هذا يتوقف التاريخ وتدخل الإنسانية الجديدة في زمن مفتوح على الأبدية.

نتيجة ومدخل

لاهوت التاريخ وفكرة الشيطان

لقد واجه الإنسان منذ فجر وعيه نوعان من الشرور. الأول شرور طبيعانية، والثاني شرور أخلاقية اجتماعية. فالشرور الطبيعية هي لتروير خصمنة في صلب صمورة عمليات الكون والطبيعة والبيولوجيا، وذلك مثل الزلازل والأعاصير والفيضانات والحرائق، ومثل الألم والمرض والشيخوخة وموت. وأما الشرور الأخلاقية فهي الشرور الناجمة عن ممارسة الإرادة الإنسانية لدى الكائنات العاقلة، عندما تخرج عن القواعد المتعارف عليها للتعامل بين أفراد الجماعة الواحدة، وذلك مثل السرقة والاعتصاب والتسلط والظلم. ورغم أن الإنسان لم يربط في البداية بين هذين النوعين من الشرور، ولم يصورها ناجمة عن مصدر واحد، إلا أنه قد عكس معانيته للشر الأخلاقي باعتباره فعلاً إرادياً، على الطبيعة، ورأى في عملياتها فعلاً تمارسه كائنات ما وراءية تمثلت في أرواح خبيثة وأرواح خيرة. ثم تحولت هذه الأرواح وارثت تدريجياً لتصير آلهة^(١). فالنظام المستقر المتوازن على المستوى الطبيعي والنيولوجي تدعّمه آلهة معينة، والخروج على هذا النظام وتهديده ممارسه آلهة أخرى. وهذا ما قاده إلى تطوير نوعين من الطقوس، الأول يهدف إلى طلب عون الآلهة الخيرة، والثاني يهدف إلى انقاء أذى الآلهة الشريرة. أما الشر الأخلاقي فقد بقي شأنه اجتماعياً لا يتصل بتلك القوى الماورائية. فالذي يسرق أو يظلم أو يعتدي ليس مدفوعاً من قبل إله شرير، والذي ينصف ويعين ويرأف ليس أيضاً مدفوعاً من قبل إله خير. وتعبير آخر فإن الثنائية أو القطبية الطبيعية هي لم تتسع لتشمل العلاقات الاجتماعية، وبقي الإنسان ينظر إلى السلوك في صفته الخيرة أو الشريرة، ويميزه إلى فضائل وذنابل من

١- لقد عالجنا بالتفصيل كيفية نشوء فكرة الآلهة عن فكرة أرواح الأسلاف في مؤلفي: ديس الإنسان. راجع فصل: أصل فكرة الآلهة، من الباب الرابع.

غير أن يربطه بشوية أخلاقية ما وراثية. وهكذا تُركت المجتمعات الإنسانية لتدبير شؤونها الأخلاقية بنفسها دون وصاية من قوة قدسية ما، وهذا ما قامت به على أحسن وجه. ذلك إن إحجام الآلهة عن التدخل في المسائل الأخلاقية، لم يكن معادلاً بأية حال من الأحوال للفوضى الأخلاقية في المجتمع، لأن الإنسان كان قادراً منذ بدايات التجمع الإنساني على سن قوانينه ووضع لوائحه الأخلاقية التي لم يكن بدورها للتجمع الإنساني والحياة المشتركة وجود البتة.

وقد تم ربط الأخلاق بالدين تدريجياً، عندما أخذ الفكر الإنساني يرى إلى الكون باعتباره وحدة مترابطة متكاملة، يسودها نظام دقيق يجمع الأجزاء إلى بعضها في توازن محكم، ويرى وراء هذا الكون قدرة إلهية واحدة غير مجزأة. وتجلت هذه الرؤية بأوضح أشكالها مع ظهور المعتقد التوحيدي الذي لا يرى في الوجود سوى الله من جهة والعالم من جهة أخرى، ويعزو إلى الله كل الكمالات التي تنتهي جميعاً إلى كمال الخير. فهو الخير المحض الذي يتجلى على كل مستوى طبيعاني وبيولوجي واجتماعي. وما أن وصل الفكر الديني إلى هذه النقطة، حتى تحول بشكل أوتوماتيكي إلى مفهوم الشيطان الكوني الذي يمثل الشر على جميع المستويات، ويناط به كل حلل في نظام الطبيعة ونظام المجتمع وبية النفوس الواعية. ولقد أدى ظهور فكرة الشيطان في المعتقد الديني إلى تكوين المفهوم الدينامي للتاريخ. فالشيطان هو الخلل، والخس يبنى تصحيحه دون الإحلال مبدئاً الخربة الذي قاد إلى ظهوره. ويتم التصحيح عبر عملية تاريخية تقوم على صراع الخير والشر، وتنتهي بانتصار الأول وهزيمة الثاني. ومع زوال الشيطان ينتهي التاريخ لأنه لا وجود لتاريخ بلا صراع وبلا تناقض وأصداد.

سوف نكرس ما تبقى من هذا البحث لدراسة مادح التاريخ الدينامي الرئيسية. وبما أن فكرة الشيطان، كمبدأ شمولي، قد بدأت شكلها الحيني في الديانة المصرية القديمة، من دون أن تصل بها إلى غايتها وتضعها في إطار إيديولوجي متنسق ومتكامل، فإن أول ما سنبه به في فصلنا القادم هو تلمس بدور فكرة الشيطان والثوية الكونية في مصر القديمة.

مراجع المادة المعلوماتية عن الهندوسية:

- 1- R.C Zaehner, Hinduism, Oxford 1984.
- 2- H. Zimmer, Myths and Symbols in Indian Art and Civilization, Princeton 1974.
- 3- J. B. Noss, Man's Religions, Macmillan, London. 1969, ch.2
- ٤- البر شويتزر: فكر الهند. ترجمه عن الفرنسية يوسف شلب الشام، دار طلاس ١٩٩٤.

مراجع الزرادشتية:

انظرها في آخر الفصل المخصص للزرادشتية لاحقاً.

فكرة الشيطان في الديانة المصرية وبذور الثنوية الكونية

يسود الاعتقاد لدى الباحثين في الديانة المصرية القديمة، بأن الإله سيت هو أقدم الآلهة المصرية المعروفة لنا من الفترات التاريخية. فلقد كان هذا الإله هو المعبود الرئيسي للسكان الأصليين قبل استهلال عصر الأسرات الأولى عند أعتاب الألف الثالث قبل الميلاد؛ وهو العصر الذي ترافق مع حلول أقوام جديدة وفدت إلى مصر من سورية حاملة معها معتقدات دينية جديدة، ووضعت أسس أول مملكة موحدة لمصر القديمة. ولقد تسربت هذه الأقوام إلى منطقة الدلتا في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، وأخذت تسط سلطتها تدريجياً باتجاه مصر العليا، مخضعة السكان الأصليين وصولاً إلى تلال النيل الأول في أقصى الشمال. ويبدو أن هذا التوسع قد تم في البداية تحت قيادات قبلية متفرقة، ثم انتهى بتشكيل مملكتين واحدة جنوبية في مصر السفلى وأخرى شمالية في مصر العليا. ومع مطلع الألف الثالث قبل الميلاد قام ملئك مصر العليا المدعو نارمر (أو مينا، وفق المؤرخ المصري المتأخر مانيتو)، بتوحيد الإقليمين وأسس أول أسرة حاكمة في التاريخ المصري.

وقد ترافق بسط السلطة السياسية للجماعات الجديدة مع نشر معتقداتها الدينية، وراح إلههم الأعلى المدعو حوروس^(١) ينافس إله السكان الأصليين المدعو سيت في كل مكان. وبذلك تم التأسيس لثنائية سيت - حوروس التي استمرت فاعلة في الديانة المصرية حتى نهايات التاريخ المصري. لا نستطيع رسم معالم واضحة لشخصية الإنس

(١) والاسم في بعض اللغات السامية يعني الصقر. وهو متداول إلى الآن بصيغة: الحر.

سيت في طوره القديم السابق لعصر السلالات قبل انتشار عبادة الاله حورس، ولكن نصوص الأهرام (وهي أقدم النصوص الدينية المصرية، وترجع بتاريخها إلى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد) تقدم لنا الصورة اللاحقة له بعد أن تم إنزاله إلى المرتبة الثانية، فصار مجسداً لكل القوى السالبة في الكون وفي حياة الطبيعة، في مقابل حوروس الذي صار مجسداً لكل القوى الموجبة. وتتجلى هذه الصورة الدثيرة للسلب والإيجاب في شأته النور والظلام، والنظام والفوضى، وما يضوي تحتها من ثنائيات. فالإله حوروس هو سيد السماء، والشمس التي تهب الحياة وتعكس بحركتها الثابتة نظام الكون الدقيق. أما الإله سيت فهو العدو الأول للشمس وللضوء بجميع أشكاله. فهو الذي يحرف مسار الشمس باتجاه الجنوب عقب الانقلاب الصيفي، ويسرق من نور القرص فتقصر ساعات النهار لحساب ساعات الليل. وهو الذي يسرق من نور القمر عقب اكتماله بداراً فيتناقص ليلة بعد ليلة حتى ينطفئ في آخر الشهر القمري، ولكن الإله ثوت يعمل على إشعاله مجدداً في أول أيام الشهر التالي. وفي هيئة الوحش الخرافي آيب، ينقض سيت على قرص الشمس في نهاية رحلته الليلية عبر المسار السفلي، ليطفئه ويجمعه من الشروق مجدداً، مستخدماً أسلحة الظلام والخس والعوام والضباب، ولكن حوروس (أورع في الأساطير اللاحقة) يتصدى له متسلحاً بالحر اللاهب وبسهام الضوء النافذة، وبعد صراع مرير يقع آيب صريعاً وتتعرض أشلأوه، ولكنه بعد إفلات الشمس من قبضته إلى يوم آخر، يعود إلى جمع أعضائه بقوة الذاتية ويجدد نفسه استعداداً للصراع التالي.

والإله سيت سيد العماء والشواش الذي يعارض نظام الطبيعة ويعمل على نسو الفوضى. ومملكته تقع في الجهة الشمالية من السماء، وهناك يقيم في كوكبة السدب الأكبر. وكانت جهة الشمال عند المصريين، وخصوصاً سكان مصر العليا، هي إقيم الظلام والبرد والمطر والضباب والبروق والرعود، ومنه تأتي العواصف والأعاصير. وجميع هذه الظواهر الطبيعية (التي لم تكن تتصل بالخصب نظراً لاعتماد الزراعة في وادي النيل على الفيض السوي للنهر) كانت تحت سيطرة الإله سيت، وبها يحدد استقرار الطبيعة. ولكن الإله ريريت، التي تمثلها الرسوم المصرية على هيئة خرتيت يذراعي امرأة، كانت موكلة بتفريد هذه القوى الظلامية بالسلاسل ومنعها من السيادة على الأرض والسماء، كما كانت تفسح طريقاً في الأعالي لمسار الشمس التي قرنتها

النصوص المبكرة بإله حوروس. وإلى جانب ريريت هنالك أولاد حوروس الأربعة الموكلون أيضاً بكف أذى سيت ولجم قواه المؤذية، وهم يرافقونه على الدوام ويظهرون على شكل أربعة نجوم تبدو خلف نجم الزاوية في كوكبه الدب الأكبر، وهو النجم المدعو بركبة الإله سيت.

لا يوجد اتفاق بين الباحثين حول المعنى الدقيق للاسم سيت. ولكن البعض يرى اعتماداً على المقارنة مع اللغة القبطية أن الكلمة تتضمن معنى الأسفل، مثلما تتضمن كلمة حوروس معنى الأعالي. فحوروس هو ساكن الأعالي وسيت هو ساكن الأسفل. كما تساعدنا الإشارة التي تسبق كلمة سيت في الكتابة الهيروغليفية^(٢)، على تبيين خصائص وصلاحيات أخرى للإله. فالإشارة هنا هي نفس الإشارة التي تكتب بها كلمة الصخرة. وفي هذا دلالة غير مباشرة على ارتباط سيت بالأراضي الصخرية الجرداء وبالصحارى، القاحلة وبالواري والجفاف. وهذا يخبرنا المؤرخ المصري ميانيو بأن أبة جمولة حجرية كانت تدعى عظام الإله سيت. ورغم أن النصوص المصرية تطلق على سيت لقب القدير والمردوج القوة والمحارب الجليل، إلا أن المؤرخ الإغريقي بلوتارح يخبرنا في نصه المعروف عن إيريس وأوزوريس أن الأسماء التي يطبقها المصريون على هذا الإله تنضوي جميعها على معاني القوة السالبة والمعطشة والكابحة والمحيرة.

فنحن عما أمام قطبية كونية لا تحمل أية دلالة قيمية. لقد تأمل المصريون انكون وحياة الطبيعة من حولهم، ورأوا فيها قوتين ساريتين متعارضتين ومتعاونتين في الوقت نفسه، ورأوا في جميع الظواهر نتائجاً لتداخل هاتين القوتين وفعلهما المشترك. من هنا لا عجب إذاً رأينا أن الأعمال الفنية في مطلع عصر الأسرات تمثل الإلهين سيت وحوروس في جسد واحد يحمل رأسين واحد لحوروس وواحد لسيت، أو واحد لصقر وهو رمز حوروس وواحد لحمار وهو رمز الإله سيت. ولا عجب أيضاً إذا قرأنا في نصوص الأهرام أنهما يدعيان بالأخوين وبالتالي أمين أيضاً، رغم العداء الأبدي بينهما والصراع الدائم الذي لا يصل إلى نتيجة حاسمة، مثلما لا يصل التناقض بين القوتين

(٢) في الهيروغليفية المصرية، وفي المسماة المقطعية الرابدينية، يجري استعمال إشارات معينة قبل بعض الكلمات ذات اللفظ المشترك والمعنى المختلف، وذلك للتمييز بينها.

الكونيتين إلى إلغاء واحدة وسيادة الأخرى؛ لأنه لا غنى عن صراعهما وعن تعاونهما من أجل صيرورة العمليات الجارية على مستوى الكون ومستوى الحياة الطبيعية.

وبما أن سيادة إحدى القوتين الكونيتين على الأخرى سوف يؤدي إلى اختلال نظام الكون، فإن الآلهة كانت تتدخل في صراع سيت وحوروس كلما علا أحدهما على حصمه وأوشك أن يجهز عليه. ففي أكثر من نص نجد أن الإله ثوت يهبُ للتمثل بين الخصمين عند وقوع أحدهما تحت وطأة الآخر، وهذا ما أعطاه لقب قاضي الإلهين المتخاصمين. وفي نصوص أخرى نجد الآلهة إيزيس هرع لنجدة سيت الذي كسبه حوروس بالأصفاد وهمّ بالإجهاز عليه، فتفك قيوده وتطلق سراحه. كما أن الرسوم الجدارية المصرية ورسوم البرديات ملأى بمشاهد الصراع ومشاهد تدخل الآلهة الأخرى للفصل بين الخصمين أو لعون الخاسر فيهما. وإلى جانب تمثيلها لجانب للتناقض في علاقة الإلهين التوأمين، فإن الرسوم والمنحوتات المصرية تعتمد إلى إظهار الوجه التحتي الآخر للعلاقة وهو وجه التعاون. ففي نحت بارز من مدينة طيبة نجسد سيت وحوروس يقفان عن يمين ويسار الفرعون سيتي الأول ويصبان على رأسه قرآن ماء الحياة. وفي عمل فني آخر نجدهما يضعان معاً تاج المملكة الموحدة على رأس الفرعون رمسيس الثاني، وتحت الشكل نقش هيروغليفي يقول على لسان سيت: "إني أثبت التاج على رأسك ... وإني أهبك الحياة والقوة والصحة..". ونقش آخر يفسد على لسان حوروس: "إني أهبك حياة تعادل حياة الإله رع، وسنوات بعدد سنوات الإله طيم". وفي عمل فني ثالث نجد الإلهين بصحبة الفرعون تحوتمس الثالث، وكل منهما يعلمه كيفية استخدام أحد الأسلحة.

اختص الإله حوروس في الأعمال الفنية برمز حيواني واحد هو الصقر. بينما تعددت رموز الإله سيت. فمن رموز سيت الحمار، ومنها الأفعى التي تشير إلى ست في شكل الوحش الكوبي آبيب، ومنها الخنزير البري، والعديد من المفترسات المائية مثل التمساح. كما ساد الاعتقاد لدى المصريين بأن قوة الإله المدمرة تحمل في بعض الحيوانات الشرسة مثل الكلاب والقطط البرية والسمور وما إليها. وجرت العادة على تقديم القرابين من هذه الحيوانات، وذلك في الأوقات التي تبلغ فيها قوة الإله سيت ذروتها، مثل نهاية الشهر القمري عندما يكون الإله قد ابتلع نور القمر بأكمله، ومتبني

الانقلاب الشتوي عندما يكون قد ابتلع ما استطاع من نور الشمس وقصّر الأمد المضيق لصالح الليالي المظلمة. في مثل هذه المناسبات، وعند ذبح الحيوانات الممتدة لقوى سبت، يخاطبها القائمون على الطقس بقولهم: سوف نعمل على تقطيعكم وعزيق أعضائكم. هذه الطريقة انتصر الإله رع على جميع أعدائه، هذه الطريقة انتصر حيرو (-حوروس) الإله العظيم وسيد السماء على جميع أعدائه.

حتى الآن، لا يبدو لنا أن ثنائية سبت - حوروس قد اتخذت مضموناً ثوبياً، سواء بالمعنى الجذري أم بالمعنى الأخلاقي. ولم يضع الإله سبت بعد قنّاع الشيطان الكوني كمحسد لمبدأ الشر؛ بل هو القوة الكونية السالبة معبراً عنها بلغة الرمز الأسطوري. وليس ما يعزى إليه من سلوك "شرير" إلا ضرورة من ضرورات التعبير الميثولوجي، الذي يترجم حركة الظواهر الكونية والطبيعية إلى إرادات ما وراءية دُعلة في العالم المتبدي. فإذا ما جاز لنا التحدث عن "شر" متعلق بهذه الشخصية الإلهية الكبرى، فإنه "الشر" الطبيعي المقابل "للخير" الطبيعي، والمُرددين كلاهما من أية قيمة أخلاقية. ويتبع ذلك بالطبع انعدام الصلة بين "خير" و "شر" الإلهين، وبين مسألة الخير والشر على المستوى الاجتماعي. فالإله سبت "شرير" ولكنه ليس مبدأً مجرداً للشر، وليس صانعاً له في التاريخ وفي النفس الإنسانية والمجتمع. والإله حوروس "خير" ولكنه لا يدخل في تاريخ ولا يحض على فضائل الأعمال أو يستنّ شريعة أخلاقية. فالأخلاق الاجتماعية عند هذه المرحلة من تطور الفكر الديني لدى المجتمعات القديمة؛ لم تكن (كما أسلفنا سابقاً) شأنًا ديبياً ناجماً عن جدلية العلاقة مع عالم الآلهة، بل شأنًا ديبياً ناجماً عن جدلية الحياة الاجتماعية ومتطلباتها. كما يترتب على غياب الصلة بين الأخلاق والدين فقدان الصلة بين الآخروية^(١) والأخلاق، وخصوصاً التصورات الآخروية المتعلقة بمصير الروح وحياة ما بعد الموت. فعند هذه المرحلة، لم يكن حديد الفردي إلا وقفاً على الفرعون الذي هو ابن الإله حوروس ومثله على الأرض. كما أن خلود الفرعون نفسه لم يكن رهناً بسلوكه الأخلاقي، بل بسلسلة معقدة من الطقوس والصناعات والتعاويذ السحرية، وبإعداد مقبرة باهظة التكاليف ترقده لأخبر.

^(١) الآخروية: هي التصورات الذبّية المتعلقة بمصير الكون والروح، وغاية الرمز الديوي. وقد قمت شحنت لتعبر من كلمة الآخرة. ومصطلح فلسفي يمكن القول بأن الآخروية هي ميثافيزيقا النهايات.

على أن هذه القطبية الطبيعية قد تحولت تدريجياً إلى نوع من الثنوية الأخلاقية. وأخذت فكرة الشيطان الكوي تتضح بشكلها الحيثي مع ارتباط الأخلاق بالدين، وارتباط الأخروية بالأخلاق. ولسوف نتبع فيما يلي مسار هذا التحول في تاريخ الديانة المصرية، وبواعثه السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

خلال النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، كانت الحضارة المصرية تنسلخ عن العصر النيوليتي وتدخل العصر المديني^(١)، مقتفية بذلك إثر حضارة وادي الرافدين الجنوبي، وهي أول حضارة مدنية في تاريخ الإنسان. فخلال هذه الفترة أخذت القرى النيوليتية التي لم تكن تخضع لسلطة مركزية، بالتجمع في وحدات سياسية أكبر، وذلك من أجل تعزيز وسائل الدفاع، والإدارة الأفضل لأموال الزراعة والري والأمن. وكان لكل وحدة من هذه الوحدات ما يشبه العاصمة، كما كان لها حاكمها القبلي وإلهها المحلي. ثم التقت هذه الوحدات السياسية في وحدات أكبر وكونت الأقاليم المصرية الرئيسية المعروفة لنا من الفترات التاريخية، وعددها اثنان وأربعون إقليماً. وأخيراً أدت المركزية المتنامية إلى تكوين مملكتين مستقلتين واحدة في الجنوب وهي مملكة مصر العليا وأخرى في الشمال وهي مملكة مصر السفلى.

حوالي عام ٣١٠٠ ق.م، قام ملك مصر العليا المدعو نارمر بضم مصر السفلى بقوة السلاح، مؤسساً بذلك لأول مملكة كبرى موحدة في تاريخ وادي النيل وفي تاريخ البشرية طراً. فلقد سبقت مملكة مصر الموحدة مملكة وادي الرافدين الموحدة بحوالي ثمانية قرون، وكانت بمثابة النموذج الأسبق والأول لكل الممالك الكبرى اللاحقة. نقل نارمر عاصمته من مدينة زيس بمصر العليا إلى مدينة ممفيس بمصر السفلى، التي تقع إلى الجنوب من موقع القاهرة الحالي بحوالي مئة كيلومتر. ومن هناك عمل هو وخلفاؤه من ملوك الأسرة الأولى على تكوين ملامح البنية السياسية الجديدة لوادي النيل، وهي البنية التي احتوت وطورت البنية القبلية السابقة، وصهرتها تدريجياً في مجتمع مدني موحد. يدعو المؤرخون هذه الفترة التأسيسية بمصر الأسرات الأولى. وقد امتد هذا العصر من عام ٣١٠٠ إلى حوالي عام ٢٧٠٠ ق.م، وحكمت خلاله

(١) العصر النيوليتي هو العصر الحجري الحديث الذي يميز باكتشاف الزراعة وبناء المستوطنات الزراعية الأولى وتدجين الماشية. أما العصر المديني فهو عصر المدن الأولى واستخدام الكتابة.

أسرتان من الملوك حكماً استبدادياً مطلقاً يقوم على مفهوم الحق الإلهي. فقد كان الملك تجسيدا للإله الأعلى حوروس وتجلياً بشرياً للصقر السماوي، وكان الملك يُدعى أيضاً بالاسم حوروس خلال حياته، ثم يسلم الاسم لولي عهده عند مماته.

كانت الكتابة الهيروغليفية في مرحلة تجارها الأولى خلال هذا العصر. ونحن لا نملك نصوصاً كافية تساعدنا على رسم صورة واضحة للحياة والمعتقدات الدينية من تلك الفترة. ولذا فإننا مضطرون إلى الاعتماد على النصوص اللاحقة التي تحتوي في بعضها على إشارات واضحة إلى المعتقدات والطقوس السالفة، وإلى الاعتماد على مكتشفات علم الآثار في المدافن العائدة لملوك ذلك العصر ونبلائه وعامته. ولعل أول ما يواجهنا في بحثنا هذا، هو سيادة معتقد ديني عميق التأثير في المجتمع المصري منذ عصر ما قبل الأسرات، يتعلق بحياة ما بعد الموت وبأن تلك الحياة تشبه إلى حد بعيد الحياة الأولى. فلقد احتوت قبور المصريين في المستويات الأثرية العائدة إلى الألف الرابع قبل الميلاد، سواء في الجنوب أو في الشمال، على هدايا جنائزية تتضمن أدوات ووسائل زينة وطعام، وما إليها.

كانت مقابر عصر ما قبل الأسرات تقع بعيداً عن المناطق السكنية، وكان تدفن الواحد عبارة عن حفرة بيضاوية الشكل بعمق بصعة أقدام، يوضع فيها الميت في وضعية الانطواء بحيث يتجه رأسه نحو الغرب، وهي الجهة التي كان المصريون في العصور التاريخية اللاحقة يعتقدون بأنها مقر عالم الأرواح. وفوق القبر ترتفع تلة صغيرة من التراب أو الحجارة. وقد احتوت هذه المدافن، إلى جانب الهدايا الجنائزية المؤلفة من أدوات العمل وأوعية الطعام ووسائل الزينة وما إليها، على تماثيل سحرية على شكل حيوانات، من بينها التمساح والغزال والخرتيت والصقر. كما احتوت على دمي طينية لأشكال أثنوية تمثل على الأغلب الإله الأم للعصر الحجري الحديث. وقد تم تمثيل هذه الإلهة أيضاً بطريقة الخمر على الأوعية الفخارية، حيث تبدو في هيئة امرأة لها قرون النمر ومعها ابنها وحبيبها الذي صار فيما بعد إلها للخصب. كما قدمت لها أوعية فخارية أخرى مشاهد تمثل طقس الزواج المقدس بين هذين الإلهين، ومشاهد راقصة كانت على ما يبدو جزءاً من هذا الطقس المتجذر في منطقة الشرق القديم، والذي أعطتنا عنه اللقى الأثرية في وادي الرافدين الجنوبي أمثلة مشابة. ومن الملفت للنظر وجود بعض

المدافن الواسعة مخصصة لدفن نساء من ذوات المكانة الاجتماعية المميزة، تحتوي على هدايا جنازية متميزة سواء من حيث النوع أم من حيث الكم. الأمر الذي يدل على المكانة العالية للمرأة في ذلك العصر، وتضلعها عنهم كهوتية ذات صلة بعبادة الأم الكبرى.

خلال الفترة الانتقالية التي قادت إلى تكوين حضارة المدن في وادي النيل والتي ترافقت مع دخول جماعات آسيوية سيطرت على منطقة الدلتا ومنها على كامن مصر السفلى فاليها، حصلت تعبيرات عميقة في المعتقدات الدينية وفي بانثيون الآلهة. فقد تربع حوروس إله الشرائع الآسيوية الحاكمة على قمة البانثيون، يليه الإله سيت المعبود القديم للسكان الأصليين، والذي نرجح أنه هو نفسه الإله الابن الذي ظهر إلى جانب الأم المصرية الكبرى للعصر السيوليتي. ومرة أخرى فإن المدافن هي التي تعطينا الصورة العامة عن معتقدات وطقوس عصر السلالات الأولى، فيما بين ٣١٠٠ و ٢٧٠٠ ق.م.

خلال عصر السلالات الأولى نستطيع تمييز طريقتين في الدفن. الطريقة الأولى وهي المتبعة من قبل السكان الأصليين، وتُظهر استمرارية لعادات الدفن القديمة التي كانت سائدة في عصر ما قبل الأسرات مع بعض التعديلات الطفيفة. أما الطريقة الثانية فهي التي اتبعتها على ما يبدو القادمون الجدد، والتي أخذت الشرائع العليا من السكان الأصليين بتبنها تدريجياً خصوصاً في المناطق الحضرية والمدن الكبرى. فلقب تحول المدفن من حفرة صغيرة يعلوها مرتفع ضئيل من التراب أو الحجارة، إلى بناء مصمم على طريقة بيوت الأحياء، ويحتوي على عدد من الغرف أو الأجنحة، وذلك تبعاً لمكانة صاحب المدفن. وبما أن هذا النوع من المدافن كان يرتفع في جرنه الأعلى قليلاً عن سطح الأرض، فقد أطلق عليه علماء الآثار اسم المصطبة، وهي التسمية العربية المتداولة لأية بنية ترتفع قليلاً عن الأرض. وقد ميز الآثاريون ثلاثة أنواع من هذه المدافن المصطبية، الأول خاص بالأسرة المالكة والثاني بالحاشية والبلاء والثالث بعامة الناس.

خلال حكم الأسرة الأولى، كانت المدافن الملكية عبارة عن بنية محفورة في الأرض الصخرية الصحراوية، ومقسمة من الداخل إلى عدد من الغرف بواسطة جدران من الحجر. أكبر هذه الغرف مخصص لجثمان صاحب المدفن، أما بقية الغرف

مهدايا الجنائزية المرافقة له. وفوق هذه البنية ترتفع بنية أخرى على شكل مستطيل مستطيلة تشبه بيوت تلك الفترة، ومزينة من الخارج بديكورات مماثل ما كان للقصور، ويحيط بالبهاء سور. وقد يوضع قرب السور قارب خشبي ينتظر الميــم في غرفة خاصة لكي يقله في رحلته إلى العالم الآخر. خلال حكم الأسرة الثانية جرى توسيع وتطوير المقابر المصطبية لتعدو أشبه بالقصر الملكي الحقيقي. فهناك قاعة استقبال، وغرف للضيوف، وعرفة للمعيشة، وجناح للحريم، وحمامات ومراحيض، إضافة إلى غرفة النوم الرئيسية حيث يضطجع سيد القصر الملك المتوفى.

وتتسع بعض هذه المقابر الملكية لتستوعب خارج حدود السور عدداً من المقابر التي تنتظم على طول أضلاع المصطبة الأربعة، وتحتوي على جثث لرجال ونساء ممن حاشية الملك، وخدمه، وحرفييـه الذين اصطحبوا معهم أدوات عملهم. وبما أن الدلائل الأثرية تشير إلى تزامن دفن هؤلاء الأتباع مع دفن صاحب المقبرة الرئيسية، فإن النتيجة التي يمكن استخلاصها هي أن الملك قد اصطحبهم معه إلى العالم الآخر، لكي يتابعوا خدمته هناك مثلما كانوا يفعلون في الحياة الدنيا. ويبدو أن هؤلاء قد تناولوا السم قبل دفنهم ثم نقلوا بعدها إلى الأماكن المعدة لهم. وقد بلغ عدد الضحايا التي رافقت الملك رر، من الأسرة الأولى، رقماً يزيد عن الخمسمئة بين رجال ونساء. ولكن مع نهاية حكم الأسرة الأولى يبدأ طقس دفن الأتباع بالاضمحلال تدريجياً إلى أن يختفي تماماً مع نهاية حكم الأسرة الثانية وبداية ما يدعى عصر المملكة القديمة.

تسمح مقابر النبلاء على موالٍ المقابر الملكية من حيث التصميم العام، ولكنها كانت أصغر منها وأكثر تواضعاً. أما مقابر العامة فقد توسعت وتحولت من مجرد حفرة إلى غرفة صغيرة يوضع فيها المتوفى داخل تابوت خشبي، وتلبس جدرانها لداخلية بالآجر، بينما توزع الهدايا الجنائزية على أرضية العرفة. وبقيت مقابر فقراء عامة على ما كانت عليه في العصور السابقة.

تكشف عادات وطقوس الدفن هذه، عن اعتقاد المصريين بأن القوة الحيوية في جسد الإنسان تستمر بعد الموت، وتبقى على صلة بالجسد وبالعالم الأرضي بطريقة من هنا جاء اهتمامهم بجعل القبر أقرب ما يكون إلى بيت تسكنه الروح أو تعود به من وقت لآخر لتزود بالطعام، أو استخدام الأدوات وما إليها من الهدايا الجنائزية

المودعة فيه، والتي كانت تتفاوت في نوعيتها وكميتها حسب الوضع الاجتماعي للمتوفى. وبما أن هذه الهدايا الجنائزية كانت عرضة للنفاذ، وخصوصاً الطعام والشراب، فقد كان أهل المتوفى يعودونه على فترات منتظمة لوضع مزيد منها عند مدخل القبر، أو يدخلونها من فتحة خاصة معدة لهذا الغرض. وإضافة إلى ذلك كله فقد تم اللجوء إلى وسائل سحرية من شأنها تعويض ما ينفذ من طعام وشراب دون حاجة إلى مدد خارجي، ومن هذه الوسائل كتابة قائمة سحرية بأسماء الأطعمة على نصب حجري صغير، من شأنها تحويل الأطعمة المذكورة إلى غذاء حقيقي بمد صاحب القبر باحتياجاته، أو رسم صور بعض الماشية التي كان المصريون يعتمدون عليها في غذائهم.

ولكي تتعرف الروح على بيتها في كل مرة وتستخدم محتوياته، كان لابد من الحفاظ على الشكل الخارجي لجثمان صاحب المقبرة، بطريقة تجعله أقرب ما يكون إلى شكله في الحياة الأولى. وهذا ما دفع المصريين منذ مطلع عصر الأسرات إلى إجراء التجارب الأولى في هذا المجال. لقد كانت العوامل الطبيعية كفيلة في الماضي بحفظ جثث المتوفى الذين كانوا قبل عصر الأسرات يدفنون في حفر ترابية سطحية، لأن الجفاف وندرة المطر والتربة الرملية كانت تعمل على التجهيف السريع للأنسجة العضوية ومعها من التحلل، بحيث إن بعض جثث ذلك الزمن كانت عند اكتشافها في العصر الحديث تحتفظ بجزء لا بأس من الشعر والجلد المتصق على الهيكل العظمي. غير أن الانتقال إلى ساء المقابر المصطبية، ولجوء العامة إلى تلبيس جدران قبورهم بالآجر، قد أدى إلى عزل الجثة عن الرمل الحار الذي كان يمتص رطوبة الأنسجة، وبالتالي إلى تفسحها السريع. وهذا ما دفع إلى التفكير بوسائل اصطناعية تحافظ على ما يشبه الشكل الحي لصاحب القبر.

كانت أولى تقنيات التحنيط تهدف إلى الحفاظ على الشكل الخارجي للجثة قبل تحليلها، وذلك بلفها بطبقات من قماش الكتان الناعم المشبع بمحلول قابل للتصلب بعد الجفاف، فكان القماش المنل يلصق بإحكام فوق الجمجمة والوجه وبقية الأعضاء، حتى إذا جف منه المحلول صارت الجثة إلى ما يشبه التمثال الجصي. ولإضافة نسبة من الحيوية على الشكل، يجري بعد ذلك تلوين الشعر وملامح الوجه، وتحديد الخطوط

الخارجية للأعضاء، وبذلك يتم إنتاج نسخة خارجية مماثلة للحنة الآيلة إلى التفسخ تحت هذه القشرة الخارجية. ونظراً للوقت الذي تستغرقه هذه العملية وارتفاع تكاليفها، فقد كان استخدامها وفقاً على مدافن الأسرة المالكة وكبار النبلاء، والتي احتوت في بعض الأحيان على تمثال خشبي كامل للمتوفى، لتحل محل الصورة المحفوظة بالطريقة السابقة إذا تعرضت للقضاء بطريقة ما. أما التحنيط الحقيقي للحنة فلم تكتمل تقنياته إلى نحو نهايات المملكة القديمة في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد.

على أن الاعتقاد بحياة ما وراء القبر عند المصريين، في هذه الفترة المبكرة، لم يكن يعني أن جميع أرواح الناس سوف تخلد خلود الآلهة في عالم نوراني سماوي، أو في جنة لا ألم فيها ولا مرض ولا شقاء. لأن مثل هذا الخلود كان وفقاً على الفرعون وحده، باعتباره إلهاً وإنساناً في آن معاً، وعلى من يختاره الفرعون بنفسه لكي يخصه بخلود مماثل لخلوده. أما بقية شرائح الشعب فإن حياة ما بعد الموت بالنسبة إليها لم تكن إلا استمراراً شبحياً للحياة الأرضية يغنيها أو يفقرها مراعاة طقوس الدفن وعناية أهل الميت بروحه بعد الموت. وهذا ما نستدل عليه من مدافن الحقة التالية ووثائقها الأثرية والكتابية، وهي حقة المملكة القديمة التي امتدت من حوالي عام ٢٧٠٠ إلى حوالي عام ٢٢٠٠ ق.م، وكانت بمثابة دروة الحضارة المصرية والعصر الذهبي لها.

حققت المملكة القديمة منجزات في التكنولوجيا والعمارة والفنون لم يتم تجاوزها أو حتى مائلتها في الفترات اللاحقة. كما تم حلها تكوين عدد من المفاهيم والمعتقدات الدينية التي بقيت مؤثرة حتى نهاية التاريخ المصري. يتجلى التقدم التكنولوجي. والمفهوم المعماري والاستاتيكي، في أوضح تعبيرهما، بأهرامات الجيزة التي بناها فراعنة الأسرة الرابعة (٢٦٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م). فلقد أتاحت السلطة المطلقة لملوك تسخيرهم موارد البلاد وعمالقتها الفنية واليدوية من أجل تشييد مقابرهم، على شكل صروح جبارة مازالت باقية إلى يوم الناس هذا. وهذه الصروح لم تكن تتاح نسزوات فردية بقدر ما كانت نتاجاً لإيديولوجيا دينية سائدة في المجتمع، وراسحة في نفوس وعقول كل الشرائح الاجتماعية. فلقد قام المجتمع المصري على مفهوم الملوكية، وكان الملك بمثابة رمز الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية بكل فعاليتها. فهو ابن للإله حوروس (أورع بعد ذلك) من أم ملكية هي الزوجة الرئيسية للملك، حملت به

من أشعة الشمس العلوية لا من زوجها الشرعي. ونظراً لوضعه المتميز والاستثنائي هذا، فقد كان نسيجاً لوحده مستقلاً عن بقية أفراد البشر، ولكنه في الوقت نفسه كان في موقع يسمح له بالتوسط بين السماء والأرض وبين الله والبشر. لقد كان النقطة التي يتصل عندها الإلهي بالبشري، وكانت حياته ومماته أيضاً بمثابة المحور الذي تدور حوله حياة الجماعة بأكملها. كما كانت موارد المجتمع الاقتصادية وإمكاناته التكنولوجية والفنية موجهة نحو تأمين حياة الملوك على هذه الأرض وضمان رحلتهم الآمنة إلى العالم الآخر. من هنا يعتقد العديد من مؤرخي الحضارة المصرية بأن بناء الأهرام وبقية الصروح الدينية الضخمة قد تم بدوافع طوعية من قبل المواطنين، وأن الفرعون كان يجزيهم لقاء عملهم أجوراً عادلة خلال مواسم العطالة التي كانوا خلالها ينتظرون انحسار فيض النيل عن الأراضي الزراعية.

وفيما يتعلق بالمعتقدات الدينية للمملكة القديمة، فقد حل الإله رع تدريجياً محل الإله حوروس، وصار رئيساً للأنثيون المصري وأباً للآلهة جميعاً. ووفق لاهوت كهنة هينوبوليس (-أون)، اندمجة التي كانت مركز الحياة الدينية خلال عصر المملكة القديمة، كان رع أول من ظهر من لجة المياه الأزلية بقواه الذاتية، حالقاً نفسه بنفسه. وبعد أن أوجد لنفسه مكاناً يقف عليه فوق الماء، قام بتبديد الظلمة ولعماء بانور الذي صدر عنه. ثم أنجب رع شو إله الهواء، وتغنوت إلهة الرطوبة. ومن زواج شو وتغنوت ولدت السماء نوت والأرض حبيب. ومن زواج السماء والأرض ولد أربعة آلهة هما أوزوريس وسيت وإيزيس ونفتيس. فتزوج أوزوريس من إيزيس وسيت من نفتيس. ومن بين جميع آلهة المصريين من كان كهنة هذه لفترة يعملون على تقصي منشئهم ورسم سير حياتهم، والتوفيق بينهم عن طريق جمعهم في ثوابت وتاسوعات، فقد كان لهذه الآلهة الأربعة، إضافة إلى حوروس الذي صار الآن ابناً لإيزيس وأوزوريس، أن تلعب الدور الأهم في الحياة الروحية المصرية منذ نهايات المملكة القديمة إلى آخر تاريخ مصر القديمة. ورغم أن الإله رع كان بمثابة تجسيد لفكرة الله عند المصريين، إلا أنه كان يتجلى في العالم المادي على هيئة قرص الشمس، فيقطع السماء من مشرقها إلى مغربها ثم يسير ليلاً في العالم الأسفل ليشرق ثانية في اليوم التالي. هذا الانبعاث اليومي للشمس هو النموذج الذي يجتديده الملك عندما يرتقي السماء على أشعة الشمس من قمة الهرم صاعداً إلى أبيه السماوي، هناك يستقبله حشد الآلهة ويقوده عند استرق إلى مركبة رع.

على أن هذا المجتمع المستقر الذي أسسه فراعنة لأسرات الأولى، وكمر بياه الفراعنة الأوائل لعصر المملكة القديمة، قد أخذ بالتضعف منذ نهايات حكم الأسرة الرابعة. فلقد ازدادت سلطة كهنة رع على حساب سلطة الملك وأمراء الأسرة الحاكمة. ولدينا من الدلائل ما يشير إلى أن هؤلاء الكهنة صاروا يتدخلون في مسائله على جانب كبير من الأهمية والحساسية بالنسبة لنظام المملكة القديمة، وهي مسألة ولاية العهد ووراثة العرش، وأن العديد من ملوك الأسرة الخامسة كانوا يدينون للكهنة بهذه الوراثة. كما ساعد على تقليص سلطة الملك المطلقة تزايد ثروة النبلاء على حساب ثروة الملك، التي كانت تتآكل تدريجياً نتيجة للنفقات الهائلة التي تتطلبها بناء الأهرامات والمعابد الضخمة. فلقد كان كل ملك مهتم ببناء هرم جديد له من جهة، وملزم من جهة أخرى بتحديد وصيانة أهرامات أسلافه، إضافة إلى واجباته التقليدية الموروثة التي تلزمه بتقديم هبات للأمراء وكبار النبلاء والاتباع المقربين، تعيينهم على بناء وتجهيز مدافنهم الخاصة التي تضمن لهم الخلود الذي وعدهم به الفرعون. وساهم في تآكل ثروة القصر الملكي سياسة المنح والإقطاع التي اتبعها الملوك الأوائل من أجل ضمان ولاء حكام المقاطعات.

وقد نجم عن ذلك كنه تحول السلطة تدريجياً نحو اللامركزية، واستقلال الأقاليم البعيدة عن العاصمة ودخول حكامها في منازعات دائمة. وكان من أهم نتائج تراجي قبضة السلطة المركزية عن هذه المساحات الواسعة من المملكة، انهيار نظام الري وتراجع علة المواسم الزراعية وانتشار المجاعة، وكذلك انعدام الأمن وغياب سلطة القانون. وهذا ما قاد بدوره إلى تعطيل طرق التجارة المحلية والدولية. ومع نهاية حكم الأسرة السادسة أخذت القبائل الرعوية تهاجم مصر من حدودها الشمالية الشرقية قادمة من بوادي بلاد الشام، فكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، حيث انهارت المملكة القديمة ودخلت البلاد في الفترة التي يدعوها المؤرخون بالفترة الانتقالية أو المعترضة الأولى، التي استمرت من حوالي ٢٢٠٠ إلى حوالي ٢٠٤٠ ق.م. بعد ذلك أفلح أول فراعنة الأسرة الثانية عشر في إعادة توحيد البلاد وفرض سلطته على جميع الأراضي المصرية مبتدئاً بذلك فترة المملكة المتوسطة التي دامت حتى غزو الهكسوس عام ١٧٥٠ ق.م.

أحدثت الفترة المعترضة الأولى تعبيرات عميقة في المعتقدات الدينية للمصريين. فلقد كان من نتيجة تدهور الوضع الاقتصادي للأسرة الملكية وروال هيئتها السياسية، إن الملوك فقدوا سمالة الألوهية التي كانت تحيط بهم وتجعل منهم صنفاً من البشر - الآلهة، وأخذ الناس ينظرون إلى الملك كمجرد حاكم بين حكام الأقاليم. ساعد على ذلك اضطراب بعض الملوك إلى اتخاذ زوجات لهم من خارج نطاق الأسرة المالكة، ومساهمة البلاء من ذوي الثروة الكبيرة من أجل دعم الوضع المالي المتردي للقصر الملكي. ومع اهتزاز صورة الملك كممثل للإله الأعلى ونقطة اتصال السماء بالأرض، حصل اهتزاز شامل في القيم الدينية التقليدية ووضعت موضع الشك والتساؤل. فمُنذ هيايات حكم الأسرة السادسة، عندما ترسخت اللامركزية السياسية وأخذ حكام الأقاليم بالاستقلال وبناء قصورهم الخاصة وتسمية ثرواتهم المحلية، لم يعد الفرعون مصدر قوتهم وجاههم وتمكينهم في مصابهم، ولم يعد بالتالي شفيعهم من أجل الخلود في عالم الآلهة. وبعد أن كانوا يبنون مدافنهم قرب مدفن الفرعون بمعونة من القصر الملكي، راحوا الآن يسون صروح دفن لهم في مناطقهم فاقت مع الأيام مدافن الملوك، ويسعون لتحصيل الخلود، دون شفاعة الفرعون ووساطته. ولم يمض وقت طويل حتى أخذت كل شرائع الشعب تتطلع إلى الخلود، وإلى حياة سعيدة بصحبة الآلهة في عالم نوراني بعيد عن ألم وشقاء الحياة الأرضية. وبذلك ولدت فكرة اللجنة السماوية المعدة لجميع الصالحين بصرف النظر عن منشأهم الطبقي، وساد ما يمكن تسميته بديمقراطية الخلود. فمُنذ هذه الفترة الحالكة من تاريخ الثقافة المصرية صار الإله الصاعد أوزوريس هو الشفيع الوحيد للموتى، الذي يحسك بمفاتيح العبور إلى العبور الآخر، وصارت عبادته والإخلاص له، إضافة إلى طقوس الدفن الصحيحة واستخدام الصيغ السحرية القديمة، بمثابة بوابة الخلود. ومنذ هذه الفترة أيضاً تم ربط الأخلاق بالدين، فإذا كان الفرعون يلتحق بعالم الآلهة بعد موته بسبب نسبه الإلهي، وإذا كان بقية البلاء والأمراء يلتحقون به جراء شفاعته ووساطته، فإن بقية شرائع الشعب صارت تأمل الآن بالخلود عن طريق إيمانها بإله مخلص وإتيانها لمصالح الأعمال في الحياة الدنيا. فقد كان أوزوريس الهاً أخلاقياً يحض على الفضائل ويُجزى بها ويكره الرذائل ويعاقب عليها. ومع ارتباط الأخلاق بالدين تحولت القطبية الكونية القديمة إلى ثنوية أخلاقية وخضعت ميتولوجيا سيت - حوروس إلى تعديل جوهرى من أجل ملائمتها من العقيدة الشعبية الجديدة.

لم يكن أوزوريس بالإله الجديد على البانثيون المصري. فلدينا من الدلائل — يشير إلى كونه إلهاً للخصب منذ مطلع التاريخ المصري المكتوب. وكما هو حال أخيه الخصب الشرق أوسطية جميعاً. فقد كان أوزوريس إلهاً مات وبُعث من الموت في الأزمنة الميثولوجية الأولى، مؤسساً بذلك لدورة الطبيعة السنوية والموت وبعث الحياة النباتية. ولذا فقد كان المزارعون يحتفلون سنوياً بذكرى موته ثم بذكرى قيامته من الأموات، من خلال طقوس قديمة ومتجذرة في العصر النيوليثي. وخلال عصر الأسرات الأولى، ثم عصر المملكة القديمة، تعايشت عبادة أوزوريس مع عبادة حوروس الصقر السماوي، ثم مع عبادة رع. ولكن ميثولوجيا أوزوريس أخذت تتغير منذ نهايات عصر المملكة القديمة، عندما تحول أوزوريس من إله للخصب إلى إله للموتى وقاضي في العالم الآخر.

لا يوجد بين أيدينا نص ميثولوجي مصري مضطرب ومتكامل عن أسطورة أوزوريس، لا في حلتها القديمة ولا في حلتها الجديدة. ولكننا نملك العديد من الإشارات والتلميحات إلى هذه الأسطورة، مقتطعة من سياقاتها الميثولوجية الأصلية ومدغمة في سياقات طقسية شعائرية. من هذه الإشارات نعرف أن أوزوريس كان أول ملك على الأرض، وأنه كان حاكماً عادلاً نشر الأمن والطمأنينة وقاد البشرية الأولى من عصور الفوضى والهمجية إلى عصر من الحضارة والنظام. وقد مات أوزوريس غيلة على يد أخيه التوأم سيت الشرير، الذي كان يحسد أوزوريس ويفارقه منه أشد الفجرة، فقطع سيت جسده أخيه إلى أربع عشرة قطعة ونثرها في أماكن متفرقة من مستنقعات الدلتا، حتى لا يمكن جمعها وبث الحياة فيها. ولكن إيريس زوجة أوزوريس أفلحت بالتعاون مع ابنها حوروس في العثور على القطع، فجمعتها معاً وبثت الحياة في الجثة الميتة فقام الإله من بين الأموات. ولكن أوزوريس قرر معاداة الأرض والصعود إلى السماء، وهناك رحّب به رهنط الآلهة وأعطوه سلطة مطلقة على عالم الموت، فصار قاضياً في العالم الأسفل يحاسب الموتى على ما قدمته أيديهم في الحياة الدنيا، فيرسل بالحقن إلى دار البقاء والمذهب إلى دار القضاء. أما سيت فقد حوّل نشاطه العدواني إلى حوروس، الذي ورث عرش أبيه على الأرض وراح يتجهز للانتقام لأوزوريس. وهنا تحدثنا النصوص الهيروغليفية عن جولات متتالية من صراع الإلهين،

كانت تنتهي نصالح هذا أحياناً ونصالح ذاك في أحيان أخرى، ولكن دون التوصل إلى حسم نهائي. وبذلك اتخذت القطبية الكونية القديمة شكلاً ثنائياً ذا مضامين أخلاقية.

لقد كان الملك انتوف في عصر المملكة القديمة يدعى أوروريس، كناية عن التماهي مع الإله الذي قهر الموت وبُعث إلى عالم الآلهة. وكانت عبادة أوزوريس موجهة بالدرجة الأولى نحو معونة الفرعون على تحقيق خلوده الفردي. وعندما صارت التعاويذ السحرية التي ترافق دفن الملوك متاحة للبللاء، وصار بمقدورهم تمويل بناء مدافن صرحية لهم على طريقة الفراعنة، صار كل واحد منهم يتحول إلى أوروريس في العالم الآخر. ولكن مع صعود الميثولوجيا الأوزيرية الجديدة وشيوع عبادة أوزوريس بشكلها الشعبي، صار بإمكان كل متوفى أن يصبح أوزوريساً ويعم بصحبة الآلهة، وذلك بصرف النظر عن وضعه الاجتماعي ومبته الطبقية، شريطة أن يؤمن بأوزوريس مخلصاً، ويسلك سلوكاً أخلاقياً حلال الحياة الدنيا، ويحرص على تأمين مدفن له تتوفر فيه الشروط الدنيا الكفيلة براحة روحه، وأداء أهله للطقوس الجنائزية القديمة. إن أهم ما قدمته عبادة أوزوريس بشكلها الشعبي للمعتقدات المصرية، هو التأكيد على عنصر الأخلاق الاجتماعية وربطها بالدين وبمعتقد الخلود. ورغم أن المصريين قد استمروا حتى نهاية تاريخهم يحلّون الطقوس القديمة ويؤمنون بالتعاويذ والرقى السحرية، إلا أن الأوزيرية قد رفعت الأخلاق إلى مستوى يعادل في الأهمية ما لطقوس، بل ويزيد عليها.

كانت الأوزيرية عبادة أجروية تركز على النهايات دون كبير عناية بالبدايات. فقد كان المصري حراً لينخرط في أية عبادة، محلية كانت أم ملكية إمبراطورية رسمية، ويؤمن بأي معتقد حول التكوين والأصول والبدايات، ويؤدي ما يشاء من الطقوس لمن يشاء من القوى العليا. ولكنه عند التفكير بالموت والتهمة لرحلة العالم الآخر كان يلتفت إلى أوزوريس ويؤدي ما يتوجب عليه أداؤه لكي يؤمن مزدلفاً آمناً إلى الحياة الثانية. على أن المصري لم يكن لينتظر حلول النهاية لكي يفكر بأوزوريس ويلتفت إليه طالباً عوناً، بل إن استعداداً للقاء ربه كان شغله الشاغل طيلة حياته. ذلك أن سنوات حياته ووقت عماته معروفة سلفاً من قبل أوزوريس، ومدونة لديه في لوح القدر الذي تُسجل فيه الآجال ويحدد لكل امرئ نصيبه من الأيام. فهو رب القضاء والقدر والمنصائر، المطّيع على كل شيء، لا يخفى عليه ما في السموات وما في الأرض. وإن

جانب لوح القدر، فإن أوزوريس يحتفظ بسجل آخر يدعى سجل المصائر، تدون فيه أعمال جميع البشر، ويشرف عليه إلهان هما تحوت وسيشيتا اللذان يحصيان الأعمال الصالحة والطالحة لكل إنسان ويحفظانها إلى يوم الحساب، الذي يرى فيه كل واحد أعماله عندما يقف في حصرة ربه أمام الميزان في قاعة العدالة.

عندما يفلح الميت في عبور المفازات المرعبة التي تفصل عالم الأحياء عن عالم الأموات، وذلك بفضل الرقى السحرية التي أودعت في مدفنه من أجل استخدامها لهذه الغاية، يلقاه الإله حوروس، أو الإله أنوبيس الذي يحمل رأس ابن آوى (وهو إله المدافن وراعي التحنيط) فيقوده من يده ويدخله إلى قاعة العدالة المزدوجة، وهي قاعة فسيحة يتصدها الإله أوزوريس جالساً على عرشه، ووراء الإلهتان إيزيس ونفتيس في وضعية الوقوف. أمام أوزوريس وبأجنحة وسط القاعة هنالك ميزان كبير منصوب يقف قربه الإله تحوت إله الحكمة والكتابة في هيئة القرد، وأمامه عن الجهة الأخرى للميزان يقف الوحش عم - ميت أكل الموتى متحفرًا للانقضاض على الميت والتهامه إذا ثبت إدانته. وعلى طول جدار القاعة يصطف آلهة الأقاليم المصرية وعددهم اثنان وأربعون. ولدى مرور الميت أمام هؤلاء يعلن أمام كل منهم مراءته من إحدى الخطايا التي يكرهها أوزوريس، وهكذا حتى ينتهي من إعلان براءته من اثنين وأربعين خطيئة، يوردها كتاب الموتى وفق الترتيب التالي:

« لم أقم بعمل شرير يؤذي أحداً من الناس. لم أكن سيئاً في معاملة المناشئة والأنعام. لم أقترف خطيئة في مكان المصدق (= المعبد)، لم أحاول ما لا يجب على الإنسان الفاني معرفته. لم أجدف على أحد من الآلهة. لم أكن قاسياً على أحد من الفقراء. لم أقم بعمل تمقته الآلهة. لم أشوه سمعة عبد أمام سيده. لم أتسبب بمرض أحد. لم أتسبب بحزن وبكاء أحد. لم أقتل ولم أعط أماً بالقتل، لم أتسبب في عذاب أحد. لم أمارس الجنس مع غلام. لم أزد ولم أنقص في مكيال الحبوب. لم أغش في مقياس المساحة. لم أتلاعب بوزنات الميزان. لم أغش في كفة ميزان. لم أحرم الأطفال من حليبهم. لم أحرم المواشي من مراعيها. لم أمسك الطيور في حرم الآلهة. لم أضطد الأسماك في بحيرات حرم الآلهة. لم أبيع الماء عن الآخرين في مواسم السقاية. لم أضع ردماً أمام الماء الجاري في السواقي. لم أطفئ شعلة نار لأحد. لم أناسي مواعيد تقديم القرابين.. إلخ ».

بعد ذلك يوتى بالميت أمام الميزان فيوضع قلبه في إحدى الكفتين وريشة طائر في الكفة الأخرى، وهي رمز معات إلهة العدالة والنظام والحقيقة. والمطلوب هنا أن يتساوى بدقة قلب الإنسان (الذي هو مقر العقل والعواطف والأفكار والوایا، وبالتالي يتسوى سحلاً كاملاً لجميع الأعمال) مع رمز الحقيقة والقانون والنظام. وبعد أن يقوم أنوبيس بفحص النتيجة يبلغها إلى الإله تحوت الواقف خلفه فيدونها في سجل يمسك به ثم يعدها لأوزوريس. فإذا وجد الميت مذنباً انقض عليه الوحش فالتهمه ومحي من الوجود ذكره، وإذا وجد بريئاً اقتاده الإله حوروس إلى حضرة أوزوريس ومحاطبه قائلاً: جئت إليك بفلاں الذي وجدنا قلبه صالحاً، وقد اجتاز الميزان. لقد وزن قلبه وفقاً للأمر الذي نطقت به جماعة الآلهة. فامسحه كعكاً وجعة واسمح له بالدخول إلى حضرتك. عند ذلك يركع الميت أمام أوزوريس ومحاطبه قائلاً: أنا في حضرتك يا رب. ليس في ذنب. فأما ما كذبت عمداً، ولا فعلت شيئاً عن سوء نية، فاجعلني بين من آثرهم بفضلك وجعلتهم في صحبتك، لعلني أصير أوزوريساً يؤثره الإله الجميل بفضلته، ومحبوهاً من رب العالمين. وهنا يجيبه الجواب المنتظر من أوزوريس: دعوا الميت ينصرف سالماً منتصراً. دعوه بمضي حيث يشاء، ويعيش في صحبة الآلهة وبقية الأرواح الصالحة.

تدعى الجنة الأوزيرية في النصوص المصرية بحقول القصب. وهي عبارة عن أرض خصبة تقع وراء الأفق الغربي، وتحللها شبكة من القنوات المائية العذبة تجعلها أشبه بالبحر انتقارية، وهبها خصباً وخصرة دائمة، فيها يمو الزرع والشجر من كل نوع، وفيها تعيش أرواح الصالحين خالدة إلى أبد الأبدین. أما عن علاقة روح الميت بجسده الذي تركه في القبر، فمسألة إشكالية في المعتقدات المصرية. ذلك أن النصوص تشير صراحة إلى أن روح الإنسان الصالح تنتقل من الجسد لتعيش مع الأبرار والآلهة، أما الجسد الفيزيائي فلا يبعث أبداً ولا يغادر القبر. ومع ذلك فقد استمر المصريون يحافظون على جثث أمواتهم منذ بدايات التاريخ المصري وحتى نهاياته. فمما فائدة الجسد المادي إذا لم يكن معداً للبعث ولحلول الروح فيه مرة أخرى؟ إن الجواب على هذا السؤال ليس بالأمر السهل، وأي جواب لن يكون قاطعاً بحال من الأحوال. فنحن في دراستنا للدين المصري لا نقف أمام معتقد موحد وثابت، بل أمام معتقد متغير تتداخل حلقاته عبر ثلاثة آلاف سنة، وتحتوي كل حلقة من هذه الحلقات على أثر باق من سابقتها. يضاف إلى ذلك أن الكهنة المصريين لم يعملوا أبداً إلى إنتاج لاهوت

متكامل متماسك، ولم يعبروا عن معتقداتهم بطريقة منظمة، مثلما لم يدونوا أساطيرهم المتداولة بصورها الكاملة، بل اکتفوا بالإشارات والتلميحات وإيراد مقتطفات منها ومشاهد تقي بالأعراض الطقسية. ولعل الجواب الأكثر إقناعاً عن علاقة لروح بالجسد، هو أن طقوس الدفن وما يرافقها من تعاويذ وصيغ سحرية تخيل الجنة المحفوظة إلى نوع من الجسد الأثيري الذي يبتق معها ويتجه إلى العالم الآخر. وهذا الجسد الأثيري الذي يشبه تماماً الجسد المحفوظ، هو الذي تُبعث فيه لروح إلى حياتها الأخرى. يضاف إلى ذلك أن الروح، والأساس مجهدها، تبقى بحاجة لأن تزور جسدها من وقت لآخر وتقيم معه لفترات تطول أو تقصر.

خلاصة

تقدم لنا ديانة مصر القديمة نموذجاً عن كيفية الانتقال من مفهوم القطبية إلى شكل من أشكال مفهوم الثنوية. وعن الدور الذي تمارسه الأخلاق في هذا الانتقال، عندما تتحول من شأن دينوي إلى شأن ديني، وما يحجم عن ذلك من ظهور فكرة الشيطان، وهي الفكرة التي توصل لمعتقد الآحوية والنهايات. ولكن المعتقد الأوزيري لم يصل لجميع هذه الأفكار الدينية إلى نهاياتها منطوية، لأن القطبية لم تتحول إلى ثنوية جذرية، ولا حتى إلى ثنوية أخلاقية تامة. فرغم عبور شأن الأخلاق في العبادة الأوزيرية فإنها لم تطغ تماماً على الطقوس وبقيت التماثل وتلاوات لسحرية وكلمات القوة وما إليها جزءاً لا يتجزأ من الممارسات الدينية الأوزيرية مثلما كانت سابقاً. ورغم كون أوزوريس إلهاً أخلاقياً إلا أنه لم يتحول إلى مبدأ كوني للخير، مثلما لم يتحول سميت إلى مبدأ كوني للشر. فرغم اتخاذ سميت للكثير من ملامح الشيطان الكوني، إلا أنه لم يتمم فعلاً شخصية الشيطان، لأن أهم سمة تميز الشيطان هي انقلابه على انقوسة الإلهية وتحوله إلى ملعون ورجيم من قبل إله الخير ورهطه السماوي، وهذا لم يحصل لسميت الذي بقي عضواً محترماً به في البانثيون الإلهي. وبقي الناس يعبدونه ويشيدون له المعابد والهياكل حتى هايات التاريخ المصري. وبلغ من إحلال بعض الفراعنة له أن تسموا باسمه مثل سيني الأول من أواخر القرن الثالث عشر ق.م.

ومن أهم نتائج تقصير ثنوية سميت - أوزوريس (أو سميت حوروس بششكلها الجديد) عن بلوغ الثنوية الأخلاقية التامة، هي بقاء التصور المصري للتاريخ أسيراً

لمفهوم التاريخ المفتوح، حيث الزمن الديني عبارة عن سيالة متدفقة أبداً نحو اللانهاية، والتاريخ الإنساني محتواه التكراري يتحرك بشكل خطي دون هدف أو غاية. من هنا فقد غاب عن معتقد الثنوية الأوريرية أهم عناصر الثنوية الأخلاقية الكاملة، وهو معتقد نهاية العالم، والبعث الأخير الشامل، وتحويل الوجود بأسره إلى مستوى ما بعد وحليل في نهاية الزمن. وبقيت التصورات الآخروية في حدود القيامة الفردية والمصير الخاص لكل روح على حدة، الأمر الذي يترافق مع غياب مفهوم شامل عن الإنسانية والمجتمع الإنساني، ودور الإنسان كنوع متميز وخاص في دراما الخلاص العام.

على أن الأوريرية قد قدمت لمفهوم الثنوية الكونية والتاريخ الدينامي، السذي سنراه في أكمل أشكاله في الديانة الزرادشتية، بعضاً من أهم عناصره وهي:

١- صلة الأخلاق بالدين، وصلة المصير الفردي بالأخلاق.

٢- القيامة الفردية، أو الصغرى.

٣- الثواب والعقاب الآخرويان.

٤- تصورات مادية واضحة عن جنة الآخرة

وجميع هذه العناصر سوف تشكل جزءاً لا يتجزأ من عقائد الديانات المشرقية منذ مطالع الألف الأول قبل الميلاد.

مراجع المادة المعلوماتية للفصل:

- 1- A. Rosalie David, The Ancient Egyptians, Routledge, London 1982
- 2- Manfred Lurker, The Gods and Symbols of Ancient Egypt, Thames and Hudson, London 1984.
- 3- E.A. Wallis Budge. The Gods of the Egyptians, Dover New York, 1969.
- 4- E.A. Wallis Budge, Osiris, Dover, New York 1973.
- 5- E.A. Wallis Budge, Egyptian Religion: Rotledge, London 1975.
- 6- New Larousse Encyclopedia of Mythology, Hamlyn, London 1977, ch. 2

ميلاد الشيطان

زرادشت - نبي التوحيد، نبي الثنوية

مقدمة تاريخية

مد مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، أخذت الشعوب المعروفة تاريخياً باسم الشعوب الهندو - آرية بالانسياح من مواطنها الأصلية في السهوب الأوراسية، نحو آسيا الصغرة وأوروبا والهند وإيران. وقد وصلت طلائع الهندو - آريين إلى الهضبة الإيرانية خلال أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، ثم أخذت بالاستقرار تدريجياً في ثلاث مناطق رئيسية، حسب عتائرها، وهي منطقة ميديا ومنطقة فارس ومنطقة بارثيل. في مطلع الألف الأول قبل الميلاد حكمت ميديا سلالة ملكية بدأت بتوحيد الممالك الإيرانية الصغيرة منذ القرن الثامن ق.م، ثم أفلحت في بسط سلطتها على كامل إيران عقب تحالفها مع بابل وتدميرها آشور خلال عامي ٦١٤ - ٦١٢ ق.م. دام سلطان الميديين قرابة قرن من الزمان، إلى أن قام قورش ملك فارس بالتمرد على حبيه ملك ميديا عام ٥٤٩ ق.م، وأخضع ميديا وبقية المناطق الإيرانية، وأسس لحكم أسرة قوية عرفت باسم الأسرة الأخمينية. بعد أن استتب له الأمور في إيران، أخذ قورش بالضغط على الحدود الشرقية للإمبراطورية البابلية، إلى أن سقطت بابل العاصمة في يده عام ٥٣٩ ق.م، وانفتحت أمامه بوابة آسيا الغربية، فتابع مسيرته غرباً حتى استولى على جميع مناطق النفوذ البابلية في بلاد الشام وآسيا الصغرى، ثم أكمل ابنه قمبيز ضم مصر بعد ذلك بقليل. وبذلك ابتدأ عصر حديد في منطقة الشرق القديم هو عصر الإمبراطورية الفارسية، التي حكمت أصقاعاً مترامية تمتد من البنجاب في الهند شرقاً إلى

حدود اليونان القارية وحدود الصحراء الغربية في مصر غرباً. دامت هذه الإمبراطورية قرابة قرنين من الزمان، إلى أن انتهت على يد الإسكندر المقدوني عام ٣٣١ ق.م.

في عام ٢٨٠ ق.م، قامت في مملكة بارتيا ثورة على حكم السلوقيين السوريين من خلفاء الإسكندر، بقيادة الزعيم أرشق الذي حرر بارتيا أولاً ثم بقية المناطق الإيرانية، وأسس لحكم أول أسرة بارتية. بعد وفاة أرشق قام خلفاؤه بمتابعة الضغط على القوات السلوقية، حتى دفعوا بها إلى ما وراء نهر الدجلة. وفي عهد الملك ميترايس الأول وخليفته ميترايس الثاني، تم إجلاء السلوقيين إلى ما وراء نهر الفرات، وامتدت الإمبراطورية البارتية من حدود الهند شرقاً إلى نهر الفرات غرباً. امتد العمر بهذه الإمبراطورية أمداً طويلاً، وذلك من أواسط القرن الثاني ق.م إلى أوائل القرن الثالث الميلادي عندما عادت السلطة مجدداً إلى فارس. فقد قام حاكم منطقة فارس المدعو بابل بالثورة على البارثيين وأعلن فارس مملكة مستقلة. ثم وليه ابنه أردشير الأول الذي التقى بآخر ملوك البارثيين في معركة فاصلة وقتله عام ٢٢٦ ميلادية. واردةشير الأول هو مؤسس الأسرة الساسانية التي حكمت الإمبراطورية الفارسية قرابة أربعة قرون. من أشهر ملوك الساسانيين خسرو انوشروان، المعروف لدى العرب بكسرى أنوشروان. وقد ارتقى هذا العاهل الكبر العرش عام ٥٣١ م، وحكم قرابة خمسين عاماً. وبعد وفاته شهدت البلاد فترة من الاضطرابات توالى خلالها على العرش عدد من الملوك الضعفاء انتهوا بالخلع أو القتل، إلى أن ولي العرش يزيدجرد الثالث عام ٦٣٢ م، فقد استطاع هذا العاهل القوي ضبط الأمور بيد من حديد، وسار بالبلاد نحو عهد من الطمأنينة والاستقرار. إلا أن العرب الذين ظهروا على المسرح السلوي في ذلك الوقت، مالبثوا أن غنموا سورية عام ٦٣٦ م، ثم توجهوا لقتال يزيدجرد في معركة القادسية الحاسمة. وبعد معركةين تاليتين شق العرب طريقهم نحو الهضبة الإيرانية. ومع حلول عام ٦٥٢ كانت سيطرتهم على إيران تامة تقريباً.

زرادشت

يعتبر زرادشت واحداً من أهم الشخصيات الدينية التي أثرت على مجرى الحياة الروحية عبر تاريخ الحضارة. ولا تكمن أهمية هذا النبي والمعلم الأخلاقي الكبير في

مدى الانتشار الجغرافي والزمني للديانة الزرادشتية التي قامت على وحيه وتعاليمه،
بقدر ما تكمن في مدى تأثير أفكاره على الديانات العالمية اللاحقة.

لا يوجد بين أيدينا مصادر تاريخية مباشرة تعيننا على رسم سيرة حياة كاملة
لزرادشت، ولكننا نستطيع رسم ملامح عامة لها اعتماداً على المصادر الإغريقية التي
تعود إلى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وعلى المصادر الزرادشتية ذاتها، وأهمها
مجموعة الأناشيد التي وضعها زرادشت نفسه والمدعوة بالغاثا، ومجموعتين من الأدبيات
الزرادشتية معروفتين باسم الأفيستا والأفيستا الصغرى، وتحتويان على تعاليم زرادشت
وأحاديثه الشفوية التي تم تناقلها عبر الأجيال، وعلى شروحات وتعليقات اللاهوتيين
الزرادشتيين. وقد تم تدوين هاتين المجموعتين خلال الفترة الساسانية بعد قرون طويلة
من التداول الشفهي.

رغم أننا نفهم من الأفيستا الصغرى أن زرادشت قد عاش وبشر برسائله قبل
عصر الاسكندر بثلاثة قرون، أي فيما بين أواخر القرن السابع وأوائل القرن السادس
قبل الميلاد، إلا أن الباحثين في تاريخ الزرادشتية محتفون في تاريخ ميلاد المعلم. فبينما
يرجع به فريق من الباحثين إلى أواسط الألف الثاني قبل الميلاد استناداً إلى التحليل
الغيلولوجي للوحة أناشيد الغاثا التي تشف عن بُنى لغوية مغرقة في القدم، فإن فريقاً
ثانياً يقبل بالمعلومة الأفيستية ويضع ميلاده في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، ويطابق
بين اسم الملك فيشتاسب الذي يتكرر في أناشيد الغاثا واسم والد الملك قورش المدعو
هيستاسب. وهنالك فريق ثالث يضع مولد زرادشت في مطلع الألف الأول قبل الميلاد،
وحوالي عام ٩٠٠ تقريباً. وحجة هذا الفريق قِدم لوحة أناشيد الغاثا من جهة، وعدم
تعرضها ولو بالإشارة العابرة إلى ذكر مملكة الميديين أو الأخمينيين من جهة ثانية.
يضاف إلى ذلك ما تكشف عنه الدراسة المدققة للأناشيد من وجود نظام سياسي كان
سائداً خلال حياة الكاتب، يقوم على الإمارات الصغيرة التي لا تخضع لسلطة سياسية
مركزية. ومثل هذا النظام لم يكن ممكناً بعد عام ٩٠٠ ق.م. هذا التاريخ المتوسط
لميلاد نبي الزرادشتية يلقى الآن تأييد معظم الباحثين. أما عن المنطقة التي ولد بها المعلم

وعاش سنوات يفاعته إلى أن جاءه وحي النبوة؛ فإن الآراء تتفق على وقوعها في المناطق الشرقية المتطرفة والبعيدة عن المراكز الحضرية، والتي كانت تعيش على الرعي وتربية الماشية.

عندما ولد زرادشت، على ما تقصه الأدبيات الزرادشتية اللاحقة، احتفلت كل مظاهر الطبيعة، وحدثت سلسلة من المعجزات التي رافقت ذلك الحدث المهم في تاريخ الكون وتاريخ الإنسانية. أما الشيطان فقد هرب واحتفى من وجه الأرض، ثم ما لبث أن أرسل زبانيته لإهلاك الرضيع، فلما اقتربوا منه تكلم في المهد ونطق صلاة للرب طردت الشياطين. وعندما شب على الطوق جاء الشيطان لكي يجربه ووضعه في يده سلطان الأرض كلها مقابل تخليه عن مهمته القادمة، ولكن زرادشت هُزم وأبعده عنه. هذه المواجهة بين المخلص والشيطان نجدُها أيضاً في الأدبيات الدينية البوذية والمسيحية، فعندما كان البوذا في جلسة التأمل الأخيرة التي قادتته إلى المعرفة المطلقة، أرسل رئيس الغفاريات الشريرة مارا زبانيته الذين أحاطوا بالشجرة التي يجلس تحتها المعلم، وحاولوا إحافته وبث الرعب في قلبه بكل الوسائل، ولكنه بقي هادئاً مستغرقاً في تأمله الباطني. ثم هبط مارا بنفسه ورماه بكل أسلحته، ولكنها تحولت إلى براعم زهور معلقة حول رأسه في لهواء. وما أن حل الصباح حتى استنارت جنبات البسودا بالعرفان واخترق بعقله وروحه جوهر الحقيقة. وفي إنجيل متى نقرأ أن إبليس أخذ يسوع إلى البرية بعد أن هبط عليه الروح القدس، ليجربه. وبعد أربعين يوماً: «أخذه إلى جبل عال جداً وأراه ممالك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعاً إن خررت وسجدت لي. حينئذ قال يسوع: اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب للرب الهك تسجد وإياه تعبد» - متى: ٤.

انخرط زرادشت منذ يفاعته في سلك الكهنوت وصار كاهناً على دين قومه (وهو دين هندو - إيراني شبيه بدين أسفار الهندية). وكان ينتمي إلى فئة خاصة من الكهان تُدعى زاوتار، يتميز أفرادها بسعة العلم والخبرة في الشؤون الدينية، ولا يُرسمون كهنة إلا بعد خضوعهم لتدريب طويل يتمرسون خلاله بشتى المعارف اللاهوتية والتقنيات الطقسية. غير أن هذا الكاهن المالبث أن انشغى على المعتقدات التقليدية التي نشأ عليها، وأحدث انقلاباً دينياً كان له أعمق الأثر في الحياة الروحية

لإيران وللإنسانية على حد سواء. فعندما كان زرادشت في الثلاثين من عمره جاءه وحي النبوة من السماء يأمره بالتبشير والدعوة إلى دين الله الحق. فبينما كان الكاهن الشاب يشارك في إحدى المناسبات الطقسية، دعت الحاجة إلى بعض الماء، فتطوع زرادشت لجله ومضى إلى النهر القريب حيث خاص إلى ركبته وملاً وعاءه. وبينما هو خارج من الماء^(١)، تحلى له على الضفة كائن نوراني، فحاف لرؤيته وهم بالرجوع. ولكن الكائن كلمه وطمأنه قائلاً بأنه فوهو مانا، أحد الكائنات الروحانية الستة التي تحيط بالإله الواحد أهودا مزدا وتعكس مجده. ثم أخذ الملاك بيد زرادشت وعرج به إلى السماء حيث مَثَل في حضرة أهورا مزدا والكائنات الروحانية المدعوة بالاميشا سبيتنا، وهناك تلقى من الله الرسالة التي يتوجب عليه إبلاغها لقومه ولجميع بني البشر.

بعد تلقيه الرسالة، انطلق زرادشت يبشر بها في موطنه وبين قومه مدة عشرين سنوات، ولكنه لم يستطع استمالة الكثيرين إلى الدين الجديد. فلقد وقف منه الناس العاديون موقف الشك والريبة بسبب ادعائه النبوة وتلقي وحي السماء، بينما اتخذ منه البلاء موقفاً معادياً بسبب تهديده لهم بعداب الآخرة، ووعده للبسطاء بإمكانية حصولهم على الخلود الذي كان وفقاً على السخية في المعتقد التقليدي. ولما يش النسي من قومه وعشيرته عزم على الهجرة من موطنه، فتوجه إلى مملكة خوارزم القريبة حيث أحسن ملكها فيستاشبا استقباله، ثم اعتنق هو وروحه الزرادشتية وعمل على نشرها في بلاده. ولكن ملوك المناطق المجاورة طالبوا فيستاشبا بهد الزرادشتية والرجوع إلى دينهم التليد، وانتهروا الفرصة للإغارة على حدود بلاده، فدحل معهم في حروب طاحنة خرج منها متصراً. وبذلك تم فتح الطريق أمام الزرادشتية للانتشار التدريجي.

عاش زرادشت عمراً مديداً، ووجد الوقت الكافي لنشر رسالته والعمل على تبسيط تعاليمه الأولى التي أوردتها في الأناشيد، وذلك بغية نقرها إلى عامة الناس وتسميهم إليها. تزوج ثلاث مرات وأنجب ثلاثة ذكور وثلاث بنات، وكانت ثالث زيجاته من ابنة الوزير الأول لمملكة خوارزم. بعد وفاة الملك فيستاشبا سادت الفوضى في المملكة وفقد زرادشت سنده وحاميه، فكان عليه أن يكافح ويصمد بقواه الخاصة،

(١) قارن مع هبوط الروح القدس على يسوع وهو خارج من انهر بعد تعميده بماء الأردن في إنجيل

وهي مهمة حققتها بسجاح بعد نضال شاق وطويل. إلى هذه الفترة العصيبة يرجع قانون العقيدة الزرادشتي الذي يتوجب على المؤمن فهمه وإعلانه لدى دخوله في الدين الجديد، وفي مقدمته الشهادة التي تقول: "أشهد أني عابد للإله أهورا مزدا. مؤمن بررادشت، كافر بالشیطان، معتنق للعقيدة الزرادشتية، أجدد الإيميشا سبيتا الستة، وأعزو لأهورا مزدا كل ما هو خير". لدى نطقه بهذه الشهادة يكون الفرد قد انسلخ عن الدين القديم وصار عضواً في جماعة المؤمنين.

ذاعت شهرة زرادشت في العالم القديم فاعتبره الإغريق سيداً للحكمة والمعارف السرائية. وعزا إليه الفيثاغوريون تأثيراً مباشراً على معلمهم فيثاغورث، ونظر إليه فلاسفة الأكاديمية بإكبار وإجلال باعتباره مؤسساً لفلسفة الثنوية. ثم رأت فيه المسيحية المكرة مبشراً بقدوم السيد المسيح بسبب تعاليمه حول المخلص المنتظر الذي سيأتي في آخر الأزمان. ولم تكن النجمة التي ظهرت في الشرق وقادت المحوس الثلاثة إلى مهد يسوع في بيت لحم، إلا إشارة إلى تحقيق نبوءة زرادشت (انظر إنجيل متى، الأصحاح الثاني). وعندما ظهرت المدارس الغنوصية في سوية ومصر خلال القرون الأولى للميلاد، وجدت في زرادشت واحداً من معلميها الكبار. ثم جاء ماني المعلم الثاني لمعتقد الثنوية، فاعتبر زرادشت ثالث الأنبياء العظام الذين سبقوه إضافة إلى موسى ويسوع. وفي العصور الحديثة أصبح زرادشت موضع اهتمام الأوروبيين منذ عصر النهضة. وكان الفيلسوف الألماني نيتشه من أكثر الفلاسفة المحدثين إعجاباً به، واستعار اسمه لحكيم كتابه: هكذا تكلم زرادشت.

المعتقد الزرادشتي

يتميز المعتقد الزرادشتي بابتكاره لمفهوم الوحدانية الثنوية. وصفة الثنوية هنا لا تلغي صفة الوحدانية. لان مفهوم الثنوية الزرادشتي يقف في تعارض مع مفهوم التعددية ولكنه لا يتعارض مع الوحدانية بل يتلازم معها، ذلك أنه يقدم أكثر التفسيرات منطقية لوجود الشر في العالم. فأهورا مزدا واحد ولا ثاني له في الألوهة، خالق كل ما هو طيب وحسن، ولكنه ليس مسؤولاً عن وجود الشر في العالم، ولم يكن ليرتضي وجوده منذ البداية بل لقد سعى إلى مكافحته بكل السبل والوسائل، وسوف ينتصر

عليه في معركة تمتد على مدى تاريخ الكون والإنسان. وستشهد نهاية هذا التاريخ عبث جند الحق على جند البهتان واحتفاء الشيطان وأعماله إلى الأبد.

خلق العالم الروحاني

في البدء، لم يكن سوى الله - أهورا مزدا. وجود كامل وتام وألوهة قائمة بذاتها مكفية بنفسها. ولكن هذه الألوهة اختارت أن تخرج من كمونها وتُظهر ما عداها إلى الوجود، فكان أول خلقها روحان توأمان هما سبيتا مايو وأنجرا مايو. ولكي يكون لذين الروحين وجود حقيقي مستقل عن خالقهما، فقد منحهما الله خصيصة الحرية التي استخدمها منذ صدورهما عنه، فاختار سبيتا مايو الخير ودعي بالروح القدس، واختار أنجرا مايو الشر ودعي بالروح الخبيث، ثم راح يتحفز للانقضاض على خلق الله القادم ويقاوم كل عمل حسن له.

هذا الخيار البدئي كان بمثابة النموذج الأسبق لكل خيار أخلاقي لاحق يقوم به الإنسان، دوغما جبرية أو قدرية من أي نوع. لأن الإنسان سوف يُخلق حراً أيضاً. والحرية ستقوده إلى الاختيار. والاختيار هو جوهر الأخلاق. وبذلك يقوم المعتقد الزرادشتي على ثلاثة عناصر رئيسية هي: الحرية والاختيار والمسؤولية الأخلاقية. إن صيرورة الوجود بكامله سوف تعتمد على كيفية استخدام الدوات الواعية من أهل السماء والأرض هذه المعطيات. يقول زرادشت في أحد أناشيد الغاتا:

« الحق أقول لكم، إن هناك توأمين يتناهسان منذ البداية. اثنان مختلفان في الفكر وفي العمل. فروح خبيث اختار البهتان وثابر على فعل الشر، وروح طيب اختار الحق وثابر على فعل الخير ومرضاة أهورا مزدا. وعندما تجابه الاثنان لأول مرة أبداً الحياة ونقيضها. ولكن عندما تحيى النهاية، فإن من اتبع البهتان سوف يُرد إلى أسوأ مقام، ومن اتبع الحق فسوف يُرد إلى أسمى مقام. »

بعد الخيار الأخلاقي لتوأمين كان لا بد من تعارضهما وتصادمهما ودخولهما في صراع مفتوح. ورغم أن الله كان قادراً منذ البداية على سحق أنجرا مايو ومحو الشر في مهده، إلا أنه قرر عدم التناقص مع نفسه بالقضاء على مبدأ الحرية الذي أقره وأقام عليه خليقته، وأثر السير بخطته التي تقوم على مقاومة الشر استناداً إلى ذات المبدأ

الذي أنتج النسر وهو الحرية. وهنا عمد بمعونة الروح القدس سبيبتا ماينو إلى إظهار ستة كائنات نورانية قدسية إلى الوجود، فشكلت بطانته الخاصة التي تحيط به على الدوام؛ ويُدْعَوْنَ بالاميشا سبيبتا، أي الخالدون المقدسون. وقد أوجدتهم الله من روحه كمن يشعل الشموع من مشعل متقد، على حد تعبير أحد مقاطع الأفيستا. وتسدل أسماؤهم على أنهم ليسوا إلا حصائص مجسدة للإله، فهم: فوهو مانا الفكر الحسن، وآشا فاهيستا الحقيقة الناصعة، وكشاترا فايرا الملكوت القادم، وسبيبتا أرمائي الإخلاص، وهورفات الكمال، وإيرميتي الخلود. وقد شارك هؤلاء الخالق في ما تلا من أعمال الخلق والتكوين، وصاروا حافطين لخلق الله ووسطاء بينه وبين الناس وجميع مظاهر الوجود. ثم إن الاميشا سبيبتا خلقوا عدداً من الكائنات القدسية الطيبة تدعى بالأهورا، فعهد إليهم أهورا مزدا بمهامهم وأوكلهم بمكافحة الشر كل في مجال. وبالمقابل فإن أنجرا ماينو قد استنهض عدداً من الكائنات المتفوقة تدعى بالديفا وعمد إلى ضلالتهم فأنحاروا إلى جانبه وراحوا يتهيأون للانقضاض على كل عمل طيب يصدر عن الله. وبذلك تم تكوين عالم الملائكة وعالم الشياطين قبل أن يظهر العالم المادي.

فوق الروحين المتنافسين وفوق فريق الديفا والأهورا^(*)، يسمو أهورا مردا في عليائه متجاوزاً ثنائيات الخلق، ولكنه يعمل في الوقت نفسه على دعم قوى الخير لتدخل في منافسة عادلة مع قوى الشر. نقرأ في نشيد آخر من أناشيد زرادشت المدعوة بالغاتا:

هذا ما أسألك عنه فاصدقي الخبر يا أهورا مزدا.
من هو أهر الحقيقة منذ أقدم الأزمان ؟
من رسم للشمس مسارها وللنجوم ؟
من جعل القمر يتناقص ويتزايد، من إن لم يكن أنت ؟
هذا ما أسألك عنه فاصدقي الخبر
من يحسك الأرض ويرفع السما من فوقها فلا تقع ؟

(*) حول تسمية الأهورا والديفا، تجدر الإشارة إلى أن زرادشت قد استعار هاتين التسميتين من الديانة الهندو - إيرانية القديمة. فالأهورا هم الآلهة الطيبة والديفا هم الآلهة الشريرة.

من فَرَضَ الزَّورِعَ وأَجْرَى الماءَ ؟
من قَرَنَ جِياداً مطهمة إلى عربة الريح وعربة السحاب تجرها ؟
من خلق الأفكار الخيرة، من إن لم أنت ؟
هذا ما أسألك عنه فاصدقني الخبر أيها الإله الحكيم:
آيَةُ صَنَعَةِ مبدعة خلقت اليقظة والنوم ؟
من سَخَّرَ الليل والصباح والظهيرة تذكراً للناس بمهامهم ؟
من سَخَّرَ البقر والأنعام لرشاء الناس ؟
من يزرع في القلب احترام الوالدين ؟
إني أسألك أيها الإله الحكيم، لأنشر معرفتك بين الانام
فأنت العقل الطيب وخالق كل شيء

بعد أن تأسس الشر على المستوى الروحاني، عرف أهورا مزدا أن القضاء على
الشیطان وأتباعه لن يتيسر قبل خلق العالم المادي، لأن عالم المادة سيكون بمثابة المسرح
المناسب للصراع بين جند الحق وجند البهتان، ولسوف يعتمد أنجراماينو إلى مهاجمة
خلق الله بكل ما أوتي من قوة، لأنه خلق طيب وحسن. ولكن هذا الهجوم سوف
يفشل في عضده تدريجياً، حتى يفقد قوته وسلطانه في آخر الأمر، ويُحسَم الصراع
لصالح الخير في نهاية التاريخ. عندها يتم تخليص الكون إلى الأبد من شوائب الشر ليعود
كوناً حسناً وطيباً إلى الأبد.

الزمن الكوزموغوني

سار خلق الله للكون على درجتين، الأولى تدعى مينوغ وهي حالة من الوجود
المثالي غير المتحقق في شكل مادي، والثانية تدعى جيبيع وهي حالة الوجود المادي
المتحقق في أشكال ذات قوام وخواص. والحالة الثانية خيرٌ من الحالة الأولى لأنها
انتقلت بالكون من حالة الهيول إلى حالة الثبات والنظام. وهذا ما يميز خلق الله عن
خلق الشيطان، وقدرة الله عن قدرة الشيطان الذي لا يستطيع منح ما يخلقه القوام
والمادة، ويخرج به إلى حيز الوجود الفعلي. ونحن هنا أمام رؤية فلسفية جديدة لا ترى
في مادة حالة دنيا من أحوال الوجود، بل ترى فيها أنبل وأسمى أشكال الوجود. أما ما
يبدو لنا من قصور وشواش في صيرورة العالم المادي، فليس إلا نتيجة لامتزاجه بعناصر

الشر التي جاءت من الشيطان، وهي عناصر مؤقتة التأثير سوف يتخلص منها العالم إن عاجلاً أم آجلاً. وتنعكس هذه الرؤية للعلاقة بين المادة والروح على نظرية الزرادشتية إلى الإنسان في روحه وجسده. فروح الإنسان ليست أسمى من جسده، والجسد ليس منبعاً للشرور ولا رداءً مؤقتاً نسعى إلى التخلص منه من أجل الالتحاق بالعوالم الروحانية، بل هو الشرط الأمثل الذي يحقق للروح حياة ذات معنى. لذا فلن الأرواح عندما تنفك عن أجسادها بالموت، فإنها تبقى في حالة انتظار نحن إلى الاتحاد بأجسادها من جديد في يوم البعث الأخير. من هنا تستبعد الزرادشتية كل ممارسات الزهد والتعشق الهادفة إلى تعذيب الجسد طمعاً في تخليص الروح من آثامه، لأن على الإنسان أن يكافح لشر بروحه وجسده معاً، وأن يقيهما في أفضل حالة تمكنهما من أداء هذه المهمة على أفضل وجه.

ولقد انتقل العالم من درجة المينوغ إلى درجة الجيتينغ على ستة مراحل زمنية. في البداية خلق الله السماء من صخر كريستالي، ثم خلق الماء فالأرض فالحياة النباتية فالحياة الحيوانية، وأخيراً خلق الإنسان الأول. وفيما يتعلق بالأرض وهي بورة الكون، فقد أقام الله حولها سلسلة جبال شاهقة تتصل بشروش تحتية بجبل يقع في مركز الأرض يدعى جبل هارا، ومنه تطلق أرواح المونى في رحلتها إلى السماء. ثم قسم الأرض إلى سبعة أقاليم، جميعها أراضٍ سهلية لا التواء فيها ولا واد ولا تلال. أول هذه الأقاليم يدعى خافي نيرايا وهو الوحيد المأهول بالسكان، وحوله تتوزع الأقاليم الستة الأخرى. وصنع بحراً يغطي الأرض بلجهة جنوبها وفي وسطه جبل مصنوع من حبال السماء. ومن البحر فجر تبعين عزيرين فشكلاً ثمين كبيرين هما دايتا ودانها، اللسان يحدان الجهة الشرقية والجهة الغربية للإقليم المسكون. وزرع في البحر شجرة تحتوي على البذور المعروفة بأنواعها تدعى شجرة كل البذور، وشجرة أخرى تدعى شجرة الشفاء والحياة الأبدية.

بعد انتهاء أهورا مزدا من صنع الكون، قام أنجرا ماينو لعوره بالانقضاض عليه، لأن حالة الوجود المتحقق حيثنغ أكثر عرضة للتخريب والبثرة والإفساد من الحالة غير المتحققة مينوغ. اقتحم أنجرا ماينو الجزء الأسفل من قبة السماء فشوهها، ثم انتصب

مثل الحية وقفر نحو تجمعات النحوم فستنتها وأحل الاضطراب في نظام السماء. ثم غطس في البحر فأفسد ماءه بالملح، وتوجه نحو اليباييع فجففها وإلى السهول الخضراء، فأذبل مزروعاتها ونشر فيها الصحاري، وبث فيها الأقاعي والعقارب وكل دابة مؤذية. وانقض على النار فلوئها بالدخان وعلى الإنسان الأول فذبحه. وهكذا زرع الشيطان الموت والفساد في خلق الله. ورغم أن الأميشا سبيتا قد تصدت للهجوم وباشرت بإصلاح ما خربه الشيطان، إلا أن العالم لن يعود إلى سابق عهده من النقاء والطيبة لأن الفساد قد عشعش فيه. لقد أخذ الأميشا سبيتا نبات الأرض اليابس فطحنوه ثم نثروه فحملته الرياح إلى الجهات الأربعة. ثم دفع الأميشا الرياح فحملت الغيوم وأنزلت المطر، فنبتت من ذرور الزرع اليابس حياة جديدة. ثم أخذوا بذور الإنسان الأول القليل فطهروها بصوء الشمس وزرعوها في التربة، فخرجت منها نبتة انطوت أوراقها على الزوجين الأولين ماشيا وماشيو. وعندما افترقت عنهما الأوراق كانا ملتصقين في وضعية العناق لا يتبين منهما الذكر من الأنثى، فنفخ فيهما الله روحاً فانصبأ أمامه بشراً سوياً، وقال لهما: أنتم الإنسان، وأنتم سلف العالم. خُلقتما كاملين، فحافظا على الفكر الحسن والكلمة الحسنة والعمل الحسن، ولا تخضعا للشيطان. ثم جاء الملائكة وعلموهما إشعال النار واستخدامها وألبسوهما ثياباً من جلد كما علموهما استخراج المعادن وصنع السكاكين والأدوات، وغير ذلك من التقنيات اللازمة لحياة الإنسان.

بعد ذلك التفت الأميشا سبيتا إلى بقية مظاهر الطبيعة التي رُفعت فيها سموم الشر لترميمها، ولكن أنجرا ما يو لم يترك لهم فرصة لإتمام عملهم على أحسنه؛ فراح يهاجم العالم بكل قواه بمعونة بقية جند الظلام، فحلوا الأمراض والآلام على الكائنات الحية وصنعوا كل نقيصة مادية. ثم دخلوا في عقل ماشيا وماشيو فررعوا بذور كل نقيصة أخلاقية. فتصدى لهم الأميشا وجندهم، واستمر الصراع بين الفريقين بلا هوادة وبلا توقف. هذا الصراع لن يكون له نتائج إيجابية إلا بعون الإنسان الذي يتوجب عليه أن يعي مسؤولياته الخلقية في هذه الحياة، ويدعم قوى الخير بفكره وقوله وفعله. وبدون عون الإنسان لن يتم حسم هذا الصراع الكوني ودفع التاريخ إلى مرحلته

الأخيرة، عندما يتم تنقية الوجود المادي والروحي مما داخلهما من خبث.

مراحل التاريخ وظهور المخلص

لقد عرف أهورا مزدا، الذي يطال علمه البدايات والنهايات، أن آخرة الشر قادمة لا ريب فيها، فوضع خطة للقضاء عليه تتدرج على ثلاث مراحل، يوشح كل منها لطور من أطوار الزمن. فلقد خلق أهوراً مزدا العالم في أكمل وأطيب صورة ممكنة، واستمر على هذه الحالة رديحاً من الزمن كان الشيطان خلالها نائماً. وهذه هي المرحلة الأولى مرحلة الخلق الكامل. في المرحلة الثانية يهاجم الشيطان خلق الله ويث فيه سمومه فيختلط الخير بالشر، وهذه هي مرحلة الامتزاج. في المرحلة الثالثة تبدأ عملية الفصل بين الخير والشر، والتي تنتهي بدحر الشيطان ورهطه ليعود الكون كاملاً وطيباً إلى الأبد، ويأتي التاريخ إلى نهايته ليعقبه زمن سرمدي لا تتناوبه التناقضات والمتعارضات، ويتفنى منه المرض والألم والحزن والموت. ولقد ابتدأت المرحلة الثالثة بميلاد زرادشت وتأتي إلى خاتمتها بميلاد المخلص المدعو شاوشنياط (أو شوشانز)، وهو الذي يقود المعركة الأخيرة الفاصلة بين قوى النور وقوى الظلام. سوف يولد المخلص من عذراء تحمل به عندما تنزل للاستحمام في بحيرة كانا سافا، فتسرب إلى رحمها بذور زرادشت التي حفظها الملائكة هناك إلى اليوم الموعود. وبذلك تفتتح فترة التاريخ الأخير بررذشت وتختتم بمخلص أو مهدي من نسله تحمل له أمه بشكل إعجازي. ورغم المعجزة الإلهية التي قادت إلى ولادة هذا المهدي، فإنه يبقى إنساناً مولوداً من أبوين بشريين، لأن خلاص العالم في النهاية هو مسؤولية الإنسان، ويقوده ابن الإنسان الذي سيعلم عن نفسه في الوقت المناسب، فيلقي الرعب في قلوب جسد الظلام ويطاردهم في كل مكان ويمحو عن الأرض أثرهم.

تعود فكرة المخلص إلى أناشيد زرادشت القديمة. فلقد بشر بقرب انتهاء مرحلة التمازج، وحلول مرحلة الفصل الأخيرة، وقرن ذلك بقدوم المخلص وأنح في أكثر من موضع في مجموعة الأغاني إلى أنه سيأتي من بعده ليحل الحق ويدحر البهتان، ودخلت هذه الفكرة في صلب العقيدة الزرادشتية منذ بداياتها. ولكن الفكرة قد أخذت أشكالاً جديدة خلال الفترات اللاحقة. ففي العصر الأخميني قال اللاهوتيون بظهور ثلاثة مخلصين، وذلك في نهاية كل ألفية من الألفيات اللاحقة من عمر الزمن الأرض. في نهاية

الألفية الأولى يظهر المخلص المدعو أوخشاتريت، وفي نهاية الألفية الثانية يظهر المدعو أوخشياتنيم، وفي نهاية الألفية الثالثة يظهر المخلص شاوشنياط نسل زرادشت مسن عذراء البحيرة. ولكن هذه التصورات اللاهوتية اللاحقة لم تتأصل في صميم المعتقد الشعبي، وبقي الناس مثبتين قلبهم على المخلص الأحمر منتظرين ظهوره.

التصورات الأخروية

يرتبط معتقد نهاية التاريخ ارتباطاً وثيقاً بمعتقد البعث والحساب والحياة الثانية. فبعد أن دخل الموت في نسج الحياة خلال فترة التمازج بين الخير والشر، صار الموت نصيب كل كائن حي، وبوابة عبور من حالة الجيتنغ المادية إلى حالة المينوغ الروحانية الهلامية القاصرة. فالأرواح بعد مغادرة الأجساد عقب الموت تبقى في برزخ المينوغ تنتظر يوم القيامة بشوق وترقب لكي تلتقي بأجسادها التي تبعث من التراب. يحدثنا زرادشت في أناشيد الغاتا عن مصير الروح بعد الموت وأحوالها إلى زمن البعث والشور. فبعد مفارقتها للحسد تمثل الروح أمام ميترا قاضي العالم الآخر (وهو رئيس فريق الأهورا الذين يشكلون مع الأميشا سبينتا الرهط السماوي المقدس) الذي يحاسبها على ما قدمته في الحياة الدنيا من أجل خير البشرية وخير العالم. ويقف معين ويسار ميترا مساعده سرواشا وراشو اللذان يقومان بورن أعمال الميت بميزان الحساب، فيضعان حسناته في إحدى الكفتين وسيئاته في الأخرى. وهنا لا تشفع للمرء قرائينه وطقوسه وعباداته الشكلاية بل أفكاره وأقواله وأفعاله الطيبة. فمن رجحت كفة خيره كان مآله الفردوس، ومن رجحت كفة شره كان مثواه هاوية الجحيم. بعد ذلك تتجه الروح لتعبر صراط المصير، وهو عبارة عن جسر يتسع أمام الروح الطيبة فتسير الهوينى فوقه إلى الجهة الأخرى نحو بوابة الفردوس، ولكنه يضيق أمام لروح الخبيثة فتعثر وتسقط لتتلفها نار جهنم. هناك أنجرا مايو نفسه يسوم المذنبين سوء العذاب. أما من تساوت سيئاته وحسناته فيعبر الصراطا إلى مكان وسط بين النعيم والجحيم، حيث يستمر في وجود ناهت كظل تبعي بلا إحساس.

هذا وتقدم شروحات اللاهوتيين الزرادشتيين مزيداً من التفاصيل حول هذه القيامة الفردية. فبعد أن يُودع الميت مثواه الأخير تمكث روحه عند رأسه ثلاث ليال تتأمل في حسناتها وسيئاتها. وخلال ذلك يزورها ملائكة الرحمة إن كانت من

الصالحين، أو شياطين العذاب إن كانت من الكافرين، فيسومونها سوء العذاب. وفي اليوم الرابع تُساق الروح إلى جلسة الحساب، وبعد اجتياز الميزان الذي يقرر مكانها تتجه إلى الصراط، وهو عبارة عن جسر يشبه السيف فإذا كان العابر روحاً خبيثة فإن السيف يستدير بطرفه الحاد نحو الأعلى، فتخطو الروح عليه ثلاث خطوات هي الفكر السيء والقول السيء والعمل السيء، وعندما تحاول الخطوة الرابعة تنزلق إلى مهاوي جهنم. أما إذا كان العابر روحاً طيبة فإن السيف يستدير بطرفه العريض لتعبره الروح إلى الطرف الآخر بسلام. وفي رواية أخرى، نجد أن الصالح بعد خطواته الأولى على الصراط قُب عليه روائح عطرة آتية من الجنة، وعند منتصف الصراط تظهر له فتاة في ريعان الصبا لم تقع العين في الحياة الدنيا على أجمل منها. فيسألها من أنت؟ فتقول أنا عملة الطيب، ثم تأخذ بيده إلى الجنة. وأما الإنسان الطالح فيبعد خطواته الأولى على الصراط قُب عليه ريح تننت من أعماق الجحيم، وعند منتصف الصراط تظهر له عجوز شمطاء تنه لم تقع العين على أفبح منها، فيسألها من أنت؟ فتقول أنا عملة السيء ثم تقبل عليه وتعانقه فيهبويان معاً إلى الجحيم.

يتألف الجحيم من عدة طبقات يقع أسفلها في مركز الأرض، حيث يتكاثف الظلام حتى يمكن إمساكه باليد، وحيث يتصاعد نتن لا تطيقه نفس بشرية أو شيطانية. فتستقبل كل طبقة أهلها حسب فداحة ذنوبهم، ويُقدم لهم من صنوف العذاب ما يوازونها. أما السماء فتتصاعد على ثلاث درجات تقابل الفكر الحسن والقول الحسن والعمل الحسن. والدرجة الأولى عند خط النجوم والثانية عند خط القمر والثالثة عند خط الشمس. فتصعد الروح هذه الدرجات تاعاً وصولاً إلى السماء العليا غارو — ديمانا، أو مسكن الغناء، وهناك تقيم في بركة وسلام إلى يوم الحساب الأخير.

مع ظهور المخلص ساشنيباط، تحل الأيام الأخيرة وتقترب الساعة. يوم تلفظ الأرض ما أنحمت به من عظام الموتى خلال مراحل التاريخ الثالثة، ويُفرغ الجحيم والفردوس من سكانهما ليعودوا إلى الحشر العظيم. هناك يلتقي من مات منذ آلاف السنين بمن بقي حياً إلى يوم الدينونة، ليأتي الجميع إلى الحساب الأخير. في ذلك اليوم، يسلط الملائكة ناراً على الأرض تذيب معادن الجبال وتشكل هراً من السائل الناري ما

من أحد إلا وارده. فأما الأنهار فيعبرونه كمن يخوض في نهر حليب دافئ، ومـ
الأشجار فينجرفون في التيار الذي يفنيهم ويمحو عن الأرض أثرهم بعد عذاب إليه.
ويكون جند الظلام قد اندحروا في المعركة الفاصلة مع جند النور واستوصلت
شأفتهم، فيغوص نهر النار إلى أعماق الجحيم حيث لجأ انجرا ماينو ومن بقي معه،
فيلتهمهم جميعاً ويتم التخلص من آخر بقايا الشر. كما أن الجحيم نفسه يتطهر مثلما
تطهرت بقية أجزاء الكون، ويغدو إقليماً من أقاليم الأرض الزاهرة. عند ذلك يعيش
الذين عبروا نهر النار سالمين في أرض جديدة وتحت سماء، هي نفس الأرض ونففس
السماء وقد تطهرتا وصارتا نقيتين إلى الأبد. ثم يقوم أهوا مزدا بإسقاء هؤلاء الأنهار
سراب الخلود الذي يجعل أرواحهم وأجسادهم في اتحاد أبدي، ويغدون خالدين في
جنة وسعها السماوات والأرض كل بقعة فيها ربيع أخضر دائم، وتحتوي على كل
شجر وثمر وزهر.

الأخلاق والعبادات

الواجب الخلقي

يقف الإنسان على قدم المساواة مع الأميشا سبينتا وبقية الكائنات القدسية في
مسؤوليته عن مكافحة الشر في العالم. وعليه بالدرجة الأولى أن يُعنى بأخيه الإنسان
وببقية مخلوقات الأرض، لأنهم جميعاً صُنعوا بالله الواحد. كما عليه أن يرعى جسده
وروحه معاً. وتحقق رعاية الجسد من اتباع الفرد لقواعد البطافة والصحة العامة،
والاعتدال في الأكل والمشرب وتجنب الإفراط في كل شيء. أما رعاية الروح فتتحقق
من اتباع النظام الأخلاقي السليم الذي اختطه النبي، والذي رغم تشعبه يتلخص في
ثلاثة عناصر هي: الفكر الحسن، فلا يتداول الفرد في عقله إلا الأفكار الطيبة ويبعد
عنه الأفكار الخبيثة. والقول الحسن، فلا يصدر عنه سوى الكلام الطيب. والعمل
الحسن، الذي يفيد به نفسه وعائلته ومجتمعه، ولا يبادر إلى ما فيه أذية لمخلوق قط.
فالإنسان هو أنبل خلق الله، وعليه أن يستخدم ما وهبه الله من وعي وذكاء لأجل
الارتقاء بالعالم نحو المستوى الواحد والجليل الذي ينتظره في آخر الزمان. كما أن

الخلاص الذي يسعى إليه الإنسان ليس فقط خلاصاً فردياً من رقعة سوداء إلى دار
الخلود، ولا حتى خلاصاً جمعياً للإنسانية طرة، بل هو خلاص للعالم بأسفاره. لأن
الإنسانية تتخذ مكان المركز في خلق الله، وإسبها وحدها تقع مسؤولية تحرير هذا
الخلق بكفها من سلطة الشيطان.

الطقوس والأعبادات

كانت بداية الأعبادة التي أسسها زرادشت بداية بسيطة لا تعتمد إلا على قليل
من الطقوس والشكليات الدينية. وفيما عدا الأساطير القليلة الأساسية المتعلقة بنشأة
عالم الخير وعالم الشر، وتلك المتعلقة بالمخلص ونهاية الزمن لم يكن للميتولوجيا دور
في المعتقد الزرداشتي، وحتى هذه الموضوعات الأسطورية الأساسية لم تُعالج في أناشيد
الغائنا بأسلوب القصص الميتولوجي، وإنما بالإشارات الموحزة والصور الشعرية البليغة
التأثير، الأمر الذي ترك شخصياتها أقرب إلى المفاهيم المجردة منسها إلى الشخصيات
المجسدة.

دعا زرادشت المؤمنين إلى خمس صلوات في اليوم، تقام عند الفجر والظهيرة
والعصر والمغرب ومنتصف الليل. وتتخذ صلاتا الظهيرة ومنتصف الليل أهمية خاصة،
لأن منتصف النهار هو الوقت الذي تكون فيه قوى النور في ذروة سيطرتها على العالم،
الذي يشبه عندها ما كان عليه في كمال البدايات. أما منتصف الليل فهو الوقت الذي
تكون فيه قوى الظلام في ذروة فعاليتها، فيقوم المؤمنون لإيقاد النار دعماً لقوى النور
ولترتيل الصلوات. وتسبق الصلاة عملية الوضوء التي تتضمن غسل الوجه واليدين
والقدمين. بعد ذلك يقف المصلي منتصباً مسبل الدراعين في حضرة أهورا مزدا، ويتلو
في صلاته مقاطع خاصة من أناشيد الغائنا كان زرادشت نفسه يتلوها في صلاته. ولكن
بمرور الوقت وغياب لهجة الغائنا القديمة عن الاستخدام اليومي، عمد الكهنة إلى إضافة
نشيد طقسي منظوم بلهجة أكثر حداثة يُدعى الياسنا، ويتألف من فصول قصيرة
تحاكي في سبها أسلوب الغائنا. وبينما تكون عين المصلي مشتتة على النار المقدسة
أمامه، يقوم بحل سالة ويمسك به بكلتا يديه، وفي نهاية الصلاة يقوم المصلي بإعادة
الشال إلى وسطه فيلفه ثلاث مرات ثم يعقده من الأمام ومن الخلف إشارة إلى عنصر

دأحلاق الزرادشتية الثلاثة. وهذا الشال هو الشارة التي يميز بها الزرادشتيون أنفسهم. كما أن حله وإعادة ربطه هو فعل طقس يرمز إلى تمسك المؤمن بتعاليم النبي وتذكره على الدوام.

تتحلى بساطة الديانة الأصلية التي بشر بها زرادشت في غياب الهياكل والمعابد والمذابح. فلقد مع زرادشت تشييد أماكن خاصة للعبادة، لأن الله موجود في كل مكان ويمكن التوجه إليه بالصلاة في أي مكان ظاهر. كما منع النبي صنع الصور والمنحوتات لأهورا مزدا ولبقية الكائنات القدسية السماوية. لذا فقد خلت المراكز الحضرية للمملكة الأخمينية من المعابد الضخمة التي عرفتها بقية ممالك المنطقة المشرقية، كما سار الملوك الأخمينيون الأوائل على خطى المعلم في تحريمهم للتمائيل والصور، فكانت الصلوات تقام في البيوت أو في أماكن مفرزة للعبادة في الهواء مطلق ومزودة بموقد للنار المقدسة. وقد ذكر المؤرخ الإغريقي هيرودوتس (٤٨٥ - ٤٢٥ ق.م) أن الفرس كانوا يحتفرون المعابد ويرون فيها حطية، لأن الله الذي لا تسعه السماوات والأرض لا يسكن في بيت مصنوع بيد الإنسان. ويصف الجغرافي والمؤرخ الأغريقي سترابو (٦٤ ق.م - ٢٣م) بقايا معبد أقامه الملك قورش، فيقول بأنه كان عبدة عن تلة في الهواء انطلق محاطة بجدار يصعد بها المؤمنون للصلاة. ولكن اردشير الثاني (٤٠١ - ٣٥٩ ق.م)، الذي جاء بعد قورش بأكثر من قرن ونصف، خرج على هذه التقاليد وكان أول من بنى المعابد الضخمة على الطريقة البابلية وصنع صوراً للكائنات السماوية. وهذا ما تبينه لنا آثار العاصمة الفارسية القديمة.

استطاع اردشير الثاني استمالة فريق من الكهنة إلى معابده فراحوا يقودون فيها الصلوات. إلا أن فريقاً آخر عارض ذلك ورأى فيه انتهاكاً للمعتقدات التقليدية. وقد بدأ الكهنة المعارضون، وبدعم من الجماهير المؤمنة، يردون على هذا الإجراء بإقامة معابد لهم تنصدها شعلة أنار المقدسة بدلاً من تماثيل الآلهة، وبذلك ظهرت لأول مرة معابد النار في إيران. وتيقاً فشيئاً أخذت نار المعبد تكسب قدسية خاصة بها، بعد أن كانت مجرد رمز للألوهة الخافية، وأخذ أهل الديانات الأخرى يصفون الزرادشتيين

بأنهم عبدة النار. ومثل الوصف لم يرد في كتابات المؤرخين الذين تحدثوا عن إجلال الإيرانيين للنار دون أن يصلوا حد القول بعبادتها. لقد قاد نشوء معابد النار إلى إحداث تغييرات عميقة في الديانة الزرادشتية، فبعد البساطة التي ميزت الممارسات الدينية في السابق، انتشرت المعابد الدينية الضخمة والباذخة، ونشأت طبقة جديدة من الكهنة المتفرغين لطقوس النار التي زادت تعقيداً مع الزمن وبعداً عن بساطة الطقوس الأصلية. وقد عُرفت هذه الطبقة من كهنة النار تاريخياً باسم ماسجي، وباليونانية ماجوس، وبالعربية مجوس.

طقوس الموت: تحتل طقوس الموت حيزاً هاماً من الطقوس الزرادشتية اللاحقة على عصر الهي. وهي تقوم على نظرة زرادشت إلى الموت على أنه ناتج من نواتج فعاليات الشيطان في العالم. فأجساد الأحياء تنتمي إلى عالم أهورا مزدا أما حدث الموتى إلى عالم أنجرا ميانو، فهي خبيثة ونجسة، لا فرق بين جثة إنسان وجيفة حيوان، ولا بين جثة إنسان صالح وجثة إنسان شرير. إن لمس أية جثة هو مصدر للنجاسة وعلى من احتك بها أن يظهر نفسه بالماء. كما أن أي جزء مقتطع من جسم الحي مثل قصاصات الشعر والأظافر هو جزء ميت ويجب عدم الاحتكاك به. وبالمثل أيضاً، فليد نَفَس الزفير الذي يطلقه الكائن الحي من رثته هو هواء ملوث بالموت، على عكس نَفَس الشهيق الذي يحمل الحياة. لهذا كان كهنة النار يضعون كمادات قماشية على أفواههم عندما يقتربون من الشعلة المقدسة. وجميع الحيوانات التي تتغذى على الجثث مثل النمل والذباب والكلاب والصباع وما إليها هي حيوانات نجسة يجب قتلها أينما وجدت لأنها وكلاء للشيطان. وقد قاد تابو الموت هذا إلى إفراز جماعة من الاختصاصيين بشؤون التخلص من الجثث، وهم الذي يقومون بطقوس الجناسات ويعرفون كيف يطهرون أنفسهم عقبها. أما عن الدفن، فإن صرامة تابو الموت كلنت تحظر وضع الموتى على تراب الأرض مباشرة كي لا تلوثه، فكانت الجثة تسجى على مصطبة حجرية في سفع جبل أو في منطقة نائية مهجورة، حيث تترك مكشوفة في العراء حتى تتحلل بتأثير العوامل الطبيعية أو انقضااض الجوارح عليها. وبعد فترة كافية لتحلل الجسد تدفن العظام تحت التراب في انتظار يوم لنشور.

قواعد الطهارة: لم تضاه الزرادشتية قبلها ملة في الحفاظ على طهارة الجسم واللبس والمأكل. ويأتي حرص الزرادشتي المبالغ به على النظافة، من اعتقاده بأن الفساد والتحلل والعفونة وكل أنواع القذارة هي من عمل أنجرا ماينو. من هنا، فإن النظافة والبعد عن الاحتكاك بكل ما هو قذر وملوث شأن يعادل الصلاة والعمل الطيب، لأن في التزام قواعد الطهارة محاربة لقوى الشيطان ووقوفاً إلى جانب الرحمن. وبذلك يستطيع الإنسان مساهمة في محاربة الشر الكوني من خلال أدائه لأصغر واجباته اليومية.

لا يمكن سرد جميع قواعد النظافة التي راكمتها الشريعة الزرادشتية عبر العصور، وإنما يفي بالغرض التعرض لأهمها وهي المتعلقة بالطعام والماء والنار والدم. فالطعام ينبغي أن يُحضّر وفق قواعد صارمة تمنع احتكاكه بأي مصدر للقذارة، كما ينبغي أن يؤكل في خشوع مثلما تؤدي الطقوس الدينية، لأن كل مكوناته هي بشكل أو آخر من مخلوقات الله الأخرى. وأما الماء فيجب التأكد من كونه نظيفاً وطاهراً وأنه قد نُضح من مصدر غير ملوث قبل استهلاكه في الشرب والطبخ والاعتسال. وفيما يتعلق بالنار المنزلية أو النار الطقسية، فإن وقودها يجب أن يقتصر على القش والعيسدان والخطب، وأن لا يُحرق فيها الروث والقمامة وما إليها. وبدلاً من حرق فضلات المنازل، فإنها تُنقل إلى أماكن بعيدة خاصة حيث تجري معاملتها بالسوائل الحمضية. ويشكل الدم مصدراً للنحاسة في حال سيلانه من الجسم، لأن هذا السيلان هو شكل من أشكال اختلال الحالة الفيزيولوجية السليمة للكائن الحي، وعرضٌ من أعراض اقتحام قوى المرض والموت. وعلى المتلوث تطهير نفسه بوسائل شتى تختلف باختلاف كمية الدم ومكان الجرح وملابس الإصابة. كما أن على النساء في فترة الطمث عدم ممارسة الطبخ والأعمال المنزلية، ومراعاة عدد من قواعد الغسل والطهارة.

وبما أنه يصعب على المرء تجنب الاحتكاك بمصادر النحاسة تجنباً مطلقاً، فقد وضع فقهاء الشريعة أصولاً معينة للتطهير بما يتناسب مع درجة التلوث. وغالباً ما يوصي المنتحس بالاغتسال بالماء من رأسه إلى أخمص قدميه. غير أن بعض درجات التلوث تستدعي الاستعانة بالكاهن الذي يقوم بتلاوة الآيات المقدسة، ويسير بالمنتحس

عبر مراحل تطهيرية متعددة قد تستمر بصعوبة أيام. وتشغل هذه الإجراءات التطهيرية وكيفية تطبيقها جزءاً من برامج إعداد وتدريب الكهنة الذين يتوجب عليهم أنفسهم مراعاة أدق وأصعب قواعد النظافة والطهارة.

التطور التاريخي

بعد وفاة زرادشت بقيت تعاليمه الأصلية التي بثها في أناشيد الغائا، بمثابة الإنجيل الذي يحتفظ جوهر الدين ويجمع المؤمنين حول العقيدة والأخلاقيات والشعائر الزرادشتية. ونستدل من لهجة الغائا المخرقة في القدم، أنها قد حُفظت في شكلها الأصلي، دون أن يمسه تعديل جوهري، عبر التداول الشفهي الطويل مما سبق عصر التدوين. ولكن الشكل الأدبي الرفيع الذي صيغت به الأناشيد وأسلوبها المختصر البليغ، قد دعا الكهنة إلى التوسط من أجل شرحها وبسط وتطوير أفكارها للناس العاديين. وقد تراكمت هذه الشروحات تدريجياً حتى شكلت مصدراً آخر من مصادر الدين الزرادشتي، وبذلك ولدت مجموعة الأفيستا والأفيستا الصغرى، اللتان اتخذتا شكلهما شبه التام نحو نهايات الفترة الأخمينية. ثم تطلبت الأفيستا بدورها الشرح والتفسير، فنشأ على هامشها كتاب الزند، أو الزندأفيستا (أي شروحات وتعليقات على الأفيستا) لم تدون هذه الأدبيات الدينية خلال الفترة الأخمينية بسبب عزوف الكهنة عن استخدام الكتابة لحفظ النصوص المقدسة، لأنهم رأوا في الكتابة شائناً دنيوياً واعتبروها تدنيساً للنص. ولكن الأفيستا صدرت مهددة بالصياح عقب غزو الإسكندر المقدوني وما تلاه من فترة انقود السلوقية، فأمر الملك البارثي فلاكش (حوالي عام ٦٠ ق.م) بجمع أسفارها من شتى المناطق ومقارنتها من أجل تثبيتها كتابة في صيغتها النهائية المعتمدة. غير أن هذه مهمة لم تنجز كاملة إلا في عصر الملك الساساني كسرى أنو شروان، عندما تم تدوين الأفيستا في واحد وعشرين جزءاً يتصدها الجزء الخاص بأناشيد الغائا.

ولقد لعب كهنة الماجي، أو المجوس، دوراً مهماً في تحرير وتطوير الأفيستا وهؤلاء المجوس ينتمون إلى قبيلة ماجي، وهي قبيلة متخصصة في الشؤون الدينية، يغلب

أنها من أصول ميدية. ويرجح بعض الباحثين أن المجوس كانوا على الديانة الإيرانية التقليدية ثم تحولوا إلى الزرادشتية حتى لا يخسروا مكانتهم الاجتماعية، وبنوا فيها الكثير من معتقداتهم وأفكارهم وطقوسهم القديمة. لهذا السبب عُرفوا في العالم القديم في استقلال عن الدين الزرادشتي باعتباره حكما متضلعين بالسحر والتنجيم والمعارف السرائية. لقد أدخل المجوس العديد من آلهة الديانة الهندو - إيرانية القديمة إلى المعتقد الزرادشتي، كما تبوا بعضاً من آلهة البانتيون الرافيدي وعلى رأسها عشتار التي اتخذت في إيران اسم أناهيتا أي البتول. وأخذت عبادة أناهيتا بالانتشار منذ عهد الملك الأخميني اردشير الثاني، الذي كان أول من بنى المعابد وصنع صوراً للكائنات القدسية. كما وسع المجوس مفهوم زرادشت عن قوى النور وقوى الظلام وبنوا حوله لاهوتاً متكاملاً عن مجمع الملائكة ومجمع الشياطين، فصارت الملائكة التي تعمل تحت إمرة الأميشا سبينا تعد بالآلاف؛ وكذلك الشياطين التي تعمل تحت إمرة إنجرا مانيو. وتحول الأميشا سبينا من قوى مجردة غير مشخصة إلى كائنات إلهية لكل منها وظيفة محددة في نظام الكون والطبيعة، وصارت فروض العبادة والتقديس تُقدم إليها بما هي كذلك. ومن أهم التحريفات التي أدخلها المجوس على العقيدة الزرادشتية، أنهم جعلوا أنجرا مانيو على قدم المساواة مع أهورا مزدا، ونظروا إليهما كخصمين متصارعين منذ البداية. وبذلك تحول أهورا مردا من إله يسمو فوق الروحين المتنافسين اللذين صرنا عنه، إلى طرف مباشر في الثنوية الكونية.

وفي عقيدة الزورفانية، التي طورها فريق من المجوس، صار أهورا مزدا وأنجرا مانيو. الذي اتخذ اسم أهريمان، ابين توأمين للإله زورفان وهو الرمان. وقد عهد زورفان إلى أهورا مزدا بمهمة خلق العالم ليغدو مسرحاً للصراع المكشوف بين قوى الخير وقوى الشر. وحدد لصراعهما فترة محددة تنتهي بغلبة أهورا مزدا على خصمه أهريمان. وبقي زورفان بمثابة العلة الأولى والإطار الذي تحري ضمنه أحداث الكون. وقد انتقلت هذه العقيدة من هرطقة تعيش على هامش رادشتية الأفيستا إلى دين رسمي للدولة في عهد الساسانيين الذي حول الزرادشتية من ديانة عالمية تتوجه لجميع بني البشر، إلى ديانة قومية خاصة بإيران. وهذا ما أضعف موقف الزرادشتية تجاه الديانات العالمية اللاحقة وخصوصاً المانوية ثم المسيحية فالإسلام.

خلاصة - ميراث الزرادشتية

رغم امتلاك الزرادشتية لكل مقومات الديانة الشمولية العالمية، إلا أنها لم تمارس نشاطاً تبشيراً خارج إيران بعد موت معلمها. ورغم ذلك فقد انتشرت الأفكار الزرادشتية شرقاً وغرباً ودخلت في نسيج الديانات اللاحقة لها، حتى وصلت تأثيراتها إلى بوذية المهايانا في الصين. أما تأثيراتها المشرقية فتعزى بالدرجة الأولى إلى عودة المهجرين الذي سباهم ملوك آشور وكلدان. فلقد طالت سياسة التهجير كل المناطق الواقعة تحت سيطرة آشور من إيران والخليج العربي صعوداً إلى جبال طوروس فهبوطاً نحو الساحل الفينيقي وصولاً إلى حدود مصر. وقد وصلنا حتى الآن ١٥٠ نصاً آشورياً تذكر عملياتترحيل واسعة النطاق، والشعوب التي طالتها هذه العمليات، والمناطق التي تم تهجيرها إليها. ومنها نعرف أن الجزء الأكبر من عمليات الترحيل كان باتجاه مناطق آشور الرئيسية في مدن العاصمة آشور وكالخ ونينوى ودور شاروكين. وعندما دمر الكلدانيون آشور تابعوا سياسة السبي والتهجير ولكن على نطاق أقل بكثير. ثم ورث الفرس الأخمينيون الإمبراطورية الكلدانية، وأعلن الملك قورش من بابل بيانه المشهور الذي يتضمن السماح للشعوب المنسية بالعودة إلى مواطنها. ولكن هذه العودة لم تتم بين ليلة وضحاها بل استغرقت أكثر من قرن من الزمان، وهي فترة كافية لاحتكاك المسبيين بالفرس عن قرب والتأثر بأفكارهم الدينية.

قدمت الزرادشتية عدداً من الأفكار الجديدة على تاريخ الدين، بعضها مازال فاعلاً ومؤثراً في الحياة الروحية للمليارات البشر في شتى أنحاء المعمورة، وأهمها:

١ - التاريخ الدينامي: حيث يسعى الزمن بين بداية محددة هي زمن الخلق والتكوين، ونهاية محددة يعقبها تحوّل كامل للوجود بأسره إلى مستوى ماحد وجليل يليق بخلق الله. ففي مقابل مفهوم التاريخ المفتوح للديانات الشرق أوسطية، والتاريخ الدائري المغلق للديانات الهندية والشرق أقصوية، قدم زرادشت مفهوماً عن تاريخ ذي معنى يسعى أبداً نحو غاية مثلى يحققها الكون والطبيعة والمجتمع الإنساني من خلال عملية تطوير وتطهير دائبة ومتصاعدة.

٢ - الطلعة الأخلاقية للوجود: فالإله الأعلى إله أخلاقي، والعلاقة بين الله والإنسان علاقة أخلاقية بالدرجة الأولى، أما الطقوس والعبادات فليست وسيلة لإظهار الخضوع للخالق، بل هي تنقية للنفس من شوائب الشر وتقويتها على مقاومته. ثم إن الأخلاق تتجاوز علاقة الله بالإنسان وعلاقة الإنسان بأحبه، لتغدو مبدأ مزروعاً

١) الخليفة بأكملها. فالكون ذو - أخلاقي وضرورة الوجود طابعاً أخلاقياً منذ البداية.

٣ - تعاون الله والإنسانية: الإنسان شريك لله في المشروع الكوني الرامسي إلى مكافحة الشيطان واستعادة كمال البدايات. إن أقصى ما يصبو إليه الإنسان في ديانات الشرق القديم هو اكتساف مشيئة الآلهة والتطابق معها، خلال حياة لا معنى لها ولا غاية وزمن مفتوح على اللانهاية. كما أن أقصى ما يصبو إليه الإنسان في ديانات الشرق الأقصى هو فهم العالم وليس إصلاحه. فالعالم غير قابل للإصلاح وهو يسير وفق قوانين أزلية ثابتة في دورة تكرارية أزلية أبدية. أما الزرادشتية فترى أن العالم قابل للإصلاح والتغيير بشكل جذري، ومسؤولية هذا الإصلاح تقع على عاتق الإنسان بالدرجة الأولى.

٤ - وحدانية الإله: رغم وجود اتجاهات توحيدية واضحة في الديانات السابقة على الزرادشتية، سواء في مصر أم سورية وبلاد الرافدين، إلا أن زرادشت كان أول من قدم مفهوماً صافياً عن التوحيد وصاغه في أيديولوجية متماسكة ومتكاملة.

٥ - أصل الشر وفكرة الشيطان: رغم وجود الكائنات الماورائية الشريرة في جميع المعتقدات القديمة عبر التاريخ، إلا أن زرادشت كان أول من تصور وجود مبدأ كوني للشر، هو غلة الفساد والنموذج البدئي لكل الشرور المتبدية في العالم، وجسد هذا المبدأ في شخصية ما وراثية كبرى. وبدلت قدمت الزرادشتية أول تفسير مقبول لوجود الشر في العالم. رغم قوة الشيطان ومنازعته للرحمى السلطة على العالم، إلا أنه ليس لها أريجاً ولا حالداً وسوف يؤول إلى الخسران أخيراً. وبذلك يكون المعتقد الزرادشتي ثنوياً في نظره إلى العالم في حالته الراهنة التي تمتزج فيها عناصر الخير بعناصر الشر، وتوحيدياً صافياً في نظره إلى جوهر الكون وحقيقته ومآله.

٦ - حرية الإنسان: عندما خلق الله الكائنات السماوية والكائنات البشرية، وهبها الخاصية الأساسية التي تميز الوعي عن المادة الجامدة، وهي الحرية. لأن الوعي بدون الحرية ليس إلا شكلاً آخر من أشكال وجود الجمادات. فالإنسان بحراً في حياته ولا يخضع لأية جبرية. وحرية هذه تستدعي مسؤوليته، كما تستدعي في النهاية محاسبته، لأن كل مسؤول محاسب، ولا حساب حيث لا مسؤولية.

٧ - مفهوم الإنسانية: لأول مرة في تاريخ الفكر الإنساني، يظهر في الزرادشتية مفهوم واضح عن "الإنسانية". فالإنسانية ليست تجمعاً لأفراد يُعنى كل منهم بمصيره ويسعى لخلاص خاص به، بل هي مجتمع موحد بجميع فئاته وقومياته وقوانينه، يلعب دوراً واحداً في حركة التاريخ ومآله.

٨ - المسائية: يتوج كفاح الإنسانية ضد الشر بظهور المخلص. وهذا المخلص رغم تفوقه وكماله، إلا أنه إنسان حقيقي ومن أبوين بشريين رغم ميلاده الإجملي من بذور زرادشت المحفوظة في الحيرة. إنه يشكل ما نمودج الإنسان الأسمى الذي أنتجته الإنسانية عبر محاصرها الطويل لكي يتوج مهمتها. هذه التصورات الدينية المتعلقة بالمخلص انتظر، دعيت لاحقاً بالمسيحية نسبة إلى كلمة ميسياً، وهي كلمة آرامية - عبرانية تعني المسيح المنتظر في آخر الدهر^(١).

٩ - مصير الروح: تشبه التصورات الزرادشتية حول مصير الروح، إلى حد بعيد التصورات الأوزيرية في الديانة المصرية، فأرواح الموتى تغادر أجسادها بعد الموت لتنتج إلى مكان الحساب حيث توزن حسناتها وسيئاتها، فإما إلى نعيم وإما إلى جحيم. ولكن الأوزيرية لم تربط مسألة الثواب والعقاب بتصور واضح عن حركة التاريخ، لأنها رأت في الرمز سيالة مفتوحة على اللانهاية شأنها في ذلك شأن بقية المعتقدات الشرق أوسطية. أما الزرادشتية فقد وضعت فكرة الثواب والعقاب في سياق مفهوم ومتسق عن تاريخ ديامي ذي معنى وغاية، وربطتها بمفهوم الحرية والمسؤولية. كما ربطت مسألة الخلود بالتصورات الأخروية عن نهاية الزمن وتحديد العالم.

(١) المسيا بالمعنى الأصلي هو المسموح بالزيت. وكان طقس المسح بالزيت في التوراة وفقاً على مختاري السوب الذين اصططاهم حكم إسرائيل. ثم سرى هذا الطقس فيما بعد على الكاهن الأكبر.

١٠ - نهاية الزمن وتجديد العالم: ليست فكرة فناء العالم القديم وتجديده بالفكرة الغربية تماماً في تاريخ الدين. ففي العديد من ميثولوجيات العالم القديم نجد أن العالم يفتنى إما بطوفان شامل أو بار سماوية ثم يعود سيرته الأولى. وفي الهندوسية يتم تدمير العالم وإعادة خلقه عقب كل دورة كونية كبرى. ولكن جديد الزرادشتية هو تقديمها لأول مرة مفهوماً عن نهاية العالم مرتبطاً بنهاية الزمن ونهاية التاريخ. فالعالم لا يفتنى لكي يعود سيرته الأولى ضمن نفس الزمن الخطي أو الزمن الدوري التناوبي، لكن نهاية العالم تعني في الزرادشتية تغييره جذرياً والخروج به من الزمن ومن التاريخ إلى السرمدية. يضاف إلى ذلك أن تجديد العالم يترافق مع البعث العام للأجساد وعودة الأرواح للقاء أجسادها والاتحاد بها اتحاداً أبدياً لا ينقسم، وهي فكرة جديدة كلياً على تاريخ الدين.

هذا هو ميراث الزرادشتية الذي يجعل منها نقطة علام بارزة في تاريخ الدين الإنساني، وإلى درجة يمكن معها تقسيم هذا التاريخ إلى ما قبل الزرادشتية وما بعدها.

مراجع المادة المعلوماتية المستخدمة في هذا الفصل:

- 1- Mary Boyce, Zoroastrians . Routledge . London 1985
- 2- R. C. Zaehner: The Dawn and Twilight of Zoroastrianism , Panta's sons, London 1961
- 3- J. B. Noss, Man's Religions . McMullan , London 1974 . P 336 ff
- 4- Joseph Campbell , Occidental Mythology . Penguin , London 1977. p 189 ff
- 5- Gerardo Gonoli, Zoroastrianism In: Encyclopedia of Religion. MacMillan: London 1987 , vol. 15
- 6- The New Encyclopedia Britanica: 15 th Edition

الشيطان في التوراة

بين إشكالية التوحيد وإشكالية الأخلاق

يعزو الباحثون الغربيون غياب شخصية الشيطان الكوني عن المعتقد التوراتي إلى حرص محرري التوراة على وحدانية يهوه، وتنقية مفهوم الإله الأعلى من أية ظلال قد تجنح به إلى ثنوية، أو تعددية كان الدين الشعبي اليهودي ميالاً إليها على الدوام. ولكن الأمر كما نراه، هو أن غياب الشيطان الكوني واقتصار ممثل الشر في التوراة على دور ثانوي جداً، يرجع بالدرجة الأولى إلى قيام إشكاليتين رئيسيتين لم يتوصل الفكر التوراتي إلى حلها حتى نهاية فترة تدوين الأسفار القانونية، وهما إشكالية التوحيد وإشكالية الأخلاق. فمن جهة أولى، لم تتوصل الإيديولوجيا التوراتية إلى مفهوم صافٍ للوحدانية بخصوص الإله يهوه، كما لم تتوصل إلى ربط الأخلاق بالدين وإلى رسم صورة إله أخلاقي يجمع إليه كل الكمالات، ويؤسس لصلة بينه وبين العالم والإنسان قائمة على الأخلاق. الأمر الذي حرم الإيديولوجيا التوراتية من أهم عنصرين لازمين لبناء شخصية متكاملة للشيطان في أي معتقد ديني.

إشكالية التوحيد

لكي نفهم إشكالية التوحيد في التوراة، علينا أن نوضح، ابتداءً، الفرق بين مفهومين دينيين يجري الخلط بينهما في معظم الأحيان، وهما مفهوم التوحيد ومفهوم وحدانية العبادة. فالتوحيد هو الاهتمام إلى فكرة الله. والله ليس إلهاً أعلى شأنًا من بقية الآلهة المتحركة في مظاهر الطبيعة وما وراء الطبيعة، بل هو الألوهة الوحيدة الخالصة،

والتبعية في كل مظاهر الكون والطبيعة. إنه العلة الأولى والمآل الأخير. مستنداً السببية ونهايتها. أما وحدانية العبادة فهي شكل من أشكال التعددية (=التشرك = الوثنية) يتميز بعبادة إله واحد والإخلاص له، من دون بقية الآلهة التي لا يُنكر وجودها وإنما تُستبعد من الحياة الدينية للجماعة لصالح ذلك الإله المعبود. اعتماداً على هذا التمييز بين المفهومين، يمكننا القول بأن المعتقد التوراتي كان معتقد وحدانية عبدة لا معتقد توحيد بالمعنى الدقيق للمصطلح، وإن الانتقال من المفهوم الأول إلى الثاني لم يتحقق تماماً، حتى في أسفار الأنبياء التي وصلت إلى عتبة التوحيد دون أن تتخلص من الإرث الإيديولوجي التقليدي.

لقد نشأت وحدانية العبادة في التوراة عندما قام أحد الآلهة الفلسطينية المدعو يهوه بإبرام عقد يسه وبين الأسلاف المفترضين بين إسرائيل. ومضمون هذا العقد (الذي سمي عهداً) هو أن يعبد أولئك الأسلاف وذريتهم من بعدهم الإله يهوه من دون بقية الآلهة، مقابل تقديمه الحماية والعون لهم وإعطائهم أرض كنعان (=فلسطين) سكناً لهم بعد انتزاعها من أهلها. نقرأ في سفر التكوين ١٧ عن أول صيغة لهذا العقد بين يهوه والأب الأول إبراهيم: « وأقيم عهدي بيبي وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم، عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان ملكاً أبدياً، وأكون إلههم » ١٧: ٧ - ٨. ثم تجدد يهوه عقده هذا مع إسحاق وابنه يعقوب من بعده. وبعد ذلك بأكثر من أربعمئة سنة يعود إلى تجديد العهد مع موسى وشعبه، لقاء إخراجهم من مصر وتحريرهم من العبودية. نقرأ في سفر الخروج ٦ على لسان يهوه: « قد سمعت أنين بني إسرائيل وتذكرت عهدي. لذلك قل لبني إسرائيل: أنا الرب، وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين، وأتحدثكم في شعباً وأكون لكم إلهاً وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأعطيكم إياها ميراثاً » ٦: ٦ - ٨.

يتضح لنا معتقد وحدانية العبادة منذ أول وصية تصدرت الشريعة التي أنزلها يهوه على موسى. نقرأ في سفر الخروج ٢٠: « ثم تكلم الرب بجميع هذه الكلمات قائلاً: أنا الرب الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ... لأنني أنا الرب إلهك، إله غيور » ٢٠: ١ - ٥. ففي هذا المقطع الذي

سوف يتكرر مضمونه حتى آخر الأسفار، نلاحظ أن يهوه لا يدعي الوحداية وإنما يطالب بأن يكون المعبود الوحيد من دون بقية الآلهة التي تثير غيرته، فهو إله غيور، لا يحتمل وجود آلهة أخرى إلى جانبه، على عكس بقية آلهة الشرق القديم التي لم تستبعد بعضها بعضاً وإنما شكلت فيما بينها مجتمعاً منظماً أدق التنظيم. وما هو يخاطب موسى مرة أخرى مؤكداً على صفة الغيرة الشديدة عنده: « فإنك لا تسجد لإله آخر، لأن الرب اسمه غيور، إله غيور » - الخروج ٣٤: ١٤. وغيرته تشبه ناراً آكلة: « احترزوا أن تنسوا عهد الرب إلهكم الذي قطعه معكم ... لأن الرب إلهك هو نلر آكلة، إله غيور » - التثنية ٤: ٢٣ - ٢٤. ومثايل الآلهة الأخرى تدعى بتمايل الغيرة وهي تميج غيرة يهوه. نقرأ في رؤيا النبي حزقيال: « وأتى بي الملاك إلى أورشليم، إلى مدخل الباب الداخلي المتجه نحو الشمال حيث مجلس تماثيل الغيرة، المنهيج للغيرة » - حزقيال ٨: ٣. وعندما يجدد يشوع عهد الشعب مع يهوه بعد موت موسى يُذكرهم بغيرته: « فالآن اخشوا الرب واعبدوه، وانسرعوا الآلهة التي عبدتهم آباؤكم واعبدوا الرب. وإن ساء في أعينكم أن تعبدوا الرب فاختاروا لأنفسكم اليوم من تعبدون. وأما أنا وأهل بيتي فنعد الرب. فأحابه الشعب وقالوا: حاشا لنا أن نترك الرب لنعبد آلهة أخرى ... لأنه هو إلهنا. فقال يشوع للشعب ... إله غيور هو، لا يغفر ذنوبكم وخطاياكم. وإذا تركتم الرب وعدتم آلهة غريبة يرجع ويسيء إليكم ويفنيكم » يشوع ٣٤: ١٤-٢٠.

وغالباً ما يوصف يهوه بأنه الأعظم بين الآلهة: « من مثلك بين الآلهة يا رب، من مثلك معتزاً بالقداسة » - الخروج ١٥: ١١. وأيضاً: « أي إله عظيم مثل الله^(٢) » - المزمور ٧٧: ١٣. وأيضاً " يا رب، إله الخنود، من مثلك إله قوي، وحقت. من حولك ؟ " - المزمور ٨: ٨٩. كما يلقب بإله الآلهة: " فأحب هو رؤوسين وقالوا: إله الآلهة. الرب إله الآلهة " - يشوع ٢٢: ٢١. وأيضاً: إله الآلهة، الرب تكلم، ودعا الأرض من مشرق الشمس إلى مغربها " - المزمور ٥٠: ١. ونجده أحياناً

(٢) إن لفظ الجلالة "الله" إنما ورد في النص العربي للتوراة، هو ترجمة للكلمة الكنعانية "إيل"، أو الكلمة الأخرى "إيلوهيم" المفصلة لدى محوري الأسفار الخمسة. و "إيل" هو اسم كثر آلهة الكنعانيين، على ما نعرف من نصوص أوغاريت وغيرها من النصوص السورية القديمة.

واقفاً بين الآلهة يصدر إليهم الأوامر: «لله قائم في مجمع الله. في وسط الآلهة يقضى: حتى متى تقضون جوراً وترفعون وجوه الأشرار؟ ... أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كللكم. ولكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون» - المزمور ٨٢: ١-٦. إن هذا المقطع رعم عموضه وغموض هوية أوثنت الآلهة التي يشير إليها، ليؤكد فكرة مجمع الآلهة التي تظهر في مواضع أخرى أيضاً: «لأنه من يعادل في السماء الرب؟ من يشبه الرب بين أبناء الله؟ إله مهوب جداً في جماعة القديسين، وخوف عند جميع الذين حوله» - المزمور ٨٩: ٦-٧. وجماعة القديسين في هذا المزمور هم أبناء القدس نسل الإله إيل المذكورون في نصوص أوغاريت. نقرأ في النص ١٢٩ من ملحمة بعل وعناة على لسان بعل ما يلي: «أنا ليس لي بيت كما للآلهة، وليس لي مسكن كما لبي القدس». إن مؤدي الفقرة المقتبسة أعلاه من المزمور ٨٩ لتدل بجلاء على أن يهوه ليس الإله الأعلى بل واحد من أبنائه وأعظمهم شأنًا. وهذا ما نجده في مزمور إشكالي آخر يقول على لسان داود: «قال الرب لربي أجلس عن يميني حتى أضع أعدائك موطناً لقدميك» المزمور ١١٠: ١.

وإذا كان التنريه ملازماً لفهوم الله الواحد المتعالى عن الوصف، فإن التشبيه ملازم لفهوم التعددية. ولعلنا غير واحد بين جميع آلهة المشرق القدم إلهاً أكثر شبيهاً بالبشر من إله التوراة. ففي سفر التكوين نجد يقوم بزيارة وديه لمضرب خيام إبراهيم ومعه اثنان من أتباعه، فيتكئون تحت الشجرة ويأكلون عجلاً طبحته سسارة زوجة إبراهيم. نقرأ في الأصحاح ١٨: «وظهر له الرب عند بلوطات مراً وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار. فرفع عينيه وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال: يا سيد إن كنت قد وجدتُ نعمة في عيني فلا تتجاوز عبدك. ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة، فأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم يجتازون. فقالوا هكذا نفعل» ١٨: ١-٥. وفيما هم يستريحون من وعشاء السفر، أمر إبراهيم أحد غلمانته بذبح عجل طري أعطاه لزوجته فطبخته، وعجت خبزاً وجهزت زبداً ولبناً، ووضع إبراهيم ذلك كله أمام صيوفه فأكلوا وشبعوا (١٨: ٦-٩). ثم قام الضيوف ومشى إبراهيم معهم ليشيعهم. وفيما هو يسير جنب الرب، بثه يهوه مكنونات قلبه: «وكان إبراهيم

مشياً معهم ليشبعهم. فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنت فاعسه، وبإبراهيم يحبر. أمة كبيرة وقوية وتبارك به جميع الأمم. إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر. وحسنه قد عظمت جداً " ١٨: ١٦-٢٠.

بعد ذلك يظهر يهوه ليعقوب حفيد إبراهيم، ولكن بطريقة أكثر درامية. فعند وصل يعقوب أرض كنعان قادماً مع أسرته من آرام النهرين حيث تغرب مدة طويلاً ظهر له إنسان عند موقع يدعى مخاضة يوق وصارعه ليلاً. وعندما لم يقدر عليه حتى طلوع الفجر ضربه في موضع الحُق من فخذه (وهو رأس الورك)، فالتلعق حتى يعقوب ولكنه بقي ممسكاً بمخضمه الذي استغاث طالباً لإطلاقه. ولم يكن هذا الخصم المستغيث سوى يهوه نفسه. نقرأ في سفر التكوين ٣٢: « فبقي يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذه، فالتلعق حتى فخذ يعقوب في مصارعه معه. وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال: ما اسمك؟ فقال: يعقوب. فقال: لا يدعي اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟ وباركه هناك. فدعا يعقوب المكان فينثيل قائلاً: لأنني نظرت الله وجهات لوجه ونجيت نفسي » ٣٢: ٢٢-٣٠.

وقد رآه موسى مرتين رؤيا العين، في المرة الأولى من قفاً وفي الثانية من أمام. نقرأ في سفر الخروج ٣٣: "فقال - موسى - أرني مجدك. فقال: لا تقدر أن تسمى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش. هو ذا عندي مكان، فتقف على الصخرة: ويكون متى اجتاز مجدي أني أضعلك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز، ثم أرفع يدي فتظن ورائي وأما وجهي فلا يرى " ٣٣: ١٨-٢٣. ورغم هذا التحذير من رؤية وجه الرب فقد سمح يهوه في مناسبة أخرى لموسى وسبعين شيخاً من شيوخ إسرائيل أن يروه وجهاً لوجه على جبل سيناء. نقرأ في الخروج ٢٤: « ثم صعد موسى وهرون وناداب وأبيهو وسبعون شيخاً معه من شيوخ إسرائيل، ورأوا إله إسرائيل. وتحت رجله شبه صفة من العقيق الأزرق وكذات السماء في النقارة؛ ولكن لم يمسد يده إلى أشراف إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا وشربوا " ٢٤: ٩-١١. وهناك مواجهة ثالثة ذات طابع عفيف بين يهوه وموسى. فبينما موسى عائد إلى مصر من مديان ومعه

صفورة زوجته وابنهما، ظهر له الرب وأراد أن يقتله لأن صفورة منعت في حثان ابنتها. فأسرعت صفورة وأمسكت بحجر صوان مستون وختنت به ثم مست رجل يهوه. ونس الرجلين هنا على ما نعرف من مواضع أخرى في الكتاب هو كناية عن نس الأعضاء التناسلية. نقرأ في الخروج ٤: « وحدث في الطريق أن الرب التقاه وطلب أن يقتله. فأخذت صفورة صوان وقطعت غرلة انها، ومست رجبيه فقللت: إنك عريس دم لي، فانفك عنه » ٤: ٢٤ - ٢٦.

وفي مواضع كثيرة يستخدم النص تعبير "ملاك الرب" كناية عن حضور يهوه المزمي. نقرأ في سفر القضاة عن رؤية أبوي شمشون للرب الذي جاء يبشرهما بمولد علام يجر إسرائيل من أعدائها. « فقال موح لملاك الرب ما اسمك حتى إذا جاء كلامك نكرمك. فقال له ملاك الرب ماذا تسأل عن اسمي وهو عجيب. فأخذ منوح حدي المنزى والتقدمة وأصعدهما على الصخرة للرب. فعمل عملاً عجيباً، ومنوح وامرأته ينظران. فكان عند صعود اللهب عن المذبح نحو السماء أن ملاك الرب صعد في لهب المذبح ومنوح وامرأته ينظران. فسقطا على وجهيهما إلى الأرض ... فقال منوح لامرأته نموت موتاً لأننا قد رأينا لله » ١٣: ١٧ - ٢٢. إلى جانب هذه الظهورات التي يبدو فيها يهوه كإنسان عادي أو كحني ليلي يخاف طلوع الفجر، أو كعفريت شاهراً سيفه لئقتل، هناك ظهورات يبدو فيها يهوه في هيئة الملك الشرقي الجالس على العرش. على هذه الصورة رآه النبي أشعيا في الهيكل رؤيا العين وسمع من فمه: « في سنة عزيا الملك، رأيت السيد جالساً على كرسي عال ومرتفع وأذياه تملأ الهيكل ... فقلت وبلي إني هنكت، لأنني إنسان نجس الشفتين، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين، لأن عيني قد رأت الملك رب الجود » - أشعيا ٦: ١ - ٥.

هذا وتنعكس إشكالية التوحيد في النص التوراتي على موقف الشخصيات الرئيسية في القصة التوراتية من هذه المسألة، وعلى سلوك الجماعة بأسرها. فلا قادة الشعب التزموا عبادة يهوه وحده، ولا بقية الشعب من ورائهم أيضاً. وبما أن قائمة الشواهد من الكتاب تطول حتى تفطي عشرات الصفحات، فلنا سنكتفي هنا بإيراد شاهد واحد من كل حقبة من أحقاب الرواية التوراتية.

3 سفر التكوين الذي يسرد قصص الآباء الأولين من إبراهيم إلى يعقوب والأسباط، لدينا العديد من الشواهد النصية على أن الآلهة الأخرى كانت مبحلة في بيوت أولئك الآباء. نقرأ في الأصحاح ٣٥: «ثم قال الله ليعقوب قم اصعد إلى ست إيل وأقم هناك واصنع مذبحاً لله... فقال يعقوب لبيته ولكل من كان معه: اعزلوا الآلهة العريبة من بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم» - ٣٥: ١-٢. وفي سفر الخروج، وبعد ثلاثة شهور فقط على هروب بني إسرائيل من مصر، هرون - غضاضة في صنع تمثال للعجل، يتعد له بنو إسرائيل أثناء غياب موسى الطويل على جبل سيناء: «قال الشعب هرون: قم اصنع آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى - الرجلى الذي أصدعنا من مصر لا يعلم ماذا أصابه. فقال لهم هرون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبيكم وبناتكم وآتوني بها... فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصدعتك من مصر» ٣٢: ١-٤. وعندما وصل موسى بقومه إلى شرقي الأردن بعد أربعين سنة، لم يكن موقف الشعب من يهوه قد تغير: «ابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب، فدعوا الشعب إلى ذبائح آلهتهم، فأكل الشعب وسجد لآلهتهم، وتعلق الشعب ببعل فغور (إله موآب). فحمي غضب الرب على إسرائيل» - العدد ٢٥: ١-٣.

وبعد موت موسى واحتياز حليفته يشوع بن نون نهر الأردن إلى أرض كنعان التي غنمها ووزعها على القبائل الاثني عشر، كانت الآلهة الغريبة ترافقهم في حزمهم وترحاضهم. وتوفي يشوع بن نون وهو يوصيهم بسزعها «فالآن، انزعوا الآلهة الغريبة التي في وسطكم وأميلوا قلوبكم إلى الرب إله إسرائيل» يشوع ٢٤: ٢٣. وعندما استقر الشعب في كنعان عبدوا الإله بعل والآلهة عشيرة ونسوا الرب الذي أخرجهم من مصر وعبر بهم الأردن. ولما جاء ملاك الرب إلى المدعو جدعون وأمره أن يهدم مذبح البعل ويقطع السارية المنصوبة عنده، لم يجرؤ على ذلك في وضح النهار. نقرأ في سفر القضاة: «وإذا كان يخاف من أهل بيته وأهل المدينة أن يعمل ذلك فخافاً فعلمه ليلاً. فبكر أهل المدينة في الغد وإدما مذبح البعل قد هُدم والسارية التي عنده قد قُطعت... فقال أهل المدينة ليوآش: أخرج ابنك لكي يموت لأنه هدم مذبح البعل» ٦: ٢٧-٣٠.

وفي عصر المملكة الموحدة نحد أصنام الآلهة موجودة في بيت داود، الشاب الذي مسح الرب ملكاً على إسرائيل بدلاً عن شاول. نقرأ في سفر صموئيل الأول:

« فأرسل شاولُ رُسلاً إلى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه في الصباح. فأخبرته ميكال زوجته قائلة: إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فإنك تُقتل غداً. فأرنتُ ميكال داود من الكوة فذهب هارباً ونجا. وأخذت ميكال التراقيم ووضعتَه في الفراش ووضعت لبدة المعزى تحت رأسه وغطته بثوب » ١٩ : ١١ - ١٣. والتراقيم المذكور هنا، هو نوع من أصنام الآلهة الخاصة بالبيوت، ويبلغ حجمها في بعض الأحيان حجم الإنسان الحقيقي. (بخصوص أصنام التراقيم راجع المواضيع التالية في التوراة: التكوين ٣١ : ٩ و ٣٤ و ٣٥. وصموئيل الأول ١٥ : ٢٣). وكان الملك سليمان بابي هيكل الرب في أورشليم من عبدة الآلهة السورية، ولهذا فقد حكم الرب على مملكته بالانقسام بعد وفاته. نقرأ في سفر الملوك الأول: « وكان في زمن شليخوخة سليمان، أن نساءه أمتن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه. فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب... فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك، ولم تحفظ عهدي وفرائضي فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعبدك » ١١ : ٤ - ١١.

بعد اختيار مملكة سليمان وانقسامها إلى مملكة إسرائيل ومملكة يهودا، كان ملوك إسرائيل وعامتها يعبدون الآلهة السورية حتى دمار عاصمتهم السامرة عام ٧٢١ ق.م. أما في يهوذا فإن المقطع التالي من سفر الملوك الثاني يعطي صورة حية عن حالة هيكل سليمان في أورشليم الذي أمتلأ بصب ورموز آلهة الخصب الكنعانيين: « وأمر يوشيا الملكُ الكاهنَ العظيم حلقياً وكهنة الفرقة الثانية أن يُخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المنصوعة للبعل وللسارة ولكل أجناء السماء وأحرقها خارج أورشليم، ولاشى كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا ليقودوا على المرتفعات في مدن يهوذا وما يحيط بأورشليم، والذين يوقدون لبعل وللشمس ولقمر ومنازل السماء ولكل أجناء السماء. وأخرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم... وهدم بيوت المأبوين (=الدعارة المقدسة) التي عند بيت الرب حيث كانت النساء ينسجن بيوتاً للسارية » ٢٣ : ٤ - ٧.

وبعد السبي يحدثننا النبي حزقيال عن تحول هيكل الرب إلى مكان لعبادة الآلهة الأجنبية وأداء طقوس الخصب التمزوية فيه: « وقال لي ادخل وانظر الرجاسات الشريرة التي هم عاملوها هنا. فدخلت ونظرت وإذا كل شكل دبابات وحيوان نجس،

وكن أصنام بيت إسرائيل مرسومة على الحائط على دائره، وواقف قدامهم سبعون رجلاً من شيوخ بيت إسرائيل وكل واحد بمجمرته في يده وعطر عنان البخور صاعداً.. وقال لي بعدُ تعود تنظر رجاسات أعظم هم عاملوها. فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمال، وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على (الإله) تموز... وجاء بي إلى دار بيت الرب الداخلية وإذا عند باب هيكل الرب بين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلاً ظهورهم نحو هيكل الرب ووجوههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس "حزقيال ٨: ٧ - ١٦.

في أسفار الأنبياء وفي بعض فصول شعر الزمائر، يرسم المحرر التوراتي صورة أكثر وضوحاً لإله عاني شمولي، نجعلنا نعتقد لأول وهلة بأن الإيديولوجيا التوراتية قد لامست فكرة "الله" وبلغت أعتاب مفهوم التوحيد. غير أن القراءة المدققة للمقاطع المعنية في هذه الأسفار، توضح لنا أن كل وصف عاني شمولي للإله يهوه يتبعه مباشرة توكيد على علاقة يهوه بشعبه المختار، ووعد صريح بتخليصه وإعلائه فوق الجميع (وهذه المسألة لم يلحظها الباحثون الغربيون الذين يعمدون القول في كل مناسبة بأن أسفار الزمائر والأنبياء قد توصلت أخيراً إلى مفهوم التوحيد الصافي). فالشمولية والحالة هذه ليست إلا جليلة وزينة للإله التوراتي الذي يبقى رغم كل سماته الكونية لهاً لإسرائيل وحدها عاملاً في سبيل تحقيق مملكته الأرضية وسلطانها على بقية الشعوب.

نقرأ في سفر أشعيا، وهو السفر المفضل لدى الناحثين عن التوحيد في الإيديولوجيا التوراتية، هذه الفقرات المنتخبة، لنرى كيف ترتبط الصورة الشمونية للإله بالصورة التقليدية لإله إسرائيل، وكيف يجري توظيفها لخدمة النظرة الشوفينية الضيقة للخطاب التوراتي: «أنا الرب. أنا الأول والآخر. رأيت الجزائر وحدت. ارتعدت أقاصي الأرض فدنت وأقبلت... إلخ. أما أنت يا إسرائيل عبدي. و— يعقوب الذي اخترته نسل إبراهيم خليلي لا تخف لأني معك، لا تنلفت لأني حث. قد أيدتك وأعنتك وعضدتك يمين بري... يكون كلا شيء خاصموك ويبينون. تفتش عن منازلِكَ ولا تجدهم» ٤١: ٨ - ١٢. نلاحظ في هذا المقطع كيف يتم الانتقش مباشرة من المفهوم التوحيدي الشمولي في قوله «أنا الأول والآخر»، إلى مفهوم إله إسرائيل الذي ينصر شعبه على أعدائه. وهذه الصيغة تتكرر عبر كامل سفر أشعيا:

« هكذا قال الرب ملك إسرائيل وفاديه، رب اليهود: أنا الأول وأنا الآخر ولا إلهه غيري. من مثلي يدعو ويُخبر بهذا أو يرتب لي ذلك، منذ أنشأت شعباً أبدياً ليخبروهم بالمستقبل وبما سيأتي. لا تتراعوا ولا تضطربوا. ألم أسمعكم من ذلك الوقت وأخبركم، أنتم شهودي، هل من إله غيري أو من صخر لا علم لي به ؟ ... هكذا قال الرب فاديك (يا إسرائيل) وحابلك من البطن: أنا الرب صانع الكل، ناشئ السماوات وحدي وباسط الأرض بنفسي، مُثبت كلام عبده ومتمم مشورة رسله. القائل لأورشليم متعمرين ولندن يهودا سُبَّنين وأنا أقيم المنهدم منها » ٤٤: ٦-٢٦. إن كل هذا الإغلاء من شأن إله إسرائيل وجعله باسطاً للأرض وناشراً للسماوات، لا يخدم إيديولوجية توحيدية عالمية، بل يهدف إلى زرع الثقة في قارئ النص بأن إله إسرائيل قادر على إعادة بناء أورشليم وبقية مدن يهوذا المهتمة.

وتتابع القراءة في الأصحاح ٤٣: « أنتم شهودي يقول الرب، وعبيدي الذي احترته، لكي تعلموا وتؤمنوا بي وتفهموا أنني أنا هو. لم يكن إله قبلي ولا يكون بعدي. أنا، أنا الرب ولا مخلص غيري. إني أخبرت وخلصت وأسَمَّعت وليس فيكم غريب. وأنتم شهودي يقول الرب وأنا الله » ٤٣: ١٠ - ١٢. إن لفظ الجلالة "الله" المذكور هنا وفي مئات المواضع الأخرى من النص التوراتي هو ترجمة للاسم الكنعاني "إيل" الذي يستخدمه المحرر التوراتي في الإشارة إلى إله التوراة إلى جانب الاسم الآخر "إيلوهيم" الذي هو صيغة جمع من "إيل". وفي الأصحاح ٤٦ نقرأ: « اسمعوا لي يا آل يعقوب وبا بقية آل إسرائيل الذين أقبلوا من البطن وحملوا من الرحم. إلى شيخوختكم أنا، وإلى مشيكم أفيكم. أنا صنعتكم فأنا أحملكم، أنا أقلكم وأنجيكم. بمن تشبهوني وتعادلوني، ومن يمتثلوني فمتشابه ؟ ... اذكروا الأوائل منذ الدهر، فإني أنا الله وليس آخر، أنا الله وليس مثلي، أنا المنخر من البداية بالنهاية، ومن القديم بما لم يكن، قائلاً: إني مشورتني ثُبَّتْ وبني أصع كل ما أشاء.. إني قُربت بري فلا يبعد وخلصني فلا يبطئ، وسأجعل في صهيون الخلاص وإسرائيل فخري » ٤٦: ٣-١٣. ونقرأ في الأصحاح ٤٨: « اسمع لي يا يعقوب ويا إسرائيل الذي دعوته. أنا هو، أنا الأول: وأنا الآخر. يدي أسست الأرض ويميني شَبَّرَت السماوات. أَدْعُوهم فيقصن جميعاً ... هكذا قال الرب فاديك قدوس إسرائيل: أنا الرب إلهك الذي يُعلمك ما ينفع ويهديك

صريق الذي تسير فيه ... أخرجوا من بابل، اهربوا من الكلدانيين بصوت السترنيم،
احرقوا بهذا ونادوا به، أذيعوه إلى أقاصي الأرض. قولوا قد افتدى الرب عبده
يعقوب » ٤٨ : ١٢ - ٢٠.

وهكذا نجد أن الإله الذي جلس تحت الشجرة قرب خباء إبراهيم وأكل وشرب
من طييح سارة، والذي صار يعقوب عند مخاضة بئوق، والذي رآه موسى من قفله
أولاً ثم جلس وسبعين من شيوخ إسرائيل ينظرون إليه وهم يأكلون ويشربون على جبل
سياء، قد تمت ترقبته إلى رتبة الإله الأعلى خالق السماوات والأرض في أسفار الأنبياء،
لا تأسيساً لإيديولوجية عالمية وإنما تحميلاً لصورته في عين شعبه المختار، وتوكيداً لهذا
الشعب بأنه وحده القادر على خلاصهم. من هنا فإن أي حديث عن توصل هذه
الأسفار إلى مفهوم توحيدي صافٍ، هو لغو لا طائل من ورائه.

إشكالية الأخلاق

لقد عملت المسيحية من خلال تبسيها لكتاب التوراة باعتباره العهد القديم، على
تحسين صورة الإله اليهودي، كما أضافت تفسيراتها اللاهوتية إلى الأيديولوجيا التوراتية
بعداً إنسانياً تفتقده على كل صعيد. ولعل من أخطر ما قدمته هذه التفسيرات إظهارها
لإله التوراة في صورة الإله الأخلاقي والمشرع الأخلاقي، وذلك بتركيزها على ما دعت
بالوصايا العشر، الواردة في الأصحاح ٢٠ من سفر الخروج، وعلى عدد قليل آخر من
الوصايا الأخلاقية المنبثقة في خصم آلاف الوصايا الطقسية والتحريمية المنبثقة في
الأسفار الخمسة، والمفصلة إلى درجة تثير الملل عند القارئ الحديث الذي لا يستطيع
فهم باعثها والهدف منها، تماماً مثلما كان اليهودي وما زال لا يفهم ذلك وإنما يطبقه
في انصياع تام لتشريعة غير إنسانية، تهدف إلى تكبيل الإنسان بطقوس وممارسات
وتحريمات لا طاقة لأحد على التزامها. من هنا لا عجب إذا وصف القديس بولس
(وهو اليهودي السابق المتحمس) شريعة التوراة بأنها لعنة، ودارت معظم تعاليمه حول
بطلان زمنها وافتتاح زمن الفداء بيسوع المسيح.

لم تكن الوصايا العشر أولى الوصايا التي تلقاها موسى. وأول وصية في الشريعة
لم تكن وصية أخلاقية بل وصية طقسية محضة أسست للفصح اليهودي، وهو ذكرى

الخروج من مصر. ففي اليوم السابق للخروج كلم الرب موسى وهرون. عني ما نقرأ في سفر الخروج: « كلم الرب موسى وهرون في أرض مصر قائلاً: هذا الشهر يكون لكم رأس الشهر، هو لكم أول شهور السنة. كلما كل جماعة إسرائيل قسدين في العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء، تكون لكم شاة صحيحة ذكراً ابن سنة ... ثم يذبحه كل جمهور إسرائيل في العشية ... ويأكلون اللحم تلك الليلة مشوياً بالنار مع فطير ... لا تأكلوا منه نيئاً أو طيبخاً مطبوخاً باناء، بل مشوياً بالنار. لا تبقيوا منه إلى الصباح والباقي يحرق بالنار. وهكذا تأكلونه: أحقاؤكم مشدودة وأحذيتكم في أرجلكم وعصيتكم في أيديكم. وتأكلونه بعجلة، هو فصيح للرب ... سعة أيام تأكلون فطيراً. اليوم الأول تعزلون الخمير من بيوتكم، فإن كل من أكل خميراً من اليوم الأول إلى اليوم السابع يُقطع تلك النفس من إسرائيل » ١٢: ١٥-١٠. أما لماذا توخذ الشاة ذكراً وابن سنة فقط. ولماذا يتوجب عليهم أكلها مشوية لا مطبوخة؟ ولماذا يأكلوها بعجلة وهم وقوف وأحقاؤهم مشدودة وأحذيتهم في أرجلهم وعصيتهم في أيديهم؟ ولماذا يأكلون خبزاً فطيراً لا خميراً مدة سبعة أيام؟ فجميعها أسئلة لا يمكن الإجابة عنها إلا بالمقارنة مع لوائح التابو التي نجدتها عند القبائل البدائية، والتي تكمن عند جذور الدين وأصوله البعيدة.

ونلاحظ من المقطع أعلاه، أن الوصية الطقسية الأولى قد وردت مترافقة مع أول وصية تحريرية (تابو) وهي عدم أكل الخبز الخمير. ثم تم تدعيم هذه الوصية التحريمية بأول عقوبة إعدام في الشريعة. وهذه العقوبة لا تُفرض على من يخل بنظام الجماعة ويهدد أمنها، ولا على من يتعدى حدود قاعدة أخلاقية أساسية للحياة المشتركة، بل على من يأكل خبزاً خميراً لا فطيراً. وبذلك تعلن الشريعة الموسوية عن جوهرها منذ البداية، باعتبارها شريعة طقس وتابو لا شريعة أخلاق، ومنذ البداية أيضاً يعلن يهوه عن شكل العلاقة التي يقيمها بينه وبين شعبه، وهي علاقة طقسية جوهرها الخوف والخضوع وتأدية الشعائر وعدم تعدي حدود التابو. أما الأخلاق فمسألة ثانوية، ويستطيع من ارتكب أبشع الذنوب الأخلاقية أن يغسل ذنوبه كما يغسل ثوبه. نقرأ في سفر اللاويين (وهو أحد الأسفار التي تابعت تفصيل الشريعة بعد سفر الخروج، إلى جانب سفر العدد وسفر التثنية) التعليمات التالية حول طقس غسل الذنوب الأخلاقية: « إذا أخطأ أحد وخان خيانة بالرب وحشد صاحبه أمانة أو

مسلوباً، أو اغتصب من صاحبه، أو وجد لُقطةً وجعلها وحلف كاذباً ... يُلقي إلى الرب بذبيحة لإثمه كبشاً صحيحاً من العم ذبيحة إثم للكهان، فيُكفّر عنه الكاهن أمام الرب فيصفتح عنه «٦: ١-٧. كما يمكن غسل إثم الجماعة كلها عن طريق طقّس يدعى بطقس تيس الخطيئة: «.. ومتى فرغ الكاهن من التكفير عن القُدّس وعن خيمة الاجتماع وعن المذبح، يقدّم التيس الحي ويضع هرون يده على رأس التيس ويُقرّ عليه بكل ذنوب بني إسرائيل وكل سيئاتهم مع كل خطاياهم ويجعلها على رأس التيس ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية، ليحمل التيس عليه كل ذنوبهم إلى أرض مقفّرة» ١٦: ٢٠-١٢.

إن السرقة أو الاغتصاب والسلب وجحد الأمانة واليمين الكاذبة، وما إليها من الذنوب الأخلاقية، يمكن غسلها بأداء طقس تطهيري بسيط، أما تجاوز حدود قاعدة طقسية أو تحريمية فمن شأنه أن يودي بحياة أكثر الناس تقوى، ويطأه عقاب يسهوه الفوري. وهذا ما حدث لإبني هرون المدعوّين ناداب وأبيهو، وكانا على رأس الموكلين بأداء الشعائر أمام خيمة الاجتماع التي تضم تابوت العهد؛ والتي يقيم فيها يهوه بين شعبه. نقرأ في سفر الاوين: « وأخذ ابنا هرون ناداب وأبيهو كلّ بحمرته وجعل فيها ناراً ووضعها عليها بخوراً، وقربا أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بها. فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما فماتا أمام الرب » ١٠: ١-٢. وتلقى الرجل الصالح المدعو عزة عقوبة مشاهمة عندما انتهك التابوت الذي يمنع نسي تابوت العهد، رغم أنه فعل ذلك ليمسح التابوت من السقوط عن المركبة التي كانت تقله. نقرأ في سفر صموئيل الثاني: « فأركبوا تابوت الرب على عجلة جديدة وحملوه ... وكان عسرة وأخيؤ ولدا أبيساداب يسوقان العجلة الجديدة ... ولما انتهوا إلى بيدر ناحون مدّ عزة يده إلى تابوت الرب وأمسكه لأن الثيران انشمصت. فحمي غضب الرب على عزة وضربه هناك لأجل غفله فمات » ٦: ٣-٨.

إن تجاوزات الوصايا التحريمية التي تقود إلى الموت أكثر من أن تحصي في شريعة موسى، ونكتفي بذكر بعض منها. فعدم غسل الكاهن ليديه ورجليه قبل أداء الطقوس يعرضه للموت (الخروج ٣٠: ١٧-٢٠)، وممارسة أي نشاط في يوم السبت يستوجب الإعدام الذي تنفذه الجماعة بالمحيطي (الخروج ٣١: ١٥)، ومثل العمل في يوم

السبت كُنْتُ عَصْر في اليوم العاشر من الشهر السابع وهو يوم الكفارة (وَعَصْران (اللاويين ٢٣: ٢٧-٣٠)، وأكل الدم يستوجب الموت (اللاويين ١٧: ١٠-١١) وكُنْتُ مَصْحَجَةً امْرَأَةً الْخَائِض (اللاويين ١٨: ٢٠). وهنا يحق لنا أن نتساءل: «يُنْصَح مفهوم الله من هذا الكائن الظلامي الباطش المتعسف، الذي وضع الشريعة لا لخصلاص ناس بل لإدانتهم وتجريمهم والانتقام منهم، وأين خصيصتنا الأخلاق والعدالة في إلهه ظلام هذا، الذي لا يتجلى إلا في الغضب والثأر والثورة الآكلة.

لقد سبقت الوصايا الطقسية والتحريرية الوصايا العشر بوقت طويل، ثم تلتبعت بعدها عبر أسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية وذلك في سلسلة تبدو لقارئ التوراة بلا نهاية. فبعد الوصية العاشرة مباشرة قال الرب موسى: «مَذْبَحاً مِنْ تَرَابٍ تَصْنَعُ لِي وَتَذْبَحُ عَلَيْهِ مُحْرِقَاتِكَ وَذَبَائِحَ السَّلَامَةِ مِنْ بَقَرِكَ وَغَنَمِكَ. وَإِنْ صَنَعْتَ لِي مَذْبَحاً مِنْ حِجَارَةٍ فَلَا تَبْنِهَا مَنَحُوتَةً، فَإِنَّكَ إِنْ رَفَعْتَ حَدِيدَكَ عَلَيْهَا دَنَسْتَهَا. وَلَا تَصْعَدُ إِلَى مَذْبَحِي عَلَى دَرَجٍ لَعَلَّاهُ تَنْكَشِفُ عَوْرَتُكَ عَلَيْهِ» - الخروج ٢٠: ٢٦-١٨. ونحن هنا أمام وصية تحريرية يجب تنفيذها دون مناقشة فحواها غير المفهوم. وهي تشبه وصايا تحريرية سائدة لدى الشعوب الدائية ولدى بعض الثقافات القديمة في مطالع تاريخها. فتأبو استخدام الحديد معروف في رومة القديمة حيث كان محرماً على الكهنة الخلقة مموسى حديدية. وفي عامة أرفال المقدسة قرب رومة كان محرماً إدخال الحديد أو أية أداة مصنوعة منه. فإذا تطلب الأمر استعمال أداة حديدية في نقش كتابة ما على الحجر، كان لا بد من تقديم ذبيحة تطهيرية قوامها حمل وخنزير. وإلى وقت قريب كان أهالي جزيرة جاوا يحجمون عن استخدام محاريت الحديدية في فلاحه أرضهم. ولدى بعض قبائل الهنود الحمر كان محرماً استخدام السكاكين الحديدية في الطقوس الدينية. وفي كوريا كان محرماً على الملك لمس الحديد أو استخدام أدوات مصنوعة منه. وفي جنوب غربي أفريقيا تجري إلى الآن عملية ختان الصبيان بواسطة سكين صوانية، فإذا تطلب الأمر إجراءها بسكين حديدية يجري التخلص من السكين بدفنها بالتراب.

وتعبر إشكالية المسألة الأخلاقية في التوراة من خلال سلوك الإله التوراتي نفسه، وهو سلوك متناوس بين الخير والشر، وغالباً ما ينأى عن أبسط لقواعد الأخلاقية. ونستطيع متابعة هذه الطبيعة الأخلاقية المتناقضة منذ الإصحاحات الأولى

لسفر التكوين وحتى آخر أسفار الكتاب. فبعد أن خلق الإله الإنسان الأول، لم تكن أولى وصاياه إليه وصية أخلاقية ترسم له دوره في الحياة والتاريخ، بل كانت وصية تحريمية غير مفهومة. وعدم يكون التحريم غير مفهوم أو مبرر فإنه غالباً ما يدفع إلى العصيان. وهذا ما حصل فعلاً عند فجر الزمن. فبعد اكتمال أعمال التكوين غرس يهوه بستاناً في مكان على الأرض يدعو الكتاب بشرقي عدن، وفي وسط البستان أنبت شجرة الحياة وشجرة أخرى هي شجرة المعرفة، ثم وضع آدم الذي صنعه من طين الأرض في ذلك في ذلك البستان ليعمل به ويحفظه. وبعد أن خلق له زوجة من ضلعه أوصاهما قائلاً: «من جميع شجر الجنة تأكلان، وأما من شجر معرفة الخير والشر فلا تأكلان، لأنكما يوم تأكلان منها موتاً تموتان». هذا التابو غير المفهوم قد سهل على الحية إغواء حواء وتزيين العصيان لها. فبينما هي تتمشى قرب شجرة المعرفة تسللت الحية (والأرجح أنه الحنش ذكر الحية) إلى المكان، وكانت أحيى جميع حيوانات البرية حسب وصف النص، فأطلعت حواء على حقيقة التابو والغاية منه. فثمر الشجرة لن يميتها بل سيجعلهما مثل خالقهما حرين وعارفين الخير والشر: «فقالت الحية للمرأة لن تموتا، بل الرب عارف أنه يوم تأكلان تفتح أعينكما وتكونان كالرب عارفين الخير والشر. فرأت امرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها جميلة للعيون فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل». وعندما يكتشف يهوه عصيان الإنسان ينطق بلعنته المقيمة التي تتجاوز عالم الإنسان إلى عالم الطبيعة بأكملها: «ملعونة الأرض سبيلك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تبيت لك، وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل عبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب وإلى تراب تعود».

لقد كذب يهوه على آدم وحواء بقوله إن شجرة المعرفة سيجلب عليهما الموت. فالإنسان الأول لم يولد خالداً، وخالفه التوراتي لم يكن راضياً في أن يشاركه أحد خلوده، وذلك بذليل قوله بعد ذلك: «هوذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر. والآن لعله يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الأبد. فأحرجه الرب الإله من حبة عدن ليعمل في الأرض التي أخذ منها». وهكذا تم منذ البداية، ومن خلال التابو والكذب، التأسيس لطبيعة العلاقة بين الإله والإنسان، وهي علاقة قائمة على الأمر الإلهي والرضوخ الإنساني، على حرية الإله وعبودية الإنسان.

وبين الأمر والرصوخ تقوم الطقوس والشكلانيات الشعائرية باعتبارها نزعاً الوحيدة بين الطرفين، والمحور الذي يدور حوله دين التوراة^(*).

بعد أن دفع يهوه الإنسان الأول إلى الخطيئة، زرع بين ذريته الشقاق الذي قلد إلى أول جريمة في التاريخ. فلقد ولد لآدم وحواء بعد طردهما من الجنة ولسان هما قايين وهابيل، مما تنابعه رواية سفر التكوين: « فكان هابيل راعي غنم وقايين كان يحرث الأرض. وكان بعد أيام أن قايين قدم من ثمر الأرض تقدمة للرب، وقدم هابيل أيضاً شيئاً من أبقار غنمه ومن سيمائها. فنظر الرب إلى هابيل وتقدمته وإلى قايين وتقدمته لم ينظر ». ولقد أدى سلوك يهوه غير المرر والبعيد عن مفهوم العدالة، إلى حقد قايين على أخيه المفضل عند الرب، فراح يترصد به إلى أن قاده إلى الصحراء حيث قتله هناك ودفنه. وبذلك أصل يهوه لأول خطيئة أخلاقية في المجتمع الإنساني بعد أن أصل لأول خطيئة تجرعية في الفردوس.

ثم يتابع يهوه تعامله من بني الإنسان من موقف غير متعاطف وغير أخلاقي. فعندما أخذ الناس يتكاثرون على وجه الأرض صاروا أمة واحدة تتكلم لساناً واحداً وتعيش في سلام ووثام. ولما هموا ببناء مدينة لهم وبرج عال يرمز إلى وحدتهم وتضامهم، نظر يهوه إلى ما هم صانعون فخاف أن يؤدي اتحادهم وازدياد قوتهم إلى تحالفهم ضده، فعمل على تشتيت شملهم وتحويلهم إلى مجموعات متنافرة تتكلم لغات مختلفة فلا يفهم بعضهم حديث بعض: « وكانت الأرض لساناً واحداً ولغة واحدة وحدث في ارتحاهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك ... وقالوا هلم لبنن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسما، ونصنع لأنفسنا اسماً لعلنا نتبدد على وجه الأرض. فنزل الرب ليظهر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم بينوهم. وقال الرب هو دا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتدأهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه، هلم ننزل ونبليل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض ». إن ما فعله يهوه في حقيقة

(*) سوف نوضح في الفصل الأخير العارق الكبير بين قصة خلق الإنسان في التوراة وقصة خلق الإنسان في لقرآن الكريم، سواء من حيث الشكل أم من حيث المضمون وكذلك فيما يتعلق بقصة قايين وهابيل.

الأمر هو تحويل الجماعة الإنسانية الواحدة إلى مجتمعات متباعدة ذات ثقافات متغيرة. وهذا ما زرع العداوة بينها، وكان ابتداء الحروب وعدوان أمة على أخرى.

فإذا غادرنا هذه الفترة الافتتاحية من تاريخ الإنسان، إلى العصر الذي حلا فيه ليهوه أن ينتقي من كل شعوب الأرض شعباً واحداً يكون له أمة وكهنة، على حد تعبير النص، استطعنا متابعة سلوك يهوه المتناقض أخلاقياً في كل خطوة من مسيرة علاقته الطويلة بهذا الشعب. فهو يأخذ البريء بحريرة المذنب، وينتقم من الآباء في أبنائهم ممن لا ذنب لهم، وفي أبناء أبنائهم وصولاً إلى الجيل الرابع من نسل المخطيئ: «أفتقدُ ذنوب الآباء في الأبناء، في الجيل الثالث والرابع من مبغضي» الخروج ٢: ٥. ولقد شاع في إسرائيل المثل القائل: «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون» (إرميا ٢٩: ٣١ وحزقيال ٢٨: ١٨). هذا السلوك من قبل يهوه يتناقض مع قاعدة تشريعية وردت في سفر التثنية تمنع أحد الابن بحريرة أبيه: «لا يُقتل الآباء عن الأبناء، ولا يُقتل الأبناء عن الآباء. كلُّ بحريته يُقتل» ٦: ٢٤. وهذا يعني إن الإله المنتزع في حل من قواعد الشريعة عندما يأتي إلى التعامل مع الإنسان، وإن على الإنسان أن لا ينتظر من إله التزاماً بأية معايير أخلاقية.

والله التوراة ولوع برؤية الدماء وغضبه لا يهدأ إلا بما. فبعد أن عبد الشعب العجل في سيناء، أمر الرب كل من لم يحطئ إليه بعبادة العجل أن يستل سيفه ويقتل صاحبه وابنه وأخاه من المخطئين ليحصل على بركة الرب: «فقال لهم موسى كذا قال الرب إله إسرائيل: ليتقلد كل واحد سيفه، واذهوا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة وليقتل كل واحد أخاه وصاحبه وقريبه... فسقط من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل. وقال موسى: كرسوا اليوم أيديكم للرب، كل واحد حتى بابيه وأخيه فتعطوا اليوم بركة» - الخروج ٣٢: ٢٧-٢٩ (*). وإذا كان هذا شأنه مع شعبه المختار، فإن ولعه يسفك دماء الشعوب الأخرى لا يمكن تصنيفه تحت أي مصطلح مَرَضِي في قاموس الطب النفسي الحديث، وأخبار حملات الإبادة جماعية للأطفال والنساء والشيوخ تملأ صفحات الأسفار الخمسة، إضافة إلى سفر يشوع الذي

(*) لقد استعتمد مؤلف هذا الكتاب كلاً من الترجمة لبروتستانتية والترجمة الكاثوليكية للتوراة. فعلى من وجد اختلافاً في الشاهد المقتبس عما لديه، أن يراجع النوضع المناظر في الترجمة الأخرى.

ما زالت رائحة الدم تفوح من ثناباه إلى يومنا هذا. وهذه أخبار إحدى حملات موسى التي وجهها إلى مديان: « فتجنّدوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر. وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم... وسبي بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدّهم بمسالكهم... فخرج موسى لاستقبالهم إلى خارج المحلّة، فسخط موسى على وكلاء الجيش وقال لهم: هل أبقيتم كل أنثى حية؟ فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمصاحبة ذكر اقتلوها، لكن جميع الأطفال من الإناث اللواتي لم يعرفن مصاحبة ذكر ابقوهن لكم حيات » - العدد ٣٢: ٨-١٨.

ووفق قاعدة "التحريم" التي استنها يهوه لقادة جيوشه. يتوجب على هؤلاء في بعض الحالات إغناء كل نفس حية بما في ذلك المواشي والبهاائم، ولا يجوز لهم الاحتفاظ بأسرى أو سلب المواشي والممتلكات، لأن كل ما في المدينة من حي وحامد يلقي للموت والدمار والحرق إرضاءً ليهوه. وهذا ما حصل لمدينة أريحا على يد يشوع: « فحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ حتى البقر والخمير والعصم بحد السيف... وأحرقوا المدينة مع كل ما بها في النار » يشوع ٦: ٢١. وهذا ما حصل لمدينة عاي: « فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً هم جميع أهل عاي. ويشوع لم يردّ يده حتى حرّم جميع سكان عاي » - يشوع ٨: ٢٣ - ٢٤. وعندما احتار الرب شاؤل ليكون أول ملك على إسرائيل، وراح هذا يحرر شعبه من قمع الفلسطينيين وتسلّط الممالك المجاورة، ما لبث أن غضب عليه وأعطى الملك إلى داود، لأنه لم يلتزم قاعدة التحريم. نقرأ في سفر صموئيل الأول الأمر الذي أعطاه الرب لشاؤل بضرب شعب العماليق مع تطبيق قاعدة التحريم: « فالآن اذهب واضرب عماليق وحرّموا كل ما له، ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحمراً » ١٥: ٣. فحمل شاؤل على العماليق وأقتلهم جميعاً، ولكنه عفا عن ملكهم المدعو أجاج وجاء به أسيراً، كما أنه لم يحر كل المواشي بل احتفظ بالصحيح والسمين منها لكي يقدمه قرباناً للرب على المذبح. فغضب الرب على شاؤل وأرسل عليه روحاً شريراً تلبسه فصارت تنابسه حالات اكتئاب، إلى أن سقط قتيلاً في معركة جلبوع وسُفّره، الفلسطينيون مع أولاده الثلاثة على سور مدينة بيت شان.

ورغم أن يهوه قد نهي في شريعته عن القرايين البشرية، إلا أن غضبه لم يكن يهدأ أحياناً إلا بها. فقد انتقم من شاول بعد موته بسبعة من أولاده وأولاد ابنته ميكال، ثم تقدمهم قرباناً له نقرأ في سفر صموئيل الثاني: « وكان جوع في أبيلم داود ثلاث سنين. فطلب داود وجه ربه فقال الرب: هو لأجل شاول ولأجل بيت الدماء ... فأخذ داود ابي رصفة اللذين ولدتهما لشاول وأبناء ميكال ابنة شاول، الخمسة، وسلمهم إلى الجبعونيين فصلبوهم على الجبل أمام الرب. فسقط السبعة معاً في أيام الحصاد ... فأخذت رصفة مسحاً وفرشته لنفسها على الصخر من ابتداء الحصاد، ولم تدع طيور السماء تنزل عليهم حتى انصب الماء عليهم من السماء » - صموئيل الثاني ٢١: ١-١٠. ولدينا قصة قربان بشري تقشع لها الأبدان في سفر القضاة. فلقد خرج قاضي إسرائيل المدعو يفتاح الجلعادي لقتال العمونيين، ونذر قبل خروجه للرب أضحية بشرية يرفعها له محرقة إذا نصره على أعدائه، واختار أن تكون هذه الأضحية أول شخص يخرج للقاءه بعد عودته منتصراً. فتقبل الرب النذر وحقق له الغلبة على بني عمون. وفيما هو عائد إلى بيته كان أول خارج للقاءه والفرح بمقدمه هو ابنته الوحيدة: « وكان لما رآها أنه مزق ثيابه وقال: آه يا بني، قد أخرجتني لأنني فتحت فمي إلى الرب ولا يمكنني الرجوع. فقالت له: يا أبي، هل فتحت فمك إلى الرب؟ فافعل بي كما خرج من فمك بما أن الرب قد انتقم لك من أعدائك ». ولكنها طلبت مهلة شهرين لتذهب إلى الجبال مع صويحبائها وتبكي عذريتها، فأملها. وعند نهاية المدة عادت إلى أبيها فنحراها كما تنحر الشاة وأحرقها على المذبح، وهي لم تعرف رجلاً. فصارت عادة في بني إسرائيل أن تمضي البنات في كل سنة وينحرن على ابنة يفتاح أربعة أيام. (القضاة ١١: ٣٠-٣٩)

ومن طبع يهوه الغش والخداع. فقد دفع الملك داود إلى الخطيئة وزينها له: لكي يجعل من خطيئة الملك ذريعة لإنزال العقوبة بالشعب والقضاء على عشرات الآلاف منهم. والخطيئة الموصوفة في هذه القصة ليست خطيئة أخلاقية بل خطيئة تحريرية تتعلق بتأبؤ قديم موضوعه تحريم عذ الأنفس. لقد غفر يهوه لداود قتله خندي محليص في جيشه لكي يسلبه زوجته (انظر قصة أوريا الحثي في سفر صموئيل الأول: ١١ و ١٢) ولكنه لم يغفر له هذه الخطيئة التحريرية التي لا نجد لها معنى إلا مقارنة بالتأبؤ البدائسي. نقرأ في سفر صموئيل الثاني: « وعاد فحمي غضب الرب على إسرائيل، فأهاج عليهم

داود قائلاً له: امض واحص إسرائيل ويهوذا ... فخرج يواب ورؤساء الجيش مسرعين عند الملك ليعدوا الشعب.. وطافوا كل الأرض وجاءوا في نهاية تسعة وعشرين يوماً إلى أورشليم.. فجعل الرب وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد، فمات من الشعب سبعون ألف رجل. فكلم داود الرب عندما رأى الملك الضارب الشعب وقال: ها أنا أخضعت وأنا أذنبت، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا؟» - ٢٤: ١ - ١٧

ومن طبعه أيضاً نقض العهود والمواثيق. وهاهو كاتب الزمور ٨٩ يوجه إليه التهم الموثقة بالشواهد: «لقد كلمت صفيك في رؤيا فقلت... وجدت داود عبدي، بدهن قداسي مسحته... يدعوني إنك أبي وإلهي وصخرة خلاصي، وأنا أجعله بكرةً علياً فوق ملوك الأرض... مرة حلفت بقداسي ولا أكذب على داود، ليدوم نسله إلى الأبد وعرشه كالشمس أمامي.. لكنك أقصيت ورددت، استشظت على مسيحك نقضت عهد عبدك ونجست تاجه بالتراب» ١٩ - ٣٨.

وهو ناكراً للجميل يصعب إرضاءه. فرغم كل ما فعله موسى وأخوه هرون عبر ملحمة الخروج من مصر، فقد مات الاثنان في المعصية ولم يصفح لهما يهوه خطيئة طقسية اشتم من ورائها نقصاً في الإيمان. فعندما عطش الشعب في بركة سيناء تدمر على موسى وكاد أن يجرمه بالحجارة، فصرح موسى إلى الرب طالباً عونه، فلمره أن يضرب صخرة معينة بعصاه ليتفجر منها نبع، ففعل موسى وشرب الناس. وبعد أن اجتازهم موسى كل المحن ووصل إلى الأطراف الشمالية لبرية سيناء على حدود كنعان، عطش الشعب ولم يكن هالك ماء، فأمر الرب موسى وهرون أن يقفا أمام صخرة معينة ويكسماها فتخرج لهم ماء. ولكن موسى الذي كان في حالة إحباط ويأس، لم يكلم الصخرة بل ضربها بعصاه كما في المرة السابقة وصرخ في وجه الشعب: آمين هذه الصخرة تخرج لكم ماء ١١ وبذلك ارتكبت خطيئة طقسية أولاً، ثم أظهر شكه بإمكانية تفجر الماء من الحجر الأصم: «فقال الرب لموسى وهرون من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني أمام عين بني إسرائيل، لذلك لا تدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتها لآبائكم» - العدد ٣٠: ١ - ١٣. وبعد هذه الحادثة، عمدة قصيدة حكم الرب على هرون بالموت: «يُضَم هرون إلى قومه(*)»، لأنه لا يدخل

(*) تعبير "انضم إلى قومه"، يعني مات، لأن الميت يهبط إلى العالم الأسفل الذي سبقه إليه الموتى من قومه.

الأرض التي أعطيتُ لبني إسرائيل. لأنكم عصيتم قولي عند ماء مريبة. خُذ هرون وأليعازر ابنة واصعد بهما إلى هور، واخلع عن هرون ثيابه والبس ابنة اليعازر إياها، فيُضم هرون ويموت هناك» ٣٠: ٢٣-٢٦. أما موسى فقد أمهله الرب حتى وصل بقومه ضفة نهر الأردن، وهناك أضعده على جبل بنبو فأراه الأرض الموعودة من بعيد ثم قبض روحه عقوبة له: «انظر أرض كنعان التي أنا أعطيتها لبني إسرائيل ملكاً ومُتاً في الجبل الذي تصعد إليه، وانضم إلى قومك كما مات هرون أخوك في جبل هور. لأنكما خنتما في وسط بني إسرائيل عند ماء مريبة» - التثنية ٣٢: ٤٨-٥١.

إن عدم توصل إله التوراة إلى موقف متسق من مسألة الأخلاق، سواء في ما يتعلق بسلوكه الخاص أم بمطليه الأساسي من شعبه، قد جعل الشخصيات الرئيسية في الرواية التوراتية تسلك بدوافع من محاكماتها الآتية ودون الاستناد إلى أية مرجعية أخلاقية. ونحن إذا تتبعنا سيرَ حياة تلك الشخصيات من مختاري الرب، طالعنا مواقف وتصرفات لا تليق بالإنسان عادي فما بالك بأولئك المختارين الذين رسم لهم الرب أدوار مهمة في حياة الجماعة. فهذا نوح، الأب الثاني للبشرية بعد آدم والذي جسّاء وصفه في الكتاب بأنه الرجل البار الكامل، يتكشف عن سيّكّر أحرق يعاقر الخمرة في خبائه ويتعرى من ثيابه حتى تنكشف عورته أمام أولاده (التكوين ٩: ٢٠ - ٢٤). وهذا لوط ابن أحي إبراهيم يأخذ الخمرة من يد ابنتيه ويسرب حتى يفقد وعيه، فتقوم ابنته الكبرى بمصاحبته في انبيلة لأولى، ثم تفعل أختها الصغرى الشيء نفسه في الليلة التالية، وتعمل الستان من أبيهما. (التكوين ١٩: ٣٦ - ٣٨). وإبراهيم يرتحل إلى مصر في سنة مجاعة، وهناك يقول عن امرأته سارة إنها أخته لكي لا يطمع بجماعها أحد المنصرين فيقتله ويأخذها. ولكن جمال سارة قد لفت أنظار رجال الفرعون فأخذوها إلى البلاط وأخفوها بالحریم، فدخل عليها الفرعون ثم أجزل العطاء لإبراهيم بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وجمال. (لتكوين ١٢: ١٧ - ٢٠). وبذلك يبيّن الرجل الأول في القصة التوراتية ثروته من زنى زوجته. وقد فعل ابنه إسحاق الشيء نفسه عندما جاء إلى مدينة حرار الفلسطينية، فقال عن زوجته إنها أخته حتى لا يُقتل بسببها. ولكن ملك حرار المدعو أبيمالك اكتشف كذبة إسحاق وعنفه قائلاً: «إنما هي امرأتك فكيف قلت هي أختي؟ فقال إسحاق: لأنني قلت لعلّي أموت بسببها. فقال

أييمالك، نولا قبيل لاضطجع أحد الشعب مع امرأتك فجلبت عيسا ذنباً -
التكوين ٢٦: ٣-١١. وبذلك تفوق أييمالك أخلاقياً على إسحاق.

وكان لإسحاق ولدان هما عيسو الابن الأكبر، ويعقوب الابن الأصغر الذي صار اسمه فيما بعد إسرائيل. وقد تآمر يعقوب مع أمه رفقة التي كانت تؤثره على عيسو، على اغتصاب حقوق البكورية من أخيه. فعندما دعا إسحاق وهو على فراش الموت ابنه الأكبر عيسو ليباركه، جاءت رفقة يعقوب ليأخذ بركة أبيه عوضاً عن عيسو ووضعت على يديه وعنقه فروة حدي ليغدو مشعر الجسم مثل أخيه عيسو. فلما حضر ولمسه أبوه الذي كان كليل النظر من وهن الشيخوخة، دحله الشكل فسأله: هل أنت ابني عيسو؟ فقال يعقوب: أنا هو، فباركه أبوه. ومع البركة انتقلت كل حقوق الأخ الأكبر إلى يعقوب الكذاب، ومع الحقوق ورت عهد الرب الذي تجدد معه لا مع أخيه الأكبر. أي إن يهوذا قد بارك من جهته كذب يعقوب وكافأه عليه. ثم إن يعقوب يتعرض بدوره مكيدة من أولاده وهو في سن الشيخوخة. فقد أحب يعقوب ابنه الأصغر يوسف وفضلته على إخوته، الأمر الذي جلب عليه بعض حسد هؤلاء، فتآمروا لقتله عندما وافاهم في البرية وهم يرعون الغنم، ثم ألقوه في بئر حافة ليموت ههناك، وعادوا إلى أبيهم بقميصه وعليه أثر دم حدي وقلوا إن وحشاً رديئاً قد افترسه (التكوين ٣٧). وبذلك يتبدى تاريخ الأسباط الاثني عشر بالبغض والحسد والقتل والكذب.

ولدينا قصة عن أحد أولاد يعقوب المدعو يهوذا، وهو الذي تنتسب إليه قبيلة يهوذا، ملؤها الخزي والعار. فقد مات الابن الأكبر ليهوذا وترك وراءه زوجته المدعوة تامار، فزوجهها يهوذا من ابنه الثاني الذي ما لبث أن مات أيضاً، فوعدها يهوذا بتزويجها من الابن الثالث ولكنه راح يمدّطل في الوفاء بوعده. وبينما هو في طريقه إلى بلدة ثمة لبعض أشغاله، خلعت تامار عنها ثياب ترمّلها وتغطت برفع وجلست إلى جانب الطريق. فلما مر بها يهوذا ظنها زانية فطلب أن يدخل عليها. فقالت له: ماذا تعطيني إذا دخلت علي؟ فقال: أعطيك حديقاً من الماعز. فقالت: هل تعطيني رهنماً ريتما ترسل الجدي؟ فقال: ما الرهن الذي أعطيك؟ فقالت: خاتمك وعصاة رأسك وعصاك. فأعطاهما ما طلبت ودخل عليها. وبعد ثلاثة أشهر قيل ليهوذا إن تامار قد

رت وهي الآن حبلى. فقال يهوذا: أخرجوها وأحرقوه. ولكن تamar أرسلت يـ
حاتمه وعصاه وعصابة رأسه قائلة إنها حاملٌ من صاحب هذه الأشياء. فعرف يـ
أشيائه وبرأها ثم تزوجها، فولدت له ابنين هما فارص وزارج. (التكوين ٣٨).
ومن فارص ابن الزنا بالكثرة بتسلسل نسب الملك داود على ما نقرأ في سفر
راعوث ٤: ١٨-٢٢. فداود مؤسس السلالة التي حكمت في أورشليم حتى نهاية
تاريخها القديم كان ابن زنا، رغم أن الرب قد شرع في سفر التثنية: « لا يدخل زنيـ
م في جماعة الرب ولو في الجيل العاشر » ٢٣: ٢.

في سفر الخروج، بيتدي موسى حياته بجرعة قتل لم يكن مضطراً إليها عندما
هب لجددة العبراني الذي كان يتشاجر مع مصري، فقتل موسى المصري وطمره في
الرمـل. وقبل أن يخرج بجماعته من مصر حضهم على استغلال ثقة جيرانهم المصريين
وسرقتهم تحت ذريعة الإعارة المؤقتة، وقد شارك يهوـه في عملية السرقة هذه عندما
زين للمصريين أن يعيروا لبني إسرائيل ما طلبوا: « وفعل بنو إسرائيل بحسب قول
موسى. طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب
في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين » - الخروج ١٢: ٣٤-٣٦.

وبيتدي داود، مؤسس ما يدعى بمملكة كل إسرائيل، حياته العامة كفائد مرتزقة
يعمل لحساب الفلسطينيين من أعداء قومه (صموئيل الأول ٢٦ - ٢٩)، وعندما صار
ملكاً استهل حكمه بالقضاء على نسل سلعه شاؤل، فعمد إلى تسليم أولاد شاؤل
وأولاد ابنته إلى خصومهم الجبعونيين فقتلوهم (صموئيل الثاني ٢١: ١-١٠). ورغم
الزوجات والسراي للوآتي حفل من قصره فقد اغتصب امرأة كانت زوجة واحد من
رجاله المخلصين يدعى أوريا الحثي، ثم دبّر له مكيدة في الحرب أودت بحياته. وعندما
عرف أن المرأة حامـل تزوجها فأنجبت له سليمان، ابن الزنا والاعتصاب والقهر. لقد
انتهك داود الوصية الخامسة: لا تزـن. وأدار ظهراً للفقرة التشريعية القائلة: « إذا وجد
رجل مضطجعاً مع امرأة متزوجة يقتل الاثنان » التثنية ٢٢: ٢٢. ولم تكن حـلاق
بيت داود بأفضل من أخلاق رب البيت. فقد اغتصب ابنه المدعو أمنون أخته غير
الشقيقة تamar (صموئيل الثاني ١٣). وقام ابنه الآخر المدعو أبيشالوم بالتمرد عليه
وحاول قتله للاستئثار بالسلطة (صموئيل الثاني ١٥ - ١٨).

فإدنا عند بن الزنا سليمان، وجدناه يحتال لانتزاع ولاية العهد من أخيه أدونيا، عندما كان أبوه داود شيخاً مريضاً يتدفأ من داء البرداء في أحضان عذراء جميلة سمها أيشح الشمونية (الملوك الأول ١ : ١-٣٤). وكان أول عمل يقوم به بعد مسحه ملكاً هو قتل أخيه أدونيا صاحب الحق بالعرش، وقتل قائد جيش داود المخلص المدعو يواب لدعنه أدونيا. وعندما استتبعت له الأمور نسي إله الذي بنى له الهيكل وعند آلهة أخرى. مما أشرنا إليه سابقاً. أما عن أضرار من تلى سليمان من ملوك إسرائيل وملوك يهوذا بعد انقسام المملكة، فإن الصفحات هنا تضيق عن ذكر كل مل ارتكبه من مخازي وآثام، ولذلك نضرب الصفح عنها ونحيل القارئ إلى سفر الملوك الأول والملوك الثاني في الكتاب العتيق.

وأخيراً، فقد أدرك مؤلفو أسفار الأنبياء، هذا المأزق الأخلاقي للتوراة مثلما أدركوا المأزق التوحيدي، فحاولوا إنقاذ ما تبقى من القيم الأخلاقية التوراتية، عندما راحوا يؤكدون على السلوك الأخلاقي في مقابل الطقوس. نقرأ في سفر أشعيا: «لماذا لي كثرة ذبائحكم، يقول الرب. أتخص من محرقات كباش وشحم مسلمات... البحور هو مكرهه لي، رأس الشهر والسبت ونداء الغفل. لست أطيق الإثم والاعتكاف. رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسي، صارت علي ثقالاً مللت حملها. فحين تبسطن أيديكم أستر عيني عنكم، وإن كثرت الصلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً. اعتسلوا تنقوا اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني» ١ : ١١-١٧. وأيضاً: «من يذبح ثوراً فهو قاتل إنسان، من يذبح شاة فهو ناجر كلب، من يصعد تقدمة يصعد دم خنزير. من أحرق بخوراً فهو مبارك وثناً. بن هم احتاروا طرقهم وبحرقاتهم سُرّت أنفسهم» ٣ : ٦٦. ويسير عاموس على النهج نفسه في إعلاء الأخلاق فوق الطقوس: «اطلبوا الخير لا الشر لكي تحيوا... بغضت، كرهت أعيادكم ولست ألتذ باعتكافاتكم. إني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرضى، وذبائح السلامة من مسلماتكم لا ألثفت إليها. أبعد عني ضجة أغانيك، ونغمة ربابك لا أسمع. وليجر الحق كالنياه، والركهر دائم» ٥ : ١٤، ٢١-٢٤. أما حزقيال فيصحح سلوك إله التوراة الذي كان يفقد ذنوب الآباء في الأبناء، عندما يقول على لسان إله: «ما لكم أنتم تصرّبون هذا المثل في إسرائيل قائلين الآباء أكلوا الحصرم وأساق الأبناء ضرست. حي أنا، يقول الرب. لا يكون لكم من بعد أن

تضربوا هذا المثل في إسرائيل... النفس التي تخطئ هي التي تموت... الابن لا يحضر من إثم الأب» ١٨: ٢-٤، ٢٠.

ولكن هذه الدعايات الواهية المتفرقة في أسفار الأنبياء، لم تكن كافية حرة إشكالية الأخلاق التي بقيت قائمة، مثلها مثل إشكالية التوحيد، حتى اختتام تدوين الأسفار القانونية.

الشیطان الحاضر الغائب

إن عدم توصل الإيديولوجيا التوراتية إلى صياغة معتقد واضح متسق حول وحدانية الإله وأخلاقيته، وتقصيرها عن بلوغ مفهوم الكمال والخير المطلق في شخصية ذلك الإله، الذي بقي يتصرف حتى النهاية كزعيم قبلي مدفوع بردود أفعاله الآتية وبعواطفه الفطرية مثل الغضب والغيرة، قد دفع بالشيطان إلى دائرة الظل عبر أحداث الرواية التوراتية. فإله التوراة هو صانع الخير وصانع الشر في آن معاً وها هو الهي أشعيا يقدم لنا ما يمكن اعتباره خلاصة تجربة شعب التوراة مع إله التوراة: «أنا الرب وليس آخر. مصور النور وخالق الظلمة. صانع السلام وخالق الشر. أنا صانع كل هذا» ٤٥: ٧٦. ونقرأ في سفر يشوع بن سيراخ: «الخير والشر، الحياة والموت، الفقر والغنى من عند الرب... الظلال والظلمة خلقا مع الخطأة» ١١: ١٤-١٦. وأيضاً: «أنا، أنا هو الرب وليس إله معي. أنا أميت وأحيي. سحقته وبني أشفي، وليس من يدي مخلص. إنني أرفع يدي إلى السماء وأقول: حي أنا إلى الأبد. إذا سللت سيفي البارق وأمسكتُ بالقضاء يدي، أُرِدُّ نعمة على أضعادي وأجازي مبغضِي. أسكر سهامِي بدمي وأأكل سيفي لحمًا بدم القتلَى والسبايا ومن رؤوس قوات العدو»-التثنية ٣٢: ٣٩-٤٢. وبذلك يتم دمج الإله والشيطان في شخصية واحدة هي شخصية يهوه الذي نراه يلعب الدورين ببراعة، رغم أن العناصر الشيطانية في شخصيته تطفئ على العناصر الإلهية. فأي إله هذا، الذي تسكر سهامه بالدم ويأكل سيفه اللحم معصماً بدم انقضى والسبايا ورؤوس قوات العدو؟ وأي إله هذا الذي يشبهه مقطع آخر بالعلاقات الذي تعته السكر فراح يصرب ذات اليمين وذات الشمال: «ثم استيقظ الرب كنائم، ومثل الجبار الذي رانت عليه الخمر. فضرب أعداءه إلى الوراء، جعلهم عساراً أبدياً» المزمور ٧٨: ٦٥-٦٦. وإي إله هذا، الذي يخرج من أنفه دخان ومن فمه نار آكلة:

«ارتجحت الأرض ورتعشت. أسسُ الجبال ارتعدت وارتجحت لأنه غضب. صعد دخان من نفه وذر من فمه أكلت. حمرُ اشتعلت منه» - المزمور ١٨: ٧-٨. وفيه هذا الذي يعف به كما حرج شيطان الوبأ وشيطان الحمى: «قدامه ذهب الوبأ وعند رجله حرجت حمى... وقف وقاس الأرض، انظر، فرجف الأمم» حبقوق ٣: ٤-٦.

ومع ذلك فإن الشيطان لم يكن غالباً تماماً رغم صالة دوره وقلة حيلته. وهو يظهر شريكاً ليهوه أحياناً وتابعاً له في أحيان أخرى ينفذ مهاماً معينة. ففي الأسفار الخمسة يدعى عزازيل، ويبدو أشبه بالجن التي تسكن البوادي والقفار، وهو يقتسم قربان الخطيئة مع يهوه. نقرأ في سفر اللاويين: «وياخذ هرون التيسين ويوقفهما أمام الرب لدى باب حيمة الاجتماع، ويلقي على التيسين قرعتين قرعة للرب وقرعة لعزازيل. ويقرّب هرون التيس الذي خرجت عليه القرعة للرب ويعمله ذبيحة خطيئة، وأما التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزازيل فيوقف حياً أمام الرب ليفكسر عنه ليرسله إلى عزازيل في البرية» - اللاويين ١٦: ٥-١٠. ونجد في سفر القضاة تلاه تحت اسم بلعيا، والذي يعني بالعبرية الشرير عدم الفائدة. نقرأ في سفر القضاة عن سبط بنيامين الذي كان رجاله لوطيين يضطادون العرباء ويعتدون عليهم: «وفيما هم يطيبون قلوبهم إذا برجال المديّة رجال بني بلعيا أحاطوا بأنيت قارعين الباب، وكلموا الرجل صاحب البيت، الشيخ، قائلين: أخرج الرجل الذي دخل بيتك فمعرفة^(*) فخرج إليهم الرجل صاحب البيت وقال لهم لا يا إخوتي لا تفعلوا شراً، بعدما دخل هذا الرجل بيتي لا تفعلوا هذه القباحة» ١٩: ٢٢-٢٣. ونجد هنا غودحاً عن أخلاق عامة الناس في الرواية التوراتية، مما لم نتعرض له عندما عرضنا لسلوك الشخصيات الرئيسية في الرواية. هذا ويرد الاسم بلعيا في عدة مواضع أخرى في الإشارة إلى الشيطان. ففي سفر الملوك الأول يغتصب الملك آخاب كرمأ للمدعو نابوت اليزرعيلي ويلفق له حمة تودي بحياته، ثم يأتي بشهود زور من بني بلعيا (الملوك الأول ٢١). وقد استخدم مؤلفو العهد الجديد الاسم بلعيا للدلالة على الشيطان. يقول بولس الرسول: «وأية شركة لنلور مع الظلام، وأي اتفاق للمسيح

(*) تعبير عرّفه وعرفها، يستخدم في النص التوراتي للدلالة على الفعل الجنسي. وذلك كقولهِ: فعرّف آدم

حواء امرأته فولدت قايين - التكوين ٤: ١.

مع بليعال» - كورنثة الثانية ٦: ١٤-١٥. كما استخدمت الأسفار غير القانونية الاسم أيضاً ومنها نصوص قمران، كما سنرى في الفصل القادم.

وقد يشير المحر التوراتي إلى الشيطان دون ذكر اسمه صراحة. فهو "المهلك" الذي يرسله يهوه في مهمات القتل والدمار. نراه في صحبته عندما مرّ على بيوت المصريين ليصرهم في سفر الخروج، وذلك بعد أن أمر العبرانيين بوضع شارة مرسومة بالدم على أبوابهم لكي يميزهم عن المصريين: «فإن الرب يجتاز ليضرب المصريين. فحين يري الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب ولا يدع المهلك يدخل بيوتهم ليضرب» ١٢: ٢٣. ويقول أشعيا بأن يهوه قد خلق المهلك لمهام الخراب والتدمير: «وأنا خلقت المهلك ليخرب» ٥٤: ١٦. وبه يهدد النبي إرميا أهل يهوذا وأورشليم: «قد صعد الأسد من غابته، وزحف مهلك الأمم. خرج من مكانه ليجعل أرضك خراباً. تحرب مدنتك فلا ساكن» ٤: ٧. والنبي ناحوم يعد الشعب بكف أذى المهلك: «هو ذا على الجبال مبشر مناد بالسلام، عيدي أعيادك يا يهوذا، أوفي نذورك. فإنه لا يعود يعبر فيك أيضاً المهلك. قد انقرص كله» ١: ١٥.

وهو الروح الرديء. الذي يرسله يهوه فيتلبس من يخطيء أمامه. وقد أرسل مثل هذا الروح فحل في جسد شاول: «وذهب روح الرب من عند شاول وبَغَتْهُ روح رديء من قبل الرب» صموئيل الأول ١٦: ١٤. «وكان في الغد أن الروح الرديء من قبل الرب اقتحم شاول وجنّ في وسط البيت» - ١٨: ١٠. وهذا يعني وجسود صلة شراكة بين يهوه والشياطين التي تعمل تحت امرته. وكان يسوع فيما بعد يُخرج مثل هذه الأرواح الرديئة من أجسام المجانين فيشفون. وهم يُدعون في العهد الجديد بالأرواح النجسة والأرواح الشريرة والشياطين.

وهو أثوباء والحمي اللذان يسيران أمام إله الغضب: «جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه. وكان له لمعان كالنور. قدامه ذهب الوبأ، وتحت رجليه خرجت الحمي... بغضب خطرت في الأرض، بسخط دسّت الأمم» - حبقوق ٣: ٣-١٢. وفي سفر طوبيا يدعى ازمواداس (طوبيا ٣: ٨) مثلباً يدعى أيضاً بالشيطان (طوبيا ٦: ٨ و ٨: ٢-٣). وعندما يذكر بالاسم "الشيطان" (وهو بالعبرية شطن، ويعني المقاوم والمعاند) نجده واحداً من بطانة يهوه الخاصة والمنقبة، مكلفاً بأداء

مهام شريرة يوكف. فيه الرب. كما نجد أن الاثنين متفقان أحياناً ومختلفان في أحيان أخرى. ففي سرمير ١٠٩ نجد كاتب المزمور يدعو ربه لكي يقيم من عنده شيطاناً على حصصه بمسد عليه حياته: « فأقم عليه شريعاً، وليقف شيطان عن يمينه. إذا حوكمه فيخرج مدنياً، وصلاته فلتكن خطيئة. ليكن بنوه أيتاماً وامراته أرمله » ٦-٩. وفي سفر زكريا ينتهر الرب الشيطان لأنه وقف عن يمين الكاهن يهوشع ليقاومه: « ورائي الملاك، الكاهن العظيم يهوشع قائماً قدام الرب، والشيطان قائم عن يمينه ليقاومه. فقال الرب للشيطان: لينتهرك الرب يا شيطان، لينتهرك الرب الذي اختار اورشليم » ٣: ١-٢.

في سفر أيوب نجد أن يهوه والشيطان متفقان تماماً بخصوص النيل من العبد الصالح أيوب، وهما يعقدان رهاناً فيما بينهما بشأنه. وهنا تتضح لنا بجلاء شخصية الشيطان في التوراة ومكانته ومهامه. فهو ملاك أسود موكل من قبل يهوه بأمر الشر، ويجول مع بقية الملائكة في الأرض يستقي أخبارها ويرفع تقاريره إلى معلمه. وهو رغم تبعيته الظاهرية إلا أنه قادر على خداع سيده، ودفعه لاتخاذ قرارات غير صائبة بناء على معلومات كاذبة يقدمها إليه. وإليك القصة نسوقها مع بعض التفصيل نظراً لأهميتها في الكشف عن الجوانب الشيطانية في الشخصية يهوه.

كان أيوب رجلاً كاملاً ومستقيماً، على حد وصف مطلع السفر: « وكان هذا الرجل كاملاً ومستقيماً، يتقي الله ويحيد عن الشر.. ولد له سبعة بين وثلاث بنات. وكانت مواشيه سعة آلاف رأس من العجم وثلاثة آلاف جمل وخمسمئة فدان بقر وخمسمئة أتان. وخدمه كثيرون جداً. فكان هذا الرجل أعظم بني المشرق » ١: ١-٣. وفي أحد الأيام جاء الملائكة ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان في وسطهم كواحد منهم: « وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم. فقال الرب للشيطان: من أين جئت؟ فأجاب الشيطان الرب وقال: من الجولان(*) في الأرض والتمشي فيها » ١: ٦-٧. هنا يتذكر يهوه عبده الصالح أيوب

(*) عن الجولان في الأرض باعتباره من مهام الملائكة، نقرأ في سفر زكريا: « فقلت ياسيدي ما هؤلاء؟ فقال الملاك الذي كلمي أنا أريك ما هؤلاء... هؤلاء الذين أرسلهم الرب للجولان في الأرض. فأجابوا: ملاك الرب وقالوا: قد جئنا في الأرض فإذا الأرض كلها مستريحة وساكنة » ١: ٩-١١.

ويأمل أن لا يكون الشيطان عازماً على مسه بسوء: « فقال الرب للشيطان: هل جعلت قلبك على عبدي أيوب ؟ لأنه ليس مثله في الأرض. رجل صالح كامل ومستقيم، يتقي الله ويحيد عن الشر » ١ : ٨. عند ذلك يبدأ الشيطان مكيدته لأيوب، فيوحي ليهوه بأن تقوى الرجل ليست تعبيراً عن كماله وإنما هي نتاج موقف تفعي، لأن الرب قد أغدق عليه ووهبه ما لم يهب لغيره، فإذا مسه ضرر من ربه سوف يكفر ويحدف في وجهه: « فأجاب الشيطان: هل بجاناً يتقي أيوب الله ؟ أليس إنك سيحتّ حوله وحول بيته وحول كل ما له من كل ناحية، باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه في الأرض. ولكن أبسط يدك الآن ومسنّ كل ما له فإنه يحدف عليك » ١ : ٩-١١. هنا يظهر بجملاء عدم اتصاف يهوه بواحدة من أهم خصائص الله وهي كلابية المعرفة، لأن الشك يداخله في أمر أيوب ويود معرفة خبيثة نفسه، فينقاد لأحاييل الشيطان: « هوذا كل ما له في يدك. وإنما إليه لا تمد يدك » ١ : ١٢. وقد كان أخرى به أن يرجع إلى معرفته الكلية، إذا كان لديه منها أدق نصيب، ليعرف خبيثة نفس أيوب بدل توظيفه للشيطان والاتكال عليه.

أطلق يهوه يد الشيطان في أيوب ينزل به ما شاء من الضربات ففي يوم واحد سرقت أبقاره وجماله، وقتل اللصوص عبيده جميعاً، وسقطت نار من السماء فأحرقت قطعان غنمه، ثم سقط البيت على أولاده فماتوا جميعاً: « فقام أيوب ومرق جبهته وجز شعر رأسه وخرّ على الأرض وسجد وقال: عرياناً خرجت من بطن أمي وعرياناً أعود إلى هناك: الرب أعطى والرب أخذ. فليكن اسم الرب مباركاً. في كل هذا لم يخطئ أيوب ولم ينسب لله جهالة » ١ : ١٣-٢٢.

يأتي الشيطان للمثول أمام الرب مرة أخرى فيعاتبه الرب على دسيسيته لأن أيوب لم يخطئ ولم يحدف رغم ما حل به من مصائب: « إلى الآن هو متمسك بكماله وقد هيئتني عليه لأبتعله بلا سبب » ٢ : ١-٣. فيقترح الشيطان أن يستمر الاختبار وأن يطال الأذى أيوب في جسمه وصحته بعد أن طالاه في أملاكه وعائلته. فينساق يهوه مرة أخرى لإغواء الشيطان الذي يباشر عمله فوراً: « فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح رديء من باطن قدمه إلى هامته. فأخذ لنفسه

شقفه ليحتك به وهو جالس في وسط الرماد. فقالت له امرأته: أنت متمسك بعدد
بكمالك ؟ ... فقال لها تتكلمين كلاماً كإحدى الجاهلات أنقبل الخير من عند الله
والشر لا نقب ؟ في كل هذا لم يخطئ أيوب بشفتيه « ٢ : ٤ - ١٣ .

ونكن يهوه وقد أمتعته اللعبة الآن، يزداد إمعاناً في تعذيب أيوب الذي تشنّد
عليه الأوجاع الجسدية والشقاءات الروحية، فيرفع عقيرته بالشكوى وطلب العدل من
إله لا يعرف مثل هذا المصطلح: « أبحر أنا أم تنين حتى جعلت علي حارساً ؟ إن قلت
فراشي يعزيني ويـزرع كربي ثريعي بأحلامٍ وثرهيني برؤى .. كُفْ عني الآن لأن
أيامي نفحة. ما هو الإنسان حتى تعتبره وحتى تضع عليه قلبك، وتتعهده كل صبح،
وكل لحظة تمتحه؟ حتى متى لا تلتفت عني ولا تريحني ريشاً أبلع ربيقي؟ هل أخطأت؟
ماذا أفعل لك يا رقيب الناس لماذا جعلتني عاشوراً لنفسي حتى أكون على نفسي
جماً؟ » ١٧ : ١٢ - ٢٠ . ولكن هذه الشكوى تذهب هباءً لأن يهوه هو الخصم
والحكم وما من أحد يحسبه على أعماله: « ذاك الذي يسحقني بالعاصفة ويكثر
جروحي بلا سبب، لا يدعي أخذ نفسي ولكن يشيعني مرائر. إن كان من جهة القوة
يقول هأنذا، وإن كان من جهة القضاء يقول من يحاكمي ؟ ... أنا مُستذنب فلملذا
أُتعب عبثاً .. لأنه ليس هو إنسان مثلي فأجابه فنأتي جميعاً للمحاكمة. ليس بيننا
مُصالح يضع يده على كلينا » ٩ : ٢٩ - ٣٣ . « أفهمني لماذا تخاصمني ... يذاك
كونتاني وصنعتاني كلي جميعاً، أفتبئلني ؟ ... كُفْ عني قبل أن أذهب ولا أعود إلى
أرض ظلمة وظل موت » ١٠ - ١ - ٢١ .

ولكن ادعاء الرأفة من جانب أيوب وثباته على توكيد حقه أمام إلهه، لا يزيد
هذا إلا تعتاً. وما هو يحاطبه مخاطبة البدلند مستعرضاً قوته أمام هذا الإنسان
الضعيف القاعد فوق كومة رماد بين أطلال بيته المهدم يحك قروحه بكسرة فخار:
« فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال: من هذا الذي يظلم القضاء بكلام بلا معرفة؟
أستد حقوك الآن كرجل، فإني أسألك فتعلمني. أين كنت حين أسست الأرض؟
أخبر إن كان عندك فهم، من وضع قياسها أو من مد عليها مطماراً ؟ على أي شيء،
قرّ قواعدها، أو من وضع قياسها أو مدّ عليها مطماراً ؟ على أي شيء قرّ قواعدها،
أو من وضع حجر زاويتها عندما ترتّمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع

بي الله؟» ٣٨: ١-٦. وبعد خطبة طويلة يتباهى يهوه فيها بكل ما صنعت يده، يتقدم أيوب بإجابة مقتضبة تم عن اليأس من الاحتكام لإله يعتبر نفسه فوق الواجبات الأخلاقية: «فأجاب أيوب الرب وقال: ها أنا حقير عماداً أجابك؟ وضعت يدي على فمي. مرة تكلمت فلا أجيب ومرتين فلا أزيد» ٤٠: ٢-٤.

هذه الإجابة المختصرة تدعو يهوه إلى ثورة عارمة أقوى من الأولى، لأنه يرى في ثنائها اتهاماً مبطناً من قبل أيوب: «فأجاب الرب أيوب من العاصفة فقال: الآن اشدّد حقوك كرجل. أسألك فتعلمني. لعنك تناقص حكمي!! تستذنبني لكلي تترر أنت!!» ٤٠: ٦-٨. ثم يعود إلى استعراض قوته مستعيداً مشاهد معروفة تظهر تسلطه على الوحوش والثنايين البحرية من أمثال هيموت ولوياتان: «هل لك ذراع كما لله وبصوت مثل صوته تُرعد؟... أنصطاد لوياتان بشخص أم تضغط لسانه بحبل؟... من يفتح مصراعي فمه؟ دائرة أسانه مرعبة... عطاسه يبعث نوراً وعياله كهذب الصبح، من فمه تخرج مصاييح شرار نار تتطاير منه... الخ» ٤٠: ٩ و ٤١: ١-٢١. بعد أن ينتهي يهوه من خطبته الاستعراضية الثانية هذه، يدرك أيوب أخيراً أن إلهه لا ينطلق في تصرفاته من أية قاعدة مطلقة أو أخلاقية، بل من إحساسه بالتفوق والسلطة المطلقة، وأنه لا يطلب من عباده إلا اعترافاً تاماً بالتفوق، ولا فائدة تُرجى من تذكيره بالعدل والإنصاف. من هنا نعود أيوب إلى صياغة إجابته الأخيرة بطريقة تسحج من نظرة يهوه إلى نفسه، وبدلك يُفتح في كسب قصيته أخيراً: «فأجاب أيوب الرب فقال: قد علمت أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر... وقد نطقت بما لم أفهم بعجائب فوقي لم أعرفها... بسمعي الأذن قد سمعتُ عنك، والآن رأيتُ عيني، لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد» ٤٢: ١-٥.

لا تحتوي كنمات أيوب الأخيرة على أي عرضٍ لحق أو احتكام لعدل أو تذكير بالقواعد الأخلاقية، بل إنها تندي خصوعاً كاملاً وغير مشروط لجبروت إله كان أيوب يسمع به وبعجائبه ولكنه رآه بعد ذلك بأم عينه. لهذا يهدأ غضب يهوه ويقبّر الرأفة بأيوب، فيعيد إليه كل ما سلب منه: «وزاد الرب على كل ما كان لأيوب ضعفاً، فجاء إليه كل إحقته وكل أخواته وكل معارفه وأكلوا خبزاً في بيته،... له وعزوه عن الشر الذي جلبه الرب عليه. وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاه..

وعاش أيوب بعد هذا مئة وأربعين سنة ورأى بنيه وبني بنيه إلى أربعة أجيال. ثم مات أيوب شيخاً وشبعان الأيام « ٤٢ : ١-١٧. ولكن من يعيد لأيوب كرامته الإنسانية التي هُدرت على يد إله يدّعي أنه الذي أسس الأرض ورفع السماء، ويتباهى بقتل الثنانيين واصطيادها بشخص كما السمك، ولكنه لا يملك الحد الأدنى من المعرفة التي تمكنه من الاطلاع على فؤاد أيوب ليتأكد من صحة ادعاء الشيطان.

لاهوت الملائكة

على عكس لاهوت الشيطان، الذي بقي ناقصاً وغامضاً حتى احتتام الأسفار القانونية، فإن لاهوت الملائكة يأخذ بالاتضح تدريجياً عبر الأسفار، وذلك بتأثيرات رافدينية وفارسية. غير أن ما يميز مفهوم الملائكة في التوراة عن مفهوم الملائكة الفارسي، هو أن الملائكة التوراتية ليست كائنات نورانية خيرة تقف في وجه الشياطين وتكافح الشر في العالم على كل صعيد، بل هي البطانة الخاصة التي تحيط بيهوه الملك، وتحمل عرشه كلما زار الأرض، وتنفذ ما يوكل إليها من مهام. فمعناها للمهام الخيرة ومنها للمهام الشريرة، وغالباً ما يختلط الفريقان حتى يصعب التمييز بين ملائكة النور وملائكة الظلام. فبعد أن ترك يهوه خيمته التي سكن تحتها في الصحراء رداً وصلار له هيكل مثل بقية الآلهة الكبرى، أخذ المحررون التوراتيون يرسمون له صورة الملك الشرقي المنتربع على العرش، والذي يحيط به رهط السماء من الخدم والحشم والأتباع: «قد رأيت الرب جالساً على كرسيه، وكل جند السماء واقفاً عن يمينه ويساره» - الملوك الأول ٢٢ : ١٩. «الرب جالس على كرسي قدسه» - المزمور ٤٧ : ٨. «الرب قد ملك. لبس الجلال، لبس الرب القدرة التترزها» - المزمور ٩٣ : ١. «الرب قد ملك فلتنتهج الأرض ولتفرح الجزائر الكثيرة.. أسجدوا له يا كل الآلهة» - المزمور ٩٧ : ١-٧.

رغم أن قصة الخلق التوراتية لم تأت على ذكر خلق الملائكة، إلا أن النص يتحدث عن مثل هذه الكائنات منذ مطالع سفر التكوين ويدعوها "كرويم". والكلمة صيغة جمع للمفرد "كروب" وهي من أصل بابلي، وتدل على كائنات محمجة ذات رأس إنساني وجسم حيواني، كانت تصور على مداخل الأبنية والقصور الملكية

- عتبرها كائنات ما وراثية حارسة. يرد أول ذكر للكروب والكروبيم في لأصحاح
 ثلث من سفر التكوين. فبعد أن جرى طرد الإنسان من جنة عدن أقام سرب
 الكروبيم لحراسة الطريق إلى شجرة الحياة (التكوين ٣: ٢٤). وفي سفر الخروج يـُـمر
 الرب موسى أن يصنع لتابوت العهد غطاءً عليه صورة لكروبيين مجنحين: «اصنع
 كروباً واحداً على الطرف من هنا وكروباً آخر على الطرف من هناك. ويكون
 الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق، مظللين بأجنحتهما على الغطاء» -
 الخروج ٢٥: ١٩. كما أمره أن يرسم عدداً آخر من الكروبيم على نسيج خيمة
 الاجتماع التي تضم تابوت العهد (الخروج ٢٦: ٣١). وعندما بنى سليمان الهيكل
 الذي وضع الرب بنفسه مخططه، كانت صور الكروبيم مملأ المكان: «وعمل في
 المحراب كرويين من حشب الزيتون علو الواحد عشر أذرع، وخمس أذرع جناح
 الكروب الواحد. وجعل الكروبيم في وسط البيت الداخلي. وجميع حيطان البيت في
 مستديرها رسمها نقشاً بقر كروبيم ... وعمل لباب المحراب مصراعين من خشب
 الزيتون ورسم عليهما نقش كروبيم» - الملوك الأول ٦: ٢٣-٣٢

ويستخدم يهوه هذه الكائنات كواسطة نقل عندما يفكر بزيارة الأرض:
 «طأطأ السماوات ونزل، وضباب تحت رجليه. ركب على كروب وطار، ورثي
 على أجنحة الريح. جعل الظلمة حول مظللات» - صموئيل الثاني ١: ٢٢-٢. ونجد
 الصورة نفسها في المزمور ١٨: «ركب على كروب وهف وطار على أجنحة
 الريح... من الشعاع قدماه عبرت سحبه، برّد وجهه ونار» ١٨: ١٠-١٢. كما أن
 الكروبيم تسند عرش يهوه: «يا راعي إسرائيل يا جالساً على الكروبيم أشرق» -
 المزمور ٨٠: ١. وأيضاً: «الرب قد ملك. ترتعد الشعوب وهو جالس على
 الكروبيم، تنزلزل الأرض» - المزمور ٩٩: ١. وفي رؤيا حزقيال نجد أربعة من هذه
 الكروبيم تحمل عرش الرب، الذي تحول إلى مركبة تطير به وتحط على الأرض، في
 مشهد رأى فيه بعض أصحاب الخيال الجامح من الكتاب الغربيين ما يشبه هبوط مركبة
 فضائية من العوالم الأخرى: «فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال، سحابة
 عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان، ومن وسطها شبه أربعة حيوانات هذا منظرها: لها
 شبه إنسان، ولكل واحد أربعة أوجه وأربعة أجنحة، وأرجلها قائمة، وأقدام أرجلها

كقدم رجل العجل، وبارقة كمنظر الحاس انصقول، وأيدي إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة ... منظرها كحجر نيز متقدة، ومن النار كان يخرج برق ... وعلى رؤوس الحيوانات شبه مقبب كمضرب نيز هائل منتشر على رؤوسها من فوق ... وفوق المقبب الذي على رؤوسه شبه عرش كمنظر انعيق الأزرق، وعلى شبه العرش كمنظر إنسان عليه من فوق ... من منظر حقويه من فوق ومن منظر حقويه إلى تحت رأيت مثل مضرب نيز من حوله ... هذا منظر شبيه بمجد الرب. ولما رأيته، حررت عني وحنني وسمعت صوت متكلم يقول لي: يا ابن آدم قم على قدميك فأنتكلم معك» ١: ٤-٢٨.

ويستخدم النص في الأسفار الخمسة الاسم المفرد "ملاك" في العديد من المواضع. والكلمة بالعبرية تلفظ "ملاخ" وتعني رسول أو مرسل. نقراً في سفر التكوين، في خطاب إبراهيم لبعده: «هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لابني من هنا» ٢٤-٧. وفي سفر الخروج: «ها أنا مرسل ملاكاً أمام وجهك يحفظك في الطريق». وفي سفر العدد: «فصرحنا إلى الرب فسمع صوتنا وأرسل ملاكاً وأخرجنا من مصر». ٢٠: ١٦. وبعد ذلك تظهر في النص صيغة الجمع "ملائكة" إلى جانب صيغة المفرد: «الرب في السماوات ثبت كرسيه ومملكته على الكل تسود.. باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوة، الفاعلين أمره عند سماع صوت كلامه. باركوا الرب يا جميع جنوده، خدامه العاملين مرضاته» - انزمور ١٠٣: ١٩-٢٠. وهم مثل ربح وبار على حد تعبير انزمور ١٠٤: «باركي يا نفسي الرب.. الجاعل السحاب مركبته، الماشي على أجنحة الريح، الصانع ملائكته رياحاً وخدامه ناراً ملتهبة».

ونظراً لغياب الشياطين كمنحوقات ما وراءية شريرة، فإن الملائكة تنقسم إلى فريقين، واحد شرير والآخر طيب، والشريريون مهمهم هم أداة غضب يهوه: «أرسل عليهم جو غضبه، سحطاً ورجزاً وضيقتهم جيش ملائكة أشرار مهد الطريق لغضبه» - انزمور ٧٨: ٤٩-٥٠. وأما الطيبون مهمهم فيحفظون أتقياء يهوه: «لأنك قلت أنت يا رب ملجئي، لا يلافيك شر، لأنه يوصي بك ملائكته لكي يحفظوك في كل طرقك» انزمور ٩١: ٩-١١. والشيطان نفسه هو واحد من هؤلاء الملائكة الأشرار وربما

كان رئيساً عليهم رغم عدم وجود إشارة واضحة في النص إلى ذلك. ويفرد — شعياً بالحديث عن طبقة من الملائكة تدعى سيرايم. وهؤلاء يطيرون بسنة 'حجدة' أربعة كما هو حال الكروبيم: « رأيت السيد جالساً على كرسي عالٍ ومرتبٍ وأدياله مملأ الهيكُل. السيرايم واقفون فوقه، لكل واحد ستة أجنحة، باثنتيْن بعضي وجهه وباثنتيْن يغطي رجله وباثنتيْن يطير. وهذا نادي ذاك وقال قدوس رب الجنود. مجده ملء كل الأرض » ١: ٦-٣.

ومن مهام الملائكة الاتصال بمختاري الرب وأنبيائه. فبعد أن تحول يهوه إلى ملك شرقي وترك خيمته المتواضعة في الصحراء، لم يعد يتصل مباشرة بالناس بل جعل من الملائكة وسيطاً بينه وبينهم. فهؤلاء إلى جانب تسبيحهم للرب وتعظيمهم له فوهم يتصلون بمختاري الرب وأنبيائه فيفسرون معنى أحلامهم ويضعون النبوءات على ألسنتهم (حزقيال ٤: ٣-٤ وزكريا ١٢: ١). ونعرف من هؤلاء الوسطاء ميخائيل رئيس الملائكة، وجبرائيل حامل الوحي. نقرأ في سفر دانيال عن ظهور جبرائيل لنيبي: «وبينما أنا أتكلم وأصلي وأعترف بخطيئتي وخطيئة شعبي، وإذا بالرجل جبرائيل الذي رأيته في الرؤيا منسني عند وقت تقديم النساء، وفهمني وتكلم معي وقال: يا دانيال.. الخ » ٩: ٢٠-٢٢. وأيضاً: «إذ كنت على جانب النهر العظيم الذي هو دجلة، رفعت بصري ونظرت وإذا برجل لابس كتانا وجسمه كأنه يبرجد ووجهه كمظهر البرق وعباه كمصباحي نار وصوت كلامه كصوت جمهور... وسمعت صوت كلامه. ولما سمعت صوت كلامه كنت مُسحاً على وجهي، ووجهي إلى الأرض. وإذا بيد منسني وأقامتني مرتجفاً وقال لي: يا دانيال... الخ » - دانيال ٤-١١.

إن تجني جبرائيل لنيبي دانيال في المشهد أعلاه، يُظهر بقوة أنسر التقاليد الزرادشتية؛ ويُحضر إلى الأدهان مشهد تجلي الروح القدس المدعو هوهر مانا لزرداشت عندما كان على ضفة النهر، وإبلاعه إياه رسالة أهورا مزدا. كما تظهر التأثيرات لزردشتية في سفر طوبيا الذي يشير إلى وجود سعة ملائكة تقف في حضرة الرب بشكل دائم. فهذه الملائكة السبعة هي نظيرة الأرواح السماوية السبعة التي تحيط على الدوام بأهورا مزدا وتعكس مجده. يقول الملاك للرجل الصالح طوبيا: «والآن فإن الرب قد أرسلني لأشفيك وأخلص سارة كنتك من الشيطان، فإنني أنا رفايل الملاك،

أحد السبعة الواقفين أمام الرب « ١٢ : ١٤ - ١٥ . وقد انتقلت هذه الفكرة بعد ذلك إلى العهد الجديد. نقرأ في رؤيا يوحنا اللاهوتي: « سلام من الكائن، والذي كان والذي يأتي، ومن السبعة الأرواح التي أمام عرشه » ١ : ٤ . وأيضاً: « هذا يقوله الذي له سبعة أرواح الله والسبعة الكواكب.. الخ » ٣ : ١ .

وبخلاصة الأمر فيما يتعلق بمفهوم الملائكة في الإيديولوجيا التوراتية، إن المحرر التوراتي قد اقتبس هذا المفهوم عن المعتقد الزرادشتي بعد أن حرده من كل معانيه الأصلية. إن وجود الملائكة في المعتقد الزرادشتي هو ضرورة أخلاقية، وقد خلقها أهوارا مزدا لغرض محدد واضح هو مكافحة الشيطان وأعوانه، والتصدي لهجوم قوى الشر الدائم على خلق الله الطيب. أما في المعتقد التوراتي الذي يفتقد أصلاً إلى تصور متسق وواضح عن الخير والشر، وإلى أي معنى أخلاقي للكون والحياة وصيرورة التاريخ، فإن وجود الملائكة لا يخدم إلا صورة يهوه عن نفسه كملك مطلق السلطان.

الزمن ومفهوم التاريخ

تتسم الرؤية التوراتية للزمن والتاريخ إلى غلط خاص أدعوه بالتاريخ الدينامي المنقوص، لأن هذه الرؤية تقوم على فكرة نهاية التاريخ، ولكن مع استمرارية الزمن الديني المفتوح على اللاهية. فالإيديولوجيا التوراتية تفتقر إلى أهم العناصر التي يقوم عليها مفهوم التاريخ الدينامي وهي: وحدانية الإله وأخلاقه، والشيطان الكوني، وصراع الخير والشر الذي يقود التاريخ والزمن معاً إلى نهاية يعقبها خروج من الزمن إلى الأبدية. فلتابع فيما يلي حركة تاريخ العالم والحصارة الإنسانية كما رآه محررو التوراة حتى اختتام أسفار الكتاب، ورؤيتهم لما سيلي ذلك من أحداث.

قبل بداية الزمن، لم يكن سوى المياه البدئية الأرضية، وروح الرب يرف فوق سطحها ولسبب غير مفهوم قرر الرب خلق العالم ونفذ ذلك خلال ستة أيام تُقابل مراحل الخلق الستة في الزرادشتية. في اليوم الأول خلق الرب النور الذي شق الظلمة الأرضية انتكافة فوق سطح الغمر البدئي، وسمى النور نهاراً وسمى الظلمة ليلاً. في اليوم الثاني خلق قبة السماء. وفي اليوم الثالث أظهر اليابسة وميزها عن البحار ثم بث فيها الحياة النباتية. وفي اليوم الرابع خلق الشمس والقمر وبقيع الأجرام السماوية. وفي اليوم

الخامس خلق الكائنات المائية وطيور الجو. وفي اليوم السادس خلق حيوانات البرية
خلق الإنسان. وفي اليوم السابع استراح من جميع عمله الذي جعله حذق
(التكوين ١ و٢).

مما يلفت النظر في قصة الخلق هذه، عدم تعرضها خلق الملائكة والشياطين أو أية
كائنات ما وراءية أخرى، رغم أن مثل هذه الكائنات تبدأ بالظهور تبعاً عقب ذلك.
غير أن محرر الإصحاحات الأولى من سفر التكوين قد ترك لنا جملة غامضة في مطلع
الإصحاح الثاني يقول فيها: « فأكملت السماوات والأرض وكل جندها، وفرغ في
اليوم السابع من عمله ». وهذه الجملة تفتح الباب واسعاً أمام عدد من التفسيرات
المتعلقة بالكائنات الماورائية على مختلف أنواعها. فكلمة "جند" الواردة هنا، ومرادفها
"أجناد"، مضافة إلى كلمة "الرب" أو "السما"، تدل في النص على الآلهة الأخرى
أحياناً، وعلى الملائكة في أحيان أخرى. نقرأ في سفر الملوك الثاني: « وكان أن بني
إسرائيل أخطأوا ... وتركوا جميع وصايا الرب إلههم وسجدوا لجميع جند السماء
وعبدوا البعل » ١٧: ١٦. وأيضاً: « وعمل منسى - ملك إسرائيل - الشر في عيني
الرب وأقام مذابح للبعل ... وسجد لكل جند السماء وعبدها » ٢١: ١-٣. وأيضاً:
« وأمر الملك ... أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية
ولكل أجناد السماء وأحرقها خارج أورشليم » ٢٣: ٤. وفي سفر إرميا نقرأ: « في
ذلك الزمان، يقول الرب، يخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام رؤسائه وعظام الكهنة
وعظام الأنبياء وعظام سكان أورشليم من قبورهم، ويسطونها للشمس وللقمر ولكل
جنود السماء التي أحبوها والتي عبدوها » (*) ٨: ١-٢.

وفي مواضع أخرى نجد أن تعبير جند الرب أو جند السماء يدل بوضوح على
الملائكة. نقرأ في سفر يشوع: « رفع (يشوع) عينيه ونظر، وإذا برجل واقف قبائله
وسيفه مسلول بيده. فسار إليه يشوع وقال له: هل أنت لنا أو لأعدائنا؟ فقال: كلا
بل أنا رئيس جند الرب » ٥: ١٣ - ١٤. ونقرأ في إرميا: « كما أن جند السماوات
لا يُعبد ورمل البحر لا يحصى، هكذا أكثر نسل داود عبيدي » ٣٣: ٢٢. وفي سفر

(*) نلاحظ من هذا المقطع اعتراف محرر التوراة بأن أهل يهوذا جميعاً بما فيهم الملوك والكهنة والأنبياء لم
يكونوا على عبادة يهوه.

أخبار الأياد شدي: «قد رأيت الرب جالساً على كرسيه وكل جند السماء وقوف عن يمينه ويساره» ١٨: ١٨. وفي المزمور ١٠٣: «باركوا الرب يا ملائكته... باركوا الرب يا جميع جنوده، خدامه العالمين مرضاته» ١٠٣: ٢٠. وفي المزمور ١٤٨: «سبحوه يا جميع ملائكته، سبحوه يا كل جنوده» ١٤٨: ١-٣.

هذه الشواهد وغيرها تلقي ضوءاً على الجملة التي ختم بها المحرر التوراتي فعاليات حق يهوه. فلقد أراد القول بأن يهوه لم يكن وحيداً عندما اكتمل خلق العالم، وأن المستوى الماورائي كان مليئاً منذ البداية بمجشد من الكائنات الإلهية والملائكية، ولكن يهوه قد سما عليهم جميعاً من خلال عملياته الخلاقة عند حدوث الزمن. وهاهو يراقب صيرورة التاريخ الذي انطلق عقب التكوين دونما خطوة إلهية مسبقة.

بعد طرد الإنسان من جنة عدن، مما فصلناه في موضع سابق، يتبدى تاريخ الحصار الإنسانية. ولكن يهوه لا يتبع فعاليات التكوين بفعاليات التأصيل على طريقة الآلهة المشرقية، التي وضعت بنفسها أصول التحضر الإنساني ودفعت حينئذ مسيرة البشر الثقافية، وإنما ينسحب إلى عليائه بعد أن أسس لثلاثة أصول فقط هي الخطيئة واللعة والجريمة. فقد دفع الزوجين الأولين إلى الخطيئة ثم أخرجهما بحطيتهما من الجنة إلى الأرض ليعموا فيها، ولعن الأرض بسببهما: «منعونة الأرض بسببك بالنعيب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك». وعندما رُسد للزوجين الأولين ابنان، هيا يهوه أسباب الجريمة الأولى بقبوله قربان أحدهما ورفضه قربان الآخر، فقتل قايين هابيل متبدئاً تاريخ نسل آدم بالعنف والعدوان. بعد تأسيسه لهذه الشرور الأولى يعفو الإله التوراتي ردحاً طويلاً تاركاً البشر يسلكون في طرقهم الخاصة، حتى تكاثروا وملأوا الأرض. وخلال هذه المدة لم يتدخل في شؤونهم لا سلباً ولا إيجاباً ولم يؤسس لنوع من الصلة معهم. فلا طقوس ولا عبادات ولا شريعة أخلاقية من أي نوع. وفجأة يتبه يهوه ويخطر له أن يتفقد أحوال الناس فيرى أن شرهم قد كثر في الأرض، ولا يجد وسيلة لإصلاح هذا الشر أفضل من إفنائهم جميعاً، رغم كل الخيارات الأخرى المتاحة أمام إله يفترض أنه كلي القدرة: «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه، فقال الرب أمحو عن وجه الأرض

الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع البهائم ودبابات وطيور السماء ... فهي أنسا أت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت « التكوين: ٦.

بعد زوال الطور الأول من الحضارة وابتداء الطور الثاني مما تلا الطوفان، يعود يهوه إلى الاستغراق في ذاته تاركاً العالم على هواه مرة أخرى. ثم يصحو ليجد الناس وقد صاروا أمة واحدة تتكلم لساناً واحداً، وهامهم يبنون مدينة وبرجاً عالياً يصبح رمز وحدتهم وتكاتفهم. وبدلاً من أن يعد لهم يد العون فقد عمل على تشتيتهم وبلبله ألسنتهم ليصبحوا شعباً متفرقة متناحرة: « وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة ... وقالوا هلم نبني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه الأرض. فنزل الرب ليظفر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يسوغها. وقال الرب: هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداءهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما يروون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض، فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض » - التكوين ١١: ١-٨.

يختفي يهوه بعد أن اطمأن إلى تشتيت البشر وورقتهم بتنوع لغاتهم، وبعد أن اطمأن إلى إحباط قفزتهم الحضارية الأولى. بينما يتابع سفر التكوين سرد نسب سام ابن نوح من دون جميع فروع بني البشر. ومن سلسلة نسب سام هذه يتابع فقط خطأ واحداً هو الخط الذي انتهى بالمدعو تارح، الذي وُلد في مدينة أور الكلدانية ثم ارتحل مع وديته ناحور وأبرام (=إبراهيم) وحفيده لوط من ابنه المتوفى هاران، فسار وحط في مدينة حاران في الشمال السوري. هنا يتبه يهوه مجدداً وينظر إلى الأرض بجميع قاراتها وشعوبها وحضاراتها، فلا يرى منها سوى أبرام، فراه يكلمه بدون مقدمات ويأمره بالتوجه إلى أرض كنعان التي سيعطيها إياها ميراثاً ويجعله أمة عظيمة: « وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك ... وتبارك فيك قبائل الأرض » - التكوين ١٢: ١-٣. أما لماذا وقع الاختيار على أبرام هذا من دون بقية بني البشر، ولماذا سيجعل الرب منه أمة عظيمة وتبارك فيه جميع قبائل الأرض، فأسئلة لا يجيب

عليها النص، ولا يستطيع من يتابع سيرة أبرام وسير أبنائه وأحفاده من بعده أن يستشف أية حكمة من وراء هذا الاختيار.

بعد ذلك بمدة، يعقد يهوه عهداً بينه وبين أبرام مضمونه أن يعبد، هو ونسله من بعده، يهوه وحده من دون بقية الآلهة، مقابل تقديم الحماية والعون لهم وإعطائهم أرضاً تصبح لهم ملكاً خاصاً: « ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله (*) القدير. سر أمامي وكن كاملاً، فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً... وتكون أباً لجمهور كبير. فلا يدعى اسمك بعدُ أبرام بل يكون إبراهيم... وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً لا يكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً، وأكون إلههم » ١٧: ١-٨. وبعد وفاة إبراهيم يجدد يهوه عهده مع ابنه اسحاق ومع ابن اسحاق يعقوب، الذي صار اسمه إسرائيل وأنجب اثني عشر ولداً هم رؤوس قبائل بني إسرائيل.

خلال عصر الآباء الذي يتدنى بمجرة إبراهيم إلى كنعان، وينتهي بالتحاق يعقوب وأولاده بيوسف في مصر، لا يتصل الرب بأولئك الآباء إلا مرات قليلة وعلى فترات متباعدة، وذلك إما لتجديد العهد أو للتبشير بغلام بعد سن العجز واليأس. كما أنه لا يستن لهم شريعة ولا يوحى بوصايا من أي نوع.. من هنا تبدو لنا جماعة عصر الآباء بدون عقيدة واضحة أو دين مؤسس. وفيما عدا هذه الاتصالات العرضية التي يشارها يهوه بنفسه، فإن هذا الإله الذي يوصف عادةً بالإله الذي يتحلى في التسربخ ويفعل من خلاله، لا يمارس أية فعالية في تاريخ العالم الذي يفترض أنه خالقهم ولا في تاريخ البشرية التي يفترض أنه إلهها. لقد اختار نسل إبراهيم شعباً له، ومن نسل إبراهيم اختار خط إسحاق من دون إسماعيل، ومن خط إسحاق اختار خط يعقوب من دون عيسو.

كما أنه من كل بقاع الأرض لا يرى إلا بقعة جغرافية صغيرة لا تكاد العيون تلمحها على خارطة العالم، أعطاها ملكاً أبدياً لشعبه هذا، وأمضى ما تبقى من تاريخ

(*) لقد فُك في موضع آخر من هذا النص أن لفظ الجلالة الله أيما ورد في الترجمة العربية للتوراة، هو ترجمة للاسم إيل أو إيلوهم. وتعبير الله القدير أعلاه هو ترجمة لتعبير العبري إيل شداي، أي إيل الشديد أو القوي.

لعالم في محاولة الوفاء بوعده لهم. ومع ذلك فإن الباحثين الغربيين لا يحسبون سمعاً في كل مناسبة بأن إله التوراة هو إله يتجلى في لتاريخ وبفعل من خلاله بينما تتجلى آهة الشرق القديم في الطبيعة وتعمل من خلال صيرورة عميقاتها. وهذه الفكرة هي أخطر الأفكار سيطرة (= Paradigm) على حقول دراسة لاهوت العهد القديم، وأكثرها خطأ في الآن نفسه، إلا إذ فتراصاً أن الجغرافيا السريية تقصر على منطقة السامرة ويهودا، وأن تاريخ العالم يقتصر على فلسطين لكعانية خلال فترة الحدث التوراتي.

ترجل جمعة سفر التكوين من كنعان لتنتحق يوسف الذي صار وزيراً لفرعون، وكان عددهم سبعين نفساً فقط. وهناك أقطعهم يوسف أراضي في منطقة أدلثا فاستقروا وتكاثروا.. ولكنهم بعد موت يوسف وقعوا تحت نير العبودية واستمره مدة أربعمئة سنة، كان لرب حلال عفاً عنهم في بوبة من بوبات سبباته التاريخية "لطويلة، التي لم يوقفه منها سوى صرخ حتى إسرائيل، فطر وتذكر عهده. قرأ في مصع سفر خروج: «وتهدب إسرائيل من العبودية وصرخوا، فصعد صراخهم إلى الرب من أجل العبودية، فتذكر الرب ميثاقه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب» ٢٣: ٢-٤. اختار الرب موسى ليكون أذانه في تحرير الشعب وقيادته، فتجلى له أول مرة هيب شجرة تشتعل ولا تخرق: «فقال: لا تقترب من ههنا. اصنع حداك من رحيلك لأن الموصع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة. ثم قل: أنا إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب.. إلي قد رأيت مدلة شعبي وسمعت صراخهم فزلت لأقلهم من يدي المصريين. وأصعدهم إلى أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لباً وعسلاً» ٥: ٣-٨. «لذلك قل لبني إسرائيل أن الرب، وأنا أخرجكم من تحت أثقال مصرين. وأخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً، وأدخلكم إلى الأرض التي رفعت يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأعطيكم إياها ميراثاً» ٦: ٦-٨.

هنا فقط يقرر يهوه الدخول في لتاريخ، ولكن لا في تاريخ لعالم وتاريخ الحضارة، بل في تاريخ بني إسرائيل حصراً، وينحصر مخططة لتاريخي في تعيين نسك القلة العبودية، وقيدتهم إلى كنعان ليكونوا شعبه الذي احتساره من دون شعوب الأرض، فيصيرونه مملكة خاصة. يترك يهوه عليه لبقود بنفسه بني إسرائيل عبر صحراء سيناء. فكان يتجلى لهم على شكل عمود من سحاب يسير أمامهم في

النهار، وعلى شكل عمود من نار يسير أمامهم ليلاً فلا يضلون الطريق. و: « ثم يبرح عمود السحابة هدراً وعمود النار ليلاً من أمام الشعب » ١٣: ٢٠-٢١. كما كان موكلاً بضعهم وشراهم، يُنزل عليهم من السماء المنّ وطيور السلوى لما كنهم، ويفجر نصخر أمامهم لينشق منه ماء لعطشهم. ثم سكن بين ظهرانيهم في خيمة كيلا يبرحهم. وكان يتدخل في المعارك الحربية إلى جانبهم. الأمر الذي جعله يبدو في أسفار الخمسة أقرب إلى قائد ملحمي منه إلى إله علوي. كما تعطينا هذه الأسفار تطبيعاً قوياً بأن تاريخ الكون بأسره وتاريخ البشرية منذ آدم، لم يكن إلا مقدمة لتحرير بني إسرائيل وقيادتهم إلى كنعان، لكي يؤسس الرب لهم مملكته على الأرض ويكونوا له أجبارة في هذه المملكة: « وأنا حملتكم على أجنحة السور وجئت بكم إليّ. فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي، تكونون لي حاسة من بين جميع الشعوب. فإن لي كل الأرض وأنتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة » ١٩: ٣-٦. في هذه المملكة ينتظر يهوه أن يترفع على العرش ويحكم بشكل مباشر: « ما أجمل قدمي المبشر على الحمال، المخبر بالخلاص، القائل لصهيون قد مَلَكَ إلهك » - أشعيا ٥٢: ٧. وأيضاً: « ارتعدي قدمه يا كل الأرض. قولوا بين الأمم: الرب قد مَلَكَ » - المزمور ٩٦: ٨. « الرب قد ملك. فلتبتهج الأرض... قدماه تذهب نار وتخرق أعداءه حوله » - المزمور ٩٧: ٢. « الرب قد ملك. ترتعد الشعوب. هو جالس على الكروبيم. تنزلزل الأرض » - المزمور ٩٩: ١.

غير أن خطة يهوه لم تسر على ما يُحب ويستهي، لأن الشعب الذي احتلوه لم يتحمل عبء الشريعة، وراح يتذمر على موسى وإلهه منذ خروجه من مصر، فهو يفضل حياة العبودية مع الطمأنينة على الحرية مع المستقة والخطر: « وقالوا لموسى: هل لأنه ليست قبور في مصر أخدمنا لنموت في البرية؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر كُفَّ عما فنخدم المصريين، لأنه خيرٌ لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية » - الخروج ١٤: ١١-١٢. ورغم كل ما فعله يهوه من أجل شعبه، فقد راح هذا الشعب يعبد آلهة أخرى خلال كل الفترة التي تغطيها الأسفار التوراتية. وهذا ما صاغ منذ البداية نوعاً من العلاقة المتوترة بشكل دائم بين الإله وشعبه، استمرت حتى لهايات التاريخ اليهودي. فكان الرب

يعاقبهم كلما زاغوا عن سبيله وأهملوا وصاياهم، فيضربهم بالربوا ويرسل عليهم الكوارث، ثم يمد لهم الحبل عند توبتهم وعودتهم إليه. وبذلك نال يهوه الشعب اللائق به، الشعب الوحيد الذي يستحقه.

ويدور تاريخ بني إسرائيل في الحلقة المفرغة نفسها: عصيان - غضب وعقاب - توبة - عصيان.. وذلك حتى تشكيل المملكة الموحدة التي ضمت القبائل في دولة واحدة، تعاقب على العرش فيها شاؤول وداود وسليمان. ولقد بدا أول وهلة أن مُلك يهوه وشيك التحقق من خلال هذه المملكة التي أسبغ عليها خيال المحرر التوراتي كل خصائص العصر الذهبي الكامل: نقرأ في سفر الملوك الأول: « فعاظم سليمان على كل ملوك الأرض في الغنى والحكمة. وكانت كل الأرض ملتزمة وجه سليمان، وكانوا يأتون إليه كل واحد بهديته بأية قصة وآنية ذهب وحلج وسلاح وأطياب سة فسفة. وجعل الملك القضة في أورشليم مثل الحجارة وجعل الأرز مثل الحمير الذي في السهل لكثرتة » ٢٣-٢٧. ولكن حلم يهوه في مملكة أرضية قد تلاشى لأن سليمان انحرف عن سبيل الرب وعبد آلهة أخرى: « فقال الرب لسليمان: من أجل أن ذلك عندك ولم تحفظ عهدي، فإني أمزق المملكة عنك تمزيقاً وأعطيها لعميك » ١١: ٩-١١.

تتمزق مملكة سليمان بعد وفاته وتنقسم إلى مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا، وتدحل هاتان المملكتان في صراع دائم وحروب طاحنة. ويسير ملوكهما وعامتاهما على خطى من سبقهم في إدارة ظهرهم لإله موسى، فيحكم عليهما بالخراب والسبي، ويستخدم في ذلك مملكة آشور التي دمرت السامرة عاصمة إسرائيل وسبت أهلها، كما يستخدم بعد ذلك بابل التي دمرت أورشليم وست أهل يهوذا. نقرأ في سفر إرميا: « قد رجعوا إلى آثام آبائهم الأولين، وقد ذهبوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها. قد نقض بيت إسرائيل وبيت يهوذا عهدي. لذا أنا جالس عليهم شراً لا يستطيعون أن يخرجوا منه، ويصرخون إليّ فلا أسمع لهم.. لأنه بعدد مدنك يا يهوذا صارت آهتك» - إرميا ١١: ٩. ١٣. وأيضاً: «قد جعلت وجهي على هذه المدينة - أورشليم - لنشر لا للخير يقول الرب. ليد ملك بابل تدفع فيحرقها بالنار» ٢١: ٨-١٠.

وهكذا يغدو ملكوت الرب أشبه بسراب خادع، كلما اقترب منه بنو إسرائيل صار أبعد عنهم. فمسيو إسرائيل لم يرجعوا قط إلى مواطنهم بل تفرقوا وضاع أثرهم،

أما مسيبو يهوذا فقد سمح لهم الملك قورش الفارسي بالعودة إلى ديارهم، حيث شكلوا ولاية فارسية صغيرة دُعيت بمقاطعة اليهودية، دُمّت على جزء من دولة يهوذا القديمة، ولم تكن إلا أثراً باقياً من مملكة قديمة زالت إلى الأبد ولا أمل في إحيائها. ثم ما لبثت الاستقلالية الشكلية التي مُنحت لمقاطعة اليهودية خلال العصر الفارسي أن زالت بعد إلحاقها بدولة السلوقيين، التي ورثت أملاك الإمبراطورية الفارسية في مناطق غربي انقراط. وعندما حاول السلوقيون إضفاء الطابع الهيلينستي على المنطقة، ثار اليهود تحت قيادة المكابيين (- الأسرة الهشمونية) ودخلوا حرب استقلال طويلة أُنهِكت المقاطعة ودمرت بناها التحتية التي لم تكن قد تعافت تماماً. ثم جاء الفتح الروماني ليضع حداً لكل أمل لليهود بالاستقلال وإعادة بناء المملكة.

خلال هذه الأحداث كانت فكرة تحقيق ملكوت الرب على الأرض تُدفع نحو الآفاق غير المنظورة للمستقبل، إلى أن صارت مترافقة مع فكرة جديدة على الأيديولوجيا التوراتية هي فكرة نهاية التاريخ، التي تسربت إليها من الزرادشتية خلال فترة السبي والاحتكاك بالفرس. ففي نهاية التاريخ يظهر المخلص المنتظر الذي بشرت به الزرادشتية، ولكن لا لكي يأتي بالزمس الديني إلى نهايته ويتغلب على قوى الشر الكونية ويساعد على تخليص الكون والإنسانية، كما هو شأنه في العقيدة الزرادشتية، بل لكي يُنصّب ملكاً على اليهود ويحارب أعداءهم في كل مكان. فرفع الشعب المختار فوق شعوب الأرض قاطبة، ويمهد لحلول ملكوت الرب. إنه "المسيا" أي مسيح الرب (*) الذي يُمسح ملكاً زمنياً على إسرائيل ويحقق مملكته الأبدية. ورغم أن لقب مسيح الرب كان يطلق على ملوك إسرائيل الأوائل الذين اختارهم يهوه بنفسه للملك مثل شاؤول وداود (كما أطلقه محرر سفر عزرا على الملك قورش الفارسي الذي سمح لمسيحي يهوذا بالعودة إلى أورشليم) إلا أنه صار فيما بعد وفقاً على مخلص نهاية التاريخ.

إضافة إلى الصفة الزمنية للمسيح المنتظر كمحرر سياسي يأتي من نسل داود، فإن محرري أسفار الأنبياء، بشكل خاص، يصفون عليه خصائص قدسية تجعله أقرب إلى عالم الآلهة منه إلى عالم البشر. فهو يولد من عذراء مثل المخلص الزرادشتي ويدعى عمانوئيل التي تعني: الله معنا، لأنه يمثل الحضور الإلهي بين الناس. نقرأ في سفر أشعيا:

(*) نسبة إلى طقس المسح بالزيت الذي يمر به الملك الجديد.

«هي ذي العذراء تحبل وتلد ابناً، ويكون اسمه عمانوئيل» ٧: ١٤. وأيضاً: «لأنه يولد لنا ولدٌ ويُعطي ابناً، وتكون الرياسة على كتفيه ويدعى اسمه عجيباً مشهوراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام. لنمو الرئاسة ولسلام لا انقضاء على عرش داود» ٩: ٦-٧. وهو يخرج من نسل داود بن يسي: «ويخرج قضيب من جذع يسي وينبت غصن من أصوله. ويحل عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة وخافة الرب، ولذته تكون في مخافة الرب ... يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض» ١١: ١-٤. ونقرأ في نبوة ميخا أن ولادة المخلص تكون في بلدة بيت لحم: «وأنت يا بيت لحم. إنك صغيرة في ألوف يهوذا، ولكن منك يخرج لي من يكون متسلطاً على إسرائيل ... ويقف ويرعى بعزة الرب وبعظمة اسم الرب إلهه، فيكونون ساكنين لأنه حيثئذ يتعظم إلى أقاصي الأرض» ٥: ١-٤. ونقرأ في نبوة دانيال أول إشارة إلى تسمية المخلص بابن الإنسان، وهي تسمية ستعود للظهور في الأسفار التوراتية غير القانونية وفي العهد الجديد بعد ذلك: «كنت أرى أنه وضعتُ عروش وجلس القدم الأيام (- الرب). لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه هيب نارٍ بكرائه نار متقدة. نهر نارٍ جرى وخرج من قدمه. ألوف ألوف تخدمه، وربوات ربوات وقوف قدمه ... وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى القدم الأيام، فقبوه قدمه، فأعطي سلطاناً ومجداً وملكوته لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي لن يزول وملكوته لا يتقرض» ٧: ٩-١١ و ١٣-١٤.

وفي المزمور الثاني يقول الرب عن مسيحه إنه ابنه وأنه اليوم قد وُلد: «أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي. إني أخير من جهة قضاء الرب. قال لي أنت ابني، أنا اليوم ولدتك. إسألني فأعطيك الأمم ميراثاً لك، وأقاصي الأرض ملكاً لك. تحطمهم بقضيب من حديد، مثل إناء خزاف تكسرهم» ٢: ٧-٩. لا يوضح كاتب هذا المزمور هوية المتحدث بصير المتكلم. فقد يكون الملك داود الملقب بمسيح الرب، وقد يكون ابنه سليمان لأننا نقرأ في سفر صموئيل الثاني قول يهوه عن سليمان: «هو بيني وبيناً لاسمي وأنا أثنت مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً» ٧: ١٣-١٤. وقد يكون المتكلم هو مسيح آخر التاريخ. وفي جميع الأحوال فإن إطلاق لقب "ابن الله" مجازاً على المسيح المخلص يأخذ مشروعيته من مثل هذه المقاطع.

يُسْتَهْزَلُ مَلَكُوتُ يَهُوهَ عَلَى الْأَرْضِ بِمَا تَدْعُوهُ أَسْفَارُ الْأَنْبِيَاءِ بِيَوْمِ الرَّبِّ. فَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَتَدَحَّلُ يَهُوهَ بِشَكْلِ مُبَاشِرٍ لِإِدَاءِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ مِنْ أَعْدَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَهِيَ هِيَ يَبْدَأُ هُجُومَهُ الْكَاسِخَ بِصَرْخَةِ الْحَرْبِ: «قَرِيبٌ يَوْمُ الرَّبِّ الْعَظِيمِ قَرِيبٌ، وَسَرِيعٌ جِدًا صَوْتُ يَوْمِ الرَّبِّ. يَصْرُخُ حِينَئِذٍ الْخِتَارُ (صَرَخَاتُ) مُرًّا. ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمُ سَخَطٍ، يَوْمُ ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ، يَوْمُ خَرَابٍ وَدَمَارٍ. يَوْمُ ظِلَامٍ وَقَتَامٍ، يَوْمُ سَحَابٍ وَضُبَابٍ، يَوْمُ بَوَاقٍ وَهَتَافٍ عَلَى الْمَدَنِ الْمُحَصَّنَةِ وَعَلَى التَّرَفَاتِ الرَّفِيعَةِ. (يَوْمُ) أَضْيَاقِ النَّاسِ فَيَمْشُونَ كَالْعَمَى لَا لَتَهُمْ أَحْطَاؤًا إِلَى الرَّبِّ فَيَسْفَحُ دِمَهُمْ كَالْتَرَابِ وَلَحْمُهُمْ كَالْجِلَّةِ. لَا فَضْتَهُمْ وَلَا دَهَبَهُمْ يَسْتَطِيعُ إِنْقَاذَهُمْ فِي يَوْمِ غَضَبِ الرَّبِّ، بَلْ بِنَارٍ غَيْرَتَهُ تُؤْكَلُ الْأَرْضُ كُلُّهَا، لِأَنَّهُ يَصْعَقُ فَنَاءً مَاسِغَةً لِكُلِّ سَكَّانِ الْأَرْضِ» صَفِيَا ١: ١٤-١٨.

وَيَتَرَفَّقُ هُجُومُ يَهُوهَ مَعَ حُلُولِ عِدَدٍ مِنَ الْكَوَارِثِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالْكُونِيَّةِ، بِمَا رَأَيْنَاهُ فِي التَّصَوُّرَاتِ الرَّادِشْتِيَّةِ عِنْدَ نَهَايَةِ الْأَزْمَنَةِ. نَقْرَأُ فِي سَفَرِ أَشْعِيَا: «لَوْلُوا لِأَنَّ يَوْمَ الرَّبِّ قَرِيبٌ، قَادِمٌ كَحَرَابٍ مِنَ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ... هُوَ ذَا يَوْمِ الرَّبِّ قَادِمٌ، قَاسِيًا بِسَخَطٍ وَهُوَ غَضَبٌ، لِيَجْعَلَ الْأَرْضَ خَرَابًا وَيَبِيدَ مِنْهَا خَطَايَاهَا. فَسَلَانٌ نَحْمُومِ السَّمَاوَاتِ لَا تُبْرِزُ نَوْرَهَا، تَظْلِمُ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا وَالْقَمَرُ لَا يَلْمَعُ بِضُوئِهِ ... أَزْلَزَلِ السَّمَاوَاتِ وَتَزَعَزَعَ الْأَرْضُ مِنْ مَكَانِهَا فِي سَخَطِ رَبِّ الْجُنُودِ وَفِي يَوْمِ هُمُ غَضَبِهِ. وَيَكُونُونَ كَظُفِي طَرِيدٍ وَكَغَنَمٍ بَلَا مِنْ يَجْمَعُهَا» ١٣-٩-١٤. وَأَيْضًا: «هُوَ ذَا الرَّبِّ يَحْلِي الْأَرْضَ وَيَفْرِغُهَا وَيَقْلِبُ وَجْهَهَا وَيَبِيدُ سَكَّانَهَا» ٢٤: ١. وَأَيْضًا: «عَلَيْكَ رَعْبٌ يَا سَاكِنِ الْأَرْضِ، لِأَنَّ مِيَازِيبَ مِنَ الْعِلَاءِ انْفَتَحَتْ وَأَسَسَ الْأَرْضَ تَزَلْزَلَتْ. انْسَحَقَتِ الْأَرْضُ انْسِحَاقًا، تَشَقَّقَتِ الْأَرْضُ تَشَقُّقًا، تَزَعَزَعَتِ الْأَرْضُ تَزَعَزَعًا، تَرْتَحَتِ الْأَرْضُ تَرْتَحًا كَالسَّكَرَانِ، وَتَدَلَّدَتِ كَالْعُرْزَالِ وَثَقُلَ عَلَيْهَا ذَنْبُهَا. تَسْقُطُ وَلَا تَقُومُ» ٢١: ١٧-٢٠. وَأَيْضًا: «اقْتَرَبُوا أَيُّهَا الْأُمَمُ لَتَسْمَعُوا، وَأَيُّسَهَا الشُّعُوبُ أَصْغُوا. لَتَسْمَعْ الْأَرْضُ وَمَلُؤُهَا، الْمَسْكُونَةُ وَكُلُّ مَا تُخْرِجُهُ، لِأَنَّ لِلرَّبِّ سَخَطًا عَلَى كُلِّ الْأُمَمِ وَحَقًّا عَلَى جَيْشِهِمْ. قَدْ حَرَّمَهُمْ دَفْعَهُمْ لِلدَّبِيحِ، فَقَتَلَاهُمْ تُطْرَحُ وَجِيفُهُمْ تَصْعَدُ نَتَانَتَهَا وَتَسِيلُ الْجِبَالُ بِدِمَائِهِمْ. وَيَفْنَى كُلُّ حِنْدِ السَّمَاوَاتِ وَتَلْتَفِ السَّمَاوَاتُ كَدَّرَجٍ (=وَرَقٍ)، وَكُلُّ جَدِّهَا يَشْتَرُ» ٣٤: ١-٥.

على أنقاض الأرض المهدامة وعلى أشلاء قتلى الشعوب تُقام مملكة يهوه، ويتربع الرب على عرشه ملكاً في جبل صهيون: «ويكون في ذلك اليوم أن الرب يطلب جند العلاء في العلاء وملوك الأرض على الأرض... ويُجمعون جميعاً كأسارى في سجن ويغلق عليهم في حبس. ثم بعد أيام كثيرة يتعهدون، ويحجل القمر وتخزي الشمس لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون. وفي أورشليم وقُدام شيوخه قد مُجِّد» ٢٤: ٢١-٢٣. عند ذلك يعيد الرب ترميم الطبيعة ليرتفع فيها شعبه المختار: «تفرح البرية والأرض اليابسة، ويتنهج القفر ويزهر كالنرجس، يزهو إزهاراً ويتنهج ويُزعم... الانتقام يأتي، جزاء الله يأتي، هو يخلصكم. حينئذٍ تفتتح عيون العمي وآذان الصم تفتتح. حينئذٍ يقفز الأعرج كالأيل، وترنم لسان الأخرس لأنه قد انفجرت في البرية مياه، وأثمار في القفر، ويصير السراب أحماً والمعطشة ينابيع ماء. ولكن هناك سكة يقال لها الطريق المقدسة، لا يعبر فيها نجس بل هي لهم... ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنم وفرح أبدي على رؤوسهم» ٣٤: ١-١٠.

وبعد أن يجمع يهوه إليه شراذم الشعب المختار من كل مكان، ويريجعهم في أرضهم إلى الأبد، فإنه يسوق من بقي من الأمم والشعوب إلى إسرائيل ليكونوا عبيداً في خدمة اليهود. نقرأ في أشعيا: «ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية لبقية بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن كوش... الخ. ويجمع منفبي إسرائيل ويصم مشتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض لأن الرب سرحم يعقوب ويختار إسرائيل ويريجعهم في أرضهم. فتقرن هم الغرباء وينضمون إلى بيت يعقوب. ويأخذهم شعوب ويأتون بهم إلى موضعهم، ويمتلكهم بيت إسرائيل في أرض الرب عبيداً وإماءً ويسبون الذي سبَّوهم ويتسلطون على ظالمهم» ١١: ١١-١٢ و ١٤: ١-٢. وأيضاً: «ويكون في ذلك اليوم أنه يُضرب سوق عظيم فيأتي النათهون في أرض آشور والمنفيون في أرض مصر. ويسجدون للرب في الجبل المقدس... قومي استنري (يا أورشليم)، لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك... تسير الأمم في نورك والملوك في ضياء إشراقك... وبنو الذين قهروك يسرون إليك خاضعين، وكل الذين أهانوك يسجدون لذي باطن قدميك» ٢٧: ١٣ و ٦٠: ١-٣ و ١٤. أما الحالة

الفردوسية التي تعقب حلول ملكوت الرب فلا تشبه اللجنة الزرادشتية المعدة لجميع فاعلي الخير؛ بل هي وقف على أرض يهود مقدسة، وجبل صهيون الذي يقف عليه سليل داود بن يسي راية للشعوب: «فيسكن النذب مع الخروف ويربض النمر مع الجحدي والنعل، والشبل والمسنن معاً وصبي صغير يسوقهما، والبقرة والدبة ترعيان، تربض أولادهما معاً. والأسد كالبقر يأكل تبناً. ويلعب الرضيع على سرب الصل، ويعد الفطيم يده على حجر الأفعوان. لا يسوون ولا يُفسدون في جبل قدسي لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر.. ويكون في ذلك اليوم أن أصل يسي القائم راية للشعوب، إياه تطلب الأمم ويكون محله مجدداً» ١١: ٦-١٠.

على هذه الطريقة ينتهي التاريخ، وإلى مثل هذه النتيجة يؤول سعي البشرية وشقاؤها عبر مراحل التاريخ. أما الزمن الدنيوي فمستمر بعد زوال التناقضات بين يهود والآلهة الأخرى، وبين الشعب المختار وبقية الشعوب التي تسجد لسدى باطن قدمي أورشليم.

التصورات الآخروية

إن حل مفهوم التاريخ في الإيديولوجيا التوراتية من صراع الخير والشر، ومن فكرة نهاية الزمن التي يعقبها تحويل كامل للوجود إلى مستوى ماجد وجليل، وافتقاد الإله التوراتي إلى أهم الخصائص والصفات التي تقربه من مفهوم "الله"، وأهمها الخير والعدالة، تستتبع جميعاً خلوه هذه الإيديولوجيا من فكرة خلاص الروح وخلاص الإنسانية جمعاء من سلطان الموت ودخولها في الأبدية. فالإله التوراتي لم يتدخل في تاريخ الإنسانية إلا في بداياته وبشكل سلبي لا إيجابي. وعندما قرر التدخل في التطريح بشكل فعلي، اقتصر خطته التاريخية على قيادة بني إسرائيل بنفسه وتحقيق مملكته على الأرض من خلالهم. من هنا فإن هذا الإله غير معني بالإنسان، ومفهوم الإنسلبية غائب تماماً عن الفكر التوراتي. فإذا أتينا إلى ما تجلبه نهاية التاريخ للشعب المختار، لما وجدنا فيها سوى مملكة أرضية يوتوبية لا عزاء فيها للروح التي تبقى أسيرة لسلطان الموت.

تنسج التصورات التوراتية عن حياة ما بعد الموت على منوال التصورات الراهبية والسورية القديمة. فأرواح الموتى تذهب إلى العالم الأسفل المدعو بالعبرية

شيون، والتي ترد في الترجمات العربية على عدة أشكال فهي الهاوية، والهاوية السفلى، واحب الأسفل، والحصرة السفلى. هذه الهاوية فاعرة فاعها لتلتهم كل من دنت سعته ونفذت أيامه المعدودة، وكل من حُتم عليه القضاء وهو في عز شبابه. فعلى حد قول سفر الأمتان: «هاوية والهلاك لا يشبعان، ٢٧: ٢٠. وأيضاً: «ثلاثة لا تشبع، وأربعة لا تقول كفى، الهاوية والرحم لعقيم وأرض لا تشبع ماءً، والنار لا تقور كفى» ٣٠: ١٦. وهي أرض ظلمة ودجور لا يرى أهلها نوراً: «قد شبعنا من المصائب نفسي وحياتي إلى الهاوية دنت.. وصعنتي في الجب الأسفل، في ظلمات في أعماق» - أيوب ١٠: ٢١، ٢٢. وسكاه ظلال وحيلة: «الهاوية من أسفل مهترئة لك، لاستقبال قدمك، مُهصصة لك الأحيلة» أشعيا ١٤: ٩. والإقامة فيها أبدية والنضرب إليها دو، اتحاد واحد: «هكذا لذي يزل إلى الهاوية لا يصعد ولا يرجع بعد إلى بيته» - أيوب ٧: ٩-١٠. ولها كبط أرواح الأسترار والأخيار معاً، وأروح مختاري الرب وأنبيائه في ذلك مثل العجار والعصاة. يقول يعقوب عندما نفس إليه أولاده حمر موت يوسف: «فمزق يعقوب ثيابه على سه أياماً كثيرة... وكان إلى نازل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية السفلى» - التكوين ٣٧: ٣٦.

هذا لعدم الأسفل هو مملكة مستقرة لا سلطان لإله لتوراة عليها، وأهلها لا يعرفون الرب ولا يسبحون محمده، وهو من جانه قد سبهم ومن يله نطقوا: «بين لأموات فراشي مثل الفتنى المضطجعين في القبر الذين لا تذكرهم بعد، وهم من يدك انقطعوا... أفعلت يا رب للأموات تصنع عجائب أم الأحيلة تقوم لمحمدك؟ هل يحدث في القبر برحمك أو تحقك في أرض النسيب. أما أنا فإنيت يا رب صرحت وفي العدة صلاتي تتقدمت» المزمور ٨٨: ٥-١٣. «لأن هاوية لا تحمدك، الموت لا يسبحك. لا يرجو الهابطون إلى الجب أماتك. الحى هو الذي يحمدك كما نأ اليوم» أشعيا ٣٨: ١٨-١٩. «في عمر أيامي أذهب إلى أبواب الهاوية. قد أهدمت بقيه أعوامي. وقت لا أرى الرب، الرب في أرض الأحياء» - أشعيا ٣٨: ٩-١١. «ليس الأموات يسبحون، الرب ولا من يسجد إلى أرض السكون. أما نحن فنبارك الرب من الآن وإلى الدهر» - المزمور ١١٥: ١٧. «إليك يا رب أصرخ، وإلى السيد أتصرخ. ما الفائدة من دمي إذا نزلت إلى حفرة؟ هل يحمدك التراب هل يخسر

بحقك؟ استمع يا رب وارحمي... لكي تترحم لك روحي ولا تسكت» -
المزمور ٣٠: ١٠-١٢.

ونظراً لغياب فكرة البعث والحساب والعالم الآخر، فإن ثواب الرب وعقابه
يجري على هذه الأرض وخلال حياة الناس. ويظهر ثواب الرب بشكل رئيسي بطول
العمر: «أكرم أباك وأملك لكي يطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك».
الخروج ٢٠: ١٢. «مخافة الرب تزيد الأيام وسو المنافقين تقصر» - الأمثال ١٠: ٢٧.
«يا بني لا تنس شريعتي ولا ينس قلبك وصاياي، فلما تزيد طول أيام وسني حياة
وسلاماً» - الأمثال ٣: ١-٢. ومع ذلك قد نجد الأشرار يكافأون بطول الأيام ورغد
العيش والأخبار يموتون بحسرة ولم يذوقوا سعادة قط. نقرأ في سفر أيوب: «لماذا تحسد
الأشرار ويشيخون، نعم، ويتحجرون قوة؟ نسلهم قائم أمامهم معهم، وذريتهم في
أعينهم. بيوتهم آمنة من الخوف وليس عليهم عصا الله» ٢١: ٧-٩. والفريقان يعضيان
إلى آخره واحدة، كما يتابع أيوب فأين العدالة: «هذا يموت في عين كماله كله
مطمئن وساكن، أحواضه ملاءة لبناً ومخ عظامه طري، وذاك يموت بنفس مرة ولم
يذق خيراً. كلاهما يضطجعان معاً في التراب والدود يعشاها» ٢١: ٢٣-٢٦. وهذا
الاضطجاع هو المحجة التي لا قيام منها أيضاً: «الإنسان يسلم الروح فأين هو؟ قد
تنفذ المياه من البحر والنهر يجف و(لكن) الإنسان يضطجع ولا يقوم» ١٤: ١٠-١٢.
ويشبه سفر الخامعة موت الإنسان بموت البهيمة لأن الحادثة تؤديهما إلى الفناء:
«موت هذا كموت ذاك ونسمة واحدة للكل. فليس للإنسان مزية على البهيمة لأن
كليهما باطل، يذهب كلاهما إلى مكان واحد» ٣: ١٩-٢٠.

على أن إشارات قليلة وغامضة عن خلود الروح ترد في أسفار الأنبياء، منها ما
نقرأه في سفر دانيال: «في ذلك الوقت يقوم ميخائيل الرئيس العظيم (رئيس الملائكة)
القائم لبني شعبك؛ ويكون زمان ضيق لم يكن (مثله) منذ كانت أمة إلى ذلك
الوقت... وكثيرون من الرافدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة
الأبدية، وهؤلاء إلى العار للأزدراء الأبدية» ١٢: ١-٢. مثل هذه الإشارات القليلة
والغامضة لم تؤثر على موقف الأيديولوجيا الرسمية من مسألة خلود الروح، ولكنها

فتحت الباب واسعاً أمام الأسفار غير القانونية لتعيد النظر بشكل جذري في هذه المسألة، على ضوء المعتقد الزرادشتي الذي هُلت منه بحرية تامة بعيداً عن الرقابة الرسمية.

خلاصة

إن أفضل ما نصف به الإيديولوجيا الدينية التوراتية هو نهج زرادشتية مقلوقة على رأسها. فالإله الواحد الشمولي العالمي للمعتقد الزرادشتي قد صرَّ إلهاً واحداً لبني إسرائيل. وتاريخ الكون الدينامي الذي يدفعه صراع الخير والشر نحو نهاية الأزمنة، قد تحول إلى تاريخ ديامي ناقص ومشوه، يتحرك نحو نهاية للتاريخ لا للزمن الدنيوي، ويُتَوَجَّ بِسيادة الشعب المختار على كل الأمم وتحقيق ملكوت الرب على الأرض. والشرعية الزرادشتية بجميع بنودها التحريمية قد صارت شريعة موسى، ولكن بعد إفراغها من بواعثها ومعانيها كسلاح في مقاومة الشيطان وقوى الموت والمرض والفساد، وتحويلها إلى تحريمات مفروضة من قبل الرب، على المؤمنين التقيد بها دون تفكير أو مساءلة من أي نوع.

على هامش التوراة الثورة الدينية الصامتة

منذ مطلع القرن الثاني قبل الميلاد اكتملت عملية تحرير كتاب التوراة، ثم اكتملت ترجمته حوالي عام ١٥٠ ق.م إلى اللغة اليونانية في الإسكندرية، وهي الترجمة المعروفة باسم السبعينية^(١). وبذلك أُغلق باب الوحي وأخذ الكتاب شكله النهائي تقريباً، رغم أن الأسفار لم تُجمع في كتاب واحد بل بقيت على شكل لفائف متفرقة حتى عام ٩٠ ميلادية. إلا أن احتتام الأسفار التوراتية على المستوى الرسمي الكهنوتي، لم يكن ليغلق باب الاجتهاد والتطوير في عالم هيلينستي موحد تتمازج فيه تيارات ثقافية متعددة، وخلال فترة تُعدُّ من أحصب فترات التاريخ الحضاري للمنطقة الشرقية، إن لم تكن أحصبها. فمِنذ القرن الثاني قبل الميلاد نشطت حركة إبداع ديني داخل الديانة اليهودية، تستند إلى الفكر التقليدي ولكنها تتجاوزه نحو النهايات المنطقية لتيار الفكر السبوتي والرؤيوي التوراتي، الذي بقي رغم طموحاته التجديدية أسيراً للتركة التقليدية ولسطوة الأسفار الكلاسيكية. وقد استمرت هذه الحركة ناشطة نرحم قوتي حتى نهاية القرن الثاني الميلادي، وكان أصحابها شخصيات متقدمة فكرياً وعاطفياً تأثرت بالحياة الثقافية والدينية المضطربة لتلك الفترة، وحاولت تفسير الموروث الجاهل بما يتلاءم ومستحدثات عصرها وروحها. وقد استخدم هؤلاء أسلوب الأسفار النبوية والرؤيوية التوراتية، ووضعوا خطابهم على لسان شخصيات توراتية

(١) والتسمية جاءت من القصة الخيالية التي تعزو الترجمة إلى اثنين وسبعين كاتباً كلهم الملك بطليموس فلا ديلفوس ينقل الكتاب إلى اليونانية حوالي عام ٢٥٠ ق.م.

بارزة من أحسن سماع سطوة الماضي على أفكارهم. من هنا جاءت تسمية أعمالهم بالأسفار المسحونة؛ أي المسوبة إلى غير كاتبها الحقيقي. مثلما دُعيت أيضاً بالأسفار غير القانونية؛ لأنها بقيت على هامش النص القانوني الرسمي.

مارست الأسفار غير القانونية تأثيراً كبيراً على أفكار الفرقة الفريسية التي ظهرت خلال القرن الأول قبل الميلاد، وتبنت أفكاراً جديدة على الفكر التوراتي مثل خلود الروح والثواب والعقاب والجنة والنار. كما أثرت بعمق على الفكر التلمودي والرباني الذي تبلور خلال القرن الأول بعد الميلاد. ولكن الأهم من هذا كله هو أن الاتجاه الأكثر راديكالية وتحرفاً في هذه الحركة قد مهد لظهور المسيحية. هذا الاتجاه الراديكالي هو الذي سيكون موضع اهتمامنا فيما تبقى من هذا الفصل. قبل أن نستعرض نماذج مستقاة من الفكر المنحول لا بد لنا من وقفة قصيرة نستعرض خلالها أهم الأفكار الجديدة التي قدمها هذا الفكر إلى الأيديولوجيا الدينية التوراتية.

١- مشكلة الشر ومفهوم الشيطان الكوني: إن نقطة الانقلاب المحورية في الفكر المنحول، هي ابتدؤه بمعالجة مسألة الشر وسلطته في هذا العالم، وانتقاله من التلمل في هذه المشكلة إلى صياغة لاهوت عن الشيطان الكوني ودوره في صيرورة التاريخ ومآله.

٢- مشكلة الأخلاق: أعاد الفكر المنحول النظر جذرياً في مشكلة الأخلاق العائمة في الأيديولوجيا التوراتية، وأكد على مسؤولية الإنسان الخلقية وعلى أخلاقية الإله وعدالته، كما جعل الأخلاق نداءً للطقوس والشرعة.

٣- مسألة التوحيد: سار الفكر المنحول بمفهوم التوحيد الصافي الذي بشرت به أسفار الأنبياء إلى صيغته النامة، وأخذ الإله التوراتي يكتسب ملامح وخصائص "الله". فهو إله كوني وشعولي ورب للبشرية جمعاء بكافة أجناسها وأعراقها، رغم عنايته الخاصة ببني إسرائيل. وهو معني بخلاص هذه البشرية وملتزم بتحريرها من شقاء التاريخ ومن ربكة الموت.

٤- التاريخ الدينامي والارتقاء بالوجود: لقد قاد حل المشاكل الثلاثة السابقة إلى صيانة مفهوم دينامي للتاريخ. فحركة التاريخ تقوم على جدلية الخير والشر، وهي تقول إلى نقطة مستقبلية ينتصر عندها الخير نهائياً. ومع انتصار الخير ينتهي التاريخ مثلما ينتهي الزمن الديوي أيضاً، ويتم دخول الكون والإنسانية في الأبدية.

٥- الآخروية والمسيانية: جاءت فكرة نهاية الزمن والارتقاء بالوجود، معه. بعد آخر من التصورات الآخروية، وعلى رأسها القيامة العامة للموتى والحساب الأخير والجنة والنار. كما أعاد تفكر المنحول طرح موضوع المسيح المنتظر بطريقة أكثر وضوحاً واتساقاً مما رأياه في الأسفار القانونية.

٦- مفهوم الإنسانية: لم يتوصل الفكر المنحول إلى مفهوم مجرد وشامل عن الإنسانية ودورها في حركة التاريخ وتحرير الكون. ولكن لهجة الخطاب الشوفيني التوراتي قد خفت حدتها في معظم الأسفار غير القانونية؛ وظهرت في العديد منها فكرة مساواة الأمم والشعوب أمام الله. بينما ركز الاتجاه الراديكالي على فكرة تفضيل الله للأمم وشعوب أخرى على إسرائيل، لأنها تفعل مشيئته وتستمتع لكلمته أكثر من شعبه المختار.

سوف نتضح لنا الكيفية التي عالجتها الأسفار غير القانونية هذه الأفكار وغيرها من خلال عرضنا التالي لنماذج متقاة من هذه الأسفار. ونظراً لطول معظم هذه النماذج واحتوائها على مادة لا تتصل بموضوعنا، فإننا سوف نقدم ملخصاً لكل سفر مع ترجمة كاملة لبعض المقاطع الأكثر أهمية والأكثر تعبيراً عن روح العمل وأفكاره. وأما عن المراجع، فقد اعتمدت كتابين موسوعيين شارك فيهما نخبة الاختصاصيين الغربيين في اللغات القديمة والدراسات التوراتية وهما: 1- The Other Bible الصادر عام ١٩٨٤ عن دار Harper بالولايات المتحدة و 2- The Old Testament Pseudepigrapha الصادر عام ١٩٨٣ في مجلدين عن دار Doubleday بالولايات المتحدة أيضاً.

سفر أخنوخ الأول^(١)

تم العثور على مقاطع من هذا السفر باللغة الآرامية، ضمن مخطوطات البحر الميت (نصوص قمران)، وأرجع الاختصاصيون تاريخها إلى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد. كما عُثر على مقاطع متفاوتة الطول من هذا السفر باللغتين اليونانية اللاتينية،

١- يستند هذا العرض إلى ترجمة E. Issac الكاملة في: The Old Testament Pseudepigrapha. وإلى ترجمة R.H. Charles لمقاطع من السفر في: The Other Bible.

وهي أحدث عهد من شرارات قمران. أما النص الكامل فمتوفر فقط بالندغة الإثيوبية وفي أكثر من محظوة. ويعزى هذا العدد من المخطوطات الكاملة إلى أن سفر أخنوخ قد تم نسيه من قبل الكنيسة الإثيوبية كجزء من العهد القديم.

يتمي السفر إلى جنس الأدب الديني الرؤيوي، الذي يتميز بأسلوب خيالي عربي يصف الكاتب من خلاله مواجهات مع شخصيات ما وراثية تمده بوحى سماوي يكشف له مستقبل الأيام وماضي الخليفة، أو تصعد به إلى السماوات العلى وتطلعه على أسرارها. وغالباً ما يكون الموضوع الأساسي للرؤيا نهاية الزمن والقيامة العامة والحياة الثانية. ويعطيا سفر دانيال في العهد القديم ورؤيا يوحنا في العهد الجديد، إضافة إلى مقاطع رؤيوية من أسفار حزقيال وأشعيا وزكريا وميخا التوراتية، نماذج كلاسيكية عن مثل هذا الأدب.

بضع كاتب السفر رؤياه على لسان أخوخ بن يارد، وهو السلف السادس بعد آدم من سلالة ابنه شيت، والذي يقول عنه سفر التكوين أنه رفع حياً إلى السماء (٢١: ٢٤). ويتندى بالمقدمة التالية:

« هذه بركات أخنوخ التي أسبغها على المختارين والبررة الذين سيكونون حضوراً في يوم المحنة، يوم يزول كل الأشرار. أخنوخ الرجل الصالح، رجل الله شرع ينطق بأمثال^(١) وعيناه مفتوحتان، فرأى وتكلم قائلاً: هذه رؤيا مقدسة من السماء كشفتها لي الملائكة، فسمعت منهم كل شيء وفهمته. وإني لا أتوجه إلى هذا الجيل وإنما إلى الجيل البعيد الآتي، جيل المختارين الذين إليهم نطقت بمثل^(٢)، وتلكلم هو: إله الكون، القدوس الأكبر، سيخرج من مقره وسيمشي على جبل سيناء، ويظهر في معسكره مستقراً من السماء بكامل قدرته. يحل الخوف على الجميع والساهاون (حرفياً: الحراس اليقظون، وهم الملائكة الساقطون) يرتجفون. تأخذهم الرعدة إلى أقاصي

(١) المقصود بالأمثال، هنا، الحكاية الرمزية التي تشير إلى حقائق عميقة. وكان السيد المسيح يضع تعاليمه في صيغة أمثال: تقرأ في إنجيل متى: «فكلهم كثيراً بأمثال قائلاً: هو ذا الراعي قد خرج ليزرع ... الخ. فقدم التلاميذ وقالوا له: لماذا نمدحهم بأمثال؟ فأجاب وقال ... الخ» ١٣: ١-١٣.

(٢) يسح الكاتب هنا على موال وحي العراف بلعام، مما هو وارد في سفر العدد: «فكان عليه روح الله فنطق بمثل وقال: وحي بلعام بن بعور، وحي الرجل المفتوح العينين، وحي الذي يسمع أقوال الله، الذي يرى رؤيا القدير، مطروحاً وهو مكشوف العينين» ٢٤: ٢-٤.

الأرض. تنزعزع الجبال والمرتفعات وتتهاوى، والتلال العالية تذوب مثل أقراص العسل أمام اللهب. الأرض تتمزق وتفغر شقوقها وكل ما عليها يقنى، وتحل الدينونة ويأتي حساب الجميع، لكنه سيحل سكينته على الأبرار ويحفظ المختارين ويسبغ نعمته عليهم.... سيأتي بصحبة عشرة ملايين من أبناء القُدُس (الملائكة) لينفذ أحكامه على الكل، فيهلك الأشرار، ويُحزي كل جسد، بما فعلوه وبكل ما اقترف الخطأة والفجرة بحقه». يلي ذلك موعظة يدعو فيها أخنوخ الإنسان إلى التأمل في مظاهر الكون ومجريات الطبيعة، التي تبشر كلها إلى حائفها وتسير وفق النظام الموضوع لها، وذلك على عكس الإنسان الذي خرج على مشيئة ربه وما أراد له وتبع أهواءه ورغباته. ثم يخلص من ذلك إلى الكشف عن أصل الشر ويروي قصة الملائكة العصاة الذين هبطوا من السماء وتحولوا إلى شياطين.

تعطف هذه القصة على قصة أبناء الله الذين دخلوا على بنات الناس وأنجبوا منهن أولاداً مما يرويه سفر التكوين: «وحدث لما ابتدأ الناس يكثر على الأرض وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاختذوا لأنفسهم نساء من كل ما احتاروا... وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدت لهم أولاداً، هؤلاء هم الجبابرة الذين منهم منذ الدهر دوو اسم. ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر على الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم» ٦: ١-٥. يفسر كاتب السفر هذه القصة فيجد فيها تعليلاً لوجود الشر في العلم، ثم يُعيد روايتها على الطريقة التالية:

«في تلك الأيام، عندما تكاثرت بنو الإنسان وولد لهم بنات حسنات وجميلات، حدث أن فريقاً من الملائكة؛ أبناء السماء، قد رأوهن فاشتهوهُنَّ. فقال بعضهم لبعض: هلم بنا فختار لأنفسنا زوجات من بين بنى الإنسان وننجب منهن نسلًا. ولكن رئيسهم المدعو سيميار - Semyaz (أَمْضَى مخاوفه وحثَّهم) فقال: أحشى أن تتراجعوا عن فعل هذا الأمر (بعد الشروع به) وأدفع وحدي لمن هذه الحطيئة العظيمة. فأجابوه جميعاً: دعونا نُقسم قسمًا ولتحل اللعنة على كل من يتراجع عن فعل هذا الأمر. فأقسموا جميعاً وارتبطوا بقَسَمِ اللعنة هذا، ثم هبطوا في موضع يدعى عردوس. وهو قمة جبل حرمون، وكان عددهم مئتين. وسُمي الجبل حرمون نسبة إلى قسمهم

الذي ربطهم باللعن^(١). وهذه أسماء رؤسائهم: سيمياز، راميقيل، تامثيل، دانيل.. (الخ).. هؤلاء هم رؤساء العشرات، وكان الجميع تحت إمرتهم^(٢).

ويتابع الكاتب فيقول لنا بأن هؤلاء الرؤساء وتابعيهم، قد اتخذوا لأنفسهم زوجات من بين الناس. فولدت الزوجات لهم عمالقة طول الواحد منهم ثلاثمئة ذراع. وعلم الملائكة الساقطون البشر كيفية استخراج المعادن واستخدامها في صناعة السيوف والتروس والدروع، وكذلك صناعة الأساور والخلي وكحل العيون وأدوات الزينة، وكذلك الإفادة من النباتات، والتنجيم، وإشارات السماء والأرض. ولكن شر العمالقة كثر على الأرض وأكلوا الأخضر واليابس. وعندما لم يبق ما يكفي لطعامهم راحوا يلتهمون البشر أيضاً. فصعد صراح البشر إلى السماوات. عند ذلك نظر الملائكة ميخائيل وسورافيل وجبرائيل من الأعالي، ورأوا ما يجري على الأرض من شر وعنف، فمضوا إلى الرب واطلعوه على الأمر. بعث الرب مع الملائكة إلى أخنوخ يأمره أن يذهب إلى الساقطين ويقل لهم قضاء السماء بشأهم. فهم سيشهدون ذبح أولادهم العمالقة، وبعد ذلك سيُقيدون في ثنايا الأرض لسبعين جيلاً حتى يوم الدينونة، عندها سيقادون إلى هوة النار وإلى العذاب الأبدي. سمع الساقطون حكم الرب عليهم فارتاعوا وطلبوا من أخنوخ أن يشفع لهم عنده فيقبل استرحامهم واستغفارهم. فمضى أخنوخ وجلس عند صفة النهر حيث قرأ استرحام الساقطين، وكرر ذلك حتى وقع عليه سباتاً. وهنا تبدأ رؤيا أخنوخ التي يصفها في المقطع التالي:

« دعتني رياح وباداني غمام، وهُرعت بي بروق ومسارات نجوم، وحمَلتني في الرؤيا رياح وطارَت بي نحو السماء. ارتفعتُ حتى اقتربتُ من جدار مصنوع من الكريستال وتحيط به ألسنة اللهب. تملكني الخوف، ولكنني تقدمتُ حتى اجتزت ألسنة اللهب ووصلت قصرًا عظيمًا مبنيًا من حبات برَد كريستالية. كانت جدرانُه وأرضيَّاته كشبه أرض مبلطة بالكريستال، أما سقفه فكان من بروق ومن مسارات النجوم، وبسببها ملائكة الكروبيم النارية، والسماء من خلف ذلك بنقاوة الماء. وكانت نار

^(١) لأن الكلمة العبرية "حريم" تعني لغة. وفي هذا الموضع من النص تضيف الشذرة اليونانية أن السرول كان في زمن يارد، وهو أبو اخنوخ.

1 - J. H. Charlesworth, ed, The Old Testament Pseudepigrapha, P.13 FF.

توقد حول الجدران والبوابات وتوهج. ولجتُ القصر فكان ساخناً مثل النار وبارداً مثل الثلج، ولا أثر لحياة فيه.. فغمزني الخوف وأخذتني الرحفة ووقعت على وجهي، ورأيت رؤيا ثانية:»

« كان هنالك قصر آخر أعظم من الأول تجلُّ مهابته على الوصف. قصر من حجر أرضه وسقفه من نار فوقها البروق ومسارات النجوم، كانت بواباته مفتوحة أمامي فنظرت ورأيت عرشاً مرتفعاً له مظهر الكريستال وعجلاته تبدو مثل قرص الشمس آنأ ثم مثل ملائكة الكروبيم آنأ آخر. ومن تحت العرش تخرج أثمار من نار متقدة لم أستطع إدامة النظر إليها. هناك يجلس المجد الأعظم. عباءته أكثر بريقاً من الشمس وأكثر نصوعاً من الثلج. لا يستطيع الملائكة دخولاً أو دُوراً من مجده وعظمته، ولا يستطيع كائن من لحم ودم رفع البصر إليه. نار من أمامه ومن خلفه فلا يقدر أحد مه اقتراباً. في حضرته مئات الآلاف من الملائكة وأكثرهم قداسة يقفون أمامه في كل آن، ولكنه لا يفتقر إلى مشير.»

« كنت ساجداً طيلة الوقت ارتعد. ثم كلمني الرب بصوته قائلاً: تقدم يا أخوخ واسمع كلامي. فجاء أحد الملائكة المقدسين ورفعتني وسار بي حتى دنوت من البوابة وأنا مطرق الرأس. هناك كلمني ثانية وقال: لا تخف يا اخنوخ أيها الرجل الطيب يا كاتب الصدق. تقدم إلي واسمع صوتي. اذهب إلى ساهري السماء(*) الذين أرسلوك لتسترحم من أجلهم؛ وقل لهم قد كان أخرى بكم أن تسترحموا من أجل الإنسان لا أن يسترحم الإنسان من أجلكم. وقل لهم لماذا توليتهم عن السماء انعلينا المقدسة لتناموا مع النساء وتدنسوا بيئات الناس وتأخذوهن لكم زوجات مثل بني البشر وتنجبوا منهن أولاداً عمالقة. كنتم قديسين وروحانيين وعبالدين، ولكنكم تدنستم بدم النساء وأنجبتم أولاداً من لحم ودم، ومثل الذي يموتون ويقفون صار لكم توق لجسد اللحم والدم. لقد أعطيت أولئك نساءً يخلصوهن وينجبوا منهن أولاداً لكي لا يفنى جنسهم على الأرض. أما أنتم فكتم روحانيين وعبالدين على مرّ أجيال الأرض، فلم أعظكم زوجات لأن السماء مسكنكم. والآل فإن العمالقة (أولادكم)،

(*) يدعو النص الملائكة الساقطين ساهري السماء لأنهم من فئة الملائكة الساهرين المكلفين بحراسة الأرض وتفقد أحوالها على الدوام.

نسل الروح والجسد، سيُدْعَوْنَ أرواحاً شريرة. لأن أرواحاً خبيثة سوف تصدر عن أجسادهم (المنذوبة) ويكون في الأرض مسكنها، لأنهم ولدوا من نساء الأرض ومن الساهرين المقدسين. لن يأكلوا ولن يشربوا رغم أنهم يجوعون ويعطشون. سوف يسببون الأذى والعنف والدمار على الأرض ويدفعون الناس إلى الخطيئة وإلى المعصية، ويقومون ضد أبناء الناس وضد النساء لأنهم مهين قد أتوا. عندما يهلك العمالقة سوف تُعيثُ الأرواح الخارجة منهم فساداً (وترتفع) بلا رادع إلى يوم الحساب الأخير، يوم يهلك الساهرون الساقطون. فقل (يا أخنوخ) للساهرين الذين تسترحم من أجلهم: لقد كنتم من سكان السماء، وقد كُتِفْتُمْ لكم بعض أسرارها، ولكنكم بقساوة قلوبكم نقلتم الأسرار إلى النساء، وبفضلها صنع النساء والرجال مزيداً من الشرور. وقل لهم: لن يكون سلام أبداً»^(١).

بعد ذلك يأخذ الملائكة أخنوخ في جولة تكشف له أسرار السماء. ويستغرق وصف هذه الجولة بقية الجزء الأول من سفر أخنوخ. والوصف طويل ومفصل بحيث لا نستطيع هنا سوى إعطاء لمحة موجزة عن أهم ما رآه. فقد رأى خزانات الرياح وخزانات البرق والرعود وخزانات الغيوم والثلوج. ورأى منابع أنهار الأرض كلها ومبع البحر. ورأى الملائكة التي تُحرك عجلات القمر والشمس وبقية الأجرام السماوية، والملائكة التي تسد قبة السماء عند غايات الأرض حيث بوابة السماء التي تخرج منها النجوم في مواعيدها، وبوابات الرياح الأربعة، وبوابات الثلج والبرد والضباب والندى. ورأى مكان سجن النجوم العاصية التي لا تطلع في مواعيدها، وجحيم الملائكة الساقطين، وجنة الأبرار وجحيم الكفار. ورأى مكان المطهر، وهو عبارة عن أربعة كهوف عظيمة محفورة في جبل هائل الحجم، معدة لأرواح الموتى في انتظار يوم الحساب الأخير. ثلاثة من هذه الكهوف مظلمة وواحد منير، فأما المظلمة فهي لإبواء أرواح الخاطئين وفق درجة خطيئتهم، وأما الكهف المنير فمعد لأرواح الصالحين.

يحتوي الجزء الثاني على عدد آخر من الرؤى مصاغة بأسلوب شعري ترميزي، وتفتقد إلى الشروحات التفصيلية المطولة التي ميزت الجزء الأول. تقتبس فيما يلي أهم

هذه الرؤى المتصلة بموضوعنا، وهي التي تدور حول المخلص المنتظر المدعو هنا بـ «ابن الإنسان»، والتصورات الآخروية المرتبطة بنهاية التاريخ^(١).

مبدأ الأيام وابن الإنسان

« هناك رأيت الذي رأسه مبدأ الأيام (= الرب). كان شعره مشتعلًا بياضاً مثل الصوف. ومعه كائن آخر له مظهر الإنسان ووجهه ممتلئ نعمة كـملاك قديس. فسألت لذلك المرافق أنه يكشف لي سر ابن الإنسان، من هو ومن أين أتى ولماذا يرافق مبدأ الأيام. فقال لي: هو ابن الإنسان الممتلئ بالخير والذي به يحيا الخير والذي به تنكشف الكنوز الخبيثة. لأن رب الأرواح اختاره، وقدره خيرٌ كله أملمه رب الأرواح إلى الأبد. إن ابن الإنسان الذي رأيت، سيرمي الملوك والجبابرة والأقوياء عن عروشها وكراسيها، لأنهم لم يسبحوا بحمده ولم يعبدوه ولم يعترفوا بمصدر ملكهم وسلطانهم. سوف يفتح قلوب الأقوياء ويكسر أسنان الخطاة ويخفض وجوه العتاة ويمرغها بالعار، فيجعل الظلمة مسكنهم والديدان سريرهم. هناك يضطجعون ولا يقومون ».

نلاحظ هنا أن الفكر المنحول قد تحول من فكرة مسيح آخر الأزمنة إلى فكرة "الحقيقة المسيحانية" القائمة مع الله قبل خلق العالم. فالمسيح هو حقيقة كونية سوف تتجسد في إنسان عندما يأتي الزمن والتاريخ إلى نهايتهما. وهذا ما تعالجه الرؤيا التالية بشكل أكثر وضوحاً.

ابن الإنسان سابق الأيام

« هاك رأيت يبعث الخير الذي لا ينضب معيه، وحوله من كل ناحية كثير من ينابيع الحكمة، ليشرب منها العطاش ويمتلئون حكمة، فيعيشون مع الأخيار والقديسين والمختارين. في تلك الساعة سُمي ابن الإنسان أمام رب الأرواح وكان اسمه سابق الأيام^(٢). قبل أن تخلق الشمس وبروج السماء، قبل أن تُصنع نجوم السماء، دُعي اسمه أمام رب الأرواح. سيكون عصا يتوكأ عليها الأبرار فلا يتعثرون، سيكون نوراً تهتدي

١ - وقد ترجمتها عن المرجعين السابقين.

(٢) حرفياً: قبل بداية الأيام، أو قبل رأس الأيام.

به الأمم وأملاً لجميع المحزونين. أمامه سيسجد جميع أهل الأرض ويعبدونه، ويحمدون ويباركون رب الأرواح بالأناشيد. لأجل هذا تم اصطفاؤه وحجته في حضرة رب الأرواح، من قبل خلق العالم وإلى نهاية الدهر. لكن حكمة رب الأرواح قد كشفت عنه للقديسين والأبرار، لأنه حافظ الأبرار الذين نبذوا عالم الشر هذا وكرهوا كل صرقه وأعماله، واعتصموا برب الأرواح الذي باسمه سوف يُخلصون وفقاً لمرضاته. في تلك الأيام سيُذل الملوك والمتنفذون جرّاء ما اقترفته أيديهم، وفي يوم كرمهم لن يستطيعوا إنقاذ أنفسهم. عندها سوف يسلمون لأيدي المختارين، ولنسوف يحترقون مثل قش في نار أمام وجه القديسين، ومثل رصاص في ماء سوف يغرقون أمام وجه الصالحين وينمحي أثرهم. في يوم كرمهم ذاك سيحل سلام على الأرض، وهم يسقطون ولا يقومون».

القيامة والبعث

« في تلك الأيام سوف تعيد الأرض أمانتها، وتلفظ الهاوية ما أخذته إليها، ويسدد الحميم دينه. في تلك الأيام سيقوم المصطفى ويختار من بين الأموات المبعوثين، الأبرار منهم والقديسين، لأن يوم خلاصهم قد حان. في تلك الأيام سيجلس المصطفى على العرش وينطق فمه بأسرار الحكمة والموعظة الحسنة، لأن رب الأرواح قد منحه إياها ومجده. في تلك الأيام سوف تقهر الجبال مثل كباش فرجة، وتنط التلال مثل حملان رؤيت حليباً. يومئذ ستشع وجوه الملائكة جبوراً وتبتهج الأرض بالأخيار والمختارين يمشون عليها، ورب الأرواح يحكم فوقهم. سوف يأكلون مع ابن الإنسان، وينامون ويستيقظون في كل يوم إلى أبد الآبدين. سيرفعون قاماتهم على الأرض ولا يخفضون رؤوسهم أبداً. عليهم عاءات مجد، عباءات الحياة من رب الأرواح، عباءات لا تبلى مع الزمن، ولا يبلى مجدهم أمام رب الأرواح».

هذا وتحتوي الأجزاء ٣ و ٤ و ٥ من السفر على عدد متنوع جداً من المواضيع، أهمها بالنسبة لموضوعنا هنا هو الإشارات المتفرقة إلى القيامة والحساب والمعاد. فمن علامات اقتراب القيامة انتشار الظلم وغياب العدالة، وشح المطر ومحل الأرض، واضطراب مسارات الأجرام السماوية وتغيير القمر مواعيد طلوعه. وعندما تحل

نساعة يحدث من الأهوال ما يجعل كل مرضعة تغفل عن رضيعها وترميه عن صدرها. عندها يُبعث من في القبور وكل الذين هلكوا بدون دفن ومُحقت آثارهم، كل الذين قضوا في الصحراء أو غرقوا في الماء وابتلعتهم الأسماك، أو افترستهم الكواسر، ويقفون للحساب أمام رب الأرواح. ثم تُفتح بوابة الجحيم، وهو هاوية عميقة لا يُسر غورها ومهما وفد إليها من الناس لا تمتلئ، فيها ملائكة العذاب يجهزون أدوات العقاب من سلسل وقضبان وما إليها. وفي قعرها نار تتضرم، نار أبدية يُلقى فيها المجرمون. في ذلك الوقت يُعلن الملوك والمتنفذون ندمهم أمام ملائكة العذاب ويطلبون فسحة من الوقت ليرجعوا عن آثامهم ويتوبوا أمام الرب ويعبدوه، ولكن طلبهم يرفض ويصدر بحقهم حكم أبدي على مدى أجيال الدهور.

سفر عزرا الرابع

يعود الأصل العبري لهذا السفر إلى أواخر القرن الأول الميلادي. ورعم أن هذا الأصل قد ضاع منذ وقت مبكر، إلا أن أجزاء منه قد وجدت مترجمة إلى كل من اليونانية واللاتينية والإثيوبية والقبطية والأرمنية. ولدينا ترجمتان عربيتان قديمتان محفوظتان في مكتبة الفاتيكان برومة. الأولى تحت رمز "العربية ١" ولها مخطوطتان الأولى أصلية والأخرى نسخة عنها، والثانية تحت رمز "العربية ٢" ولها ثلاث مخطوطات واحدة كاملة واثنان ناقصتان^(١). أما الترجمة المعتمدة عالمياً فهي الترجمة اللاتينية لكونها أكمل الترجمات، وهي التي سيعتمد نصها الإنكليزي فيما يلي^(٢):

يبتدئ السفر بمقدمة تسرد نسب عزرا، الشخصية التوراتية التي يضع كاتب السفر كلامه على لسانها. ثم يُفتتح السفر بقول عزرا: « وكانت كلمة الرب إليّ قائلاً اذهب وأعلن لشعبي عن شرورهم ولأولادهم عن خطاياهم التي اقترفوها أمامي ». بعد ذلك يتابع الرب تعداد نعمه التي أنعم على بني إسرائيل وكيف قابلوه

1 - The Old Testament Pseudepigrapha, Vol.1, P. 519.

والمرجح أعلاه لا يعطينا معلومات عن تاريخ إعداد هاتين الترجمتين ولا عن اللغة التي تمت ترجمتها عنها. ولكني أرجح أنها ترجمتا في الأندلس على يد بعض أحبار اليهود.

2 - Ibid, P 525 ff

بالجحود والنكران وأداروا ظهرهم لشريعته. وينتهي إلى القول بأنه سترك شعبه الذي اختاره إلى شعوب وأمم أخرى: « سوف أنثت بني شعوب أخرى فأعطيها اسمي وتعمل شرائعي، لقد تركتموني وأنا أيضاً سوف ترككم. عندما تستجدون رحمتي أحجبها عنكم، وعندما تيسطون أيديكم إليّ أنصرف سمعي عنكم. أيديكم مملأة دماً وأرجلكم سريعة لاقتراف الجريمة. والحق، فإنكم م تركتموني وإنما تركتم أنفسكم، يقول الرب. ألم أعطف عليكم كما يعطف الأب على أولاده والأم على فليذات كدها، لتكونوا لي شعباً ولأكون لكم إلهاً، وتكونوا لي أولاداً وأكون لكم أباً ؟ لقد جمعتكم كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها. ولكن ماذا أفعل لكم الآن ؟ سأبذلكم من أمامي وأدير وجهي عن تقدماتكم. رؤوس شهورك وأعيادكم وختلان الجسم، بغضتها نفسي. أرسلت إليكم خدمي الأنبياء ولكنكم قتلتموهم ومزقتم أجسادهم، وها أنذا أطلب دماءهم منكم. يقول الرب ».

« هوذا بيتكم خراباً. تُخرجون منه فأذروكم كما تفعل الريح بالقمح... وأعطي مساكنكم لشعب يأتي، شعب يؤمن بي ولم يسمعي، يفعل مشيئتي ولم أظهر له آية، بترك طرقه القديمة ولم أبعث له أنبياء، يوقنون بأقوالي ولم يروني رؤية العين بل رؤية الروح. انظر يا عزرا باعتزاز الشعب الآتي من الشرق. له سوف أعطي إبراهيم وإسحاق ويعقوب قادة، وأعطي هوشع وعاموس وميخا ويوثيل... (الخ) أنبياء. لقد أخرجت هذا الشعب من الأسر وأعطيتهم وصاياي عن طريق الأنبياء، ولكنهم لم يصعوا إليها بل راحت هباء... فليفرقوا بين الأمم وليمنح اسمهم وذكرهم عن وجه الأرض، لأنهم ردلوا عهدي... هكذا يقول الرب لعزرا: قل لشعبي (الجديد) بأنني سأهبهم مملكة أورشليم التي أعددها لإسرائيل، وأسحب منها مجدداً. سأهبهم سكناً أهدياً أعدده لإسرائيل، فيه شجرة الحياة تعطيهم عطرها فواحاً، وفيه لا يتعبون ولا يشقون».

بعد ذلك تعرض لعزرا رؤى سبع متتابعة، وهو في مدينة بابل التي سيق إليها مسيو يهودا. في الرؤيا الأولى يناجي عزرا ربه وي طرح عدداً من التساؤلات التي تدور حول أصل الشر في العالم ومصير إسرائيل والبشرية. فبدأ البداية فرض الرب على آدم وصية واحدة فقط، ومع ذلك لم يكن أهلاً للاضطلاع بها فأخطأ إلى الرب وحكم عليه وعلى ذريته بالثوت. وعن آدم نشأت شعوب وأمم كثيرة جميعها مشى وراء

فَكَرِهَ وَتَرَكَ الرَّبَّ، فَأَهْلَكَهُمْ الرَّبُّ بِطُوفَانٍ عَظِيمٍ وَأَنْجَى نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ وَلَكِنْ أَمَمَ مَا عَدَّ الطُّوفَانُ لَمْ تَكُنْ بِأَحْسَنَ حَالًا مِنْ سَابِقَتِهَا، بَلْ لَقَدْ فَجَرَتْ وَضَلَّتْ أَكْثَرَ مِنْهَا... وَلِذَا فَقَدْ اخْتَارَ الرَّبُّ إِسْرَائِيلَ شَعْبًا خَاصًّا وَأَعْطَاهُ الشَّرِيعَةَ. وَلَكِنْ إِسْرَائِيلَ ضَلَّ عَنِ السَّبِيلِ لِأَنَّ الرَّبَّ لَمْ يَطْهَرْ قَلْبَهُ مِنَ الْإِثْمِ الْإِنْسَانِيِّ فَعَاشَتْ بِذَرَةِ الْخَطِيئَةِ الَّتِي زَرَعَتْ فِي قَلْبِ آدَمَ مَعَ الشَّرِيعَةِ حُبًّا إِلَى حَنْبٍ، ثُمَّ ذَهَبَ الْخَيْرُ وَاسْتَقَرَّ الشَّرُّ فِي الْقُلُوبِ فَآلَتْ إِسْرَائِيلَ إِلَى الدَّمَارِ وَالْخَرَابِ.

ثُمَّ يَنْظُرُ عِزْرَا حَوَالِيهِ وَيَرَى أَنَّ حَطِيئَةَ بَابِلَ لَيْسَتْ أَقْلَ مِنْ حَطِيئَةِ إِسْرَائِيلَ، وَإِثْمُ الْأُمَمِ لَيْسَ أَقْلَ مِنْ إِثْمِ نَسْلِ يَعْقُوبَ. فَلَمَّا ذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى إِسْرَائِيلَ وَحَدَّهَا بَيْنَمَا تَرْتَعُ بَقِيَّةُ الْأُمَمِ الضَّالَّةُ بِالثَّرَاءِ وَالدَّعَةِ، وَكُفَّافًا عَلَى شَرِّهَا فَيُضَاعَفُ رِزْقُهَا أَضْعَافًا. هَا يَتَدَحَّسُ الْمَلَاكُ الْمُدْعُو أَوْرِيثِيلَ مُحَاوِرًا عِزْرَا، وَيَقُولُ لَهُ بَأَنَّ فَهْمَهُ قَدْ قَصُرَ عَنْ اسْتِيعَابِ مَا يَجْرِي فِي هَذَا الْعَالَمِ، لِأَنَّ أَسْبَابَ مَا يَجْرِي تَقَعُ وَرَاءَ الظَّاهِرِ، وَطَرِيقُ اللَّهِ خَفِيَّةٌ عَلَى الْإِنْسَانِ. ثُمَّ يَكْشِفُ لَهُ عَنْ مَجِيءِ سَاعَةِ قَرْيَةِ يَحْصِدُ فِيهَا مِنْ زَرْعِ بِذَرَةِ الشَّرِّ مَحْصُولَهُ وَيَحْصِدُ فِيهَا مِنْ زَرْعِ بِذَرَةِ الْخَيْرِ مَحْصُولَهُ. وَهَذِهِ السَّاعَةُ تَأْتِي فِي مِيعَادٍ دَقِيقٍ مُحْسُوبٍ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَكَمَا أَنَّ رَحِمَ امْرَأَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِحْتِفَازُ بِالْجَيْنِ فِي آخِرِ الشَّهْرِ التَّاسِعِ عِنْدَمَا يَأْتِي الْمَحَاضُ، كَذَلِكَ الْأَرْضُ الَّتِي أَنْخَسَتْ بِالْمَوْتِ مِنْذُ بَدْءِ الْخَلْقَةِ، فَهِيَ لَنْ تَلْفِظَهُمْ قَبْلَ مَجِيءِ سَاعَةِ مُحَاضَتِهَا فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَلَكِنْ لِلْسَّاعَةِ عَلَامَاتُهَا. فَفِي ذَلِكَ الْوَقْتُ يَتَمَلَّكُ النَّاسَ ذَعْرٌ عَظِيمٌ، وَتَغِيْبُ سُلُوكُ الْخَلْقِ وَيُفْقَدُ الْإِيمَانُ فِي الْأَرْضِ. الشَّمْسُ تَشْرِقُ فِي اللَّيْلِ، وَالْقَمَرُ يَطْلُعُ فِي النَّهَارِ، وَالدَّمُ يَنْبَثِقُ مِنَ الْأَشْجَارِ. الصَّخَرُ يَتَكَلَّمُ وَيُسْمَعُ صَوْتُهُ، وَالنَّحْوَمُ تَغْيِرُ بِحَرَاحِهَا وَتَتَسَاقَطُ عَلَى الْأَرْضِ. قُوَّةٌ غَيْرُ مَعْرُوفَةٍ تَبْسُطُ سُلْطَانَهَا، وَصَوْتُ مَجْهُولٍ يُسْمَعُ فِي اللَّيْلِ مِنْ قِبَلِ الْجَمِيعِ. تَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنِ الْمَسَاحَاتِ الْوَاسِعَةِ، وَتَتَدَلَّعُ نِيرَانٌ لَا تَنْطَفِئُ. تَتْرَكُ الطَّيْشُورُ أَعْشَاشَهَا وَتَفْرُ، وَالْكَوَاكِبُ تَحْمَرُ مَقَرَّاتِهَا، وَالْبَحْرُ يَلْفِظُ أَحْيَاءَهُ. تَحْمِلُ النِّسَاءُ مَسُوحًا، وَابْنُ السَّنَةِ يَتَكَلَّمُ، وَالْحَوَامِلُ تَضَعُ فِي ثَلَاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، وَهَوَلَاءُ بَعِيشُونَ وَيَرْقُصُونَ. تَحْفُ الْحَقُولُ وَتَفْرَعُ الْإِهْرَاءَاتُ، وَيَحْتَلِظُ مَاءُ الْأَرْضِ الْخُلُوقَ بِمَائِهَا الْمَالِحِ. يَقُومُ الْأَصْدِقَاءُ وَالْإِخْوَةُ ضِدَّ بَعْضِهِمْ وَيَتَقَاتَلُونَ بِضَرَاوَةٍ. يُفْقَدُ الرِّشْدُ وَالتَّفَكُّيرُ وَالسَّلَامُ وَتَنْسَحِبُ الْحِكْمَةُ إِلَى مَجْنُونِهَا فَلَا يَجِدُهَا أَحَدٌ. عَمَلُ النَّاسِ لَا يُعْطَى ثَمَرًا وَكَدْهَهُمْ يَذْهَبُ هَبَاءً.

تتابع رؤى عزرا بعد الرؤيا الأولى. وفي نهاية كل رؤيا كان عزرا يصوم ويصلي مدة سبعة أيام قبل أن تأتيه رؤيا أخرى. في الرؤيا الثانية يتابع عزرا حواراً مع الرب من خلال الملك أوريميل الذي يجيبه عن كل سؤال. ويدور الحوار حول مصير إسرائيل والأرمة الأخيرة. وفي النهاية يلخص الملك أجوبته بالمقطع التالي الذي نفهم منه أن كن ما كان وما هو كائن وما سيكون، إنما يجري وفق مخطط دقيق وضعه الرب قبل خلق العالم، عندما رسم دائرة على وجه المياه الأولى فحدد بها موقع الكون في المكان اللامتناهي:

« عندما رسم دائرة الأرض. وقبل أن يرسي دعائم الكون. قبل أن تتحرك مجامع الرياح. قبل أن يهدر صوت الرعد. قبل أن يلتصق ومض برق. قبل أن توضع أساسات الفردوس. قبل أن يرى بصراً وروداً نضره. قبل أن تُطلق قوى الزلزال.. قبل أن ينتظم حشد الملائكة.. قبل أن تُرفع الأجواء عالياً، وتسمى بروج السماء. قبسب تشكيل مدرجات جبل صهيون. قبل أن يوضع حساب السنين. قبل أن ينجح خيال الخطأة بهم نحو الخطيئة، ويُختم على جباه أهل كنوز لإيمان. قبل هذه جميعاً وضعتُ مخطط كل شيء وجميعها صنعتها أنا ولا أحد آخر، مثلما سأصنع لهايتها أنا ولا أحد آخر ».

في الرؤيا الثالثة ينقل الرب لعزرا خبر مملكة المسيح القادمة على الأرض، والتي ستدوم مدة أربعمئة سنة: « هوذا يوم يأتي، بعد ظهور الإشارات التي أنبأتك بها، فتظهر المدينة التي لا أثر لها الآن، ويُكشف عن الأرض غير المنظورة الآن. عندها سيرى كل من بحا من الكوارث التي أحيرتك بخبرها عجائبي. عندها سيظهر المسيح، ابني، والذين معه، وسيبعم الذين بقوا مدة أربعمئة سنة. ثم يموت المسيح وكل ذي نسمة حياة معه، ويعود العالم إلى الصمت البدئي مدة سبعة أيام، كما كانت حاله قبل البدايات. بعد ذلك يستيقظ العالم النائم ويتلاشى منه ما هو قابل للفساد... ستلفظ الأرض الأجساد النائمة فيها، وتُخرج ردهات المنظر ما عُهد إليها من أرواح، ويظهر العلي مستوراً على عرش الدينونة. عندها تزول الرحمة ويغيب الصبر ويبقى الحساب (العسير). عندها يسرع الحق ويمو البر، يصحو الخير ولا ينام الصلاح ويُعرض الثواب والعقاب. عندها تتعري هاوية العذاب ويبرز في مقابلها مقام النعيم. يُكشف

عن أتون الجحيم ويرز في مقابله الفردوس المقيم. عنده يقول العلي للأمم التي بُعثت من الموت: انظروا الآن إلى الذين أنكرتم وذرلتم وصديده. ثم نظروا إلى هذه الجهة وإلى تلك. هنا السكينة والنعيم وهناك العذاب والجحيم. هذا يقول العلي في يوم الدينونة، يوم ليس فيه شمس ولا قمر ولا نجوم، ليس فيه سحب ولا رعد ولا برق ولا ريح ولا هواء ولا ماء، ليس فيه صباح ولا مساء، ليس فيه صيف ولا ربيع ولا حر ولا صقيع، ولا ابل ولا ندى. ليس فيه ظَهْرٌ ولا مغرب، ولا بحر ولا شراقة ضوء. وحده مجد العلي يتلأل^(٢).

عقب ذلك يقول عزرا للملاك إن الفئة الناجية هم قلة وغانكبر كثير لأن الشر المزروع في النفس الإنسانية قد حفر جُلَّ البشر عن طرق الله. فيحييه — لا بأن الحصى في الأرض أكثر من الرصاص، والرصاص أكثر من الحديد، والحديد أكثر من النحاس، والنحاس أكثر من الفضة، والفضة أكثر من الذهب. فالثمين في الأرض هو القليل والنادر، وهذا ينطبق على طبقات وأنواع البشر. لقد خلُق هذا العالم من حسن الكثيرين، ولكن قلة معدة للخلاص ولورثة العالم القادم.

في الرؤيا الرابعة يجد عزرا امرأة في حبة الحنظل، تندب وتبكي ابها الوحيد انسي اختطفه الموت في ليلة عرسه. وبينما عزرا يعزيها ويخفف من أحزائها، أضاء وجهها بريق عجيب وأطلقت صرخة عالية احتضت على أثرها، وظهرت في مكانها مدينة مشيدة وضاعة هي أورشليم في يوم الخلاص.

في الرؤيا الخامسة يصعد إلى كبد السماء نسر جبار يسطر جناحيه على العالم ويتحكم به. ولكن مخلوقاً يشبه الأسد يظهر من الغابة ويتصدى له، فيحترق النسر ويتهاوى على الأرض. يمثل النسر في هذه الرؤيا الإمبراطورية الرومانية، ويمثل الأسد مسيح الرب الذي سيسحق هذه الإمبراطورية... وفي الرؤيا السادسة نجد مسيح الرب هذا طالعاً من وسط البحر:

(٢) هذه المقاطع المختبئة، هي من ترجمتي عن المرجع السابق

« بعد ساعة أيام عرضت لي رؤيا جديدة وأنا نائم في الليل. هبت من البحر ربيع عاصفة دفعت أمامها كل أمواجه. فنظرت ورأيت من قلب الريح شكل إنسان يصعد من وسط البحر. ثم نظرت ورأيت ذلك الإنسان يطير مع الغيوم في الأعالي. وحينئذ روجاه حدثت رجة ورجفة، وكلما هدر صوته ذاب سامعوه مثلما يذوب الشمع الساخن. ثم رأيت حشوداً تهب من جهات الرياح الأربعة لتقاتل الرجل الطالع من البحر، ولكنه اقتطع جبلاً عظيماً بيديه وقذفه عليهم، فتملك الذعر تلك الحشود التي تجمعت للقتال، ولكنها عزمت على الهجوم. فلما رأى اقترابها منه لم يرفع يداً ولم يمسك حربة أو سلاحاً. ولكنه أطلق من فمه زفيراً نارياً ومن لسانه عاصفة من الشرار، فامتزح الاثنان في تيار ملتهب انصب على الحشود المهاجمة، فأنت عليهم جميعاً ولم يبق في مكان تجمعاتهم سوى الغبار والرماد وروائح الدخان. دهشت لذلك كله، ثم رأيت الرجل يهبط من الجبل ويدعو إليه حشداً آخر هادئاً ومسالماً، فتقاطر إليه أناس بعضهم فريخ وبعضهم حزين وبعضهم يرسف في الأغلال ».

يطلب عزرا تفسير رؤياه فيأتيه الجواب: « إن الرجل الذي رأيته طالعاً من البحر هو الذي أخفاه العلي عصوراً عديدة، والذي به سيخلص خلقته ويقود من بقي منها. أما عن التيار الناري الذي يخرج من فمه، وعدم حمله لحربة أو سلاح، وتدميره مع ذلك للحشود التي تجمعت لقتاله، فإليك بيان ذلك. سوف يأتي يوم أعده العلي لتخليص سكان الأرض، ولكن سكان الأرض يتبلبلون ويقومون لقتال بعضهم، مدينة ضد مدينة وقطر ضد قطر وشعب ضد شعب. عندما يحصل ذلك وتظهر العلامات التي أحبرتك بها سابقاً، سيظهر ابني، مثلما رأيته، في هيئة رجل يخرج من البحر. عندها سيرك الجميع قتال بعضهم ويتجمعون لقتاله. ولكنه سوف يقف على ذروة جبل صهيون ويوبخ الأمم لتحشدة على سوء فعالها، فتأتي كلماته على شكل تيسار ناري ويعذبهم بما يستحقون، ثم يدمرهم بلا جهد بواسطة الشريعة التي هي مثل النار. أما الحشد المسالم الذي رأيته الرجل يدعو ويجمعه إليه، فلأنهم الأسباط العشرة التي سببت وأخرجت من ديارها من قبل الملك الآشوري شلمنصر، في أيام ملكها هوشع ». بعد ذلك يسأل عزرا عن مغزى طلوع الرجل من البحر فيأتيه جواب

نعمي: «كما أنه لا أحد يستطيع أن يكتب ما في أعماق البحر، كذلك لا أحد على الأرض يستطيع رؤية ابني ومن برفقته إلا عندما يأتي وقته ويومه».

كتاب اليوبيلات

اليوبيلات، أو الخمسينيات، هو كتاب منحول مطول، يعيد سرد سفر التكوين والأجزاء الأولى من سفر الخروج بأسلوب مختلف. فهو يكثف ويختصر في بعض النواضع، ويسهب في أخرى بداعي الشرح والتوضيح، ويضيف أحياناً، أو يعيد صياغة بعض الأحداث صياغة جديدة. أما عن تاريخ التأليف واللغة الأصلية للكتاب، فإن العثور على جزء منه بين نصوص قمران باللغة العبرية يرجح أن لغته الأصلية هي العبرية، وأنه كتب في القرن الأول قبل الميلاد على ما يدل عليه نوع الخط العبري المستخدم في كتابته. لدينا أجراء لا بأس بها من هذا الكتاب مترجمة إلى اللاتينية، ولكن النص الكامل متوفر باللغة الإثيوبية التي نُقل إليها بين القرن الرابع والقرن السادس الميلاديين، أي خلال الفترة التي تمت خلالها ترجمة أسفار التوراة إلى تلك اللغة. والكيسة الإثيوبية هي الوحيدة التي تعترف بقانونية هذا السفر. أما عن تسمية الكتاب بالخمسينيات فمستعدة من تقسيم الرمن في النص إلى وحدات خمسينية تتألف كل وحدة من ٤٩ سنة، وذلك منذ اليوم الأول للتكوين وحتى يوم الدينونة الذي سيأتي بعد ٤٩٠٠ سنة، أي ١٠٠ خمسينية مضروبة بـ ٤٩ سنة.

لا يركز كاتب اليوبيلات على المسائل اللاهوتية المتعلقة بنهاية الزمن ومملكة المسح والحياة الأخرى، ولا يأتي ذكر هذه المسائل إلا بشكل مقتضب وفي سياق تذكير إسرائيل بتقوى الرب وإعادة عقد الصلة معه. ولكنه بالمقابل يركز على المسائل اللاهوتية المتعلقة بعالم الملائكة وعالم الشياطين. فقد خلق الرب الملائكة في اليوم الأول من أيام التكوين مع خلق السماء والأرض، وجعلهم في مراتب وطبقات. ففي قمة هرم الملائكة لدينا طبقة ملائكة الوجه Presence، وطبقة ملائكة التقديس، وهم المحيطون بالعلي على الدوام، يليهم الطبقات ذات المهام المحددة، فهناك ملائكة للريح وملائكة للغيوم وملائكة للبرق والرعود وما إلى ذلك من الوظائف والظواهر الطبيعية والكونية. كما تتوسط الملائكة بين الرب وعالم البشر، فمهم من يقل

أوامره وتعاليمه إليهم، ومن يختبرهم ومن يقبل التقارير عن خطاياهم؛ ومن يسهر على أحوال الأرض ويتابع شؤونها ... الخ.

وعندما أخذ البشر يتكاثرون على وجه الأرض وولد لهم بنت، رأى فريق من الملائكة الساهرين أن بنات الناس حسسات، فرعبوا من وتغير عن طبيعتهم الروحانية واتخذوا لهم زوجات من البشر، فأنجبت النساء أولاداً، عمقته فسدوا في الأرض حتى عم الشر كل الكائنات الحية من الإنسان إلى الحيوان وكل ما ينتمي على الأرض. وبذلك يحل مؤلف الكتاب مشكلة وجود الشر في العالم بطريقة تختلف عن مؤلف سفر عزرا الرابع. فالشر عند عزرا ينبع من الإنسان لا من قوة خارجة عنه، أما في البيبليات فإن الشر يأتي من قوة ما وراثية طاغية، وما الإنسان إلا ضحية لهذه القوة بسبب ضعفه في مواجهتها. لقد تحول فريق من أهل السماء المقدسين إلى شياطين ملعونين، وأخذوا يستخدمون قواهم الأصلية لدفع الإنسان في طرق الغي والضلال، بعد أن أدار العلي وجهه عنهم وتحول يريقهم الملائكي إلى سواد وظلمة.

ولكن الرب رغم عدم مسؤوليته عن ظهور الشر، إلا أنه يسمح به بعد ظهوره. فلقد أفنى الرب نسل الإنسان وكل دي روح على الأرض بطوفان عظيم بعد أن كثر شرهم، إلا نوحاً ومن معه، وكان الأحرى به أن يفي الشياطين التي هي أصل الشر. ولكن حكمة العلي، كما يعيد ويكرر مؤلفو هذه الأسفار، حفية على أفهام البشر. ولذلك فقد نشطت قوى البشر مجدداً بعد أن تكاثر نسل نوح، وصعد صوت البشر بالشكوى إلى السماء من تعديات الشياطين. وهنا يقوم اتفاق بين رئيس الشياطين المدعو مستيما وبين الرب، ويسمح للإبليس مستيما أن يمارس نشاطه مع جماعة من أتباعه، خلال مدة محدودة تنتهي في يوم القيامة والحساب، ولكنه بالمقابل يأمر الملائكة أن يعلموا الإنسان طرق مقاومة أذى وشر الشياطين. نقرأ في الفصل العاشر من الكتاب المقطع التالي: ^(١)

« في الأسبوع الثالث من تلك الخمسينية، أخذ الشياطين المتمردون بتضليل نسل نوح ودفعهم للردالات وإهلاكهم. فجاء أولاد نوح إلى أبيهم وحدثوه بأمر الشياطين

١ - مرجعاً عن البيبليات هو موسوعة الأسفار التوراتية المعولة، المجلد الثاني.

The Old Testament Pseudepigrapha, Vol 2, P. 35 FF.

التي تُعمي وتُضل وتهلك أحفاده. فصلّى نوح إلى الرب إلهه وقال: يا إله الأرواح التي تقيم في كل جسد. أنت الذي رحمني وأنقذني مع أولادي من مياه الطوفان فلم أهلك مع أبناء اللعنة، لأن نعمتك عليّ كانت عظيمة ورحمتك واسعة على روحي. أسبّح نعمتك على أولادي ولا تدع للأرواح الشريرة عليهم سلطاناً فيبيدوهم عن وجه الأرض. باركي أولادي لنكثر ونزابد ونملأ الأرض. أنت تعلم ما فعله ملائكتك الساهرون آباء هذه الأرواح في أيامي (قبل الطوفان)، وما فعله من بقي من هذه الأرواح (بعد حثّلتك عليهم). فلتوقع بهم وتقودهم إلى مكان الحساب، ولا تركهم يعيشون فساداً بين أبناء خادمتك، لأنهم يا إلهي قساة وقد خلّقوا لكي يدمسروا، ولا تدع لهم سلطاناً على نفوس الأحياء». يستجيب الرب لصلاة نوح ويأمر فريقاً من الملائكة بمطاردة الشياطين وتقييدهم. ولكن إبليس مستيماً رئيس الأرواح الشريرة يتوسط لدى الرب، ويطلب منه أن لا يهلك الشياطين جميعاً بل يترك له قسماً منهم لكي يستطيع متابعة مهامه الشريرة، فيوافق الرب ويمهل مستيماً ومن بقي معه من الشياطين إلى يوم الحساب الأخير:

« فأمرنا الرب إلهنا^(١) أن نوثقهم جميعاً. ولكن مستيماً رئيس الأرواح مثلاً أمام الرب وقال: أيها الإله الخالق اترك بعضاً منهم معي ليستمعوا إليّ ويفعلون ما أمرهم به. لأنه إذا لم يبق لي منهم أحد لا أستطيع بسط سلطاني على أبناء البشر؛ لأن شر البشر عظيم وبنو الإنسان منذورون للضلالة قبل أن يصدر حكمك بشائي. فأمر الرب أن يبقى عُشر الأرواح الشريرة مع مستيماً وأن يسزل التسعة أعشار الباقية إلى مكان الحساب. ثم أمر واحداً منا أن يُعلّم نوحاً كل طرق الشفاء من شر الشياطين، لأنه يعرف أن البشر لن يسبروا ولن يجاهدوا في سُبُل الحق والخير. فصُدّعنا بما أمرنا وقيّدنا الأرواح الشريرة في مكان الحساب، وتركنا عُشرهم تحت إمرة إبليس على الأرض، وعلمنا نوحاً طرق الشفاء من أذاهم ومن غواياتهم، وعلاج ذلك بواسطة نباتات الأرض». بعد ذلك يدخل الرب وإبليس في علاقة معقدة. فهو يقيد ليكيف أذاه أحياناً ثم يطلقه ليتابع مهامه في أحيان أخرى. كما نعهد إليه بأعمال كان قد

(١) والكلام، هنا لملاك الوجه الذي كان يحمل الكتاب على موسى.

نفذها بنفسه في النص التوراتي القانوني. ففي قصة موسى وفرعون نقرأ تنويع اليوبيلات على النص الرسمي كما يلي:

« ولقد نصب الرئيس مستيماً أمامك يا موسى وحاول تسليمك ليد فرعون. كما أنه ساعد سحرة مصر الذين مارسوا سحرهم أمامك ... ولكن الرب ضربه بمقروح رديئة. ومعناهم عن إتيان معجزة واحدة. ولكن الرئيس مستيماً لم يتخذ بل استجمع قوته وذهب بالناصريين أن يلاحقوك بكل جيوشهم وبكل عرباتهم وخيلهم وأهل مصر. وكحي حُت بين المصريين وإسرائيل وخلصنا إسرائيل من يد فرعون وشعبه ... وفي الأيام أربع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر، كان الرئيس مستيماً مقيداً ومحجوراً حلف أبناء إسرائيل لكي لا يلاحقهم ويوقع بهم. وفي اليوم الثامن عشر حملنا قيوده مع أتباعه لكي يساعد المصريين في ملاحقة إسرائيل فشدّد عزيمة المصريين وقوّاهم. ثم قيدناه مجدداً لكي لا يتهم بني إسرائيل يوم يستعرون من أبناء المصريين آنية وثياباً ... فلم يُخرج بني إسرائيل من مصر عراً ».

إذا قارنا هذه الفقرة أعلاه بمقابلها في سفر الخروج، وجدنا أن يهوه في اليوبيلات قد أحل إبنيس محله في التشديد من عزيمة المصريين ودفعهم إلى مطاردة بني إسرائيل. نقرأ في سفر الخروج ١٤: ٨-٩ « وشدّد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بني إسرائيل ... فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم ». بينما نقرأ في اليوبيلات: « ولكن الرئيس مستيماً أهاب بالناصريين أن يلاحقوك بكل جيوشهم ... فشدّد عزيمة المصريين وقوّاهم ». وفي تعديل مشابه يقلب الأدوار بين يهوه وشيطانه، نقرأ في اليوبيلات: « ثم عدت ي موسى من مديان إلى مصر في الأسبوع الثاني من السنة الثانية لخمسينية الخامسة. وأنت تعرف ما قيل لك على جبل سيناء. وتعرف كيف رغب مستيماً بقتلك بكل ما أوتي من قوة لكي يقدّم المصريين من يدك، لأنه رأى أنك قد أرسلت لتنفيذ الحكم بهم ». أما في الموضع المقابل من سفر الخروج فلين يهوه هو الذي ظهر لموسى في الطريق وأراد قتله لأن صفورة زوجته قد ترددت في ختان ابنها: « فأخذ موسى امرأته وبنيه ورجع إلى مصر ... وحدث في الطريق، في المنزل، أن الرب التقاه وطلب أن يقتله. فأخذت صفورة صوانة وقطعت عُزلة ابنها ومست رجليه. فقالت إنك عريس دم لي، فانفك عنه » - الخروج ٤: ٢٤-٢٦.

ورغم أن يهوه في اليوبيليات يستعخدم الشيطان على هواه، فيقيده أناً ويطبقه تآخر، أو يُحسّن صورته من حاله بأن يعزو إليه أفعالاً معينة كان قد قام بها هو نفسه في النص التوراتي. فإن الشيطان من ناحيته كان يوقع يهوه في أحيائه ويُظهر مقدرته على خداعه. ومثال ذلك ما وقع بين يهوه وإبراهيم في قصة تضحية إبراهيم بابه الواردة في التكوين ٢٢: « وحدث بعد هذه الأمور أن لله امتحن إبراهيم ... فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق، وأذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك. فبكر إبراهيم صباحاً وشدّ على حماره وأخذ اثنين من غلماناه معه وإسحاق ابنه، وشقّق خطباً محرقة وقام وذهب إلى الموضع ... فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله، بنى هناك مذبحاً ورتب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مّد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فسألاه ملاك الرب من السماء ... فقال لا تمد يدك إلى الغلام لأنّي الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني » ٢٢: ١-١٢. أما محرر اليوبيليات فقد أدخل تعديلاً جوهرياً على هذه القصة، يوضح مدى سلطة الشيطان ومقدرته حتى على خداع يهوه. فلقد تحدث أهل السماء عن مدى إخلاص إبراهيم للرب، وعن مدى حبه لابنه إسحاق الذي كان يفضلّه على كل ما في الدنيا. فحاء الشيطان إلى الرب وشككه بإخلاص إبراهيم ثم أفعه أن يُحضّعه للتجربة والامتحان، وذلك بأن يأمره التضحية بابنه الوحيد لئرى ويتأكد فيما إذا كان الرب أحبّ إليه من أي شيء آخر. فأخذ الرب بمشورة الشيطان رغم أن سيرة حياة إبراهيم قد أكدت في كل مناسبة مدى محبته للرب وإخلاصه له. وعندما نفذ إبراهيم الأمر وهمّ بذبح ابنه تأكد الرب من مدى خشيته له وسمع إبراهيم صوتاً من السماء: لا ترفع يدك على الغلام لأنّي عرفت الآن أنك تخشى الرب فلم تضنّ عليه بابنك البكر. فاحذر الشيطان مستيماً.

قبل أن نغادر كتاب اليوبيليات، لا بد من الإشارة إلى أن المؤلف، رغم تجديدهاته اللاهوتية الجذرية، قد بقي أسيراً للنسرة الشوفية التوراتية، بل لقد زاد عليها. فالصراع بين الخير والشر يتجلى في العالم والتاريخ بشكل رئيسي في الصراع بين إسرائيل وأعدائها من بقية شعوب العالم. فإسرائيل رغم كل خطاياها يجسد الخير في العالم، والشعوب الأخرى هي حصّة الشر والشيطان. لقد اختار يهوه إسرائيل شعباً له قبل خلق العالم، وهو ملتزم بتطهير هذا الشعب في النهاية وتخليصه وحده من

بين جميع الشعوب. وما التاريخ إلا التحلي العملي لخطّة يهوه هذه. نقرأ في المقاطع الأولى من التكوينيات أن الرب قد اختار إسرائيل شعباً له في اليوم السادس من أيام التكوين. وذلّك على عكس ما ورد في النص الرسمي الذي يقول لنا إن اختيار يهوه لشعبه يتبدى مع عهده لإبراهيم ولنسله من بعده: «وأكمل في اليوم السادس كل عمله. كل ما في السماوات وما في الأرض... لقد أعطانا آية عظيمة هي يوم السبت الذي نرتاح فيه بعد عمل ستة أيام، وقال لنا، نحن ملائكة الوجه وملائكة التقديس، المرتبتان العاليتان، أن نحتفل بالسبت معه في السماء وعلى الأرض. وقال لنا أيضاً: سوف أفرز لنفسي شعباً من بين كل الشعوب، فيحتفل بالسبت وأكرسه لنفسي وأباركه، مثلما كرسنا السبت وباركته. سيكون شعباً لي وأكون إلهه. لقد احترت بذرة يعقوب من كل ما رأت عيني، وأسميتها ابني البكر الذي خصصته لنفسي إلى الأبد»

وصايا الأسباط الاثني عشر

عندما حضرت أبنية يعقوب دعا أولاده الاثني عشر فأوصاهم وتنبأ لهم بما يصيبهم وأوصى بمكان وطريقة دفنه. نقرأ في التكوين ٤٩: ١-٣٣. «ودعا يعقوب بنيه وقال اجتمعوا لأبنيتكم بما يصيبكم في آخر الأيام. اجتمعوا واسمعوا يا بني يعقوب وأصغوا إلى إسرائيل أبيكم. رأوين أنت بكري قوتي وأول قدرتي... الخ. شمعون ولاوي أخوان، آلات ظلم سيفهما... الخ. يهوذا إياك بحمد إخوتك... الخ. هؤلاء هم أسباط إسرائيل الاثنا عشر. وهذا ما كلمهم به أبوهم وباركهم.. وأوصاهم وقال.. ادفنوني عند آبائي في المغارة التي في حقل عفرون الحثي... الخ. ولما فرغ يعقوب من توصية بنيه ضم رجليه إلى السرير وأسلم الروح».

تنسج وصايا الأسباط الإثني عشر على منوال وصية يعقوب، فكل وصية تحتوي على نصائح للأولاد المجتمعين عند سرير الآب، وسرد لمراحل حياته الماضية والدروس المستفادة منها، وأخيراً تنبؤات حول مستقبل إسرائيل، والأيام الأخيرة في نهاية الزمن. إن العثور على مقاطع من هذه الوصايا بين نصوص قمران (أواسط القرن الأول الميلادي) باللغتين الآرامية والعبرية يدل على قدم هذا النص وأرجحية وضعه في القرن الأول قبل الميلاد، وربما أبكر من ذلك. إلا أن النص الكامل للوصايا غير متوفر في

نسخة عبرية وإنما في نسخة يونانية متأخرة، يقول صاحبها أنه قد ترجمها عن العبرية، وفي عدد آخر من النسخ اليونانية أيضاً والآرامية والسلافية. هذا ويشكك بعض الدارسين بمصادقية الترجمة لأنهم يلمحون تأثيرات هيلنستية واضحة في هذا العمل، إضافة إلى تأثيرات مسيحية.

هنالك ثلاثة محاور مشتركة بين الوصايا ذات صلة بموضوعنا وهي: ١- دور الشيطان ووظيفته في العالم. ٢- مجيء المخلص. ٣- يوم الدينونة ونهاية التاريخ. مما سنتبعه فيما يلي:

لا تحفل الوصايا بتقديم تاريخ للشيطان، بل تركز على سلطته على نفوس الناس ونشاطه الدائب في دفع الإنسان إلى ارتكاب الشرور والمعاصي. وهي تدعوه بالاسم بلعار، وتصفه بالمضلل ورئيس الضلال وبروح الضلال. وتتحدث عن معاونيه من أرواح الشر التي تعمي البصيرة وتلبس الحق بالباطل والباطل بالحق. ثم تؤكد أنه سيؤول إلى الخزي وإلى الدمار في نهاية الزمن.

في وصية أشير لدينا مقطع على جانب كبير من الأهمية، فهو ينطلق من الفكرة الزرادشية عن صراع الروحين البديين، ليجد مُعادِل هذا الصراع ومنعكاسته في النفس الإنسانية. ففي عمق النفس هنالك نازعان واحد نحو الخير وآخر نحو الشر، وهذان النازعان يقودان إلى دربين ويصنعان سلوكين ونهايتين، واحد يرضى عنه بلعار وواحد يرضى عنه الرب:

« استمعوا يا أبناء أشير إلى أبيكم، فأريكم كل ما هو حسن في عين الرب. لقد أعطى الرب لبني الإنسان دربين ونازعين وسلوكين ونموجين ونهايتين. وهذان الدربان هما درب الخير ودرب الشر. وفي مقابل هذين الدربين هنالك في صدورنا ميلان اثنان يختاران بين الدربين. فإذا مالت النفس إلى درب الخير فإن كل أعمالها تسير في الخير، وتجنح للاستغفار والتوبة عن كل خطيئة. وهي إن تضع نصب عينيها العمل الصالح وتدير طهرها للعمل الطالح، فإنها تقتلع الخطيئة من جذورها وتقهر الشر. أما إذا مالت النفس نحو الشر فإن كل أعمالها تكون خبيثة، تهجر الخير وتفتتح الصدر للشر فتستعبد لبلعار. عند ذلك يتحول حتى فعل الخير إذا أرادته إلى شر، لأن محازن الشيطان مترعة بسموم الأرواح الشريرة ... وأنتم يا أبناء لا تكونوا مزدوجي

الوجوه، وجه للخير ووجه للشر، وإنما التزموا الطيبة لأن الرب الإله يرتاح إليها والناس تتطلع إليها. أديروا ظهوركم للنوازع الشريرة واستعينوا على الشيطان بعملكم الطيب. لأن مزدوجي الوجوه ليسوا من الله بل عبيد لرغباتهم الآثمة وهم يُرضون بلعار والذين على شاكلتهم ... أنتم ترون يا أبائي كيف أن في كل شيء وأمر عنصريين، واحد ضد الآخر، وهذا محتبئ في ذلك. ففي التملك هناك يكمن الطمع، وفي المشرح السُكر، وفي الصحك الواح، وفي الزواج الفسق. الموت يلي الحياة، والخزي يلي المجد، والليل يلي النهار، والظلمة تلي النور. ولكن هذه الأشياء كلها تقود إلى ضوء النهار. العمل الصالح يقود إلى الحياة، والعمل الطالح يقود إلى الموت»^(١).

هذا وتتعاون نصوص الوصايا على رسم صورة للشيطان بلعار ولطريقة عمله. فهو يعمي بصيرة الإنسان ويعتم على ذكائه وحسن تمييزه. نقرأ في وصية شمعون: « في أيام صباهي كنت غيوراً من أخي يوسف لأن أبي أحبه أكثر منا جميعاً، فعزمت في سرّي على إهلاكه، لأن أمير الخطيئة (بلعار) أعمى بصيرتي فلم أعد أرى فيه أخاً ولم أصفح لأبي (تفضيله له). ولكن إله آبائنا بعث رسوله فأنتقذه من يدي ... لقد قيد الرب يدي ورجلي وحال بيني وبين إثبات ذلك العمل، ولمدة سبعة أيام بقيت يدي اليميني مشلولة تقريباً، ولقد عرفت أن ما حصل لي كان بسبب يوسف. لهذا فقد بدمت واستغفرت وتبت باكياً ... لقد كان يوسف وسيماً طلق الحياء لأن قلبه لم يطلو على أي شر. فالوجه مرآة اضطراب النفس. لذلك يا أولادي اجعلوا قلوبكم فاصلة أمام الرب، وطرقكم مستقيمة أمام الناس، وستلقون على الدوام نعمة في عين الرب والناس. احفظوا أنفسكم من الفسق الجنسي لأنه أم الرذائل، وهو الذي يُبعد عن الله ويقود إلى بلعار .. »

وبلعار يستخدم عاطفة الغضب عند الإنسان ليدفعه إلى العنف والظلم. نقرأ في وصية دان: « الغضب سيء يا أولادي، يعكر الروح ويتملك جسد الغضوب، فينقل إليه قوته الخاصة ليحمله يرتكب كل أنواع الظلم ... والإنسان الذي يغضب، حتى ولو كان ضعيفاً، يكتسب أضعاف قوته العادية، لأن الغضب يُعينه دائماً على الظلم.

١ - هذه المقطعات هي من ترجمتي عن موسوعة الاسفار عبر القانونية:

The Old Testament Pseudepigrapha: vol.1, P. 732 ff.

الغضب سيء يا أولادي، لأنه يغدو القوة المحركة لنفس ... وهذه القوة تستولي على النفس وتمجد أجسد بقدرات خاصة فيغدو قادراً على إتقان حُط الأعمال ... إن روح الغضب تمشي دائماً مع روح الكذب إلى يمين الشيطان. لكي يُتم أعماله بالوحشية والخداع.. فاحفظوا وصايا الرب يا أبنائي. تغادوا الغضب وكرهوا الكذب، ليسكن الرب بينكم، وليهرب بلعار بعيداً عنكم».

والجشع والكلام الباطل إرادته. نقرأ في وصية نفتالي: « لا تُعجلوا بإفساد أعمالكم بالجشع، ولا تضللوا نفوسكم بالكلام الباطل. لأن من يستزم الصمت في نقاوة الفؤاد يحفظ مشيئة الله وينبذ مشيئة بلعار». وفاعلوا الشر هم أداة الشيطان هم يفقد مآربه. نقرأ في وصية نفتالي أيضاً: « فإذا سعيتم في الخير يا أولادي يبارككم الناس والملائكة ويهرب الشيطان عنكم. ومن يسع في الشر يلعنه الناس والملائكة، ويتملكه الشيطان فيجعله أداة له». وبلعار سيد عالم الظلمات: « فإن الرب سيكون في النور معكم وبلعار سيكون في الظلام» - وصية لاوي. وأيضاً: « إن الأمر بيدكم أنتم لاختيار النور أو الظلمات، شريعة الرب أو أعمال بلعار» - وصية يوسف.

ويقدم يساكر في وصيته الوصفة الأخلاقية التي لا تترك للبلعار سُلطة على الأرار: « لقد بلغت من العمر مئة واثنين وعشرين سنة ولم أقترب خطيئة. لم اعرف امرأة غير زوجتي. لم أفسق بنظرة شبهة. لم أشرب الخمر حتى الثمالة. لم اطمع بممتلكات جاري. لم يكن ثمة عتس في قلبي، لم يجر الكذب على لساني. بكيت وتأنيت مع كل إنسان مفهور. شاركت الفقراء حزبي، ولم أكل وحدي. كنت ورعاً ومستقيماً كل أيام حياتي. أحببت الرب بكل قوتي، وأحببت كل إنسان كحبي لأولادي. فافعلوا هذا يا أولادي وسيهرب كل روح لبلعار بعيداً عنكم، ولن يكون لشر مخلوق سلطان عليكم».

أما عن الوعود الآخروية وخاتمة الأزمنة وظهور المنخلص، وهي الموضوعات التي تفيض بها وصايا الأسباط، فإن الوصايا تستخدم عدداً من الأفكار والصور المتكررة مع تنوعات خاصة بكل وصية. ويلفت نظرنا بشكل خاص تأكيد مؤلف (أو مؤلفي) الوصايا على مساواة الأمم والشعوب أمام الرب في يوم الدينونة، وتجاوزه لشوفينية الخطاب التوراتي. نقرأ في وصية شمعون: « عندها ستهدأ الأرض كلها من اضطرابها،

ويرتاح كل من تحت السماء من الحروب. عندها سيمجد سام، لأن الرب الإله، عظيم إسرائيل، سيظهر على الأرض في شكل إنسان، وينقذ بنفسه آدم. عندها سيتم تسليم أرواح الضلال جميعها لكي تداس بالأقدام، ويسود البشر على الأرواح الشريرة. عندها سأبعث في سعادة وأبارك العلي لأجل عجائبه. لأن الرب اكتسى جسداً وتناول طعاماً مع الناس وخلص البشر^(١). ونقرأ في الوصية نفسها عن مسيحين لا مسيح واحد. الأول مسيح سياسي يأتي من نسل يهوذا، والثاني مسيح روحي يأتي من نسل لاوي: «والآن يا أبنائي، أطيعوا لاوي ويهوذا ولا تلعنوا أنفسكم فوق هاتين القبيلتين، لأن الرب سيبعث من لاوي كاهناً عظماً ومن يهوذا ملكاً، هو إله وإنسان، وهو الذي سيخلص الأمم ويخلص شعب إسرائيل».

وفي وصية لاوي نقرأ عن المسيح الذي سيأتي من نسل لاوي، وذلك في خطاب الرب إليه في الرؤيا: «... ثم غلبني النوم، فرأيت جبلاً عالياً ورأيت نفسي على ذروته، والسموات انفتحت وملاك من عند الرب تكلم معي وقال: لاوي، ادخل. فخرجت إلى السماء الأولى حيث رأيت مياه الأعالي معلقة. ثم عرجت إلى السماء الثانية فرأيتها أشد لمعاناً وأكثر بريقاً ولم يكن لارتفاعها من نهاية. فقلت للملاك: لماذا هي على هذه الحال؟ فقال لي: لا تعجب لما رأيت، لأنك ستري سموات بعدها أشد منها لمعاناً وأكثر بريقاً. وعندما ترتقي إلى هناك فإنك ستقف قريباً من الرب، وتكون كاهناً له وستنبي بأسراره إلى البشر. ستعلن لهم عن الذي يوشك على تحرير إسرائيل. فمن خلالك وخلال يهوذا سيتراءى الرب للبشر، ويخلص بنفسه كل أعراق البشر». وأيضاً: «نجمه سيسطع في السماء مثل ملك، فيشعل نار المعرفة مثلما تضيء الشمس النهار، ويمحو الظلمات كلها تحت السماء. فيحل السلام على الأرض، وتهلل السماء في أيامه وتبتهج الأرض... سيفتح بوابات الفردوس، ويزيل السيف الذي يحرسه منذ خروج آدم. سيعطي الأبرار لياكلوا من شجرة الحياة ويحل عليهم روح القداسة. سيقيد بلعاز بالأغلال ويعطي لأبنائه السلطة على وطء الأرواح الشريرة بأقدامهم. وسيفرح الرب

(١) يعتقد بعض الباحثين وجود مداخلة مسيحية في هذه الجملة وأمنائها، إلا أنه من المتعذر في رأينا إثبات عدم أصانة مثل هذه الأفكار، لأن الطابع العام للفكر المنحول يسمح بظهورها.

بأنائه إلى الأبد ... والآن يا أبائي. بعد أن سمعتم في كل ما قلت. لكم أن تختاروا بين النور أو الظلمة، بين شريعة الرب أو أعمال بلعار.

وفي وصية يهوذا نقرأ تعليماً عن ثنوية الخير والشر في النفس الإنسانية مشابهاً لما قرأناه في وصية أشير: « وفهموا يا أبائي أن هنالك روحين مسخرين للبشر، روح الحق وروح الضلال، وبينهما نوعي الصاحي الذي يحيل وفق إرادته إلى هذا أو إلى ذاك. إن أعمال الحق وأعمال الضلال مسجلة في ضمير الإنسان والرب يعنم بها. ما من لحظة تخفى فيها أعذار الإنسان لأنها مكتوبة على القلب ومكتشفة أمام الرب. كما أن روح الحق يشهد على كل شيء، ويوجه الاهتمامات بحق المحطى الذي ينهشه ضميره فلا يجرؤ على رفع بصره إلى قاضيه ».

وعن المسيح الذي سيظهر من سبط يهوذا نقرأ في الوصية نفسها: « لأجلكم سوف يبرز كوكب من يعقوب، ويقوم رجل من نسلي مثل شمس العدل، سائراً مع الناس باللطف والعدل، ويكون مطهراً من الخطيئة. ستفتح السماوات من فوقه ويحل عليه الروح بركة من الأب القدوس. ويسكب روح النعمة عليكم ستكونون أبناء في الحقيقة، وتعملون بتعاليمه الأولى وتعاليمه الأخيرة. إنه غصن الرب العلوي، إنه نبع الحياة للبشرية. عندها سيتألق صولجان ملكي بواسطته، ومن جذركم سيطلع، ومن النعصن سيطلع قضيب العدل من أجل الشعوب، فيحاكم وينقذ كل الذين يذكرون الرب^(١) فيكونون شعباً واحداً للرب، ولغة واحدة لجميعكم، وستختفي روح بلعار المضيلة لأنه سيرمي إلى النار الأبدية. الذين ماتوا في الحزن سيقومون في الفرح، والذين ماتوا في الفقر لأجل الرب سوف يُبعثون في الغنى، والذين هلكوا في سبيل الرب سيبستيقظون إلى الحياة. آيات يعقوب سوف تجري في فرح، وسور إسرائيل ستطير في جوار. ولكن الخطاة سيبكون والمذنبين يوحون، وستمجد الأمم كلها الرب إلى الأبد ».

(١) لكي نفهم الصور الواردة في هذا المقطع يجب أن نراجع مقطعين توراتيين الأول من سفر العدد ١٧: ٢٤، حيث يقول العراف بلعام في نبوءته: « يبرز كوكب من يعقوب ويقوم قضيب من إسرائيل... » والخ والثاني من سفر أشعيا ١١: ٤-١. « ويخرج قضيب من جذع يسي وينبت نعصن من أصوله، ويحل عليه روح الرب وروح الحكمة.. يقضي بالعدل للمساكين ويحكم بالإصاف للأنبياء الأرض... ».

ونقرأ في وصية زبولون: « بعد ذلك سوف يتجلى لكم الرب نفسه، نور العدل، وفي جناحيه الشفاء والرحمة. فيحرر من بلعار أبناء البشر الأسرى ويطأ كل أرواح الضلال، ويهدي كل الأمم فتخلص له. سترون الرب في هيئة إنسان يختاره الرب ويظهر اسمه في أورشليم ».

ونقرأ في وصية دان: «.. لهذا عندما تفيثون إلى الرب يرحمكم ويقودكم إلى مقدسه ويحل سكينة عليكم. ومن يهوذا ولاوي سيظهر لكم خلاص الرب. سوف يحارب بلعار ويتيح نصر النعمة والعقاب. سوف يستعيد من بلعار أرواح القديسين الأسيرة، ويهدي قلوب العصاة إلى الرب ويهب السلام الأبدي للذين يدعونه. القديسون سوف يرتاحون في عدن، والأبرار يعممون بأورشليم الجديدة التي ستخصص إلى الأبد لتحميد الرب. لن تقع أورشليم ثانية فريسة للخراب، ولن تُفاد إسرائيل ثانية إلى المنفى، لأن الرب سيكون بين ظهرانيها يقيم مع الناس، ويجمكهم بالتواضع والفقر. سيعلو اسمه في كل مكان من إسرائيل وتعرفه الأمم والشعوب باسم المخلص ».

ونقرأ في وصية نفتالي: « مُروا أولادكم أن يتحدوا بيهوذا ولاوي، لأنه من يهوذا سوف يظهر خلاص إسرائيل. وبه سيبارك يعقوب. من خلال قوة ملوكيته سيظهر الرب وقيم على الأرض بين الناس، فيخلص نسل إسرائيل ويجمع إليه الأبرار من بين الأمم ».

ونقرأ في وصية يوسف: « ورأيت أنه من يهوذا قد حبَلت عذراء ترتدي ثوباً من الكتان. ومنها وَلَدَ حَمْلٌ لاثِيَّةٌ فيه، عن يساره وقف كائن يشبه الأسد. هجمت عليه الحيوانات المتوحشة كلها، ولكن الحمل هزمها جميعاً ووطأها بقدمه، فابتهجت به الملائكة والأرض والبشرية. هذه الأمور ستحصل في أوقاتها في الأرمية الأخيرة. وأما أنتم يا أبناءني، فاحفظوا وصايا الرب وتجلوا لاوي ويهوذا، لأنه من صلبهما سيأتي حمل الرب الذي سيمحو خطايا العالم ويخلص الأمم كلها ويخلص إسرائيل، لأن ملكه يكون ملكاً أبدياً لا ينقضي ».

ونقرأ في وصية بنيامين، « احفظوا يا أولادي وصايا الرب حتى يُظهر خلاصه للأمم كلها. عندها سترون أخنوخ وشيث وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وقد بعثوا على

الميمنة^(١) مستبشرين. عندها سُبُعت نحن أيضاً كل في سبطه ساجدين للملك السماوي. سُبُعت الجميع، هؤلاء للنخزي والعار. سيحكم الرب إسرائيل أولاداً من أجل خطاياهم ثم يحاكم الأمم كلها. وسيقاضي إسرائيل على يد الذين اختارهم من الأمم.... لن أدعى بعد اليوم بالذنب الكاسر بسبب تعديتكم؛ بل فاعلاً أدعى، فأوزع الطعام على فاعلي الخير. وفي آخر الزمان سوف يظهر من نسل يهوذا ولاوي محبوب الرب، الذي يعمل لمرضاته بكلام فمه فينير الأمم كلها. بمعرفة جديدة».

نصوص قمران

نصوص قمران، أو مخطوطات البحر الميت، هي مجموعة تُعَدُّ عُثر عليها. تباعاً منذ عام ١٩٤٧، في عدد من المغاور الواقعة في المنطقة الصخرية الوعرة صحرة نحو الشاطئ الغربي الأعلى للبحر الميت. ويبدو أن هذه اللقائف قد خُبت هـ حفظاً لها من الضياع خلال الحملة الرومانية على أورشليم عام ٧٠ ميلادية، وهي حصنة التي أدت إلى تدمير الهيكل تدميراً كاملاً. ويمكن تقسيم هذه اللقائف إلى ثلاثة أنواع حسب موضوعاتها. فلدينا أولاً نصوص توراتية بعضها كامل تقريباً مثل سفر إشعياء وبعضها مجتزأ بسبب تلف اللقيفة. ولدينا ثانياً شذرات من النصوص المسحورة. ونسند ثالثاً نصوص قمرانية خاصة بهذا الموقع. وقد أرجع الباحثون تاريخ اللقائف إلى فترة الواقعة بين أواخر القرن الثاني قبل الميلاد وأواسط القرن الأول الميلادي.

لقد ساد الاعتقاد زمناً بأن نصوص قمران هي من إنتاج فرقة يهودية معروفة بالفرقة الأسينية، وهي ملة يهودية عاصرت خلال القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثاني بعد الميلاد، الملتين الصدوقية والفريسية. وطن الدارسون الأوائل أن الأسينيين كانوا يقيمون في الموقع الأثري المعروف اليوم بخربة قمران، وهو بقايا قلعة قديمة تتحكم في الشواطئ الشمالية الغربية للبحر الميت حيث وجدت النصوص. ولكن بعض الدراسات الحديثة قد بدأت تتحدى هذا الرأي، وتنفي وجود صلة بين نصوص قمران

^(١) المعوثون على الميمنة هم الأخيار، والمعوثون على الميسرة هم الأشرار، كما ورد في نصوص منحولة أخرى.

والنمّة الأسينية^(١). وإني إذ أتبني هنا هذا الرأي، فلني أقدم نصوص قمران باعتبارها جزءاً من الحركة الأشمل للفكر المحول دون خصّها بفرقة يهودية معينة.

لا تنتمي نصوص قمران إلى الاتجاه الراديكالي في الفكر المحول، لأنها بقيت تراوح عند التصورات التوراتية الرسمية، التي تجعل من نهاية الأزمنة عصر انتصار لإسرائيل على أعدائها من جميع الأمم دون استثناء، وترى في حلاص الرب خلاصاً لبني إسرائيل وحدهم. ولكن هذه النصوص قد قدمت مساهمتين رئيسيتين في موضوعات الفكر المحول، أولاهما فكرة ثنائية الخير والشر المتأصلة في صميم خلق الله، والثانية حرب الأزمنة الأخيرة بين المؤمنين والكفار. والمؤمنون هم حصراً بنو إسرائيل المدعوون بأبناء النور، أما الكفار فهم حصراً بقية الأمم أبناء الظلام وأتباع الشيطان بليعال.

في المخطوط الذي أطلق عليه الباحثون الأوائل اسم "نظام الجماعة" لدينا تعليم أساسي يتعلق بشوية الخير والشر^(٢): «من إله المعرفة يصدر كل مساهو كائن وما يكون. قبل أن تكون الكائنات صمّمها، وحين تكون فبحسب أنظمتها ونحسب عظمه المجيد ثم علمها ولا تبدل فيه شيئاً. في يده نواميس جميع الكائنات وهو الذي يسندها في جميع حاجاتها. وهو الذي خلق الإنسان ليكون سيّداً على الأرض».

«وأنعد للإنسان روحين ليمشي فيهما إلى يوم الافتقاد هما روح الحق وروح الضلال. في ينوع النور أهل الحق وفي ينبوع الظلمة أهل الضلال. في يد أمير الأنوار سيادة على جميع أبناء. لير فهم في طريق النور يسرون، وفي يد ملاك الظلمة سيادة على جميع أبناء الضلال فهم في طرق الظلمة يسرون. (ولكن) بسبب ملاك الظلمة يضل أبناء البر (أيضاً)، فكل آثامهم وخطاياهم ومعاصيهم هي نتيجة سيادته، حسب أسرار الرب حتى الزمن المحدد، وكل الضربات التي تصيبهم وكل أوقات صيقتهم هي

١- انظر حول هذا الموضوع كتاب:

- Norman Golb, Who Wrote the Dead Sea Scrolls, Scribner, New York 1995

٢- عن ترجمة الدكتور اخوري بولس الفغالي عن اللغة العبرية: كتابات قمران، إصدار الماهة الكتابية، بيروت ١٩٩٧.

وهناك ترجمة جيدة عن الماهة للفقائي لاطلاع عليها وهي ترجمة موسى دب احوري لكتاب اندريه دويون سومر: التوراة - كتابات ما بين المهدين - إصدار دار الطليعة الجديدة، دمشق ١٩٩٨.

نتيجة سيادة بغضه. كما أن كل الأرواح التي هي من نصيبه (- الشياطين) تجسأ أبناء النور يعثرون. لكن إله إسرائيل وملاك حقه يعينون جميع أبناء النور».

« أجل، هو الذي خلق الروحين، روح النور وروح الظلمة. وعلى هذين الروحين أسس كل عمله، وعلى مشورتيهما كل خدمة؛ وعلى طريقيهما كل افتقاد. واحد منهما يحبه الرب مدى الأجيال ويرتضي بعمله إلى الأبد. والآخر يحقت مشورته وإلى الأبد ببعض جميع طرقه. وهاكم طرق هذين الروحين في العالم. روح الحق هو الذي يبر قلب الإنسان ويهد أمامه كل طرق البر الحقيقي ويجسأ في قلبه محافة أحكام الرب... أما روح الضلال ففيه الطمع والتهرب من البر وفيه الكذب والكبرياء... ».

« في هذين الروحين تمضي جميع أجيال بني البشر، وفي هاتين الطبقتين تتوزع حيوسهما من جيل إلى جيل، وتسير. كل جزاء أعمالهم يتم بهاتين الطبقتين بحسب ما قسم لكل واحد، أكان كثيراً أم قليلاً على مر العصور. ذلك أن الرب قد رتب هذين الروحين في أجزاء متساوية إلى الحد الأخير، وجعل بغضاً أبدياً بين طبقتيهما. فحمية القتال تجعل الواحد يعارض الآخر في جميع أوسرهما لأنهما لا يسيران معاً ».

« أما الرب، وفي أسرار عقله ومجد حكمته، فقد رصع حداً لوجود الضلال؛ وهو سيريه بتشكيل كامل في ساعة الافتقاد. وحيثما يظهر الحق بتشكيل نهائي في العالم. حيثما يُنظف الرب بحقه أعمال كل فرد، ويبقي جسد كل إنسان فيزيل روح الضلال كله من أعضائه، ويظهره بروح قداسته من أعمال الكفر، ويفيض عليه روح الحق مثل مساء التطهير. وهكذا تنتهي كل أرجاس الكذب وينتهي كل تنجيس بروح القداسة... ».

« حتى الزمن الحاضر يتحارب روحا الحق والضلال في قلب كل إنسان. والناس يسرون في الحكمة والجهالة. كل منهم يبغض الضلال بقدر قسمته في الحق والبر، أو يحقت الحق بقدر ميراثه في حصة الضلال. فالرب قد رتب هذين الروحين في قسمين متساويين حتى الحد الخامس، حد (أو ميعاد) التحدد، وهو يعرف جزاء أعمال هذين الروحين على مدى الأزمنة، وقد وزعهما بين أبناء البشر لكي يعرفوا الخير ويعرفوا الشر. وهكذا تعطى قسمة كل حي بحسب روحه حتى يوم الديونة والافتقاد ».

في المخطوطة الأخرى التي اخترنا عرضها هنا وهي مخطوطة "نظام الحزب" أو "حرب أبناء النور ضد أبناء الظلام"، نجد أن الصراع بين روح الشر بليعال وروح الخير ميخائيل رئيس الملائكة، يدوم إلى أن يحين يوم الفصل العظيم بين الخير والشر. في ذلك اليوم يجتمع المؤمنون، وهم حصراً بـ إسرائيل، في حشد واحد لشن الهجوم على انكفار من أتباع بليعال، وهم بقية أمم الأرض. وتحدث المعركة النهائية الفاصلة. وفيما يلي مقتطفات من هذه المخطوطة:

« لقد بدأ تسلط أبناء النور على حزب أبناء الظلام، على جيش بليعال، على زمرة آدوم ومواب وبني عمون. وجمهور أبناء المشرق وفلسطين، وضد زمرة كتييم، على آشور وشعبهم الذين جاءوا لمعونة الكفار الذين تجاوزوا العهد. إن أبناء لاوي وأبناء يهوذا وأبناء بنيامين والمنفيين في البرية يقاتلون ضدهم » ... « تُهيأ الحرب خلال ست سنوات، وكل الجماعة تهيئها معاً. وتكون الحرب على مراحل تمتد على السنوات التسع والعشرين الباقية. في السنة الأولى يقاتلون آرام هاريم. في السنة الثانية أبناء لود. في الثالثة يقاتلون ما تبقى من آرام وعوص وتوجر ومشا الذين في عبر الفرات.. الخ ».

« وتعسكر كل فرق المقاتلين تجاه ملك كتييم، وتجاه كل جيش بليعال المجتمع لديه ليوم الفناء سيف الرب. ويقف رئيس الكهنة ويقرأ على مسامعهم صلاة زمن الحرب ويبدأ كلامه قائلاً: تقووا تشجعوا ... لا ترتدوا أمامهم لأنهم جماعة كفر وكل أعمالهم هي في الظلمة ... اليوم موعد الحرب من قبل الرب على كل مجموعة بليعال، وموعد عصب على كل بشر. وإله إسرائيل يرفع يده القديرة العجيبة ضد كل أرواح الكفر. وكل جبايرة الآلهة يشدون أحقائهم للحرب، وتشكيلات القديسين تجتمع ليوم الرب، إلى أن يرول كل المكرسين لبليعال. لأن إله إسرائيل قد دعا السيف ضد جميع الأمم، وهو يبسط قوته بواسطة قديسي شعب ».

بعد وصف مطول لتشكيلات القتال وأساليب الكر والفر، يتم القضاء على جيوش الأمم ويرفع المنتصرون صلاة شكر هذه خاتمتها: « افرحي جداً يا صهيون، وابتهجي يا كل مدن يهوذا وافتحي أبوابك على الدوام لتدخل إليك ثروات الأمم، وليخدمك ملوكها ويسجد أمامك كل جلاديك ويلحسوا تراب قدميك. يا بات

تعيي اهتفن هتاف الفرخ، وتزين بزينة المجد، وتسلمطن على ممالك الشعوب. هكذا يكون الملك للرب ولإسرائيل مملكة أبدية».

سفر أسرار أخنوخ

يدعى هذا الكتاب أيضاً بسفر أخنوخ الثاني، وهو يتميز عن سفر أخنوخ الأول بتركيزه على الموضوعات اللاهوتية المتعلقة بالبدايات، في مقابل تركيز أخنوخ الأول على موضوعات التاريخ. وهو يتوسع بشكل خاص في مسألة سقوط إبليس وتحوله إلى روح متمرده شريرة، بعد أن كان رئيساً لطبقة عليا من الملائكة. كما يتوسع في مسألة خلق الإنسان الأول وسقوطه، ودور إبليس في تزيين المعصية له. وهناك وصف لأحوال السماوات السبع ولأهوال الجحيم ومتع النعيم. النص متوفر فقط باللغة السلافية، ويبدو من أسلوبه أن هذه النسخة السلافية هي ترجمة مباشرة عن اليونانية. أما عن زمن تدوينه فإن الباحثين مختلفون في ذلك، فبينما يرجح بعضهم أن تدوينه قد تم في زمن ما من القرن الأول قبل الميلاد على يد يهودي هلنستي من الاسكندرية، فإن البعض الآخر يرى فيه نتاجاً لعملية تحريرية طويلة أدخلت على النص القديم تعديلات وإضافات خلال بضعة قرون.

ينتمي النص إلى جنس الأدب الديني الرؤيوي. وفيه يتحدث 'خروج من يارد، السلف السادس بعد آدم من سلالة ابه شيت، عن رؤيا نبوية عرجت به إلى السماوات وصولاً إلى عرش الرب. وهناك استمع من فمه مباشرة إلى قصته خلق والتكوين:

«عندما كنت في سن الخامسة والستين بعد الثلاثمائة، وفي أحد أيام الشهر الثاني، كنت وحيداً في بيتي وأشعر بصيق عظيم. فرحْتُ أبكي وأستحب عني وسلدني حتى غلبي اليوم. عندها ظهر لي رجلان هائلان في الحجم لم تر عيني متنبهما على الأرض. كان وجهاهما يضيئان مثل الشمس، وعيونهما تنقد كمتعل. ومن فميهما تخرج النيران وأذرعهما لها شكل أجنحة ذهبية. وقفا على رأس سريري وهتفا باسمي.

عندها انتهت من نومي وانتصبت واقفاً فانحنيت أمامهما بعد أن سترت وجهي خوفاً وقرقاً. فقالا لي: تشجع يا اخوحو ولا تخف، فنحن رسولان من عند الرب الأزلي. اليوم سترت مع معنا صُعداً نحو السماء، فاخبر زوجك وأفراد أسرتك بما يتوجب عليهم فعله في البيت، وقل لهم ألا يبحثوا عنك حتى يعيدك الرب إليهم»^(١).

بعد ذلك يرفع الملاكان أخنوخ على أجنحتهما ويرقيان به إلى السماء الأولى، وهناك يقوده الملاك المتصرف بشؤون النظام النجمي فريه مسالك الحوم ومداراتها ومعاربها، ويريه هنالك بحراً واسعاً أكبر من بحار الأرض، ومئات من الملائكة ترف فوقه بأجنحتها، ويريه مخازن السحب والبرد والتلج والندى وعليها ملائكة يخرسونها. ثم يعود إليه الملاكان فيرقيان به إلى السماء الثانية. وهنالك يرى ظلمة مترامية في أعماقها ملائكة سود مفيدون سلاسل وهم يتنحون.. فيسأل عنهم وعن سبب تعذيبهم، فيجيبه الملاكان بأنهم الملائكة العصاة الذين ساروا وراء كبيرهم، وهم الآن في انتظار الحساب الأخير. في السماء الثالثة يلح الملاكان بأخنوخ إلى حمة غناء يقوم على حراستها ثلاثمائة ملاك، فيها من كل شجر وثمر، وما لم تره عين ولا يستطيع كائن بشري وصفه. وفي وسط الجنة شجرة الحياة ونبعان يفيض منهما نهران من لبن وعسل، ثم يتفرعان إلى أربعة روافد من زيت وحمرة. إنها الميراث الأبدي للأبرار الذين ساروا في حياتهم أمام الرب بدون خطيئة، وطهروا أرواحهم من الشر، وأطعموا الجائع وألبسوا العريان، وأعانوا الأرملة واليتيم. في الجهة الأخرى من السماء الثالثة يقف الملاكان بأخنوخ على عتبة مكان مظلم مخيف تتأجج فيه نيران أبدية، ويقوم عليه ملائكة يخيفو الهيئة يحملون أدوات تعذيب مرعبة. إنه الميراث الأبدي للخطاة الذين اختاروا طريق الشر وعاكسوا إرادة الرب فسرقوا وقتلوا وحسدوا، وكدسوا الثروات على حساب الفقراء، وأجاعوا المسكين وظلموا الأرملة واليتيم.

في السماء الرابعة يرى أخنوخ الشمس والقمر ومساريهما، والنجوم الأربعة التي ترافق الشمس، وتحت كل واحد منها ألف نجم تابع له. وهنالك عشرات الألوف من الملائكة المعينين بشؤونها. ومن وسط هذه السماء الرابعة تنأهى إلى سمعه صوت حوقات الملائكة تسبح بحمد خالقها وتنشد على إيقاع المزامير والصوج. في السماء

١- هذا المقطع وما يلي من ملخصات عن ترجمة R. H. Charles في كتاب: The Other Bible.

الخامسة يرى أخنوخ الملائكة الساقطين المدعويين بالعمالقة، وهم أول رمرة من الملائكة تمردت على الرب وتبعت رئيسها المدعو "ساتانا إيل"، فأدارت وجهها عن نور الرب ثم أغوت بقية الملائكة الساقطين الذين رأهم في السماء الثانية. وكانوا في كرب عظيم وحزن عميق صامتين إلى نهاية الأزمنة عندما يحين يقوم عقاب الرب. في السماء السادسة يرى سبعة زمر من الملائكة هم الرؤساء الموكلون بشؤون الأرض، فما من ظاهرة من ظواهر الطبيعة إلا وعليها ملاك حارس منهم. وبينهم من يسجل ويخصي أعمال البشر على الأرض، السيئة منها والحسنة. وكل هؤلاء يسبح بأنعام عبدة تتردد دوماً تحت قدمي الرب الجالس في السماء السابعة.

عندما يصل أخنوخ إلى السماء السابعة، يرى العرش من بعيد وحوله طبقات الملائكة العليا من الكروبيم والسيرافيم وهم منشغلون بالإنشاد والتسبيح. ها يقول له الملاك أن بأن مهمتهما قد انتهت ويتركانه وحيداً. يسقط أخنوخ على وجهه لمول الشهد، ولكن الملاك جراثيل يتقدم نحوه ويناديه قائلاً: تقدم يا أخنوخ ولا تخف. قم معي إلى سدة العرش العظيم. ثم يتقدم إليه فيرفعه عن الأرض كورقة شجر عصف هــ الريح ويضعه أمام وجه الرب. يأمر الرب أن يؤتى لأخنوخ بقرطاس وورق ومسدّد ليكتب كل ما رآه وكل ما سيسمعه من فم الرب، ليلبغه إلى أرواح البشر المعدّة للأبدية من قبل أن يُخلق العالم. ثم يقص عليه قصة الخلق والتكوين.

تتطابق قصة الخلق في سفر أحوح الثاني مع قصة الخلق التوراتية في حطوطها العامة، ولكنها تضيف إليها عنصرين جديدين، الأول هو خلق الملائكة في اليوم الثاني من أيام التكوين، والثاني عصيان الملاك الرئيس ساتانا - إيل ومردة على ربه وتحويله إلى إبليس ورئيس للشياطين، إضافة إلى بعض تفاصيل خلق الإنسان الأول في اليوم السادس. فلقد خلق الرب الملائكة من جوهر النار، وجعلهم في عشر طبقات لكل طبقة رئيس. ثم إن أحد رؤساء هذه الطبقات قد تصور في قلبه خطة مستحيلة، وهي أن يعلو فيصبح نداً للرب في القوة. فتمرد هذا الرئيس على خالقه ثم أغوى من تحته من الملائكة وزين لهم العصيان، ولكن الرب رماه من الأعالي مع ملائكته، ففقدوا بريقهم الإلهي وصاروا أرواحاً متمردة شريرة تقيم فوق وجه الهاوية السفلى.

في اليوم السادس خلق الرب الإنسان من سبعة عناصر، فجعل لحمه من تراب الأرض، ودمه من الندى، وعينه من الشمس، وعظمه من الصخر، وذكاه من الغيوم ومن سرعة الملائكة، وشعره وأوردته من عتب الأرض، وروحه من نفس الرب ومن الريح، ودعا اسمه آدم. ثم أسكن الرب آدم في حة زرعهها على الأرض، في عدن شرقاً، ليرعى عهده ووصاياه. وأراه الطريقين صريحين نور وطريق الظلام، وقال له هذا حسن وذاك سيء. ومع ذلك فقد كان حن متصد على فؤاد آدم عارفاً بطبيعته الخاطئة، فقال في نفسه: وهل بعد خضبة سوى موت. ثم أوقع الرب سبائاً على آدم وأخذ من أضلاعه واحداً وخفق منه زوجاً له دعاه حواء. ونكح الشيطان تسلياً إلى الفردوس وأغوى حواء وجعلت تعصي، ونكحهم يقرّب آدم^(١). وهنا يقول النص على لسان الرب:

« فحلت لعني على الجهل. أما ما باركته سابقاً فلم ألعنه، لا الإنسان ولا الأرض ولا بقية المخلوقات، وإنما أعمال الإنسان الشريرة. وقلت له إنك من تراب وإلى تراب الأرض التي أخذتك منها تعود. لن أهلكك وإنما سأبعدك عن المكان الذي أسكنتك فيه. ولسوف أضحك إلى في مجيئي الثاني. ثم باركتُ جميع مخلوقاتي المُرثية منها وغير المُرثية. وكانت فترة إقامة آدم في الجنة خمس ساعات ونصف. وباركت يوم السبت الذي فيه استرحت من جميع أعمالي، وجعلت اليوم الثامن رأس الأيام المخلوقة التي تلت أعمالي. وجعلت بعده سبعة آلاف سنة بعدد الأيام السبعة الأولى. وفي بداية الألف الثامن جعلت موعداً للأبدية، لزمان لا يقاس بالسنوات والشهور والأسابيع والأيام والساعات ».

بعد ذلك يأمر الرب أخنوخ أن يعود إلى الأرض ويخبر بما رآه عبر رحلته من السماء الأولى وإلى العرش العظيم، ويعطيهم ما سطره في كتابه ليتناقلوه من جيل إلى جيل. فيرجع أخنوخ ويبشر بين الناس ويعظهم بالحياة الأخلاقية السوية، لأنهم سوف يجدون أعمالهم الحسنة تنتظرهم يوم الحساب الأخير. وبعد أن ينتهي من مهمته يرسل الرب ظلمة على الأرض ويرفع أخنوخ إليه ليعيش خالداً في السماء. وعندما تنقشع

(١) لا ينطرق النص هنا إلى الأمر الإلهي بعدم الأكل من شجرة المعرفة، ويترك خطيئة الإنسان دون موضوع واضح ومحدد.

الظلمة يثقلت الناس حولهم فلا يروا أخوخ. وفي الموضع الذي كان واقفاً فيه يسرون لفافة كتب عليها: الله الخفي.

على هذه الصورة ينتهي أكثر أسفار الفكر المنحول راديكالية. وفي اعتقادنا، إن راديكالية هذا النص ومدى تناقضه مع الإيديولوجيا التوراتية، تجعل من تسميته بصـ توراتي منحول تسمية اصطلاحية لا تتطابق مع مضمونه وطابعه الشمولي العالمي. فلقد انطلق الكاتب من مناح توراتي ليضع خطوطاً عامة لإيديولوجيا جنسية غير توراتية، سوف يكون لها أبعد الأثر على تطور الفكر الديني اللاحق. ولعل بعض نقاط الاختلاف التي نوردتها فيما يلي تبرز مقولتنا هذه:

- ١ - لا يُدعى الإله هنا بإله إسرائيل لأنه إله شمولي عالمي.
- ٢ - لا يوجد ذكر للشعب المختار ولا لإسقاطات مستقبلية على تاريخ بني إسرائيل.
- ٣ - لا يؤكد الرب في وصاياه لأخوخ على الشريعة بل على السلوك الأخلاقي القويم. وفي الحقيقة فإن مفهوم الشريعة عائب تماماً عن ذهن مؤلف النص.
- ٤ - جميع أرواح الشر معدة للخلاص وللأبدية قبل خلق العالم.
- ٥ - خلق الإنسان حراً، وبس له الخالق مد البداية طريق الخير وطريق الشر. كما أن عصيان الملاك الرئيس وبطائه بدل على أن الملائكة قد خلقت حرة من البداية أيضاً.
- ٦ - لا ينبع شر الإنسان من رغبته في إتيان الشر بل من جهله. ولهذا لم يلعن الرب الإنسان ولا الأرض مثلما لعهما في سفر التكوين بل لعن الجهل وأعمال الإنسان الشريرة، ثم بارك جميع مخلوقاته.
- ٧ - لا يؤسس يوم الديونة ملكوت الرب على الأرض ولا لدولة إسرائيل الأبدية، بل هو يوم حساب لجميع بني البشر.

عندما امتنع إبليس عن السجود

«كتاب حياة آدم»

كتاب "حياة آدم وحواء" نص متوفر باللغة اليونانية، إضافة إلى اللاتينية والسلافية. ويرجح الباحثون اعتماداً على الصيغ والتعبير والبنى اللغوية لنص اليوناني، أنه الأقدم بين النصوص المتوفرة بين أيدينا، وأنه ترجمه مباشرة عن نص عبري مفقود

يعود تاريخه إلى زمن ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي. بينما تم إنتاج النص اليوناني في زمن ما خلال القرنين الثالث والرابع الميلاديين. يروي هذا النص قصة حياة آدم وحواء بعد خروجهما من الفردوس. ويكتسب القسم الأول منه أهمية خاصة نظراً لتقديمه لأول مرة في الفكر سحور قصة عن سقوط الملاك الرئيس بسبب عصيانه أمر الرب بالسجود لآدم. وهذه ترحمتي هذا الجزء من النص^(١).

« بعد طردهما من الفردوس صنعاً لأنفسيهما حيمة وجلس يوحان مدة سبعة أيام ويبكيان بأسى عظيم. بعد اليوم السابع أخذوا يشعرون بالجوع فراحا يفتنتان حولهما عن شيء يأكلانه ولم يجدا. فقالت حواء لآدم: كم راحة يا سيدي. هلا ابتعدت وفتشت لنا عن ما يسد الرمق. ربما يشفق الرب علينا ويعيدنا إلى حيث كنا سابقاً. فنهض آدم وراح يحول مدة سعة أيام في الأرض، ولكنه لم يجد طعاماً كالذي تناولاه في الفردوس. فقالت حواء لآدم: سيدي، هلا قتلتي لعل الرب إذا مت يعيدك إلى الفردوس، فأنا السبب في نكمته وعقسه عليك. فأجابها آدم: لا تنفوهي بمثل هذا الكلام لئلا تتلقى مزيداً من لعنات الرب. وكيف لي أن أتجلى عن جزء من لحمي ودمي؟ من الأفضل لنا أن نهض ونتابع البحث عن وسيلة للعيش ولا نتخاذل. »

« مشى الاثنان مدة تسعة أيام يبحثان عن طعام، ولكنهما لم يجدا طعاماً يشبه ما كانا يأكلانه في الفردوس، بل طعاماً مما تأكله حيوانات الأرض. فقال آدم لحواء: لقد جعل الرب هذا الطعام نصيباً للحيوانات بينما كنا نتناول هناك طعام الملائكة. من الأفضل لنا أن نبكي أمام الرب خالقي وعلن الندم والتوبة ونستغفر، لعله يسامحنا ويرأف بنا ويزودنا بأسباب الحياة. فقال حواء قل لي يا سيدي: ما هو الدم وكيف أستغفر، لكي لا يأتي علينا عكس مرادنا ويذير الرب وجهه عنا ولا يعير أذننا صاغية نصلاتنا. سيدي كم من الوقت يستغرقه استغفارك؟ فأنا من جلب عليك التعب والاشقة. فقال آدم: لن يكون بمقدورك القيام بما سأقوم به، بل ابذلي قدر استطاعتك. سوف أصوم لمدة أربعين يوماً. أما أنت فامضي إلى هرة الدجلة وخذي لك حجراً قمي عليه في وسط اناء واعطسي إلى الرقة فالشي مدة سبعة وثلاثين يوماً، بينما أغطس أنا

في نهر الأردن أربعين. والزمي الصمت لأن شفاهنا التي تنجست بالأكل من الشجرة المحرمة غير جديرة بالتوسل إلى الرب. لعله يعملنا هذا يرحمنا ويرأف بنا».

« مضت حواء إلى نهر الدجلة وفعلت مثلما قال لها آدم، بينما مشى آدم إلى نهر الأردن وأخذ لنفسه حجراً وقف عليه في الماء الذي غمره إلى رقبته. ثم خاطب آدم نهر الأردن قائلاً: هلاً بكيت معي يا ماء الأردن، وجمعت مخلوقاتك السابحة حولي لتبكي معي، لتدبني لا لتندب نفسها، فأنا الذي أخطأ من دون مخلوقات الأرض. فهبت لفورها مخلوقات النهر وأحاطت بآدم وتوقفت تيار الماء عن الجريان».

« بعد ثمانية عشر يوماً وهما على هذه الحال، ثارت نائرة الشيطان فاتخذ شكل ملاك وصاء، وجاء إلى نهر الدجلة بينما كانت حواء تبكي. فوقف عندها وتظاهرها بمشاركتها البكاء ثم قال: اصعدي من الماء وتوقفي عن البكاء، دعي عنك الحزن والتنهّد. ما الذي يقلقك أنت وزوجك؟ لقد سمع الرب دعاءكما وقبل توبتكما، وكل الملائكة تشفعت عنده لكما، ولقد أرسلني لكي أصعدك من الماء وأقدم لك طعام أهل الفردوس مما كنت تطلبينه، فهلمي معي إلى حيث الطعام معدّ من أجلك. سمعت حواء كلام الشيطان وصدقته، فصعدت من الماء ولكنها سقطت أرضاً لدى ملاستها الصفة، فأقامها الشيطان وقادها إلى آدم. فلما رآهما قادمين صرخ وانتحب وناداهما قائلاً: أين ذهب ندمك واستغفارك؟ وكيف وقعت ثانية تحت غواية عدونا الذي حرّمنا مسكننا الفردوسي وامتعنا الروحانية؟ لسماعها نداء آدم انتبهت حواء إلى خديعة الشيطان، فسقطت على وجهها في التراب وتضاعف عويلها ونواحها وصرخت في وجه مرافقها: الويل لك أيها الشيطان، لماذا هاجمتنا دون سبب؟ ما الذي فعلناه حتى تلاحقنا دوماً بالمكر والخديعة؟ ...».

« فتنهّد الشيطان وقال: إن كل عدائي وحسدي بسبك أنت يا آدم. بسبك أنت طردت وحُرمت من مجدي في السماء بين الملائكة، بسبك أنت رُميت من الأعالي إلى الأسافل. فقال آدم: ما الذي فعلته لك، وفي أي أمر لوُمّك لي؟ لماذا تلاحقنا ولم نسبب لك ضرراً ولا أذى؟ فأجاب الشيطان: عن أي شيء تتحدث يا

آدم ؟ بسببك أنت أخرجت من هنالك، وبعد خلقتك أنت أبعدت من حضرة الرب وصحبة الملائكة. فعندما نفخ الرب في انفك نسمة الحياة وتشكلت هيئتك على صورته، دعانا ميخائيل لكي نسجد لك في حضرة الرب الذي حاطبك بقوله: انظر يا آدم لقد صنعتك على صورتنا وشبهنا. ولقد دعا ميخائيل جمع الملائكة وقال لهم: اسجدوا لصورة الرب حسبما أمر. وكان ميخائيل أول الساجدين ثم دعاني إلى السجود قائلاً: اسجد لصورة الرب يهوه. فأجبت: أنا لا أسجد لآدم. وعندما حدثني على السجود قلت: لن أسجد لمن هو أدنى مني مرتبة، فلقد خلقت قلبه وعليه هو أن يسجد لي، ولما سمع الملائكة التابعون لي قولي، رفضوا السجود أيضاً. ولكن ميخائيل تابع حثنا وقال: إذا لم تسجدوا سوف يصب الرب جام غضبه عليكم. ففتت له: إذا غضب الرب علي سوف أرفع لنفسي كرسيًا فوق نجوم السماء وأصبح نداءً للعلي. فلما سمع الرب قولي ثار غضبه علي وأنزلني من مرتبة المجد مع أتباعي، وطردنا من مقرنا الأعلى إلى الأرض، حيث لبثنا في حزن وأسى نندب بمجدنا الضائع، وآلمنا أن نراك تنعم هنالك بالركة والسرور. لذا فقد حثت زوجتك بالخديعة وأغويتها فجعلتها سبب فقدانك أفراح العيم، مثلما فقدت بسببك مجدي العظيم».

يتابع النص بعد ذلك سرد أخبار أسرة آدم وما جرى بين قابيل وهابيل وما جرى لبقية أولاد آدم إلى حين وفاته. وينتهي النص بمشهد موت آدم وتلقيه رحمة ربه ومغفرته:

«ولسبعة أيام أظلمت الشمس وأظلم القمر والنجوم. وكان شيت يحترض جسد أبيه، وحواء تشبك ذراعيها فوق رأسها المكس والمستند على ركبتيها، وكسل الأولاد يكون بحرق. وبينما هم على هذه الحال ظهر الملاك ميخائيل واقفاً عند رأس آدم وحاطب شيت قائلاً: انفض عن جسد أبيك وتعال إلي فأريك ماذا أعد الرب له، فلقد رحم الرب مخلوقه وتاب عليه. وعزف كل الملائكة بأبواقهم وأنشدوا: مبارك انت أيها الرب الذي أشفق على مخلوقه. عندها رأى شيت ذراع الرب تمتد فتحمل آدم وتسلمه إلى ميخائيل وسمعه يقول: ليكن آدم في حرزٍ لديك إلى يوم الدينونة في

آخر الأزمان، عندما ساحول حزنه فرحاً وأجعله يتربع على عرش — —
(=الشيطان..).

الهاجاده

نشأت على هامش التلمود (وهو المصدر الثاني للشرية بعد التوراة) خلال القرون الأولى للميلاد مجموعة الأدبيات الدينية المعروفة باسم الهاجاده، أي رواية القصص. والاسم مستمد من أسلوب المؤلفين الذي استخدموا القصص المشيع بالميثولوجيا، وذلك من أجل تقريب المعتقدات التلمودية إلى ذهن عامة الناس. فالهاجاده بالنسبة إلى التلمود تعادل الأسفار المنحولة بالنسبة إلى التوراة.

يعتبر النص الذي سأقدمه ملخصاً فيما يلي^(١)، من عيون أدبيات الهاجاده. وهو يعالج موضوعات التكوين منذ خلق العالم إلى سقوط الإنسان. وبلغت نظرنا بشكل خاص تقديمه لعنصر جديد في قصة خلق الإنسان عندما قال الرب للملائكة إنه سوف يخلق الإنسان، واستمع لآرائهم التي تحذر من مغية هذا العمل، لأنهم رأوا أنه سيكون ميالاً إلى النزاع والقتال وممتلئاً بالغش والخداع. كما أن النص يسج على سوال كتاب حياة آدم في اعتبار السبب في سقوط إبليس رفضه السجود لآدم.

في البدء أوجد الرب سبعة أمتياء قبل أن يخلق العالم وهي: التوراة مسطرة بنارٍ سوداء على نار بيضاء، ومستقرة في حضن الحائق. العرش الإلهي. الفردوس عن يمين العرش. الجحيم عن يسار العرش. الهيكل المقدس أمام العرش. مذبح الهيكل. جوهرة على مذبح الهيكل، محفور عليها اسم المسما المختص. وصوت يهدير قائلاً عودوا يا أبناء البشر. عندما أراد الرب خلق العالم تشاور مع التوراة بهذا الخصوص، فأبدت التوراة شكها من جدوى خلق العالم الأرضي، لأن الناس سوف يتيحون فيه بوجوههم عن تعاليمها ويقعون في المعصية. ولكن الرب بدد شكوكها بقوله إنه قد أعد للشر التوبة والغفران قبل خلقهم، وهياً لهم سبل تصحيح سلوكهم، كما وأنه قد أعد للفردوس والجحيم لأجل الثواب والعقاب، وسمى المسما من أجل تقديم الخلاص لجميع الخطاة.

١ - عن ترجمة H. Szold في كتاب: The Other Bible.

تتتابع بعد ذلك أعمال الخلق والتكوين وفق ترتيبها في سفر التكوين التوراتي، ولكن مع توسع وإسهاب وإدخال عناصر جديدة على القصة الأصلية. فالسماوات سبعة طباقاً تدرج من السماء الأولى التي تستند إلى الأرض عند الجهات الأربعة، وحتى السماء السابعة التي تتصل بيدي الخالق. والأرضين سبعة طباقاً أيضاً، يفصل كل أرض عن الأخرى خمس طبقات فرعية. ثم جعل الرب جحيم في الجهة الشمالية من الأرض وقسمه إلى سبع درجات لكل درجة حصتها من الحطة وفق ذنوبهم. وقسم الدرجة إلى سبعة أجنحة، والجنح إلى سبعة آلاف كهف، ولكهف إلى سبعة آلاف حجرة، وفي كل حجرة سبعة آلاف عقرب لكل عقرب منها ثلاثمائة شوكة، في كل شوكة سبعة آلاف جراب، ومن كل جراب يجري سبعة أنهار من السم إذا مست قطرة منه جسم إنسان تفجرت أشلاؤه. وهناك أنهار من حمم تجري في كل مكان، وأنهار من قطران وإسفلت تغلي وتضطرم. وهناك خمسة أنواع من النيران وقودها قطع من الفحم بحجم الجبال. وهناك ملائكة العقاب موزعون في كل مكان.

وجعل الفردوس في الجهة الشرقية من الأرض، وقسمه إلى سبع درجات لكل درجة حصتها من الصالحين وفق صلاحهم. وجعل له بوابتين عليهما ألوف من ملائكة الرحمة. فإذا وصل واحد من أهل الجنة إلى البوابة، تقدم منه الملائكة فنضوا عنه حلة القبر وألبسوه عباءة من سحاب المجد، ووضعوا على رأسه إكليلاً من لآلئ وأحجار كريمة، وفي يده سبعة أغصان تفوح بأطيب روائح الجنة، ثم اقتادوه إلى مكان ربيع دائم وأنهار جارية من لبن وتمر وعسل. هناك شجرة الحياة التي تُثمر سبعة عشر نوعاً لكل نوع مذاق ورائحة خاصة. وتهب على الشجرة نسائم تحمل عبقها إلى جميع أنحاء الفردوس التي يتوزع فيها ملائكة يغنون بأعذب الأصوات. وليس في المكان نور يأتيه من خارجه، لأن نوره مستمد من ضياء وجوه المؤمنين الذين تحولت هيئاتهم فصار أقبحهم يضاهي يوسف في الحسن والجمال. وفي كل يوم يمر أهل الفردوس بأربعة تحولات. ففي الصباح يستيقظ واحد منهم طفلاً ليصير يافعاً عند الضحى ورجلاً ناضجاً عند الظهيرة ليعود شيخاً مع الغيب. وبذلك يتمتع ساكن الجنة بما يقدمه للإنسان كل طور من أطوار الحياة من متع وبما له من خصائص إيجابية.

بعد أن انتهى الرب من خلق السماوات وملأتهن بالإنسان. وهنا يستطيع الرب رأي رؤساء الملائكة في ما هو مُقدم عليه، فتأتي مشورتهم في غير صالح الإنسان. ورغم أن الرب لم يطلعهم إلا على نذر يسير مما وصل إليه علمه بشأن طبيعة المخلوق الجديد، فقد تنبأ بعضهم أنه سيكون ممتلئاً بالغش والخداع ميالاً إلى النزاع والقتال. ثم ينتهي الحوار بقول الرب لملائكته: ما نفع وليمة معدة بعناية فيها كل الطيبات وما من ضيف يتمتع بها ؟ فيجيب الملائكة ليكن اسمك ممجداً في الأرض كلها ولتأت مشيقتك بما تراه مناسباً.

مد الرب يده واعترف من جهات الأرض الأربعة أربع قبضات من التراب فجعلها وسواها إنساناً. فحاء آدم صنعة يد الخالق على عكس بقية المخلوقات ومظاهر الكون والطبيعة التي ظهرت بكلمة فمه، وذلك تكريماً له وإعلاءً لشأنه. ثم نفخ الرب في أنف آدم من روحه الأثرية فصار نفساً حية. وبذلك غدا الإنسان أول خلق الرب في ترتيب الظهور بدل أن يكون الأخير، باعتبار ما لروحه من قدم هو قدم الروح الإلهية. ومع خلق روح آدم خلق الرب جميع أرواح البشر المتسلسلين من صلبه إلى آخر الأزمان، وحفظها في مكان خاص من السماء السابعة. فمن مكائهم سوف تهب لتحل في الأجسام المخلوقة في الأرحام. وسيكون إذا حملت امرأة من نساء الأرض، جاءها ملاك الليل فأتى بحملها الذي لم تدب فيه الروح بعد إلى حضرة الرب ليقرر للكائن الجديد كل صفاته وخصائصه، عدا تلك المتعلقة بالخير والشر والتي تُترك لحياره الحر في المستقبل. ثم يأمر بعد ذلك خازن الأرواح أن يأتيه بالروح التي اسمها كذا، فيأتيها بها وتؤمر أن تدخل في الحمل. ولكن الروح تسجد لخالقها وتتوسل إليه أن يتركها في حال القداسة الذي تعيش ويعفيها من السزول إلى الأرض. فيجيبها ربما إن المكان الذي ستمضي إليه أفضل من مكائهم هذا، فتدع الروح. بعد ذلك يأخذها ملاك فيطوف بها ويضعها على الفردوس ويقول لها إن مأواها سيكون هنا إذا عملت صالحاً، ثم يطلعها على الجحيم ويقول لها إن مأواها سيكون هنا إذا أساءت. ثم يحول بها أرجاء الأرض فيريها أين ستولد وأين ستعيش وأين ستموت وتدفن. بعد ذلك يعيدها إلى الرحم. وبعد تسعة أشهر يأتيها الملاك نفسه ليقول إن وقت خروجها قد حان، فتتمنع الروح وتقاوم، فيقول لها: لم يكن لك خيار في خلقك، ولن يكون لك خيار في ولادتك ولا في موتك ثم مثولك أمام الملك القدوس لتحاسبي على ما قدمت

يداك. وعندما تمنع الروح في المقاومة ينقف الملاك الجنين على أنفه ويدفع به خارجاً وقد نسي ما رأته روحه وما تعلمته.

لقد حرج آدم من يد الخالق إنساناً تام التكوين في العشرين من عمره، كاملاً في مواصفاته الجسدية والخلقية، فأسكنه الرب في الجنة التي غرسها في عدن شرقاً ليحفظها ويرعاه. لا بواسطة عمله الجسدي بل من خلال دراسته للتوراة والتزامه وصايا ربه الأخلاقية. ونكي بنيت الرب لملائكته تفوق آدم عليهم، فقد جمع حيوانات الأرض وعرضهم عليهم زوجاً زوجاً، لينبئهم بأسمائها ولكنهم عجزوا. ثم عرضها على آدم بعد أن علمه أسماءها وحياتها، فسمّاها آدم بأسمائها. فلقد كان آدم نبياً وحكمته من حكمة الأنبياء. ونلاحظ هنا بالإضافة المتميزة التي قدمها كاتب النص، والتي تتمثل في عنصرتين الأولى تحدي الرب لملائكته أن ينبئوه بأسماء كائنات الأرض، والثاني تعليمه الأسماء لآدم وحياتاً قبل أن يدعوه إلى عرض علمه على الملائكة وإثبات تفوقه عليهم. وهذيتن العنصرتين غائبتين عن القصة التوراتية، حيث نقرأ في سفر التكوين ٢: ١٩-٢٠. « وجعل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية ».

عقب ذلك أمر الرب كل الملائكة أن يسجدوا لآدم ففعلوا وعلى رأسهم ميخائيل، الذي كان أول الساجدين لكي يضرب مثلاً للآخرين في الطاعة والخضوع للأمر الإلهي. ولكن الملاك الرئيس ساتان الذي اصبر الغيرة والحسد لآدم، رفض السجود قائلاً: لقد خلقتنا من ألقك وهائك فكيف تأمرنا أن ننطرح أمام من خلقتنا من تراب الأرض. فأجابه الرب: ومع ذلك فإن تراب الأرض هذا يفوقك حكمة وفهماً. وها تدخل ميخائيل وحت ساتان على الانصياع قائلاً: إذا لم تبجل آدم وتخضع له عليك أن تتحمل عواقب غضب الرب. فأجابه ساتان: إذا صب غضبه علي سأرفع عرشي فوق نجوم السماء وأغدو نداً للعلي. فلما سمع الرب ذلك منه أمسك به ورماه خارج دائرة السماء فهوى باتجاه الأرض، وتبعه حشد كبير من الملائكة الذين شجعهم ثمّره على إظهار ما كنموه في أنفسهم من حسد لآدم ورفض لسموه عليهم. ومنذ تلك اللحظة صارت عداوة بين الشيطان والإنسان.

يتابع الرب خطته في خلق الجنس البشري. فقد رمى سبائاً على آدم وأخذ من أضلاعه واحداً فصنع منه المرأة حواء. وكان لآدم وجهه قبل خلق المرأة فأعطى الرب واحداً للمرأة وترك له الآخر. ثم قال لهما أن يأكلا من كل شجر الجنة عدا شجرة المعرفة لأتهما يوم يأكلان منها أو حتى يمسانها يموتان. وكانت شجرة المعرفة الطريق إلى شجرة الحياة القائمة في وسط الفردوس. وذكر حشر (= ذكر الحية) أمير حيوانات البرية، صاحب حيلة وذكاء ودهاء، وكان يمشي على ساقين منتصب القامة مثل الإنسان، ويمثله في كثير من خصائصه وصفاته. فحسد حشر الإنسان ومشي موته، فتسلل إلى الجنة واقترب من المرأة التي كانت تمشي عند شجرة معرفة وقال لها: أحقاً قال الرب لا تأكلا من هذه الشجرة ولا تمساها كي لا تموت؟ فقالت: نعم. فدفعها الحشر إلى جذع الشجرة فتمسكت به، وقال: لقد مسست شجرة ولم يصبك ضرراً، كذلك الأكل منها. لقد أكل الرب من ثمرة هذه شجرة قبل أن يخلق العالم، ولذا فقد حرّمها عليكم حتى لا تعمدا إلى خلق غيره أخرى وتصبحا مثل الآفة. ثم مد يده وأكل وأعطى المرأة وأكلت ثم مصت إلى زوجها فأطعمته وهو لا يدري أنه قد تناول من الشجرة المحرمة.

يتابع النص بعد ذلك سرد تنويعاته الخاصة على خاتمة القصة التوراتية، التي تتضمن عقاب الإنسان وطرده إلى الأرض التي جُبل منها ليتعب فيها ويكد ويأكل بعرق جبينه، حتى يحين موعد اليوم الذي يقدم فيه كشفاً كاملاً بأعماله أمام خالقه. وقد جرى طرد آدم من الفردوس بعد اثني عشرة ساعة من خلقه، ففي الساعة الأولى من النهار السادس عزم الرب على خلق الإنسان. وفي الثانية تشاور مع ملائكته في الأمر. وفي الثالثة قبض أربع قبضات من تراب الأرض. وفي الرابعة عجن الطين وشكله جسداً. وفي الخامسة كسا الجسد جسداً. وفي السادسة اكتمل آدم جسداً بلا روح. وفي الساعة نفع في أنفه من روحه. وفي الثامنة أسكنه الجنة. وفي التاسعة أمره أن لا يقرب الشجرة. وفي العاشرة عصى أمر ربه. وفي الحادية عشرة حاكمه. وفي الثانية عشر طرده إلى الأرض..

خلاصة

لا ينتظم الفكر المنحول ضمن رؤية إيديولوجية واحدة. فنحن هنا ما زلنا في فترة مخاض للفكر التجديدي قديم من خلالها كل مؤلف رؤيته الخاصة لجانب من جوانب التجديد، لم ترق إلى مستوى تكوين رؤية عامة متماسكة تطال كل ناحية من سواحي العقيدة. من هنا فقد تفاوتت المواقف بين الالتزام بالخطوط العامة للإيديولوجيا الرسمية، وبين الخروج عليها وتجاوزها نحو الآفاق الشمولية للثقافة الهلينستية السائدة في المنطقة. ورغم أننا لم نقدم في هذا الفصل إلا غيضاً من فيض الفكر المنحول^(١)، إلا أن أمثلتنا المنتقاة كانت كافية على ما نرجو لإعطاء فكرة عن مضمونه وتوجهاته العامة، وخصوصاً فيما يتعلق بالاتجاه الراديكالي الذي تجاهلته اليهودية التلمودية، وكان له بالمقابل أثر كبير على تشكيل الفكر المسيحي.

لقد ميز الفكر المنحول نفسه عن الإيديولوجية التقليدية عندما أدخل فكرة الشيطان النكوي على الرؤية التوراتية لتاريخ. ذلك عن الشيطان الممسد لبداً الشر هو الذي يعطي الإله الأوحيد صفة الخير المحض. والخير المحض لا يمكن أن يتج الشر أو يكون مسؤولاً عن وجوده. فالاتجاه الراديكالي في الفكر الجديد ينسح على منوال الفكر الزرادشتي في تصويره للشر على أنه نتاج للحرية التي زرعها الله في خلقه من الملائكة والناس. فلقد قادت الحرية إلى عصيان إبليس عن سابق قصد وتصميم ومعرفة لعواقب العصيان، كما قادت الإنسان الأول إلى الخطأ عن عقله مه وسذاجة. ولسوف يتابع إبليس عصيانه المتعمد إلى آخر الأزمان، ويُمتحن الإنسان في عالم تتداوله قوة الشيطان المدمرة ويد الرحمن الممدودة دوماً للرحمة والخلاص.

هذه الجدلية بين الرحمن والشيطان على مستوى الكون، وما يتصل بها من جدلية الخير والشر في النفوس الواعية، ما أن تنأسس في الأيديولوجيا الدينية حتى تنتقل بها من مفهوم التاريخ المفتوح إلى مفهوم التاريخ الدينامي. فالرحمن الذي سمح بوجود

(١) لقد شعلت الأسفار غير القانونية في ترجمتها الإكليريكية الصادرة عام ١٩٨٣ في الولايات المتحدة حوالي ألفين من الصمحات موزعه على مجلدين ضخمين من القطع الكبير، انظر مرجعنا السابق:

الشر لأنه أراد الحرية لخنقه، لن يكون راضياً عنه بل سيجهد للقضاء عليه ضمن مخططة الأصلي القائم على الحرية. سوف يتابع الشيطان خياره البدئي دون تدخل من الرحمن القادر على محقه متى شاء. أما الإنسان فسيتابع مسيرته الحرة دون خيار بدئي، لأنه لا يخطئ عن عمد وقصد في معارضة المشيئة الإلهية مثلما فعل الشيطان، بل عن جهل منه وحسن نية، وهو قادر دوماً على إثبات الخير ومقاومة الشر. هذا الصراع على المستوى الميتافيزيكي وعلى مستوى الحياة النفسية والاجتماعية، سوف يقود الزمن إلى نهايته التي ستشهد اندحار الشيطان بعد أن تغطي عناصر الخير على عناصر الشر عبر الفترة الوسيطة من التاريخ، ويعود الوجود المادي والإنسان إلى حالة الكمال الأولى. إن المخلص ينتظر ليس إلا صورة عن ضمير الجماعة الإنسانية بأسرها، وليس انتصاره على الشيطان في آخر الأزمان إلا تعبيراً عن نجاح الإنسانية في تنقية نفسها واستعادة صورة آدم قبل سقوطه وانقياده للشيطان. إن ظهور الرب نفسه كمخلص على هيئة إنسان، أو إرساله للمسيح الذي أعده للمهمة منذ البدء، في هيئة إنسان، هو دلالة رمزية سيكولوجية تفيض بالرغبة في انتصار الروح الإنسانية وبلوغها كمال البدايات. لهذا يدعى المسيح المخلص بابن الإنسان مثلما يدعى بابن الله أيضاً، فهو الإنسان الكامل، والمثال الآدمي الأسمى الذي بقي أميناً لجوهره كأعلى المخلوقات مرتبة. وبنوته لله مثل بنوة آدم، كلاهما من روح الخالق. ولكن بينما ترتب على آدم أن يعاني من وطأة التاريخ وجوره ليظهر نفسه من عناصر الشر، فإن نموذج الكمال قد بقي مع الله في كمال البدايات، في انتظار الساعة التي يصل فيها الزمن إلى النهايات.

لم يحدث الفكر المنحول انقلاباً جوهرياً في الفكر اليهودي الذي تابع مسيرته التلمودية غير أنه لما يجري حوله. ولكن هذا الفكر قد قدم الحميرة التي ستفاعل في عجيبة الفكر المسيحي خلال القرون الأولى للميلاد، والذي سيتجاوز الفكر التلمودي والفكر المنحول على حد سواء نحو آفاق إنسانية رحبة، لم يكن الأول مؤهلاً لارتدادها بسبب تركته التوراتية الثقيلة، مثلما لم يكن الثاني بسبب تقصيره عن تقديم بديل إيديولوجي متسق ومتكامل.

قبل أن تنتقل إلى معالجة المفهوم المسيحي للثنوية وللتاريخ، سوف نتوقف في الفصل القادم عند الفكر الغنوصي، الذي قدم خلال القرون الأولى للميلاد أهم نقد جذري للمعتقد التوراتي، معتبراً إياه جملة وتفصيلاً من نواتج عبادة الشيطان الذي هو يهوه بالذات، إله اليهود.

يهود - شيطان الغنوصية

في الوقت الذي كان فيه مؤلفو الأسفار التوراتية المنحولة يعملون على إحداث تغييرات أساسية في الأدب روحياً التوراتية، مع الحفاظ على جوهرها إلى هذا الحد أو ذاك، كان الغنوصيون يؤسسون لتيار روحي جديد يقوم على نقد جذري لليهودية وللمسيحية اليهودية على حد سواء. نشأ هذا التيار في الإسكندرية ثم امتد إلى سورية وبلاد الرافدين، وساهم في إغائه عدد من المعلمين الكبار من أمثال فالنتينوس وباسيليديس وتودايوس. ولقد نافست الغنوصية في كل مكان المسيحية خلال القرون الأولى للميلاد، وشكت تحدياً حقيقياً للكنيسة الناشئة قبل أن تتلاشى إثر حملة قمع شاملة قادتها الكنيسة في أقرن السادس الميلادي. أدت هذه الحملة التي طالت الأشخاص والكتب إلى إتلاف معظم المخطوطات الغنوصية، وأما ما تبقى منها فقد صاع أثره تدريجياً بعد فترة لا بأس بها من التداول السري، وذلك بسبب صعوبة إنتاج نسخ جديدة منه. قد فقد بقي المهتمون بالتأريخ للفكر الغنوصي يعتمدون على ما كتبه آباء الكنيسة، في معرض تقديمهم للغنوصية وما أورده من مقتطفات أمينة من كتبها الأساسية. ولكن في عام ١٩٤٥ تم اكتشاف مكتبة غنوصية بموقع جمع جمادي بمصر، احتوت على اثنين وخمسين مخطوطة مخطأة في جرار فخارية، أمكن إرجاع تاريخها إلى حوالي عام ٤٠٠ ميلادية. وهذه المخطوطات عبارة عن ترجمة قبطية عن أصول يونانية. منذ عام ١٩٦٤ عكف الباحثون على ترجمة هذه الثروة الفكرية الهامة، وصارت متاحة للقراء والاختصاصيين في مجلد واحد ضخيم صدر الإنكليزية بإشراف وتحرير J. M. Robinson^١. عام ١٩٧٢. وهو مرجعاً الأساسي في هذا الفصل.

1 - J. M. Robinson: The Nag Hammadi Library, Harper, New York 1972.

والغنوصية تعني "العرفانية"، نسبة إلى غنوص Gnosis، وهي كلمة من أصل يوناني تدل على المعرفة بشكل عام، ولها أشباه في بقية اللغات الهندو - أوروبية، مثل قولنا بالإنكليزية Know أي يعرف و Knowledge أي معرفة. على أن المعرفة التي تشير إليها المفاهيم الغنوصية هي أقرب إلى مفهوم "العرفان". مصطلح التصوف الإسلامي، أي في فعالية روحانية تقود إلى معرفة الأسرار الإلهية من خلال تجربة باطنية تقود إلى الكشف والاستنارة. ففي مقابل التزام اليهودي بالشريعة وأدائه للطقوس، وفي مقابل إيمان المسيحي بيسوع المخلص، فإن الغنوصي ينكفئ على ذاته في خبره عرفانية تقوده إلى معرفة الله الحي ذوقاً وكشفاً وإلهاماً. هذه المعرفة هي وحدها الكفيلة بتحرير الروح الحبيسة في إطار الجسد المادي والعالم المادي الأوسع، لتعود إلى العالم النوراني الأسمى الذي صدرت عنه.

ولكن الله الحي الذي يبحث عنه لغنوصي في داخله، ليس الإله يهوه صانع هذا العالم المادي، بل الله العلي الذي يتجاوز ثنائيات الخلق ويسمو فوقها. فهم يعتقدون أن هذا العالم الناقص والملئ بالشورور ليس من صنع الله، بل من صنع إله أدنى هو إله التوراة، الذي يطابقون بينه وبين أئجرا مانيو شيطان الزرادشتية، ويدعونه بأمر الظلام وحاكم العالم المادي، ويصورونه على هيئة ملك متربع على عرش العالم يحيط به مساعده من قوى الظلام المدعرون بالأراكنة (مفردها أركون أي الحاكم). هذا الإله الخالق هو تقيض إله الأنوار الأعلى الذي لا يحده وصف ولا يحيط به اسم. وهو يعص دوماً على حبس النور في طبقات المادة الكثيفة التي خلق منها العالم. وعندما جاء إلى خلق الإنسان في نهاية عمل التكوين، صنع جسمه من مادة الأرض الظلامية، ثم حبس روحه التي أحدها من نور الأعالي المسروق في ذلك الجسد. ولكي يقبه في حجب جهل فقد فرض عليه الشريعة، التي تشغله عن العرفان واكتشاف الجوهر الحقيقي للروح.

فيما عدا الغنوصية المانوية التي تحولت على يد معلمها "ماني" إلى ديانة مؤسساتية خلال أواسط القرن الثالث الميلادي، فإن الفكر الغنوصي لم يطور إيدولوجيا دينية موحدة ومنمطة، وبقيت الفرق الغنوصية أقرب إلى الفرق الصوفية التي يتبع كل منها معلماً روحياً ذا نهج خاص وفكر متميز، مع اشتراكها جميعاً بعدد

من الأفكار العامة التي ميزتها عن غيرها من التيارات الدينية والفلسفية، التي كانت تتمازج وتتلاقح خلال فترة تعد من أخصب فترات التاريخ الروحي والثقافي للحضارة الإنسانية. ونظراً لخلو الغنوصية من التعاليم والإيديولوجيا الناجزة، فقد تطورت ضمنها اتجاهات متنوعة بينها الوثني واليهودي والمسيحي. وجميعها تدين بأصولها إلى شكل من الغنوصية المبكرة هي الحكمة الهرمزية، التي قامت على تعاليم وأفكار شخصية يلقها الغموص هي هرمز المثلث الحكمة. وإلى هرمز هذا تُنسب مجموعة من رسائل الحكمة تُنجز فيها أفكار الأفلاطونية المحدثة بالميتولوجيا المصرية في أشكالها المتأخرة ذات الطابع السرائي المسطقي. وقد كتبت هذه الرسائل في مطلع القرن الأول قبل الميلاد في مدينة الإسكندرية. وهرمز المثلث الحكمة، قول مأثور تدولته فيما بعد الفرق المسطقية وصولاً إلى الصوفية الإسلامية وهو: «إن من يعرف نفسه يعرف الكل». ولقد جعل المنتصوفة المسلمون من هذا القول حديثاً نبوياً لا سند له: «من عرف نفسه عرف ربه»^(١).

اتخذت الغنوصية شكلها الناضج على يد معلمها الكبير فالنتينوس، الذي ولد حوالي عام ١٠٠ ميلادية بمنطقة الدلتا بمصر من أسرة ذات أصول يونانية، وتلقى علومه بالإسكندرية مدينة العلم والثقافة لذلك العصر، وبويرة إشعاع الفكر الأفلاطوني المحدث والفكر الهرمسي. اتصل بالمسيحيين واعتبر نفسه مسيحياً ولكنه شكك لنفسه شبكة من الأخويات الغنوصية ضمن كنيسة الإسكندرية، وأسس أكاديمية للبحث الحر. اعتبر فالنتينوس نفسه المفسر الحقيقي لتعليم المسيح، وبلغ من ثقته بنفسه أنه قد دعا لنفسه كمرشح لكرسي الباباوية في أوسط القرن الثاني الميلادي، رغم أن تعاليمه تشكل انشقاقاً كاملاً عن لاهوت العهد القديم، وتفسيراً مغرقاً في التطرف لحياة يسوع ورسائل بولس الرسول. يرى فالنتينوس أن يؤس الإنسان ناجم عن سجن روحه في المادة المظلمة من قبل يهوه، إله العهد القديم وخالق العالم المادي. ولكن الخلاص متاح أمام كل فرد من خلال الغموص أو العرفان الداخلي. ورغم أن هذا العرفان ذو طابع

^(١) قال ابن تيمية عن هذا الحديث إنه موضوع. وقال النووي إنه ليس بثابت. وقال أبو المظفر السمعاني في "القواطع" إنه لا يعرف مرفوعاً. وقال ابن الفرس إنه ليس بثبت ولكن كتب الصوفية مشحونة به وهم يسوقونه مساق الحديث. انظر كشف الخفاء ج ٢، حديث رقم ٢٥٣٢.

فردى فى أساسه وىؤدى إلى خلاص فردى فى النهاية، إلا أن كل فعالية عرفانية فردية تؤثر على صيرورة الكون بكامله وتساعد على تخليص العالم، كما تساعد على إصلاح الإله الخالق نفسه لأنه إله جاهل ومحرور من العرفان اللازم لخلاصه. ولكن الإنسان قادر على معونته وعلى شفائه وتحريره من خلال تلمسه للنور الروحاني فى داخله.

يعتبر باسيليوس المعلم الثانى للغنوصية بعد معاصرة فالنتينوس، واعتبر نفسه مسيحياً أيضاً. وبقي عضواً فى كنيسة الإسكندرية حتى آخر أيامه، رغم أن أتباعه كانوا يقولون بأنهم ليسوا يهوداً ولم يصبحوا بعد مسيحيين. أسس باسيليوس مدرسة غنوصية اجتذبت الكثير من الأتباع خلال النصف الأول من القرن الثانى الميلادى، وكان يبشر بالله العلى الذى يسمو على الإله يهوه إله العهد القديم. أُنشئ باسيليوس ميتولوجيا على غاية من التعقيد والغموض فى موضوعات النشأة الأولى والتكوين. ففي البداية لم يكن شيء، لم يكن سوى العدم والإله الخفى الملقوف بالعدم. ثم أُنشئ الإله الخفى بشكل تلقائى بذرة الكون التى تنطوي على كل الممكنات التى نَحَققت فيما بعد، مثلما تحتوي حبة الخردل على ممكنات الجذر والساق والأوراق.. الخ. من هذه البذرة خرج الأركون الأكبر المدعو يهوه وباشر بخلق العالم المادي دون أن يعلم بوجود الإله الخفى الأسمى معه.

أما الشخصية الثالثة فى الفكر الغنوصى فكانت مرقيون. أسس مرقيون خلال أواسط القرن الثانى الميلادى لكنيسة بديلة، شكلت أكبر تهديد للكنيسة الرسمية، واستمرت قوية لفترة طويلة بعد وفاة مؤسسها، خصوصاً فى الأطراف الشرقية لمنطق انتشار المسيحية مثل أرمينيا، وكانت وراء تعجيل الكنيسة فى إقرار الأناجيل الأربعة وتثبيت المعتقد الرسمى فى صيغته النهائية. يعتبر مرقيون أكثر الغنوصيين مسيحياً. فهو رغم اتفاقه مع الغنوصية فى كل طروحاتها الرئيسية، إلا أنه يؤكد فى النهاية على عنصر الإيمان المسيحي ويعليه فوق العرفان الغنوصى. فالخلاص عنده يأتي بالإيمان وعن طريق يسوع المسيح بالذات ابن الله العلى لا ابن يهوه. وهذا ما استتبع عنده تكرار الطبيعة الواحدة التى تجمع بين روح الإنسان وروح الله. فالإنسان نتاج صنعة الإله الخالق لا الإله المتعالى الخفى، ولكن الإله المتعالى قد أحب الإنسان وأشفق عليه فمد إليه يد الخلاص.

ينطلق مرقيون في تفكيره من مبدأ الفصل التام بين العهد القديم والعهد الجديد، فيؤسس لعقيدة مسيحية مستقلة عن التوراة تقوم على إنجيل لوقا فقط في شكله المشذب والمختصر من قبله، وعلى رسائل بولس الرسول. ذلك أن بولس في رأي مرقيون هو الذي فهم الإنجيل حق الفهم من دون بقية الرسل. بعد أن تجلى له المسيح على طريق دمشق وأوكل إليه مهمة التبشير بالإنجيل الحقيقي؛ فعارض منذ البداية المسيحية اليهودية التي كان بطرس وزملاؤه يدعون إليها. يرى مرقيون أن هذا العالم المادي الناقص والمليء بالشرور هو من صنع الإله يهوه، وإن به عهد لقدم هذا هو الذي خلق الإنسان وفرض عليه الشريعة التي كانت بمثابة لعنة، على حد تعبير بولس. ولكن يهوه هذا ليس الإله الأعلى رغم أن جهله قد جعله في البداية يعتقد بوحدانيته، فلم يعلم بوجود قوة شمولية عظمى تمثل في الله الخفي. الأب لأعلى إله الغيبة. ولقد شعر الأب الأعلى بالشفقة نحو الإنسان فأرسل ابنه المسيح في هيئة يسوع الناصري ليخلص البشرية، وراه الناس بينهم فجأة وهو يعلم ويشتر بملكوت الروح. فظنه بعض اليهود المسيح القومي المنتظر؛ كما أن الحواريين أنفسهم لم يفهموا المغزى الحقيقي لرسائله. وبظراً لجهل يهوه بقيمة المخلص فقد دفع به إلى الصلب، وهو لا يدري أن عمله هذا سوف يجلب عليه سوء المصير، لأن ابن الله قد حرر بموته الناس من سيطرة يهوه ومن لعنة الناموس.

نتقل الآن إلى تقديم نموذج عن الميثولوجيا الغنوصية التي عرض العلماء أفكارهم من خلالها، وهي ميثولوجيا شديدة الغموض والتعقيد وذات دلالات رمزية بعيدة الأغوار. ونموذجنا هنا هو الكتاب المعروف بعنوان "محول يوحنا" أو "كتاب يوحنا السري" المنسوب إلى يوحنا الإنجيلي. ولكننا نرى من المفيد قبل ذلك عرض وتبسيط بعض مصطلحات الميثولوجيا الغنوصية. دلالة بالمفهوم الغنوصي أقرب إلى مفهوم الشياطين في بقية الميثولوجيات، وهي تنتمي إلى العالم المادي وتشكل جزءاً لا يتجزأ منه. وتدعى أراكسة، جمع أركون (أو أرخون) وتعني حاكم. يحكم فوق هؤلاء الأركون الأعظم يهوه الملقب بساكلاس أي الأحق، وسمايل أي الأعمى. أما في المستوى الروحاني الأعلى فلا وجود لألهة بالمعنى المتعارف عليه للكلمة، بل لأفلاك

قوة تدعى أيونات، جمع أيون. وإذا كانت هذه الأيونات تدخل في علائق مع بعضها البعض، فما ذلك إلا من دواعي أسلوب القصص الميثولوجي، لا يستثنى من ذلك فك القوة الأعلى، فهذا العلك ليس إلهاً وإنما هو مفهوم مجرد عن المبدأ الكلّي والحقيقة النهائية.

ولدينا مفهوم مركزي في التصورات الميثولوجية الغنوصية هو "صوفيا"، أي الحكمة. وصوفيا هي آخر أفلاك القوى الروحانية في ترتيب الصدور عن مركز النور الأسّي، ولكن أهميتها تأتي من كونها حلقة الوصل بين الأفلاك الروحانية وما ينظرها في الأسفل من عوالم المادة والظلام. وهي التي أنجبت الأركون الأعظم، كبير الآلهة يهوه. ونستطيع أن نعتبر على بدور فكرة صوفيا في مقاطع من سفر الأمثال التوراتي وفي سفر حكمة سليمان أيضاً. نقرأ في سفر الأمثال عن الحكمة قولها: « الرب حازني في أول طريقه قبل ما عمله منذ البدء. منذ الأزل مُسَحَّتْ، من الأول من قبل أن كانت الأرض. ولذت حين لم تكن العمار واليابيع الغزيرة. قبل أن أُقَرَّت الجبال، والتلال ولدت. إذ لم يكن قد صُنع الأرض بعد ولا البراري ولا أول أتربة المسكونة، حين هياُ السماوات كنت هناك، وحين رسم دائرة على وجه القمر العظيم.. لما رسم أسس الأرض كنتُ عنده صانعاً، وكنت كل يوم لذته، فرحةً دائماً قدامه»

الأمثال ٨: ٢٢ - ٣٠. أي أن الحكمة - صوفيا كانت بمثابة الروحة الروحية للحائق وقد شاركت في فعاليات الخلق. وفي سفر حكمة سليمان: ٨. هالك مطابقة بين الحكمة والروح القدس، ويشار إليها على أنها دفق مجد الرب ومرآة فعاليته الخلاقية ومميع النور الأبدي. وفي التيار الغنوصي السوري، الذي يعتبر سمعان السامري من أقوى ممثليه، فإن صوفيا هي فكرة الآب الأعلى الأولى، والروح القدس، وأم الجميع. وقد هبطت صوفيا من العوالم الروحانية نحو الأسفل حيث أنجبت ملائكة المادة الذين خلقوا العالم.

ولدينا مفهوم مركزي آخر في الميثولوجيا الغنوصية هو "الإنسان القديم"، الذي هو ابن الله العلي وصورة الإنسان الكامل التي تعيش في عالم المثل الأعلى، بالمفهوم الأفلاطوني. وفي لحظة معينة من تاريخ العالم نزل هذا الإنسان المؤله الذي يدعى أيضاً بابن الإنسان فتجلى في هيئة يسوع الناصري، ولكن دون أن يلبس جسداً مادياً

حقيقياً، ثم عاد في النهاية إلى عالم النور الأسمى الذي انبثق عنه. هذا الإنسان القديم هو النموذج الذي خلق آدم على صورته. فعندما كان الأراكنة يهيمون بخلق الإنسان الأول من تراب الأرض، نص الإنسان القديم من الأعلى فانعكست صورته على صفحة الماء، ولما رآها الأراكنة راحوا يصنعون آدم على صورة ما رأوه.

في كتاب مسحول يوحنا الذي أقدم ترجمتي الملخصة له فيما يلي^(١). يحاول المؤلف تقديم إجابة على سؤالين، الأول ما هو أصل الشر؟ والثاني كيف نستطيع الخلاص من عالم الشر هذا؟ وهو يصوغ في نصه متبعاً جنس الادب الرؤيوي الذي عهدناه لدى مؤلفي الأسفندر منحوله. في البداية نجد يوحنا وقد انتابته الحيرة عقيب حوار بينه وبين أحد «فريسيين»، فيترك المعبد وينعزل في جبل يتأمل في مسائل الإنجيل. في أحد الأيام تقع له رؤيا هائلة، فتتشق السماء وتهتز الأرض ويشع من الأعلى نور غامر ليس من هذا العالم، فيرتجف فرقاً ويسقط على وجهه. ولكن صوتاً من داخل النور يناديه قائلاً: «يوحنا لماذا تشك؟ لا تكن ضعيف الإيمان لأني معك دائماً. أنا الآب وأنا الأم وأنا الابن. أنا موجود أبداً. جئت لك لأكشف لك حقيقة ما هو كائن وما كان وما سيكون، فتعرف ما هو ظاهر للأعين وما هو خاف عنها، واكشف لك عن سر الإنسان الكامل. فارفع وجهك وتعال فاسمع وتعلم ما أقوله لك اليوم، لكي تنقله لأتراك من سلالة الإنسان الكامل القادرين على الفهم».

«الروح وحده غير متجزئة لا يحكم فوقه أحد. إنه الله الحقيقي أب الجميع، الروح القدس، الخفي الذي يهيم على لكل، الموجود بقبوليته، القائم بنوره، الذي لا تدركه الأبصار. الروح ليس إلهاً أو كائناً يتمتع بصفات وخصائص محددة. إنه البداية التي لا تسبقها بداية. لم يكن لأحد وجود قبله فيحتاج إليه. الروح لا يحتاج الحياة لأنه سرمدي، ولا يطلب ما دونه لعدم وجود نقص فيه يتطلب التكميل. إنه وراء الكمال. إنه النور. إنه بلا حدود ولا أبعاد، لعدم وجود شيء قبله يحده. خفي، لم ولن يراه أحد. دائم وموجود أبداً. بلا أوصاف لأن أحداً لم يفهم كنهه فيصفه. بلا اسم لعدم وجود أحد قبله يطبق عليه الاسم. ليس واسعاً وليس ضيقاً. ليس كبيراً وليس صغيراً.

١- عن نص: Frederik Wisse في: The Nag Hammadi Library.

وعن نص: R. M. Grant في: The Other Bible.

ليس مادياً وليس غير مادي. ليس بكم وليس بكيف. ليس كيانه ولا غير كيانه. ليس زمنياً بل وراء الزمن. ليس موجوداً ولكنه وراء الوجود، قائم في نفسه ولنفسه. وحده الذي يفهم ضمن نوره الذي يحيط به. إنه نبع الحياة والنور الأعظم الباهر».

بعد ذلك يتابع الصوت تعليم يوحنا ويشرح له كيفية صدور ما سوى الله عن الله، وكيف تشكلت أولاً أفلاك القوى الروحانية من منبع النور الأسفى، وهي الأيونات (ومفردها أيون). فكانت الفكرة الأولى أول ما ظهر، ثم تحولت صورته إلى شبه إنسان؛ هو الإنسان القديم. بعد ذلك ظهرت المعرفة الأولى، فالديمومة، فالحياسة الخالدة. ثم إن الفكرة الأولى (وتدعى باريللو) نظرت إلى أعماق النور العظيم، فحملت وأنجبت شرارة من نور هي المولود البكر للنور الأعظم، المسيح انعمد بطيبة الروح الخفي. فوهبه الأب العقل والإرادة والكلمة، وجعل الحقيقة طوع بنانه، وأعطاه سلطاناً على بقية الأيونات. بعد ذلك ظهرت الأفلاك الأدنى مرتبة وأعطيت لها أسماءها ومراتبها وصولاً إلى فلك الحكمة صوفيا عروس الإنسان القديم.

ثم إن صوفيا أحست برغبة في أن تُنجب صورة عنها، ولكن رغبته تلك لم تلق موافقة زوجها ولم تخط بمباركة الروح الأعلى. ومع ذلك فإن رغبته استعرت حتى شعت نحو الخارج، وأعطت الميلاد لكائن إلهي جهيض غير مكتمل أشبه بالمسخ، لأنه وُلد من أمه دون موافقة الأب وتعاونه. فكان له شكل مختلط من أسد وأفعى، وله عيمان جمرتان من نار. فلما رآته صوفيا ذعرت وأبعدته عنها. ولكي لا يراه أحد من أقرانها صعدت له عرشاً وأخفته في سحابة تحجبه عن الأعين، ودعت اسمه يلدابوث، فكان أول الأراكنة.

بعد أن شعر يلدابوث بقوته الذاتية، خرج من المكان الذي أودعته فيه أمه وجعل لنفسه فلكاً نارياً أقام فيه، فكان هذا الفلك أعلى طبقات العالم المادي الكثيف الذي سيظهر فيما بعد عن عالم الظلمات، ظلمات جهل أول الآلهة. ثم إن يلدابوث دعا اثني عشر فلكاً تحتية إلى الظهور، لكل فلكٍ ملاكٌ رئيس، تحته طبقة من الملائكة الثانوية تخدمه وتأتمر بأمره. كما جعل لكل من هؤلاء الملائكة الثانويين طبقة تحته، وتابع إظهار وتنظيم هذه المراتبية الملائكية حتى بلغ عدد الطبقات ثلاثمائة وستين طبقة. وعندما نظر يلدابوث إلى ما خلق من أفلاك قوة تحته، ابتهج وصاح قائلاً: أنا

الرب ولا إله غيري، إله غير (سفر الخروج ٢٠: ٣ وسفر التثنية ٩: ٥). ثم شرع يصنع السماوات والأرض بكلمته الخالقة، بالقوة التي ورثها عن أمه صوفيا. ولكن صوتاً جاءه من الأعالي ذليلاً: نُت مخطئ يا سمائيل (أي الأعمى)، لأن إنساناً كاملاً وخالداً ومستنيراً قد وُجد قسك. وسوف يأتي ويجل في جسد فيحطم مملكتك كما تُحطم الجرة الفخارية، ويحير كل نقص إلى كمال الحقيقة.

بعد أن اكتمل خلق سماوات والأرض، أطلَّ الأب الأعلى إلى الأرض في صورة الإنسان القديم فنعكس خياله على صفحة الماء، فرأها الأراكنة الرؤساء وقال بعضهم لبعض هم صنع الإنسان على الصورة التي رأياها ليعلمنا على الأرض. وهكذا جيلوا الإنسان الأرضي من التراب، على صورة الإنسان القديم السماوي التي تراءت لهم، ودعوه آدم. إلا أن الهيبة الطينية بقيت مسحاة بلا حراك، رغم كل ما بذله الأركنة لإحيائها. ولكن صوفيا، في رغبته لاسترجاع قوة الروح التي استمدها منها يلدابوث، أوحى إليه أخيراً أن ينفخ في أنف آدم بعضاً من الروح التي فيه، ولما فعل ذلك تحرك آدم وانتصب إنساناً تاماً ذا جسد مادي وروح سموي. وهنا غار رؤساء طمعت الملائكة الثانوية من آدم لأنهم تبينوا تفوقه عليهم فهماً وحكمة، فأرادوا قتله. ولكن يلدابوث أخذه وأسكبه في جنة عدن، ثم أرسل عليه سائناً وأخذ من أصلاعه واحداً صنع منه المرأة حواء. أمر يلدابوث آدم وزوجه أن يأكلا من ثمر الجنة كلها عدا ثمر شجرة المعرفة؛ وذلك خوفاً من أن تفتح عيونهما ويعرفا أصلهما النوراني في عالم الروح الأعلى. ولكن حواء عصت الأمر وحرصت آدم على العصيان الذي كان بمثابة الخطوة الأولى في سبيل تحرير الجنس الإنساني من حُجب الجهل التي فرضها يهوه. ولقد حقق الزوجان هذه الخطوة البطولية بمعونة الجنش (= ذكر الحية)، الذي يمش هنا مبدأ العرفان لا مبدأ الشر، والذي وهبهما المعرفة التي من خلالها وحدها يتم التخلص من سلطة يهوه ومن إفساد عالمه المادي. وعندما يبلغ سعي الإنسانية نحو خلاص أوجه، سوف يعود مبدأ العرفان ليظهر في هيئة المخلص يسوع المسيح، الذي سيرفع عن كاهل الناس لعنة الشريعة التي أبقتهم طويلاً في حجب الجهل، وينقذهم من صاحب هذه الشريعة ومن العالم الناقص الذي صنعه، عندها يكشفون الجوهر الحقيقي للروح.

خلاصة

لقد حلت الغوصية معضلة وجود الشر في العالم بطريقة مبدعة وحديثة على الفكر لديني، وذلك بابتكارها لفكرة الأب الأعلى مصدر العالم الروحاني عالم السور، والإله الأدنى خالق العالم المادي عالم الجهل والظلمة. فالكون المادي لم يُخلق كاملاً من قبل الله ثم دخله الشر من خارجه، كما هو الحال في المعتقد الرادشيتي، بل إن المادة هي الشر بعينه، ومصدر هذا الشر هو إله التوراة الذي وُلد صدفة من الأم صوفياً، ثم راح يخلق المادة ليقتنص فيها نور الأعالي ويحبس فيها أرواح الناس. ولكن هذا الإله وعالمه سيؤولان إلى الدمار عندما يتعرف لإنسان على النور الأسمى في داخله، وهي المعرفة التي تعتقه من دورة الميلاد والموت والتدسّخ في الأجساد. فالإنسان ليس خاطئاً منذ البداية ولكنه مأسور في حجاب الجهل، ولا فكاه له إلا بالعرفان، وهو النشاط الأسمى لنفس الإنسانية الراغبة في الانعتاق. إن العرفان لداخلي الذي ينير جنبات النفس هو الذي يجعل من صاحبه إنساناً طيباً وأخلاقياً، ودوماً حاجة إلى لوائح أخلاقية مفروضة من الخارج، لأن الشر هو الجهل والمعرفة هي الخير. أما الطقوس والعبادات الشكلية فليست في حقيقتها إلا حصوعاً لإله العالم المادي وتطبيقاً أعمى لشرائعه، بينما لا يتطلب الأب الأعلى من الإنسان سوى أن يعرفه ويتلمس مباح الخير في داخله، وهو ملتزم بتحليصه واستعادة روحه إلى بيتها الذي ضاع عنه، إذا استجاب لمداء رحمته.

مراجع الفصل:

- 1- J M. Robinson, ed, The Nag Hammadi Library, Harper, New York 1972.
- 2- Willis Barnstone, ed, The Other Bible, Harper, New York 1984.
- 3- Gnosticism, in L: Encyclopedia of Religion vol2.

الغوصية المانوية وشيطانية المادة

تحولت الغوصية على يد ماني إلى دين موسساتي دي عقيدة متماسكة واضحة للعالم، استقت من التيارات الدينية السائدة في عصرها وأثرت فيما تلاها. تقوم هذه العقيدة على مفهوم دينامي للتاريخ يطلق، كما في الزرادشتية، من وجود مبدأين كونيين متصارعين، يقود صراعهما حركة والتاريخ إلى نهاية محتومة. فمذ الأزل كان النور وكان الظلام، عالمان مفصلا ومستقلان ولكنهما متجاوران. وكان جوهر النور هو الحكمة وجوهر الظلام هو الجهل. وهذه هي المرحلة الأولى الكاملة من مراحل التاريخ، أو العصر الذهبي. ثم إن الظلام قد عدا على النور، فتقدم النور لصدده وإرجاعه، فاحتلقت عناصر النور بعناصر الظلمة وراحا يتصارعا. وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل التاريخ، مرحلة يوم الناس هذا. ولكن النور سوف يفتح في تخلص نفسه من الظلام خلال المرحلة الثالثة المقبلة، التي ستنتهي لا باستقلال النور عن الظلام فقط، بل بالقضاء عليه وتأسيس ملكوت النور النهائي. في هذه المعركة الدائرة الآن، يشارك الجنس البشري بكل قوته، سلاحه في ذلك العرفان الذي يحمر المبدأ النوراني الحبيس في الجسد المادي المنظم. وإلى أن يحين اليوم الأخير، فإن الأرواح العارفة التي اكتشفت طبيعتها كقيس من النور الأعلى، سوف تنضم إلى عالمها الذي نشأت عنه. بينما تبقى الأرواح الجاهلة في إसार دورة الميلاد والموت، وتتناسخ في أجساد جديدة ضمن هذا العالم المظلم.

وهكذا تستبدل المانوية المفهوم الزرادشتي عن تاريخ دينامي يشارك فيه الإنسان من خلال الإيمان والأخلاق، بمفهومها عن تاريخ يشارك فيه الإنسان من خلال العرفان.

من بين جميع الفرق الغنوصية، كانت المانوية الأوسع انتشاراً والأكثر دواماً. فلقد انتشرت شرقاً وغرباً انطلاقاً من بابل الموطن الرئيسي لمعهمها، وعاشت فترة زمنية مديدة تقدر بحوالي خمس عشرة قرناً، لا كمعتقد طائفي مقتصر على جماعة بعينها، بل كدين عالمي ومعتقد شمولي يتوجه إلى جميع بني البشر. وبذلك تقف المانوية في صف الديانات العالمية الكبرى في تاريخ الدين مثل الإسلام والمسيحية والبودية. إلى جانب حاذية المعتقد المانوي واحتوائه على عناصر شتى من كل المعتقدات الأقدم منها والمعاصرة له، فإن انتشار المانوية يمكن أن يعزى إلى ثلاثة عناصر رئيسية. أولها النشاط التبشيري المحموم الذي مارسه ماني شخصياً في كل بقعة من بقاع المشرق، وتابعه بعد ذلك حواريوه. وثانيهما التنظيم المؤسسي الدقيق للكنيسة المانوية التي كانت تتألف من مبشرين مندورين لمهامهم، وكهنة متفرغين ضمن سلسلة مراتبية مرسومة بدقة، ونخبة دينية تشبه فئة الرهبان البوذية، وعامة المؤمنين الذين يقدمون الدعم المالي والمعنوي للأجهزة الفعالة في المؤسسة الدينية. وثالثهما اعتماد ماني على الكتب الدينية التي تؤسس للعقيدة وتحفظها. فلقد كانت امانوية ديانة كتاب شأها في ذلك شأن اليهودية والمسيحية والبودية، وعمل ماني منذ البداية على وضع كتبه بنفسه وحفظها بقلمه، ثم حرص على نسخها وتداولها وحفظها في حالة جيدة، سواء من خلال المواد المستخدمة أم من خلال تقنيات الإنتاج العالية.

ورغم ما لحق بالمؤلفات المانوية من إتلاف متعمد على يد الخصوم خلال حملات الاضطهاد المتكررة والمتلاحقة، إلا أن عدداً لا بأس به من المخطوطات المانوية الأصلية قد اكتشفت سليمة في القرن العشرين، ومكتوبة بعدد من اللغات منها الإيرانية والتركية القديمة والصينية والقبطية واليونانية. وقد مكنتنا هذه المخطوطات من إجراء التقاطعات بين المصادر الأصلية، والمصادر غير المباشرة التي كان الباحثون حتى وقت قريب يعتمدون عليها وحدها. من أهم المصادر غير المباشرة ما كتبه القديس أوغسطين (حوالي عام ٤٠٠م) الذي كان مانوياً متحمساً قبل أن يتحول إلى

مسيحية، وما كتبه أفرام السرياني (حوالي عام ٣٧٠م)، وتيودور بن قوين (حوالي عام ٧٩٠م)، وما كتبه المؤلفون العرب من أمثال ابن النديم (القرن العاشر - م)، والبيروني (القرن الحادي عشر - م)، والشهرستاني (القرن الثاني عشر - م)^(١).

ماني

ينتمي ماني إلى أسرة إيرانية عاشت قرب مدينة طيسفون بمنطقة بابل، وكانت طيسفون في ذلك الوقت عاصمة الإمبراطورية الإيرانية، ومقرًا سنوك الأسرة البارثية ثم الساسانية من بعدها. جاء أبوه من منطقة همذان وتزوج من سادعوة مريم وهي سليلة أسرة نبيلة تتصل بأواصر القرى بالأسرة البارثية الحاكمة، ثم أقدم نزوجان في بلدة مرديسوس على حر كوثي الأعلى من منطقة بابل، وهناك ولد ماني وأمضى طفولته ومراهقته. وقد أكدت إشارات ماني المتفرقة هذه الرواية، ومنها قوله: «إني أنا الرسول الشكور المبعوث من أرض بابل» وأيضاً: «أنا البطسي الذي جاء من أرض بابل». وتعبير البطاسي هنا يدل على المهارات الطبية العالية التي تمتع بها ماني، فقد كان بطاسياً ماهراً قادراً على شفاء الأمراض المستعصية. يرجح الباحثون أن الاسم "ماني" هو من أصل سامي لا من أصل إيراني. أما الاسم "مانيخيوس" الذي عُرف به المعلم لدى اليونان، فهو تحوير لقبه الأرامي "ماني - حياه" أي ماني الحي. ومن ألقابه الأخرى الآرامية "مار-ماني" أي السيد ماني، ومنه جاء اسمه بالصينية "مور-موني".

ولد ماني عام ٢١٦ م، وترى على ملة أبيه، وهي طائفة غنوصية معمدنية يدعوها ابن النديم في كتابه الفهرست بالمغتسلة، وذلك نسبة إلى طقوس التعميد بالماء التي كانت تمارسها. وكان المغتسلة يلتزمون سلوكاً طهورياً بالغ الصرامة، إذ كانوا يمتنعون عن أكل اللحم وشرب الخمر ويفرضون على الممارسة الجنسية قيوداً شديدة. إضافة إلى هذه الخلفية الغنوصية التي اكتسبها ماني من طائفته هذه، ومن الطوائف الغنوصية الأخرى الناشطة في منطقته مثل المندعية والمرقيونية والديصانية، فقد اكتسب ماني الكثير من البيئة الثقافية البابلية التي كانت مفتوحة على شتى التيارات الدينية والفلسفية، وتلاقحت عندها الأفكار المسيحية واليهودية والزردشتية والهيلينية والهندية

١ انظر مراجعاً عن المانوية في نهاية الفصل.

والصبيية، إضافة إلى الثقافة الكلدانية المحلية التي تختصر التركة القديمة لبلاد الرافدين بأكملها. وهذا ما جعل من دياناته نموذجاً عن الديانة التوفيقية، التي تحتوي على الموروث بكل زحمه وتنوعه، وتتجاوز به بطريقة مبدعة تعبر عن عبقرية صاحبها وقوة شخصيته وتفوق تفكيره.

عندما بلغ ماني الثانية عشر من عمره هبط عليه الوحي (على ما يقول) من السماء عن طريق كائن نوراني يدعوه بـ "النوم"^(٢)، وهو القرين السماوي لدمي، فأمره أن يعتزل ملته ويظهر نفسه استعداداً لوحى الثاني الذي سيهبط عليه عندما يغدو قادراً على الدعوة والتبشير. في سن الرابعة وانعشرين أتاه التوم ونقل إليه وحي الرسالة كاملاً غير منقوص، ثم أمره أن يظهر ناساً ويبلغهم ما أمره الله تعالى بإبلاغهم. نقرأ في كتاب الفهرست للمؤلف العربي ابن النديم:

« فلما تمَّ له اثنتا عشر سنة أتاه الوحي، على قوله. من ملك حنان النور وهو الله (تعالى عما يقول). وكان الملك الذي جاءه بالوحي يسمى التوم، وهو بالنبطية ومعناه القرين. فقال له: اعتزل هذه الملة فلست من أهلها، وعديك بالنزاهة وترك الشهوات ولم يأن لك أن تظهر لحدائث سنك. فلما تمَّ له أربعة وعشرون سنة، أتاه التوم فقال: عليك السلام مني ومن الرب الذي أرسلني إليك واختارك لرسالته. وقد أمرك أن تدعو وتبشر ببشرى الحق من قبله وتحتمل في ذلك كل جهدك. فخرج يوم مَلَك شابور بن أردشير ووضع التاج على رأسه، وهو يوم الأحد أول يوم من نيسان والشمس في برج الحمل، ومعه رجالان قد تبعاه على مذهبه، أحدهما يقال له شمعون والثاني زكوا، ومعه أبوه بنظر ما يكون من أمره ... وقد زعم ماني أنه الفارقليط الذي بشر به عيسى بن مريم. واستخرج ماني مذهبه من المجوسية والنصرانية. والفلسم الذي كتب به كُتبه مستخرج من السرياني والفارسي».

ونقرأ في نص قبطي عن لسان ماني نفسه: « في هذه السنة نفسها، عندما كلن الملك أردشير على وشك التتويج، نزل الفارقليط^(٢٢) الحي وكلمي، وأباح لي معرفة

(٢) والكلمة من أصل سرياني وتعني التوم.

(٢٢) والكلمة مشتقة من الأصل اليوناني Para-Kaleo، الذي يجعل معنى التأيد والمعاونة، كما نلاحظ هنا الاختلاف بين النصين القبطي والعربي حول هوية الملك، وفيما إذا كان أردشير أم بنته شابور.

السر المحجوب بخصوص عبور وأحيال بني البشر، السر العميق والعالي، سر السور والظلام، سر الصراع والحرب الماحقة، وعلمي ما هو كائن وما كان وما سيكون». إن الفارقليط، أو البارقليط، المذكور هنا، هو الذي أشار إليه إنجيل يوحنا في أكثر من موضع، ويرد في الترجمات العربية تحت اسم "المعزي". نقرأ في الأصحاح ١٤: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا اطلب من الآب فيعطيكُم معزياً آخر ليملك معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يراه ولا يعرفه. أما أستم فتعرونه لأنه ماكن معكم ويكون فيكم». ونقرأ في الأصحاح ١٥: «ومنى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي منذ الابتداء». وبما أن الفارقليط هو التوأم والصورة العليا لماي، فقد دعا ماي نفسه بالبارقليط أيضاً، واعتبر نفسه متمماً لرسالة يسوع في صيغتها الأصلية التي لم يفهمها الرسل.

اعترف ماي بقيمة الديانات السابقة، ولكنه اعتبرها مؤقتة وغير كاملة. فلقد كشف كل من بوذا وزرادشت ويسوع عن حقيقة الدين، كل بما يناسب عصره والأرض التي ظهر بها والشعب الذي توجه إليه بلغته. أما ماي الذي دعا نفسه بخاتم الأنبياء، فقد جاء ليكمل رسالة هؤلاء ويطورها، لأنه يتوجه برسائله الجديدة إلى جميع بني البشر أياً كانوا وبأية لغة تحدثوا. وهو يصف هذا الطابع العالمي لتعاليمه فيقول: «كما أن نمرأ يرفد أحر لتكوين نيارد فق قوي، كذلك صبت الكتب القديمة في كني فشكلت حكمة كرى لا مثيل لها في الأجيال السابقة».

ويرد ما يتبته قول ماي هذا في كتب المؤلفين العرب. نقرأ في كتاب المغني للقاضي عبد الجبار: «وعندهم إن أول ما بعث الله تعالى بالعلم آدم، ثم شيئاً ثم نوحاً. وبعث زرادشت إلى أرض فارس، والبدة (= البوذا) إلى أرض الهند، وعيسى المسيح إلى بلاد المغرب. ثم ماي خاتم للنبيين». ونقرأ في كتاب الملل والنحل للشهرستاني: «واعتقاده - أي ماي - في الشرائع والأنبياء إن أول من بعث الله بالعمل والحكمة آدم أبو البشر، ثم شيئاً بعده، ثم نوحاً بعده، ثم إبراهيم بعده. ثم بعث بللدة إلى أرض الهند، وزرادشت إلى أرض فارس، والمسيح كلمة الله وروحه إلى أرض الروم والمغرب، وبولص بعد المسيح إليهم. ثم ياتي خاتم البين». ونقرأ في كتاب الآثار الباقية

للبيروني: « وكان ابن ديصان ومرقيون ممن استجابا وسمعا كلام عيسى وأخذوا منه طرفاً، ومما سمعا من جهة زرادشت طرفاً، واستنبط كل واحدٍ من كلاً القولين مذهباً يتضمن القول بقدوم الأصلين، وأخرج كل منهما إنجيلاً نسبته إلى المسيح وكذب ما عده. ثم جاء من بعدهما ماني، وكان قد عرف مذهب الجوس والنصارى والنووية، فتنبأ وزعم في أول كتابه الموسوم بالشابورقان أن الحكمة هي التي لم ترل رسول الله تأتي بها في زمنٍ دون زمن. فكان مجيئهم أي الحكمة والأعمال - في بعض القرون على يدي الرسول الذي هو البدّ إلى بلاد الهند، وفي بعضها على يدي زرادشت إلى أرض فارس، وفي بعضها على يدي عيسى إلى أرض المغرب. ثم نزل هذا الوحي، وجاءت هذه النبوة في هذا القرن الأخير عني يدي أنا ماني رسول الله الحق إلى أرض بابل ... وذكر ماني في إنجيله انه الفارقليط الذي بشر به المسيح، وأنه خاتم النبيين».

كتب ماني خلال حياته عدداً من المؤلفات يربو على العشرة، إضافة إلى بعض الرسائل القصيرة، وكتاب مصور يشرح فيه عقيدته من خلال رسوم فحمة أعدها بنفسه. وفيما عدا كتاب الشابورقان الذي ألفه بالفارسية وأهداه إلى الملك الساساني شابور، فإن بقية كتبه قد حُطّت باللغة والقلم الآرامي الشرقي. وكنت الآرامية في ذلك الوقت لغة الكتابة والقراءة بين متعلمي ذلك العصر وأداة التخاطب الديبلوماسي. وهذا ما أمّن للمانوية انتشاراً واسعاً لم يكن لأية لغة أخرى أن تؤمنه. لم يبق من كتب ماني التي نعرف عناوينها فقط إلا شذرات عثر عليها بشكل خاص في طوران بأسيا الوسطى وفي الفيوم بمصر. ولكن مقاطع مطولة من هذه الكتب قد وردت في مؤلفات القديس أوغسطين وابن النديم. هذه الشذرات الأصلية والمقاطع المنقولة، تكشف لنا عن مدى اطلاع ماني على ثقافة عصره. فلقد درس بالتأكيد الأناجيل الأربعة ورسائل بولس الرسول وغيرها من أسفار العهد الجديد، القانونية منها والمنحولة. وكان مطلعاً على الأسفار التوراتية المنحولة وعلى رأسها كتاب أخنوخ الأول وكتاب أخنوخ الثاني. ولم يخف إعجابه بتوما الرسول الذي توجه للتبشير في مناطق الهند، فكانت رحلته التبشيرية الأولى تتبع خطاً ذلك المبشر العظيم. إضافة إلى هذا التراث المسيحي واليهودي، فقد كان ماني مطلعاً على الزرادشتية في شكلها الأصلي وفي أشكالها

متأخرة. وخلال رحلاته التبشيرية المبكرة نحو الشرق حثك بالعديد من الثقافات الشرقية، واطلع بشكل خاص على بوذية المهايانا.

بعد أن تلقى ماني الأمر بالتبشير، دعا إلى ديه هسه لأقربين فاستمال والده وأعضاء بارزين في أسرته، ثم شرع في رحلته التبشيرية لأون نحو أطراف الهند ومناطق آسيا الوسطى، آملاً في استمالة الجيوش المسيحية التي تكتتها بعثة توما الرسول، فوصل إلى إقليم السند ثم إلى إقليم بلوخيستان وإقليمي مكرن وطورفان. ولعل أهم ما أنجزته حملة ماني التبشيرية الأولى هذه هو استمالة ملك صرون وحاشيته، فاعتق الملك اتانوية وجعلها ديناً للمملكة بدلاً عن البوذية. ثم بقدر لرحلة ماني الشرقية أن تدوم طويلاً، فلقد قرر الرجوع إلى موطنه بعد أن سمع بوفاة الملك أردشير وصعود ابنه شابور إلى العرش. وفي طريق عودته مر بإقليم ميسر الذي يحكمه مهرشاه أخو شابور، فدخل عليه مبشراً بديانته. وهنا تروي الأخبار السنوية أن ماني دخل على مهرشاه وهو في بستانه الذي كان حديث الناس جمانه وكثرة شجاره ومائه وحسن تنظيمه، فقال له مهرشاه: هل يوجد في لمردوس الذي تنفخ به بستانا كبستاني هذا؟ فلما سمع ماني هذا أراه بقوة الحارقة الملأ الأعلى وجعله يشتم نسيم الحياة الأبدية، وأراه بقعا من الفردوس السماوي وأشياء أخرى مما يمكن رؤيته هناك، فسقط الرجل على الأرض مغشياً عليه مدة ثلاث ساعات. ثم وضع الرسول يده على رأسه فأفاق وسجد عند قدمي ماني معلناً إيمانه. تبين لنا هذه الحادثة الجانب الآخر من شخصية ماني. فقد كان طبيباً ماهراً يعالج الجسد بالعقاقير والروح بطرد الشياطين منها. وكان صاحب معجزات تتراوح بين شفاء الأمراض المستعصية ورفع الأرواح إلى السماء ساعة يشاء. وقد عرج هو نفسه إلى السماء وفق إحدى الروايات ليتلقى الوحي الإلهي هناك.

أدرك ماني أن دعوته لن يقيض لها النجاح دونما سند سياسي قوي من أعلى سلطة في البلاد، فاتصل بالقصر الملكي وحاور الأمراء والنبلاء فاستمال فريقاً منهم، وبينهم أخو الملك المدعو فيروز الذي حصل لماني على الإذن بالدخول على شابور، فمثل أمامه وقدم له كتابه المعروف بالشابورقان، نسبة إلى الاسم الملكي. عن هذه المقابلة الحاسمة في حياة ماني يتحدث ابن الدم في المهرست فيقول: « وحوّل ماني في

البلاذ قبل أن يلقي شابور. ثم إنه دعا أخا شابور بن أردشير فأوصله إلى أخيه شابور، فدخل إليه وعلى كتفيه مثل السراجين من نور. فلما رآه أعظمه وكبر في عينيه، وكان قد عزم على الفتك به وقتله، فلما لقيه داخلته له هيبة وسرٌّ به وسأله عما جاء فيه، فوعده أنه يعود إليه. وسأله ماني عدة حوائج منها أن يُعزَّز أصحابه في البلاد وسائر بلاد مملكته، وأن يُقنِّدوا حيث شاؤوا، فأجابته شابور إلى جميع ما سأل. وكان ماني قد دعا الهند والصين وأهل خراسان، وخلف في كل ناحية صاحباً له. «ويروي ماني نفسه عن هذه المقابلة قائلاً: «مثلت أمام ابنك شابور فاستقبلني بحفاوة كبيرة، ووافق على أن أتجول في البلاد وأن أبشر برسالة الحياة. وأمضيت بعد ذلك عاماً بين حاشيته». وقد بلغ من تقرب شابور لماني أنه اصطحبه في حملته الكبرى ضد الروم من أجل استعادة النفوذ الفارسي في آسيا الصغرى. فدنس ماني إلى جانبه، علي ما يذكره المؤلف اليكسندر ليكوبوس (وهو من فلاسفة الأفلاطونية المحدثة) في رده على المانوية.

كانت سموات العلاقة الطيبة مع شابور بمائة الفترة الذهبية للدعوة المانوية. فقد تم خلال هذه الفترة تأسيس الكنيسة المانوية وتنظيمها وفق هيكل مراتبي دقيق تتألف من خمس طبقات. في الطبقة الأولى العليا هناك الحواريون أو الرس وعندهم اثنا عشر رسولاً، وفي الثانية الأساقفة وعندهم اثنان وسبعون، وفي الثالثة الكهنة وعندهم ثلاثمائة وستون، وفي الرابعة المختارون وعندهم غير محدد لأنه يتوقف على عدد المؤمنين الراغبين في التحلي عن الدنيا والالتزام بالقواعد السلوكية والأخلاقية الصارمة الخاصة بالكهنوت المانوي، أما الطبقة الخامسة والأخيرة في السلم فتضم عامة المؤمنين. ومن مقر إقامته في طيسفون بعث ماني بحوارييه ينشرون الدين في الجهات الأربعة، ولاقت دعوته نجاحاً كبيراً في سورية ومصر وآسيا الصغرى، كما دخلت عقر دَر الإمبراطورية الرومانية في أوروبا. وباتجاه الشرق تجاوز المبشرون المانويون آسيا الوسطى إلى أطراف الصين. وتولى ماني بنفسه حملات تبشيرية عديدة مؤسساً جماعات جديدة من الأتباع أي رحل، تاركاً بين أيديهم نسخاً من كتبه وخصوصاً إنجيله المندعو بالإنجيل الحمي. وكان يتناهى بالقول بأن كُتب من سبقوه من أصحاب الرسالات الروحية دونت بعد وفاتهم وبهد خفائهم، أما هو فقد دون كتبه بنفسه. وعنى حد وصف أحد المراجع المسيحية المعاصرة له، فقد كان ماني يُشاهد بين الناس مرتدياً سروالاً عريضاً لونه أصفر مائل إلى الاخضرار وعباءة خضراء مائلة نحو الزرقاء، وبهد

عصا من الأبنوس، وتحت إبطه الأيسر كتاب بابلي (أي مكتوب بالآرامية). عن هذا النشاط وثائقه كتب ماي يقول: « لقد وصل أملي - أي الكيسة المانوية - إلى مشارق الأرض ومغاربها، شماليها وجنوبها. وهذا ما لم يحدث لأي داعية من قبلي ».

لقد بدا للبعض أن المانوية سوف تغدو الديانة الرسمية للإمبراطورية الفارسية، وذلك بسبب دعم القصر الملكي وتعاونيه. إلا أن الملك شابور رغم ميله الضمني لمسيحي ومعتقديه، كان يدرك قوة «تقاليد الزرادشتية المحافظة، ويعهم دوره الرسمي كوصي على تراث الأحيال. يضاف إلى ذلك أن طبقة المجوس كانت تفقد في ذلك الوقت حركة واسعة النطاق تهدف إلى جمع وتدوين الأدبيات الدينية الزرادشتية بروح قومية متعصبة، وتعمل جاهدة على مقاومة المند المانوي من خلال تنظيم كنيستها الخاصة وإحياء معابد النار في كل مكان. وبذلك بدت المواجهة الحاسمة بين الطرفين محتومة، ولم يؤخرها سوى مقدرة الملك شابور على الإمساك بخيوط اللعبة بكل حذق ومهارة. ولكن وفاة هذا العاهل الحكيم في عام ٢٧٣ ميلادية قد قلب ميزان القوى فجأة، وأخذ المجوس يتهيأون للتخلص من ماني.

خلف شابور ابنه هرمز الأول الذي اتخذ موقفاً ودياً من ماني، ولكن هرمز هذا ما لبث أن توفي بعد عام واحد فقط من توليه السلطة وخلفه أخوه بهرام، الذي كان شاباً ضيق الأفق لا يعرف من أمور الحكم سوى الرياضة والقنص، ويعطي أذناً صاغية لدسائس الكهنة المجوس. سمع ماني بوفاة هرمز بينما كان يزور بعض الجماعات المانوية عند حوض نهر الدجلة الأسفل، وفي نيته أن يتابع رحلته شرقاً. وبينما كان يتفكر فيما يتوجب عليه فعله وصله أمر مكي بالعودة إلى العاصمة. وهنا تصف لنا النصوص القبطية الأسابيع الأخيرة من حياة ماني. فلقد عاد المعلم مبحراً في نهر دجلة حتى طيسفون. وعندما وصل كان المجوس قد وضعوا أمام الملك عريضة ادعاءاتهم ماني بالتحريض ضد العقائد والآلهة الإيرانية وإفساد عقول العباد. ولكن بهرام لم يكن فعلاً بحاجة إلى مثل هذه العريضة لأنه اتخذ قراراً مسبقاً بإيقاف الداعية الخطر عند حده، فلما مثل ماني أمامه لم يكن مهتماً فعلاً بالاستماع إلى أقواله والموازنة بينها وبين دعاوي متهمية، فلم تدم المواجهة سوى وقتاً قصيراً اقتيد بعدها المعلم إلى السجن. عن

هذه المقابلة العاصفة التي حضرها الكاهن الاكبر قيودير عدو ماني اللدود، نقرأ في إحدى الوثائق القبطية الوصف التالي:

« أتى ماني لمقابلة الملك هرام. وكان الملك جالساً إلى مائدة الطعام. فدخل عليه رجال من بلاطه وقالوا له: لقد أتى ماني وهو حاضر عند الباب. فأرسل الملك إلى مولانا أن يثريث حتى يستطيع القدوم إليه. فجلس مولانا إلى جانب الحارس حتى غسل الملك يديه لأنه كان عازماً على الذهاب إلى الصيد، ثم جاء وهو يضع إحدى ذراعيه على كتف الملكة والأخرى على الكاهن قيودير، وخاطب مولانا قائلاً: لا مرحباً بك. ورد عليه مولانا قائلاً: لماذا؟ هل ارتكبت أي ذنب؟ فقال الملك: لقد أقسمت أن لا أدعك تبقى على هذه الأرض. ثم انفجر غضباً وخاطب مولانا قائلاً: عجيباً، ما الحاجة إليك؟ فأنت لا تشارك في الحرب ولا في مطاردات الصيد. قد تكون مفيداً في الطب وتركيب العقاقير. ولكن حتى هذه لا تحسبها. فأحابه مولانا: لم أفترب بحقلك أي ذنب. لقد قدمت لك ولأسرتك الكثير من الفوائد، وحررت أعداداً كبيرة من عبيدكم من الشياطين والأرواح الشريرة، وأقمت كثيرين من فراش المرض فشفيتهم، وخلصت آخرين من الحمى.. أما الذين كانوا على حافة الهلاك واعدتهم إلى الحياة فأكثر من أن يُحصوا ».

بعد أن تابع ماني تعداد ما أفاض عليه المسكان السابقان من حماية ورعاية، ختم خطابه قائلاً: والآن افعل بي ما تراه. فأمر الملك بتقييد ماني، فوصعت ثلاث سلاسل حديدية حول يديه وثلاثة أخرى حول عقيقه وواحدة حول رقبته، وأُخذ إلى السجن حيث أمضى ستة وعشرين يوماً كان خلالها قادراً على رؤية حواريه والتكلم معهم، لأن نظم السجن الفارسية كانت تسمح بمثل هذه الإجراءات. ولكن جسده الذي أضعفه الصيام والأغلال الثقيلة، كان يخور تدريجياً وهو ينقل تعاليمه الأخيرة التي تكمل العقيدة والشرعة المانوية، وما لبث طويلاً حتى أسلم الروح. عند ذلك أمر الملك أن يعزز مشعل محترق في جسد ماني ليتأكد من موته، ثم قطع رأسه وعلقه فوق بوابة المدينة. وبذلك تقرر مصير واحد من أعظم أصحاب الرسائل الروحية من قبل منك عُمرُ ألفي المحاكمة المصرية خلال الوقت الفاصل بين غسل يديه عقب الطعام والانطلاق إلى الصيد، ولم ير في ماني الكهل إلا رجلاً لا يصلح للحرب ولا للصيد.

ولكن السلطة قد تنال من جسد المفكر وتعمل به ما تشاء، أما أفكاره فتطير في كل مكان ولا يمكن اصطياها بشخص أو إسقاطها بسهم. ولقد عاشت المانوية أكثر من ألف عام بعد وفاة معلمها رغم أنف كل سلطة غاشمه.

المعتقد

إن العقيدة التي بشر بها ماني هي شكل من أشكال الغنوصية السورية البابلية. ولكن ماني قد تجاوز الحدود الضيقة للغنوصية فأسس لديانة شمولية تقوم على موروث غنوصي بالدرجة الأولى وموروث زرادشتي ومسيحي ويهودي، إضافة إلى العديد من التيارات الدينية والفلسفية الأخرى. إن توجه هذه الديانة إلى جميع بني البشر ونهجها التبشيري الإنساني يجعل منها ديانة عالمية توحيدية بكل امتياز.

تتفق المانوية مع الغنوصية في نقطتين رئيسيتين، الأولى هي أن العالم شر ومحكوم بالقوى الشريرة، ولثانية هي أن العرفان لا الإيمان هو الذي يقود إلى خلاص الروح. فروح الإنسان هي قبس من النور الأعلى ومن جوهر الله، ولكنه قبس جيبس في سجن المادة. ثم تسير المانوية أبعد من ذلك عندما ترى أن العرفان الفردي يساهم بشكل فعال في عملية الخلاص الكونية التي يقودها الأب النوراني الأعلى، من أجل انتصار النور الطيب على الظلام الخبيث، وتحرير عناصر النور التي اختلطت بعناصر الظلمة. وهنا تلتقي المانوية مع الزرادشتية في التأكيد على مفهوم الثنوية. فهي تقول بوجود أصليين أو مبدئين هما النور والظلام. ولكن بينما ترى الزرادشتية أن النور قدم والظلام حادث، فإن المانوية ترى أن النور والظلام أزليان ومتساويان في القدم ولكنهما ليسا متساويين في الأبد، لأن الظلام يسير نحو التلاشي والنور يحتل مواقعته تدريجياً عبر مراحل التاريخ الثلاثة التي كشفها الأب النوراني لرسوله، في انقطاع الذي اقتبسناه آنفاً: «وأباح لي معرفة السر المحجوب بخصوص عدد وأحيال البشر. السر العميق والعالي، سر النور والظلام، سر الصراع والحرب الماحقة. وعلمني ما هو كائن وما كان وما سيكون».

في المرحلة الأولى السابقة على الخلق والتكوين كان الأصلان مستقلين ومفصلين عن بعضهما. وعلى حد ما أورده ابن النديم فإن: «مبدأ العالم كونان،

أحدهما نور والآخر ظلام، كل منهما منفصل عن الآخر. فالنور هو العظيم الأول، وهو الله ملك حنان النور... وذلك الكون النير مجاور للكون المظلم لا حاجز بينهما. فلا نهاية للنور من فوقه ولا يحته ولا يسرته، ولا نهاية للظلمة من سفليها ولا من يمتتها ولا من يسرها. ومن الأرض المظلمة كان الشيطان الذي ليس أزلماً بعميه رغم أن عناصره كانت أزلية». وعلى حد ما أورده الشهرستاني في الملل والنحل: «ولم يزل النور يؤكّد ملائكة لا على سبيل المكافحة بل كما تتولد الحكمة من الحكيم والمنطق الطيب من الناطق. وملك ذلك العالم هو روحه، ويجمع عالمه الخير والحمد والنور. كما أن الظلمة لم تنزل تولّد أراكنة وعفاريت، لا على سبيل المكافحة بل كما تتولد الحشرات من العنونة القذرة. وملك ذلك العالم هو روحه، ويجمع عالمه الشر والدميمة والظلمة».

في المرحلة الثانية، وهي مرحلة الخلق والتكوين وما تلاها إلى يوم ناس هذا، امتزجت الظلمة بالنور وتصارع الأصول القديمة. يقول الشهرستاني: «ثم اختلفت المانوية في المزاج وسببه، والخلاص وسببه. قال بعضهم إن النور والظلام مترجا بالخيوط والاتفاق لا بالقصد والاختيار. وقال أكثرهم إن سبب المزاج أن أسدان للظلمة تشاغل عن روحها بعض التشاغل، فنظرت الروح فرأت النور فبعثت الأبدان على مازجة النور، فأجابتها الأبدان لإسراعها إلى الشر. فلما رأى ذلك ملك النور وجّه إليها ملاكاً من ملائكته. فاحتلّطت الأجناس النورانية بالأجناس الظلامية... فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملاكاً من ملائكته فخلق هذا العالم على هذه الهيئة، لتتحلص أجناس النور من أجناس الظلمة». كما نقرأ لابن النديم في أمر الامتزاج وخلق العالم: «فلما تكوّن هذا الشيطان من الظلمة تسمى إبليس القديم. ثم راح هذا الإبليس يتحرك بمنة ويسرة وإلى الأسف. ولما رام العلوم رأى لمحات النور فأعد نفسه وتسليح استعداداً للانقضاض على مملكة النور من أسفلها. فعلم به ملك حنان النور واحتال لقهره. كان جنوده قادرين على قهر إبليس، ولكنه أراد أن يتولى ذلك بنفسه فأولد مولوداً هو الإنسان القديم^(١) وتذبذبه لقتال الظلمة.. فتدبر الإنسان القديم

^(١) وهو ابن الإنسان في الفكر المنحول، والإنسان الكامل أو القسم في الفكر الغنوصي.

الأجناس النورية الخمسة وهي: السيم والريح والنور والماء والنار، واتخذهم سلاحاً وانحط بسرعة إلى مكان إبليس وعمد إبليس إلى أجناسه الظلامية الخمسة وهي: الدخان والحريق والظلمة وسُموم والسم، فتدرعها ولقي الإنسان القديم فاقتتلوا مدة طويلة. ولكن إبليس ظهر على الإنسان القديم وبلغ من نوره وأحاط به مع أجناسه وعاصره. ولكن ملك حنا النور أرسل وراءه نجدة من قوى عالم النور خلصت الإنسان القديم وأسرت من رُواح الظلمة ... وحدث لما شابك إبليس القديم بالإنسان القديم باخارية: أن حنط من أجزاء النور الخمسة بأجزاء الظلمة الخمسة».

« فلما احتلط الأجناس الظلمية الخمسة بالأجناس النورية، نزل الإنسان القديم إلى عور العمق فقطع أصول الأجناس النورية لتلا تزيده، ثم انصرف إلى موضعه من الناحية الحربية فأمر بعض الملائكة باحتذاب ذلك المزاج إلى جانب من أرض الظلمة يلي أرض النور، فعلقوهم العلو. وبعد ذلك أمر ملك عالم النور بعض ملائكته بخلق هذا العالم وسائه من تلك الأجزاء الممتزجة، من أجل تخليص أجناس النور من أجناس الظلمة، فبنى عتبر سماوات وثمانى أرضين ووكّل ملاكاً بحمل السماوات وآخر برفع الأرضين، وجعل حول هذا العالم حديقاً يُطرح فيه الظلام الذي يستصفي من النور. ثم خلق الشمس والقمر لاستصفاء ما في العالم من النور. فالشمس تستصفي لور الذي امتزح بشياطين الحر، والقمر وسائر النجوم تستصفي النور الذي امتزح بشياطين البرد».

حلال هذه الفترة الثانية، يمارس الإنسان دوراً فعالاً في عملية الفصل بين النور والظلمة ودفع التاريخ إلى مرحلته الثالثة، مرحلة استقلال النور عن الظلمة والقضاء على إبليس. يقول ابن السيم: « وما يعين في التخليص والتمييز ورفع أجزاء النور، التسبيح والتقديس والكلام الطيب وأعمال البر، فترتفع بذلك الأجزاء النورية في أعمال عمود الصبح (- درب البحرة) إلى فلك القمر. فلا يزال القمر يقبل ذلك من أول الشهر إلى النصف، فيمتلئ فيصير بدرًا، ثم يؤدي إلى الشمس حتى آخر الشهر. فتدفع الشمس إلى نور فوقها في عالم التسبيح، فيسير في ذلك العالم إلى النور الأعلى الخالص، ولا يزال يفعل ذلك حتى لا يبقى من أجزاء النور شيء في هذا العالم».

عندما تحل المرحلة الثالثة يكون معظم النور المحتبس في المادة الضلامية قد عاد إلى أصله، ولم يبق في هذا العالم سوى ندر يسير، تأتي نهاية العالم. يقول الشهبستراني: «حتى إذا لم يبق من أجزاء النور في هذا العالم إلا قدر يسير منعقد لا تقدر الشمس ولا القمر على استصفائه، يرتفع الملاك الذي يحمل الأرض، ويدع الملاك الذي يجذب السماوات، فيسقط الأعلى على الأسفل. ثم توقد ناراً حتى يضطرم الأعلى والأسفل، ولا تزال تضطرم حتى يتحلل ما فيها من النور. وتكون مدة الاضطرام ثلثاً وأربعمئة وثمانية وستين سنة». ويقول ابن الدم: «وهكذا فأجزاء النور أبداً في صعود والارتفاع، وأجزاء الظلمة أبداً في النزول والتسفل، حتى تتخلص لأجزاء من الأجزاء، فيبطل الامتزاج وتحل التراكيب ويصل كل إلى كله وعالمه، وذلك هو القيامة والمعاد». وأيضاً: «إذا انقضى التدبير ورأت روح الظلمة خلاص النور وارتفاع الملائكة والجنود والحفظة رامت القتال، فيرحلها الجنود من حواريها وترجع إلى قبر أعد لها ثم يسد على ذلك بصخرة تكون مقدار الدنيا، فتتم حينئذ الرحلة من الظلمة وأذاها».

أما عن مفهوم الخلاص، وهو المفهوم المركزي في المعتقد مانوي، فيرتبط بأسطورة خلق الإنسان التي نستطيع إعادة بنائها اعتماداً على شذرات من التصوص المانوية، وعلى مصادر أخرى غير مباشرة. فعندما رأى الشيطان حطة الله في استصفاء النور المحتبس في المادة الضلامية؛ جهر حطة معاكسة لاحتباس مريد من النور في نسيج المادة بواسطة الجسد السري، الذي تتألف أعضاؤه من المادة بينما تتركز الأنوار بكثافة فائقة في روحه. فعهد إلى أركونين من أراكنته باستيلاء الزوجين الأولين آدم وحواء اللذين تجمع فيهما جزء كبير من النور المحتجز في الأسفل. ولكن الإنسانيين الأولين كانا غارقين في سبات الجهل غير مدركين لوميض النور في داخلهما. فلما رأى الله ما فعل الشيطان أشفق على الإنسان، فأرسل إلى آدم وحواء يسوع السوراني (وهو غير يسوع الأرضي الذي بعث رسولاً فيما بعد) ليزودهما بالعوص (=العرفان) ويفتح أعينهما على حقيقة الروح المحتجزة والمتألمة في سجن المادة ويظهر لهما أصلهما المزدوج. ثم أرسل الله إلى نسل آدم وحواء رسلاً يحملون لهم المعرفة المخبرة وهم: شيت ونوح وأخوخ وشيم وأبراهام وبوذا وزرادشت ويسوع وبولس وأخيراً ماي.

ذلك أن الجهل عند المانوية، كما هو عند الغنوصية بشكل عام، هو الذنوب وهو الخطيئة، والخلاص لا يتم إلا بالمعرفة الداخلية المحررة.

إن الروح العارفة التي حققت الاستنارة وأدركت أصلها النوراني، سوف تنفك من إसार دورة الميلاد والموت، وتصعد عبر عمود الصبح إلى القمر ومعه إلى الشمس فلدى النور الأعلى، تاركة جسدها إلى الأبد في عالم المادة الظلامية. وعندما تصل حدود النور تخرج لاستقبالها عذراء سماوية رائعة هي تجسيد لعرفان الفرد ولعمله الصالح، ووراءها ثمانون ملاكاً مزينين بالورود يأخذون بيد الروح العارفة ويقودونها إلى جنة النور لتذوق السعادة الأبدية هناك. وأما الروح الجاهلة الراسفة في أغلال المادة فلها تبقى في إसार دوره التاسخ حتى نهاية الدهر. وعقب كل موت يأتيها ملائكة العذاب فيؤخونها ويذكرونها بأفعالها السيئة ثم يذيقونها أصناف العذاب، وتترك بعد ذلك لتتقمص في جسد جديد. وهكذا فمن تقمص إلى آخر حتى قيام الساعة. عندما تقترب الساعة وتأتي عملية استشفاء النور إلى نهايتها، تحدث كوارث طبيعية في كل مكان، ثم يظهر مخلص واحد يدعى ميثرا المزيف وهو المخلص الدجال، وآخر هو ميثرا الحقيقي الذي يقود الحرب العظمى الأخيرة بين قوى النور وقوى الظلام، والتي تنتهي بالنصر المؤرر للنور. عند ذلك يجتمع المؤمنون المبعثرون، ويتم تجديد المعبد وإفاد الكتب المقدسة، ويقوم ملكوت الرب على الأرض، وهو ملكوت يحكمه يسوع المسيح لفترة قصيرة من الزمن قبل أن يلتحق بالعالم النوراني. بعد ذلك تنطبق السماء على الأرض، وتندلع نيران في كل مكان تبقى مضطربة حتى تُرفع بقية ذرات النور نحو الأعلى، ويموت الجميع وتنفى أجسادهم، أما أرواحهم فتبعث إما إلى نعيم وإما إلى جحيم. أما الشيطان وزبانيته فيجمعون في كتلة سوداء هي بقية المادة الظلامية، ترمى في أعماق حفرة كونية هائلة ويُسد عليها بحجر ضخم.

الأخلاق والعبادات

أورد الشهرستاني مقطعاً مقتضباً حول الأخلاق والعبادات المانوية قال فيه: «وقد فرض ماني على أصحابه العُشر في الأموال كلها، والصلوات الأربع في اليوم والليلة، والدعاء إلى الحق، وترك الكذب والقتل، والسرقه، والزنا، والبخل، والسحر،

وعباداة الأوثان، وان يأتي على ذي روح ما يكره أن يوتى إليه بمثلته». غير أن المصادر الأخرى تعطينا مزيداً من التفاصيل حول هذه النقطة. فالأخلاق والعبادات المانوية ليست واحدة بالنسبة لجميع فئات الكنيسة. لقد ذكرنا في حديثنا عن مراتبية كنيسة ماني أنها تتألف من أربع فئات رهبانية وفئة خامسة تشتمل على عامة المؤمنين. يدعى أهل الفئات الرهبانية بالمجتهبين أو الصديقين، ويدعى أهل الفئة العريضة الخامسة بالسماعين. وتختلف قواعد السلوك والعبادات المفروضة على المؤمن المانوي تبعاً لانتماهه إلى إحدى هاتين الشريحتين. وبشكل عام ينتمى الصديقون من الشريحة الرهبانية خمس وصايا سلوكية وأخلاقية هي:

١ - طهارة الفكر واللسان. فلا يتداول العقل إلا الأفكار الحسنة ويتبتعد عن الأفكار والعواطف السيئة كالخسد والصغينة وما إليها، ولا يصدر عن اللسان إلا الصدق وكلام الحق.

٢ - التزام اللاعنّف تجاه الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات. فلا يقتل الصديق حيواناً ولا يقطع شجرة ولا يحرق ثماراً أو يحصد غلالاً.

٣ - الامتناع عن أكل اللحم وشرب الخمر والتزام الغذاء النباتي. ومما أن تحضّر الأغذية النباتية يتضمن خطيئة مباشرة بحق الحياة النباتية، فإن الصديقين يعتمدون على السماعين في هذه المهمة ولا يمارسونها بأنفسهم. وعندما تُقدم الأغذية النباتية إلى أحد الصديقين من أحد السماعين يقبلها منه ويصلي من أجله لكي تُغفر خطيئته. وقبل تناول الخبز يقول: لم أحصدك ولم أطحنك ولم أخبزك، بل فعل ذلك شخص آخر، لذا أتناولك دون إثم.

٤ - العزوف عن الزواج وعن المعاشرة الجنسية، من أجل معاكسة خطة الشيطان في حبس مزيد من النور في كثافة المادة عن طريق المواليد الجدد. يضاف إلى ذلك أن المانويين اعتقدوا أن السائل الحيوي في الرجل يحتوي على قدر كبير من النور المركز، فكانوا حريصين على عدم تسرب هذا النور إلى الخارج.

٥ - الفقر وعدم امتلاك أي شيء من متاع الدنيا.

إن الصديقين وحدهم هم المؤهلون للخلاص والانعقاد من دورة تناسخ الأرواح، في حال التزامهم بالوصايا وتفرغهم لحياة الزهد والتأمل التي تقود إلى

العرفان. وبما أن نخط الحياة هذا يحول بينهم وبين أداء كل ما هو عملي، فقد كان على السماعين مساندتهم بالطعام والشراب والكساء وكل ما يلزمهم للتفرغ لمهامهم الروحية. وسيكون أجر المحسن منهم أن يتقمص في حسد صديق في تناسخه المقبل. وقد أحل ماني لشريحة السماعين معظم ما حرمه على الصديقين. فقد أباح لهم أكل اللحم والزواج والإنجاب ودراسة النشاطات العملية اللازمة لاستمرار الحياة الاجتماعية والاقتصادية. وفرض عليهم خمس وصايا سلوكية وطقسية هي:

- ١ - مراعاة عشر قواعد سلوكية أهمها الامتناع عن الزنا والإخلاص الزوجي، والتزام اللاعنف تجاه الكائنات الحية.
- ٢ - تأدية الصلوات لأربعة في كل يوم، وهي صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة المغرب وصلاة العشاء. وتسبق الصلاة عممية الوضوء.
- ٣ - تنحية العُسر من أموالهم يُنفق على الفقراء ولدعم حياة الرهبة التي يعيشها الصديقون.
- ٤ - الصيام يوم الأحد من كل أسبوع، وصيام الشهر المقدس كل سنة، وهو الشهر الذي يسبق العيد الكبير المدعو بيما.
- ٥ - ممارسة الاعتراف بالخطايا كل يوم اثنين أمام الكاهن. وهناك اعتراف جماعي يتلى في العيد الكبير لغفران خطايا الجماعة المانوية.

انتشار المانوية

انتشرت مانوية في سورية خلال حياة ماني، ومنها انطلقت إلى مصر حيث تشكلت جماعات مانوية قوية التأثير في الحياة العامة والسياسية. كما دانت إمارة الحيرة العربية بالمانوية عندما اعتنق ملكها عمر بن عدي ديانة ماني، وصار من أشد المدافعين عنها خلال فترة حكمه التي امتدت من سنة ٢٧٠ إلى سنة ٣٠٠ ميلادية. ومن الحيرة خرجت بعثات تبشيرية إلى جزيرة العرب، على ما يروي الجغرافي العربي ابن رسته، فوصلت حتى مكة واستمالت بعض أهلها. بينما يروي المؤرخ ابن قتيبة أن بعض القرشيين قد أحصروا هذه البدعة، كما يسميها، إلى ديار العرب. من مصر انتشرت المانوية إلى شمال أفريقيا وإلى أسبانيا. كما عبرت سورية إلى آسيا الصغرى واليونان

والثريا وإيطاليا وبلاد الغال، وجميع هذه المناطق كانت من أصفاع الإمبراطورية الرومانية. ولقد رأت رومة في المانوية بدعة إيرانية، وفي أتناعها نوعاً من الطابور الخامس الذي يعمل لصالح العدو، فابتدأ الاضطهاد المنظم للمانويين منذ عهد الإمبراطور ديوقليان الذي أصدر مرسوماً يقضي بإحراق جميع المؤلفات مانوية أنى وجدت، وقتل المانويين ومصادرة أملاكهم.

ونحو الشرق توطت المانوية في المناطق الهندية القريبة من إيران منذ حملة ماني التبشيرية الأولى، واعتنق ملك طورغان المانوية وجعلها ديانة رسمية للدولة. وبعد وفاة ماني حمل حواريوه المعتقد وتوغلوا به شرقاً فصارت مدينتي سمرقند وطشقند الحاضرتين الرئيسيتين لإقليم الصفد بمثابة قاعدة انطلاق للحملات التبشيرية على طول طريق الحرير وصولاً إلى الصين، حيث دخل المبشرون البلاط الصيني وشرحوا معتقداتهم للإمبراطور. وحوالي عام ٧٦٠ م صارت المانوية الديانة الرسمية لمملكة أوغور الصينية الحدودية، التي كانت تسيطر على أجزاء كبيرة من مناطق آسيا الوسطى. وبعد انهيار المملكة بعد قرن من الزمان استمرت العقيدة المانوية في الصين من خلال جماعات سرية حتى القرن الرابع عشر.

ولكن الاضطهاد الذي وقع على المانوية من قبل رومة أولاً ثم الكنيسة المسيحية ثانية فالخلافة العباسية، قد أدى إلى أھوها التدريجي حتى تلاشت تماماً مع مطلع العصور الحديثة.

خلاصة

تعتبر المانوية بحق نموذجاً كاملاً عن ما أسميناه في مطلع هذا البحث بالثوية المطلقة. فعالم النور وعالم الظلام أصلان قديمان أزليان ومستقلان عن بعضهما البعض. وعلى حد قول فارست تلميذ ماني في حوارهِ مع القديس أوغسطين: «إني أبشر أن هالك عنصرين رئيسيين هما الله والمادة. فأعزوا كل ما هو شرير إلى المادة، كما أعزوا كل حير إلى الله». وبذلك يحل المعتقد المانوي مشكلة وجود الشر في العالم بطريقة أكثر جذرية من بقية المعتقدات الثوية. فالله ليس مسؤولاً بشكل مباشر أو غير مباشر عن وجود الشر، لأن هذا الشر قد نجم عن المبدأ الثاني المستقل. فلا الشيطان أنبعث

عن الرحمن كما هو الحال في نشوء الزرادشتية، ولا هو مخلوق من قبل الرحمن ثمرد وعصى عليه كما هو الحال في النشوء الأخلاقية.

ورغم تأكيد مربي عيسى الأخلاق الاجتماعية وتوسيعه مفهوم السوء الأخلاقي ليشتمل على علاقة الإنسان بجميع مظاهر الحياة، إلا أن هذه الأخلاق لا تقوم في حد ذاتها إلى الخلاص، متممة لا يفود الإيمان إليها. وإنما هي وسيلة تطهير من شأنه تخصيص النفس لتحقيق العرفان. وهو الطريق الوحيد بالاعتقاد.

مراجع الفصل

- 1- Geo Widengren , Mani and Manichaenism , New York 1965.
- 2- Gherardo Gonoli , Mani - Manichaenism , in: Encyclopedia of Religion , vol.9.
- 3- Robert Haurdt , Mani and Manichaenism , in: The Other Bible , chapter 9.

- ٤ - جيو وديغرين: ماني والمناوية، ترجمة د. سهيل زكار، دار حسان. دمشق ١٩٨٥.
- ٥ - ابن النديم: الفهرست، تحقيق د. ناهدة عباس عثمان، النوحة ١٩٨٥، فصل للثانية ص ٦٤٤.
- ٦ - الشهرستاني: الملل والنحل، دار المعرفة بيروت، المجلد الأول، الباب الثالث، الفصل الثاني.

الكاثاريّة

وغنوصية القرون الوسطى

انتشر في أرمينيا في وقت مبكر، شكل من المسيحية غير الأرثوذكسية، على يد مشر يهودي مسيحي قدم من أورشليم يدعى عاديا. وقد بشر عاديا بعقيدة تقول بأن المسيح ليس ابن الله بل كائناً بشرياً تبناه الله وحمل منه ابناً له. ثم تطور ضمن هذه العقيدة تويح آخر يقول بوجود إلهين أعلىين لا إله واحد، الأول هو الأب السماوي الأعلى، والثاني هو خالق هذا العالم. وعندما تأسست الكنيسة الكاثوليكية عام ٣٠٢ م وصارت كنيسة رسمية للدولة، تم تصنيف هذه المسيحية الأرمنية في زمرة الهرطقات الكبرى. ومرار الوقت وازدياد ملاحقة واضطهاد الفرق الغنوصية والمرقبونية، توافد إلى أرمينيا عدد كبير من أتباع هذه الفرق هرباً بعقائدهم، وشكلوا تدرجياً، مع أتباع عقيدة التبي، مذهباً ذا مسحة غنوصية مسيحية عُرف بالمذهب البولسي. إلا أن أباضرة بيزنطة تابعوا الضغط على هذه الجماعات وعملوا على تشريدتها وتطهيرها، فبرز فريق منهم إلى البلقان وبلغايا، وهناك تلافحت أفكارهم مع أفكار جماعات محلية غير أرثوذكسية، ونجم عن ذلك مذهب قوي آخر عرف بمذهب لبوجوميل.

يقول البوجوميل بثنوية معتدلة لا تجعل من الشيطان إلهاً مستقلاً، بل تجعله ابناً لله خرج على طاعته وعصاه. فهم يؤمنون بإله واحد أعلى هو الإله المسيحي لطيب صانع كل ما هو خير وحسن. ويعتقدون بأن هذا الإله الطيب قد ألجب ابنه البكر لوسيفر، الذي يعني اسمه "حامل الضياء"، نظراً لشدة بريقه ولمعانه. إلا أن لوسيفر هذا عص أباه وسقط من المستوى الروحاني الأعلى. بحض إرادته الحرة التي وهبه إياها

أبوه. وصار اسمه ساتانا -- إيل، أي الشيطان. والبوجوميل إذ يتبنون قصة التكوين التوراتية، فإنهم يعزونها إلى الشيطان لا إلى الله. فقد خلق الشيطان بعد عصيانه السماوات والأرض، انطلاقاً من المادة القديمة المتمثلة بالمياه الأولى التي كان روح الله يرف فوقها.

مع حلول القرن لعاشر الميلادي كان البوجوميل قد وطفوا أنفسهم في أوروبا الوسطى، ثم بدأوا بهجوم عقائدي معاكس على مناطق بيرنطة، فكان هم جماعات سرية في كل مكان تقريباً من آسيا الصغرى والمناطق الأخرى للإمبراطورية البيزنطية، ثم توجهوا نحو شمال إيطاليا حيث شكلت جماعات قوية منهم كنيسة جديدة خلال القرن الحادي عشر دعيت بالكنيسة الكاثارية. ومن إيطاليا انتشرت الكاثارية غرباً وتوطدت بشكل خاص في الجنوب الفرنسي، حيث عاشت في حرية مطلقة وصنعت ثقافة راقية تعد من أرفع ثقافات العصور الوسطى الأوروبية.

من بين الفرق الغنوصية التي عبرت المهن وعاشت حتى القرون الوسطى، كانت الفرقة الكاثارية أكثرها نجاحاً وانتشاراً، وأندرها خطورة على الكنيسة الرسمية من أية هرطقة أخرى. تركز الكاثاريون بشكل خاص في مقاطعة Lanuedoc في الجنوب الفرنسي، فيما بين مدينة بودو شمالاً وسفوح البيرينه على حدود إسبانيا جنوباً. ولم تكن هذه المقاطعة في مطلع القرن الثاني عشر جزءاً من فرنسا، بل منطقة مستقلة بلغتها وثقافتها ونظامها السياسي، يحكمها عدد من الأسر النبيلة برئاسة كونت تولوز وعائلة ترانسفال القوية. صم هذه المنطقة الواسعة التي تضم عشرات المدن من بينها ألي ومونبلييه وتولوز ومرسيليا، نشأت ثقافة كثارية متميزة كانت الأكثر تطوراً في الغرب المسيحي بعد بيزنطة. فقد انتشر فيها التعليم، ونشطت التيارات الفكرية والفلسفية المختلفة، وعلا شأن الشعر والشعراء، وتعلم الطلاب اللغات اليونانية واللاتينية والعربية والعبرية، وتأسست مدارس للفكر الصوفي لإيروتي في مثل القابالا وغيرها. وكان النبلاء يراعون هذه النشاطات ويشاركون فيها، في الوقت الذي لم يكن فيه نبلاء الشمال قادرين على كتابة أسمائهم. ونظراً لقرب المنطقة من مركز الإشعاع الحضاري في الأندلس، فقد جاءها تأثيرات عربية مباشرة، سواء عن طريق الموانئ التجارية أم عبر جبال البيرينه.

دعيت هذه الهرطقة الوسيطية بالكاثارية Catharism نسبة إلى Cathari التي تعني نقي أو طهور. كما دعيت - لألبينية نسبة إلى مدينة ألبين Albin وهي المركز الرئيسي لانتشارها في جنوب فرنسا. وقد ربط معاصروها بينها وبين الهرطقات الأسبق مثل الأريوسية والمرقيونية وذنوبية. ورغم أن الكاثارية قد صارت إلى ما يشبه العقيدة الرسمية لمجتمع ونظام سياسي، إلا أنها لم تشكل كنيسة دينية بالمعنى المسيحي أو المانوي، ولم تتحول إلى أيديولوجيا دينية مصاغة في قالب منمط، بل كانت تضم عدداً من الطوائف التي يتبع كل منها مرشداً روحياً ويتكئ باسمه. ورغم اختلاف هذه الطوائف في تفاصيل معتقد والممارسة، إلا أنها تتفق جميعاً حول عدد من مبادئ العقيدة، وعلى رأسها العرف وتناصح الأرواح والثبوتية الكونية.

رفض الكاثاريون المؤسسة الدينية كوسيط بين الله والناس وكمفسر لوحي الكتاب. كما رفضوا مفهوم الإيمان واستبدلوه بمفهوم العرفان الداخلي الذي يؤدي إلى الانعتاق من دورة التناسخ. وقد استتبع ذلك عندهم رفض فكرة المسيح المخلص المتجسد، ورفض المضمون الخلاصي لواقعة الصلب، والصليب كرمز لخلاص الإنسانية. بل لقد رأوا في الصليب رمزاً لأمير الظلام حاكم العالم المادي والعدو الأول لمبدأ الخلاص، ورأوا في كنيسة رومة تجسيدا لسلطان أمير الظلام على العالم. ومع ذلك فقد اعتبروا أنفسهم المسيحيين الحقيقيين، واعتقدوا بمسيح سماوي لم يتجسد في إنسان، لأن الجسد الإنساني ينتمي إلى عالم المادة المظلمة صنعة الشيطان، ومن غير الممكن للمسيح أن يلبس جسداً ويبقى مع ذلك ابناً لله.

لا يقف المعتقد الثبوتي للكاثارية عند حدود الثبوتية الأخلاقية المسيحية، بل يتعداه إلى ثبوتية كونية تتخلل جميع مظاهر الوجود، نقيضها مبدآن متصارعان على كل صعيد، المبدأ الأول روحاني جوهره الحب والمبدأ الثاني مادي جوهره القوة. الأول هو الله والثاني هو الشيطان. وبما أن الخلق والتكوين هو عمل من أعمال القوة لا من أعمال الحب، فإن العالم المادي في اعتقادهم قد صعبه الشيطان، ملك الدهر وأمير هذا العالم. من هنا فإن المادة بجميع أشكالها شر، بما في ذلك جسد الإنسان. فبعد أن انتهى أمير الظلام من صنعها، العالم وجاء إلى صنع الإنسان، وجد نفسه غير قادر على بث الحياة في جسد الزوجين الأولين، فعمد إلى اصطلياد روحين ملائكتين من الأعالي وسجنهما في الهيئة المادية التي صنع، فنهض أمامه آدم وحواء بشراً سوياً بجسد ظلامي

وروح نورانية. ولما كان ملك العالم راغباً في مزيد من احتباس الروح في المادة الكثيفة، فقد أغوى آدم وحواء وزين طما الفعل الجسسي الذي يقود إلى التكاثر. فكانت خطيئة الإنسان الأصلية.

ولكن الإنسان قادر على إزالة أثر الخطيئة الأصلية من خلال التعرف على أصله النوراني ومقاومة كل تأثير للعالم المادي عليه. وهو في سعيه لتحرير روحه إنما يشارك في الوقت نفسه بالجهد الخلاصي الكوني، الذي يهدف إلى القضاء على تمسكة الشيطان. غير أن سعي الإنسان هذا يبقى قاصراً دون مدد من الأب النوراني الأعلى، الذي تتعرج بالعطف نحو ملائكته الساقطة المحبوسة في أجساد بشرية مادية، وغمر للإنسان خطيئة الأصلية التي ارتكبها جهلاً لا احتيافاً، فأرسل الله المسيح لمساعدتهم على خلاص، كما أمدهم بالروح القدس لتوجيههم وتعليمهم. هذا المسيح الابن ليس كلمة الله المتجسدة في بشر. ولم يكن له جسم مادي رغم ترائيه للناس في هيئة وشكل، بل كان أشبه بحضور ملائكي منظور ومسموع. ولهذا لم يكن له أن يُصلب أو يموت أو يعاني الآلام الأرضية، رغم أنه قد تألم في الأعالي من أجل الإنسانية وتعاطف معها. وهذا أيضاً لا يستطيع الإنسان أن يلتمس المسيح في الكنائس لأنها ليست بيتاً له، بل يتمسك في هيكل النفس ويطلب عونه على الخلاص بالمعرفة. وعندما تنصر الإنسانية على الشيطان وتخلص من ريقته، فإن هذا الانتصار من يتوج ببعت الأجساد التي تعود للاتحاد بأرواحها، بل بتدمير الجسد مع ما يتم من عالم الشيطان في نهاية الأزمان، التي تشهد السيادة النهائية للعالم الروحاني بعد فناء العالم المادي وقهر صانعه.

تختلف ثنوية المعتقد الكاثاري عن ثنوية البوجوميل المعتدلة، في النظر إلى طبيعة تناقض المبدأين. فالتناقض بين المبدأين لدى الكثرارية هو تناقض مطلق وتعارضهما أزلي، لأنهما مبدأان مستقلان ومنفصلان أصلاً، ولم يشأ أحدهما عن الآخر. والكاثارية في ذلك أقرب إلى المانوية من أي معتقد غنوصي آخر. فالحيار الحر لم يكن النسب في سقوط الشيطان وانفصاله عن الرحمن، لأن الشيطان كان موجوداً في استقلال قديم ولم يكن للرحمن في أي وقت سلطان عليه، رغم أنه سبّح حرسه تدريجياً ضده في نهاية الأزمان. وكما لم تكن الحرية سبباً في سقوط الشيطان، فإنها لم تكن أيضاً سبباً في سقوط الإنسان، ولن تكون مفيدة في خلاصه. فالإنسان قد سقط عنوة في إسار الشيطان، ولن يتحرر من هذا الإسر حتى وإن اختار الوقوف إلى جانب

الخير وقاوم الشر. بل يتوجب عليه أن يمر في دورات تناسخ عديدة، يعمل خلالها على تكميل معرفته وتطهير روحه في عالم المادة، الذي هو الجحيم بعينه ولا جحيم غيره. هذا التطهير التدريجي يتم عن طريق رفض العالم رفضاً كلياً ونبذ الشروط التي تجعل الوجود الإنساني ممكناً. وهذا يعني الامتناع عن الزواج والمعاشرة الجنسية التي تؤدي إلى الإيجاب، والامتناع عن كل الحيوان لأنه نتاج عملية التناسل المادية، وعدم تملك أي شيء من متاع الدنيا وممارسة الزهد والتقشف إلى أبعد حد ممكن. وعلى النسطاق الأخلاقي، على الكاثاري التزام الصدق وحسن معاملة الآخرين، وعدم إيذاء جميع الكائنات الحية.

ولما كان هذا النهج عسيراً على كل الناس، فقد انقسم الكاثاريون على طريقة المتويعين إلى شريحتين، الأولى شريحة رهبانية مبدورة للخلاص القريب، هي فئة الكاملين التي تلتزم السلوكيات والأخلاقيات الكاثارية بخداها، وتتعرض للتألم والمعرفة الباطنية، والثانية هي فئة سواد المؤمنين التي تمارس حياتها الاعتيادية وتتبع سلوكيات وأجلاق كاثارية أقل صرامة، وتدعم شريحة الكاملين وتقبل توجيهها الروحي، على أمل الالتحاق بهؤلاء الكاملين في حيوات وتناسخات مقبلة. وبما أن الانتماء إلى جماعة الكاملين متاح أمام الجميع ولم يجد في نفسه القوة الروحية اللازمة، فإن باب السماء قريب ومفتوح لكل من يشاء اختصار دورة الحياة والموت والإسراع إلى الأبدية. يتم قبول المريدین الجدد إلى جماعة الكاملين بعد طقس إدخالي خاص يؤمن عبور المريد من عالم ملدت الدنيا القانية إلى عالم متع الروح الصافية. ومن أهم فقرات هذا الطقس عملية التعميد الروحي التي تتم بوضع يد الشيخ على رأس المريد. بعد فترة اختبار تدوم عاماً كاملاً، يكشف الشيخ للمريدين المقبولين عن التعاليم السرية للعقيدة المخفية عن عامة الناس، ويغدو هؤلاء أعضاء عاملين في سلك الرهبة الكاثارية.

حوالي عام ١٢٠٠ م، شعرت البابوية الكاثوليكية بأن المقاطعة الكاثارية في فرنسا وجيوبها المتفرقة المتفقة في معظم أرجاء العرب المسيحي، باتت تشكل خطراً حقيقياً عليها. فأعد البابا الحملة العسكرية دعاها بالحملة الصليبية الألبانية، ووجهها إلى جنوب فرنسا عام ١٢٠٩. كان قوام الحملة ثلاثين ألفاً من الفرسان والمشاة اتخذوا من الشمال الأوروبي كإعصار نحو مقاطعة الكاثارية. وكان أجرحهم ما يحصلون عليه من أسلاب وغنائم إضافة إلى صك غفران ومكان لهم في الجنة. أحرق الصليبيون

الجدد الأرض ومسحوا المدن الآمنة فسووها بالتراب وأنفوا سكانها عن بكرة أبيهم تقريباً. ففي مدينة Beziers وحدها جرى قتل خمس عشرة ألف نسمة بين رجل وطفل وامرأة، ناهيك عن عدد القتلى في عشرات المدن ومئات القرى. ويروي أحد مؤرخي تلك الحملة أن قائدها سائر يمثل البابا لديه عن الكيفية التي يميز بها الهراطقة من غيرهم في المدن المفتوحة قبل إعمال السيف فيهم، فأجابه: اقتلهم جميعاً واترك لله أن يميز رعيته بينهم. وقد أرسل هذا الممثل البابوي في تقريره إلى الخمر الأعظم يقول: إن السيف لم يميز ضحاياه تبعاً للسن أو الجنس أو المكانة الاجتماعية. ولكن هذه الحملة الألبينية الأولى لم يقدر لها أن تنتهي بسرعة رغم النجاحات التي حققها المحجمات الأولى، وذلك بسبب المقاومة العنيفة التي أظهرها الكاثاريون وتراجعهم نحو المناطق الوعرة والصعبة والحصون المنيعه. وكان على جيش لبابا أن يحارب مدة أربعين سنة أخرى، في كروفر وعلى فترات تطول وتقصّر. وذلك حتى عام ١٢٤٤ عندما سقطت مدينة Monstegur وكانت آخر معقل كاثري. وبذلك تم محو أهم وأرقى ثقافة قروسطية عن الحارطة الأوروبية المظلمة.

لم يندثر الفكر الكاثاري عقب زوال الحضارة الكاثارية في جنوب فرنسا، بل اتخذ أشكالاً جديدة، وجمته إلى العصور الحديثة حركات سرية تسمت بأسماء شتى منها: The Brothers of The Free Spirit, The Hussites, The Waldensians, The Anabaptists The Camisard. وقد بقي نشاط الفرقة الأخيرة فاعلاً حتى القرن الثامن عشر وكان لها وجود قوي في لندن. هذا ويتابع بعض مؤرخي عقائد الهراطقة تأسخ العقيدة الكاثارية، فيعززون إليها تشكيل جماعة فرسان المعبد المعروفة في الحروب الصليبية على الشرق العربي، كما يعززون إليها تشكيل طوائف الصليب الوردي التي مازالت تعلن عن وجودها اليوم في المدن الأمريكية الكبرى وفي معظم العواصم الأوروبية، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمخالف الماسونية.

مراجع الفصل:

- 1- Michael Baigent, The Holy Blood and the Holy Grail, Jonathan cape, London 1982.
- 2- Cathari, in: Encyclopedia of Religion vol. 1
- 3- Gnosticism, in, Encyclopedia of Religion. Vol.2

أمير هذا العالم الشیطان في اللاهوت المسيحي

لم يبشر يسوع بآله جديد بل كان طاهر تعاليمه يشير على الدوام إلى إله العهد القديم. ومع ذلك فقد أحدث انقلاباً داخل المؤسسة الدينية اليهودية أعظم أثراً من كل ما فعله الفكر المحول والفكر الغنوصي اليهودي على حد سواء. لقد أسس لعهد جديد بين الله الحقيقي وجميع بني الإنسان، بين الآب السماوي وجميع أبنائه من البشر، وألغى العهد القديم عهد يهوه مع بني إسرائيل. فإله يسوع هو الألوهة السرمدية فيما وراء الزمن، وهو خالق العالم وصانع التاريخ. هو المتعالي ولكنه مرتبط مع لعالم والإنسان برابطة الحب، وملتزم بحلاص العالم والإنسان منذ اللحظة التي دخل الشر فيها نسيج العالم الحسن والطيب. هو الحق والعدل. الخير ومنبع الخير. واحد ولا ثلثي له. وهو فوق كل شيء إله أخلاق يأمر بها ويكافئ عليها. ولا يطلب من الإنسان سوى الإيمان والعصم الطيب، وهما المرتكزان الرئيسيان للعقيدة المسيحية.

لما كانت أهم صفات الله في علاقته بالعالم هي الحق والخير والعدل، وجميعها تنفي مسؤولية الآب السماوي عن وجود الشر في العالم، فقد لجأ المعتقد المسيحي إلى حل هذه المعضلة عن طريق تنبيه لجواب قديم في صيغة جديدة، وذلك بابتكاره لأول مرة مفهوم الثنوية الأخلاقية التي تجعل للشيطان سلطاناً على الحياة النفسية والاجتماعية للإنسان من دور بقية مظاهر الكون. هذه السلطة التي اكتسبها الشيطان منذ غوايته الأولى للإنسان، قد أطلقت تاريخاً دينامياً يسير عبر ثلاث مراحل إلى نهاية محددة، ينتهي عندها الزمن والتاريخ وتدخل البشرية في الأبدية. كل ذلك يجري وفق خطة

خلاصية أعدها الآب من البدء، وهو يسير بها الآن حتى نهايتها، لأنه: « هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية » - إنجيل يوحنا ٣: ١٦.

قبل أن نعلم إلى شرح مفهوم التاريخ ومراحلها في اللاهوت المسيحي، سوف نتوقف عند المعلومات المتفرقة في أسفار العهد الجديد عن مشأ الشيطان وتأسيسه لمملكة الظلام والنشر وعن مصيره المرتقب.

الشيطان في الأناجيل

لا تقدم لنا أسفار العهد الجديد رواية متسقة ومضطردة عن مشأ الشيطان، لأنها اعتمدت على لاهوت للشيطان كان الفكر المحوّل قد نسجه ببطء، حتى صار جزءاً من العقيدة الشعبية والرسمية في فلسطين. من هنا فإن معظم الإشارات التي أوردتها مؤلفو هذه الأسفار تلمّح إلى ما كان السامع أو القارئ يعرفه ويألفه، مع إضافتها لظلال وألوان جديدة على تلك الصورة المألوفة.

فالشيطان ليس كائنًا شريرًا فحسب، وإنما هو صاحب مملكة للشر تسود في هذا العالم. وقد قارن إنجيل متى بين مملكة الشيطان هذه ومملكة الله التي ستبنى على أنقاضها بظهور يسوع المخلص. فعندما رأى القريسيون أن يسوع يُخرج الشياطين من أجسام الجانين قالوا: « هذا لا يُخرج الشياطين إلا ببعل زبوب رئيس الشياطين. فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم: كل مملكة تنقسم على نفسها تخرب. فإن كان الشيطان يُخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته، فكيف تُنت مملكته ؟ ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله » - متى ١٢: ٢٤-٢٨. وللشيطان سلطان على هذا العالم قد دُفع إليه مؤقتاً وهو يتصرف به كيما يشاء. فعندما أخذ الشيطان يسوع إلى البرية ليجره أربعين يوماً، ثم يمس من الإيقاع به، أحده إلى جبل عال وأراه جميع ممالك الدنيا وقال له إن سلطان هذه الممالك ومجدها قد دُفع إليه يتصرف بها ويعطيها لمن يشاء، فإن سجد له وهبه سلطة على العالم. نقرأ في إنجيل لوقا: « ثم أبعده إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان. وقال له إبليس: لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن، لأنه إليّ قد دُفع وأنا

أعطيه لمن أريد. فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع. فأجابه يسوع وقال: اذهب يا شيطان إنه مكتوب لرب تسجد وإياه وحده تعبد « لوقا ٤: ٥ - ٨.

بسبب هذا السلطان الذي لإبليس على العالم، فقد دعاه إنجيل يوحنا برئيس هذا العالم. ولكن رئاسته تتضعع مع مجيء يسوع وستنتهي في يوم الدينونة: « الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً. وأنا إن ارتفعت عن الأرض أُجذب الجميع إليّ » - يوحنا ١٢: ٣١. ودعاه بولس الرسول بإله هذا الدهر، لما له من سلطان على المرحلة الثانية من مراحل التاريخ: « ولكن إن كان إنجيلنا مكتوماً، فهو مكتوم في الهالكين، الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين لغلاً تضییء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح » - ٢ كورنثة ٤: ٣-٤. وأطلق عليه بولس أيضاً وعلى زبانيته لقب سلاطين وحكام الظلام: « لبسوا سلاح الله الكامل لكي تقفروا أن تثبتوا ضد مكاييد إبليس، لأن مصارعتنا ليست مع كائنات من لحم ودم بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر » - إفسس ٦: ١١-١٣.

أما عن الاسم "الشيطان" فهو من الجذر العبري "شَطَن" الذي يتضمن معنى المقاومة والمعاندة. وعن الاسم الآخر "إبليس"، فهو من الأصل اليوناني "ديابولوس" الذي يعني المستسكي زوراً. ومن هذا الأصل اليوناني أيضاً جاءت كلمة Devel أي الشيطان، في اللغة الإنكليزية ولغات أوروبية أخرى. ويدعى أيضاً بالثتين وبالخبية القديمة (رؤيا يوحنا ١٢: ٩)، وبالأسد الزائر (بطرس ٥: ٨)، وبالكذاب وأبو الكذاب (يوحنا ٨: ٤٤)؛ وببعل ربوب رئيس الشياطين (متى ١٢: ٢٤). ويستخدم بولس في بعض رسائله الاسم المعروف لدينا من الأسفار التوراتية المنحولّة، وهو بئيعال: « لا تكونوا تحت نير مع غير المؤمنين لأنه أية خلطة للبر والإثم، وأية شركة لسوء مع الظلمة، وأي اتفاق للمسيح مع بئيعال » ٢ كورنثة ٦: ١٥.

يتحد الشيطان من النفس الإنسانية والمجتمع الإنساني مجالاً رئيسياً لنشاطه. يشبهه بولس الرسول بأسد يزأر على الدوام باحثاً عن فريسته: « اصحوا واسهروا، إبليس خصمكم، كأسد رائر يجول ملتصقاً من يبتلعه. فقاوموه راسخين بالإيمان » - ١ بطرس ٥: ٨-٩. وهو يرسل زبانيته لتسكن في أجساد الناس وتسبب لهم أعراض

الصرع والخنون (متى ٩ : ٣٤ و ١٢ : ٢٤ . مرقس ٩ : ١٧-٢٧). وهو يجرب الناس ليوقعهم في الخطيئة، سواء بشخصه أم من خلال زبانيته (١ تسالونيكي ٥ : ٣، ١ كورنثة ٥ : ٧) جاعلاً منهم مقاومين لله ذاته (أعمال ٥ : ٣). وهو روح رهيب بحيله ووساوسه وخدعه (٢ كورنثة ٢ : ١١ . افسوس ٦ : ١١ . تيموس ٣ : ٧ و ٦ : ٩)، يتخذ زي ملاك النور (٢ كورنثة ١١ : ٤). وهو وراء الخطيئة الأصلية (رومه ٥ : ١٢ و ٧ : ٧)، ومنذ أن أخضع آدم وحواء لسلطة فقد أخضع الجنس البشري لصولته الظالمة (افسوس ٢ : ١-٣). في ظل هذا الوضع على الإنسان أن يختار بين الله وإبليس، بين المسيح وبلعاع (٢ كورنثة ٦ : ١٥)، بين الحق والشرير (١ رسالة يوحنا ٥ : ١٨). لأن الإنسان في اليوم الأخير سيرتبط مصيره إلى الأبد مع هذا أو ذاك، فالمرء من يهزم إبليس بالتحاده بالمسيح بالإيمان (١ افسوس ٦ : ١٠)، وكذلك بالصلاة التي تساندها صلاة يسوع : « أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيقتك كما في السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفاف أعطنا كل يوم، واغفر لنا خطايانا لأننا نحن أيضاً نغفر لكل من يذنب إلينا، ولا تدخلنا في التجربة، لكن نجنا من الشرير » انجيل متى ٦ : ٩ - ١٣.

إن من يختار الله ومسيحه يكون واثقاً من الانتصار، ولن يهزم إلا من يقبل الهزيمة (يعقوب ٤ : ٧ افسوس ٤ : ٢٧). فلقد حققت قيامة المسيح هزيمة إبليس بالفعل، ولكن المعركة لن تنتهي تماماً إلا عند آخر مشهد من مشاهد تاريخ الخلاص، وذلك في يوم الرب عندما يبيد المسيح في قدومه الثاني كل قوة وراثسة وسلطان لإبليس، ويسلم الملك للآب (١ كورنثة ١٥ : ٢٤-٢٨). وهذا يقدم لنا سفر الرؤيا، آخر أسفار العهد الجديد، صورة شديدة الحيوية والتأثير عن حرب هاية الزمن بين ملائكة والشياطين : « وحدثت حرب في السماء. ميخائيل وملائكته حاربوا التنين، وحارب التنين وملائكته ولم يقووا، فلم يوجد مكانهم بعد ذلك في السماء. فطُرح التنين العظيم، الحية القديمة المدعو إبليس والشیطان الذي يضل العالم كله، طُرح إلى الأرض وطرحت معه ملائكته، وسمعت صوتاً عظيماً قائلاً في السماء : الآن صار خلاص إلحنا وقدرته وملكه. . ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء معه مفاتيح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده، فقبض على التنين الحية القديمة، الذي هو إبليس والشیطان،

قيده ألف سنة وطرحه في خنوية واغلق عليه، وختم عليه لكي لا يُضل في الأمم في ما بعد» - سفر الرؤيا مقاطع من الأصحاحين ١٢ و ٢٠.

أما عن أصل الشيطان ونشأته، فإن الإشارات المقتضبة في الأسفار تسج على منوال الفكر المنحول. فاشياطين هم ملائكة عصوا وأخطأوا، على ما نفهمه من رسالة بطرس الثانية: «لأنه إن كان الله لم يشفق على ملائكة قد أخطأوا، بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم وسلمهم محروسين للقضاء، ولم يشفق على العالم القديم.. الخ» ٢ بطرس ٢: ٤-٥. وفي رسالة يهوذا نقرأ: «والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم، حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام» - ٦. هؤلاء ملائكة الساقطون هم أتباع إبليس الذين تبعوه بعد عصيانهم وصاروا ملائكة له بعد أن كانوا ملائكة العلي: «ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذ يجلس على كرسي مجده... ثم يقول للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي لثرتوا الملكوت المعد لكم.. ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته». متى ٢٥: ٣١-٤١.

هذه هي أهم المعلومات التي يمكن استخلاصها من العهد الجديد عن الشيطان ومملكته ودوره ونهايته. وهي غير كافية من أجل إعادة بناء لاهوت واضح عن هذه الشخصية، رغم كبر الأهمية التي أسبغت عليه باعتباره رئيس أو إله هذا العالم، والشخصية الثانية في دراما الخلق والحياة الإنسانية وصيرورة التاريخ. ذلك أن مؤلفي أسفار العهد الجديد كانوا يتوجهون إلى مؤمنين نشأوا في بيئة مطلعهم تمام الاطلاع على أسفار التوراة وعلى الأسفار المنحولة، ولديهم فكرة عن لاهوت الشيطان الذي أسست له أدبيات ما بين العهدين. غير أن انتشار المسيحية خارج بيئتها الأولى وبين جماعات ذات خلفيات دينية وثقافية مغايرة ومتباينة، صار التزاماً على العقيدة المسيحية أن تتقدم بلاهوت منسقة ومتكاملة عن الشيطان. وذلك في السياق العام لعقيدة التكوين ومراحل التاريخ ونهاية الزمن. وهذا ما ابتدأت به المسيحية منذ أيام القديس أوغسطين، وساهم به تدريجياً عدد من كبار المفكرين المسيحيين، إلى أن صار للمسيحية معتقدها الناجر والمستقل عن لاهوت التوراة واللاهوت المنحول على حد

سواء، رغم انطلاقها من هذين المصدرين. وهذا ما سخصص له ما تبقى من هذا الفصل.

أ - السرمدية، أو ما قبل التاريخ

« في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان » - إنجيل يوحنا ١: ١-٢.

منذ الأزل لم يكن سوى الله. وجود مكتمل في ذاته غير مخلوق. جوهره النور، نور غير مخلوق مختلف عن النور المخلوق الذي ظهر فيما بعد، إنه نور المجد. وكان هذا الوجود بطريقة غامضة وسرية ثلاثة في واحد في ثلاثة، هم الآب والابن - الكلمة والروح القدس. منذ الأزل كان الآب يصدر عن الآب والروح القدس يصدر عنهما معاً، فهم تالوث مجيد وإله واحد، عندما يتأمل العقل هذه السرمدية السابقة للحقيقة، يصعب عليه تكوين صورة صادقة عن الحقيقة الواحدة المتلثة، لأن الابن - الكلمة لم يكن قد تمسّد في يسوع، ولم يكن الروح القدس قد هبط على شكل حمامة نارية معلماً بوه يسوع للآب، ثم تابع حضوره الفعال في توجيه البشيرة نحو الخلاص. ولأن الكلمة قبل تجليه على الأرض في لحظة معينة في التاريخ، كان اللوغوس أو صوفيا التي هي حكمة الله والتي بواسطتها سيتم خلق العالم فيما بعد. وكان له شبه إنسان، وعلى هذه الصورة المثلى للإنسان الكامل السماوي سيتم خلق الإنسان الأرضي.

منذ عصور لا بداية لها كان الابن موضع حب الآب ومسرته، وكان الروح القدس بمثابة الحب الذي يخلق الدارة بينهما، دارة حب مكتملة لم ينقصها شيء ولم تكن بحاجة لأن يصدر عنها شيء، لأن أي خلق آخر لن يرقى إلى حالة تمامها واكتمالها وغناها عن ما عداها. فهي وجود يملأ كل مكان قبل أن يظهر المكان، وتعطي الدهر قبل أن ينطلق الزمان. غير أن دارة الحب الإلهي قد هاضت حتى جاء

وقت أراد الله فيه، بحرية مطلقة ودونما سبب منزم، أن يخلق ما سواه. فكان أول ما صدر عنه، وبأمر من كلمته لخالقة، عالم من الأرواح الصرفة هم الملائكة.

ب - الزمن الكوزموغوني

أول خلق الله

كان الملائكة أول ما خلق الله. وقد صدروا عن مركز النور الأسمى، وتوضعوا في تسعة أفلاك نورانية تحيط بالمركز. وفي كل فلك طبقة مراتبية، كان أقربها إلى الله طبقة الكروبيم، بينها السيرافيم، فحملة العرش، فالسيادات، فالسلاطين، فالقوى، فالأمراء، فالرؤساء، فجمع الملائكة. وجميعهم أرواح لا أبدان لها ومن جوهر السار، خالدون منذ لحظة الميلاد، يعمون بمجد الله ويسبحونه منذ أن استيقظ وعيهم على مرأى النور العظيم. فأما الكروبيم فهم أرواح المعرفة، لهم رأس فقط عليه جناحان. وهي صورة مناسبة لتلك الأرواح المشغولة على الدوام بمعرفة الله. وأما السيرافيم، فهم أرواح الحب، لهم حسد وستة أجنحة، ثمان على الرأس واثان على الجذع واثان على القدمين. وهذه الصورة مستمدة من رؤيا أشعيا: ورأيت السيد جالساً على كرسي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل. السيرافيم واقفون فوقه لكل واحد ستة أجنحة. بائنين يغطي وجهه وبائنين يغطي رجله وبائنين يطير « ٦ : ١-٢. وأما حملة العرش فهم عجالات عرش الرب، هم أربعة أجنحة وأربعة وجوه. والصورة هنا مستمدة من رؤيا حزقيال: «فطرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال. سحابة عظيمة ونار متوالية... ومن وسطها شبه أربعة حيوانات لها شبه إنسان، ولكل واحد أربعة وجوه، ولكل واحد أربعة أجنحة، وأرجلها أرجل قائمة وأقدام أرجلها كقدم العجل، وبارقة كالنحاس المصقول، وأيدي إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة » ١ : ٤-٨.

المراتب الثلاث التالية وهي السيادات والسلاطين والقوى، تتوسط بين المراتب الثلاث الأولى القريبة إلى الخالق والمراتب الثلاث الأخيرة الموكلة بشؤون العالم. وبما لا يتوفر لدينا الكثير من المعلومات حول هذه الفئة الوسيطة، فإن المعلومات غزيرة

نسبياً حول الفئة الدنيا وهي الأمراء والرؤساء والملائكة. وجميعها تشكل حلقة الوصل العملية بين الله والعالم. فالأمراء هم الأبعد عن الشؤون التفصيلية وموكلون بحفظ النظام الكوني والطبعاني وإدارة امحالات العليا منه. وأما الرؤساء فهم المُقيّمون على شؤون الشريعة الدنيا من الملائكة، والأقرب إلى الأرض والناس، وهم شكل محاربين مترودين بحربات وسيوف وهقوس، إضافة إلى عدد من أدوات الحرف والنفون. فهم الموكلون بتصريف شؤون العالم اليومية وحفظ الحياة والمجتمع الإنسي. ومرتبة هؤلاء الرؤساء هي الأكثر ظهوراً وحضوراً في أسفار العهد الجديد التي تذكر أربعة من أسمائهم وهم: ميخائيل ورفائيل وأوريثيل وجبرائيل، رغم وجود عدد آخر من هؤلاء الرؤساء لا نعرفهم بالاسم. وكل منهم يرئس شريحة من فئة الملائكة التي تعد بالآلاف والآلاف، ولكن الملاك ميخائيل هو رئيس جمع الملائكة طراً، أو الطبقة لأوسع منها والأكثر فعالية وتدخلات في شؤون الناس. وإلى جانب ذلك فيميخائيل هو رسول فضله الله وأحكامه، وله مهمات حاسمة في يوم الدينونة، فهو الذي سيقهر الشيطان ثم يقبده ويرميه في هاوية الحميم، وهو الذي يمسك بيده ميزان الحساب الأخير. أما جبرائيل فرسول الرحمة الإلهية والبشارة الطيبة، وهو الذي حمل بشارة الحبل المقدس إلى مريم العذراء. ورفائيل هو ملاك الصحة وحامل الشفاء للمرضى. وأوريثيل هو نار الله ورسول النبوات ومفسر مشيئة الله في عقول المختارين من أنبيائه وملهميه. ولقد من الله على كل فرد من أفراد البشر بملاك حارس من ملائكة الفئة الواسعة الدنيا، محصص لحراسته وحمايته من قوى الشر والظلام، وذلك منذ يوم مولده. وهو بمده بحكمة وحب الأب الأعلى، كما يحمل إلى السماء صلواته.

إن الأجنحة التي يحملها الملائكة بجميع فئاتهم وطبقاتهم، هي رمز لطبيعتهم العلوية الروحانية، ودلالة على مقدرتهم على الانتقال بشكل آلي من مكان إلى آخر لأداء المهام. فملاك ينتقل إلى حيث يفكر في الانتقال دون فاصل زمني. ولذا يمكن لعدد غير محدد من الملائكة الوقوف على رأس دبوس طائداً أن الجميع يفكر برأس الدبوس. فهم يتقلون بسرعة الفكر الذي هو أسرع من الضوء ويقطعون الكون من أقصاه إلى أقصاه، وفيما بين السماء والأرض دون زمن.

ثورة في السماء

لقد جاء خلق الله هذا كاملاً، وكأفضل ما يكون الكمال الذي يلي كمال الله نفسه. ثم إن الله لم يصنَّ على الملائكة بإحدى خصائصه العليا، ألا وهي الحرية. والحرية تعني الاستقلال والتسيير الذاتي دونما جبر أو إكراه. لأنه بدون الحرية لن يكون للملائكة القدرة على الحب الذي لا يمكن منحه إلا عن رغبة وطواعية. والحب هو جوهر وجود الله، ويبعي أن يكون أيضاً جوهر وجود خلقه الكامل. ولكن الحرية ليست بدون محاذير. لأن من هو حر في أن يحب حر أيضاً في أن يكره. وما أن تُمنح الحرية لا يمكن التحكم في كيفية استخدامها إلا بإلغائها. ولقد عرف الله محاذير هبته للملائكة، وعرف أيضاً أن هبة الحرية سوف يُساء استخدامها إلى أبعد حد ممكن. ومع ذلك فقد قبل المخاطرة، لأن ما كان يخطط له من خلقٍ عظيم يجعل من مثل هذه المخاطرة أمراً مبرراً.

والآن، فمن بين الملائكة جميعاً كان المدعو لوسيفر، أي حامل الصياء، أجهلهم وأروعهم خلقاً، وكان من ملائكة الفلك الأول المقربين الذي يعكسون مجد الخالق وضياؤه الأخاذ، وكان أفضل ما يمكن لصنعة الله البديعة أن تخنقه. فظن لإعجابه بنفسه وزهوه، أنه يستحيل على الله أن يخلق من هو أكمل منه وأعلى شأنًا. منذ صحوته من العدم بُهر لوسيفر بنور مجد الله فغطى وجهه بجناحيه، ثم راح مأخوذاً يحدق إلى مركز النور العظيم، يسبح بحمد الله وينشد مع بقية الملائكة المقربين مجده وعظمته. وكلما حدق لوسيفر أعمق فأعمق إلى لجة الصياء ومركز الثالوث الأقدس، صار يشترك العلي روى استقبل ويتوحد بعلمه للماضي وللمستقبل، فشعر بالسعادة الغامرة والروعة البالغة لمثل هذه المشاركة. إلى أن جاء وقت عرف فيه أن الله يُعدُّ حطة لخلق جديد، ويُعد فيه مكاناً، أعلى وأسمى من مكان الكروبيم والسيرافيم، لكائن مختلف عنهم مصنوع من مادة كثيفة لا تقارن بماهيتهم النورانية. ثم تصبّر أكثر فأكثر وعرف أن الابن - الكلمة سوف يحل في جسد من طينة ذلك الكائن ويعيش بين الناس على الأرض رداً من الزمن.

رأى لوسيفر كل ذلك بعين بصيرته، فتملكته الضغينة وملأت الأذية روحه ووجدانه. فضّل مجده الملائكي على القصد الإلهي والمشيئة العلوية، ونسوى التمرد

والعصيان بحرية تامة ومطلقة، رغم علمه الأكيد بما سيجره عليه عصيانه من عو قلب وبما ينتظره من لعة أبدية. ولكنه فضل السقوط واللعة على فقدان عزه ومجده الملائكي، وظهار الخضوع لكائن أقل منه نورانية وروحانية. أدار لوسيفر وجهه عن نور الله رافضاً المشاركة في خطة الخلق المقبل وتناحجها، وفر نحو الشفق الخافت حيث الوجود يلامس العدم، وتعه عدد كبير جداً من الملائكة الذين وقفوا في صفه وارتسأوا رأيه، فقادهم بعيداً عن دائرة الرحمة حيث وضعوا أنفسهم في خدمة العدم بدلاً من خدمة الوجود، وراحوا يتحفرون من أجل تخريب خطة الخلق، وإفساد الإنسان الذي كرمه الله وفضله عليهم. وهكذا تحول لوسيفر إلى إبليس، الملاك المظلم، وتحول ملائكته إلى شياطين، فنظمهم في مراتبة سفلية من تسع طبقات تناظر الطبقات التسع العلوية التي نفروا منها. لقد ظهر الشر على المستوى الروحاني. ولكنه ما زال شراً مشلولاً عاجزاً يتولد وينالشي في عالم الظلمة الخارجية، غير قادر على التحقق واقتحام عالم الأنوار، ينظر خلق العالم المادي، وسيد ذلك العالم، لينقض عليه ويثأر منه.

والآن، فوق مياه الغمر العظيم، لمادة البدئية التي تنطوي على إمكانات الكسوف المقبل، كان العالم الروحاني يتماوج في اتسافه وكماله. الثالث المقدس في المركز وحوله تسعة أفلاك تتوضع فيها آلاف مؤلفة من الأرواح الملائكية. ثم عمد الابن إلى خلق العالم بواسطة كلمته الابن - النوغوس. في اليوم الأول خلق النور المادي، وهو مختلف عن النور العلوي غير المخلوق نور الثالوث ونور الملائكة. وميز الله النور عس الظلمة فدعا النور نهاراً ودعا الظلمة ليلاً. في اليوم الثاني خلق قبة السماء الدنيوية وم ففص مياه الغمر بين مياه تحتية ومياه فوقية. في اليوم الثالث خلق الأرض تحت نقطة مركز من القبة السماوية، وجمع المياه التحتية إلى مكان واحد فشكلت بحار الأرض، وفي مركز الأرض صنع حفرة الجحيم التي تحيطها تسعة أودية، كما أثبت من الأرض كل عشب وبقل وشجر ذي ثمر. في اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم وورعهم في سبعة أفلاك، ووراء الفلك السابع صنع كويكبات حط السمت أسراج القبة. وكانت الشمس وقتها في برج الحمل، في نفس الموضع الذي ستكون فيه يوم الفصح عند خلاص العالم بدم حمل الله. في اليوم الخامس خلق طيور الجو وكائنات

البحر. في اليوم السادس خلق حيوانات البر، كما خلق الإنسان آخر أعماله المبدعة. جبل الله آدم من تراب الأرض ثم نفخ فيه من روحه فصار آدم نفساً حية. وبذلك تم التحسد الأول للحق في الحق. أما التحسد الثاني فسيكون في يسوع الذي حملت به مريم من الروح القدس، فهو آدم الثاني. نصّب الله آدم سيّداً على الأرض وجعله متسلطاً على جميع كائناته وسحر له زرعها ونباتها طعاماً له، ثم عرض عليه كل حيوانات البرية وكل عيور السماء ليرى ماذا يدعوها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. في اليوم السابع استراح خالق من جميع عمله الذي عمل.

عصيان على الأرض

كان آدم بتجسّد الكمال الإنساني الذي أراده الله. ورغم جبلته المادية فقد وُلد حالداً مثل الملائكة لا يخاله الفناء، وكان مثلهم أيضاً حراً مستقل الإرادة. ثم غرس الله في عدن في وسط الأرض جنة تماثل الجنة السماوية وأسكن فيها آدم، وخلق من صلعه امرأته حواء. ثم أمرهم أن يأكلا من كل شجر الجنة إلا شجرة معرفة الخير والشر. فعاشا في انسجام تام مع الطبيعة التي عمدهما بما يحتاجان إليه دون عمل أو عناء، إلى أن تدخل إبليس. تسلل إبليس إلى الجنة في هيئة الحش والتف على جذع شجرة المعرفة، وكانت حواء قريبة من المكان فنظرت إلى الشجرة بشمارها البراقة وإلى الحش يطوق جذعها فراقها المنظر ودنت، فقال لها إبليس هامساً كما نفخ الأفعى: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقال حواء: بل نأكل من كل شجر الجنة، وأما شجر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساها لفلا تموتا. فقال الحش: لن تموتا، ولكن الله عارف أنه يوم تأكلان منه تفتح أعينكما وتكونان مثله عسافين الخير والشر. فرأت حواء أن الشجرة هجة للنظر وجيدة للأكل، فأخذت من ثمرةا وأكلت وأعطت زوجها أيضاً فأكل. عندما وصل علم معصية الإنسان إلى الخالق، نطق باللعنة الكبرى على الحش إبليس، وعلى الإنسان وعلى عالم الطبيعة برمتها لأن الإنسان كان رأس هذا العالم وسيده. فأخرجه من الجنة إلى الأرض التي جُبل منها

ليعمل فيها وبكد ويشقى، لأنه من تراب وإلى تراب يعود. ويسقط الإنسان سقط
معه العالم بأكمله وانفصل عن مجد الله^(١).

هذه هي الخطوط العامة لما جرى في الزمن الكوزموغوني، أو المرحلة الأولى من
تاريخ الكون والإنسان. فلقد خلق الله العالم كاملاً ونقياً وخلق الإنسان في أحسن
تكوين. ولكن الإنسان استخدم حريته في معصية خالقه مثلما فعل لوسيفر والملائكة
الساقطون معه. وكما طرد إبليس وملائكته من السماء النورانية العليا، فقد طرد آدم
من مثال الجنة السماوية على الأرض وخرج إلى العراء والغربة. وأكثر من ذلك فقد
انتقل الوجود الأرضي بأكمله من عالم المجد إلى عالم اللعنة المقيمة، وأُسِمَ إلى يد
الشیطان في انتظار قدوم المخلص.

هذه القصة التي أوردناها أعلاه سواء بتسلسلها أم بمضامينها، لا تشكل نصاً
مقدساً وليست جزءاً من أسفار العهد الجديد، ولكنها كما أشرت في البداية من نسج
آباء الكنيسة الذين فسروا إشارات الكتاب المقدس في عهده، وريطوها بتفاصيل من
الأسفار التوراتية المنحولة. من هنا يأتي اختلاف المصادر المسيحية في بعض النقاط
المفصلية من هذه القصة، وخصوصاً مسألة خلق الملائكة وهل تم هذا الخلق قبل خلق
العالم أم خلال مراحل الخلق الستة، ومسألة عصيان لوسيفر ودوافعه. فالقديس توما
الإكوييني يرى أن الملائكة قد ظهرت إلى الوجود مع العالم المادي وليس قبله، لأن
وجودهم مرتبط بوجود العالم المادي، لا مستقلاً ولا قائماً بذاته. بينما ترجح غالبية
الآراء الأخرى أسقية خلق الملائكة على خلق العالم. وبخصوص عصيان إبليس فإن
وجهة نظر بعض المفكرين المسيحيين تنسج على منوال أسفار منحولة معينة، فتقول
بأن لوسيفر لم يتمرّد لما رآه من مستقبل الإنسان ومكانته العالية، بل لأن عروره دفعه
إلى الاعتقاد بقدرته على الارتقاء إلى مقام يعادل مقام العلي. فلقد نظر إلى ألقه الذي
لا يعادله ألق آخر، ولم ينظر إلى مصدر هذا الألق ومنشئه فقال في نفسه: أرغب في أن

١ اعتمدت في ما تقدم من هذا السرد على العرض الشيق الذي صاغه آلان واتس ملخصاً فيه نظريات
آباء الكنيسة في كتابه:

- Allan Watts, Myth and Ritual in Christianity, ch.1

أكون سيداً أعلى ولا أريدُ حُداً فوقِي. فأَيده أتباعه قائلين: بلي. نرغب في رفع عرش مولانا ليلبغ عرش العلي. عند ذلك طوح به العلي خارج دائرة النور، وتبعه من والاه مديريين وجوههم عن نورة النور، فانطلقاً بريقهم وصاروا كفحم خامد^(١).

ويقدم القديس ديونيسيوس وجهة نظر حول طبيعة الملائكة جديدة بالتوقف عندها. فهو يفسر بعض فقرات العهد القديم التي يرد فيها تعبير "أبناء الله"، أو التي نفهم منها وجود آلهة أخرى حول يهو، بأنها تشير إلى الملائكة. فالملائكة هم أبناء الله، وهم في الوقت ذاته آلهة لأنهم في حالة حب وتوحد مع خالقهم. من هذه الفقرات: «أبناء الله رأوا بات الناس أنهم حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما احضاروا» التكوين ٦. «لأنه من يعادل الرب في السماء؟ من يشبه الرب بين أبناء الله؟» المزمور ٨٩. «يا رب، إله الجنود، من مثلك رب قوي، وحقك، من حولك؟» - المزمور ٨٦. «أي إله عظيم مثل الله؟» - المزمور ٧٧. «الله قائم في مجمع الله. في وسط الآلهة يقضي» - المزمور ٨٨. «لقد قلت إنكم آلهة، وبو العلي كلكم» المزمور ٨٨.

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن ماهية الفرق بين ديانة وثنية تؤمن بإله واحد أعلى خالق للكون وخالق أو أب للآلهة الأخرى الثانوية، وبين معتقد توحيد يؤمن بإله واحد خالق للكون وخالق للملائكة من أبنائه. نقرأ في نص مصري قديم يسبح بحمد الإله الأعلى ما يلي: «أبو البدايات. أربي أهدى دائم قائم. خفي لا يعرف له شكل وليس له من شبيه. سر لا تدركه العقول، خفي عن الناس وعن الآلهة. ولد ولم يولد. يحب ولم يحبه أحد. خالق ولم يخلقه أحد. خالق الكون، صانع ما كان والذي يكون وما سيكون. أبو الآلهة. رحيم بعباده.. الخ». ونقرأ في نص أكاادي رافديني: «أنت المولود الذي أنجب نفسه بعسه. أنت الرحم الذي أنجب كل شيء. الأب الذي أنجب البشر وأنجب الآلهة... وليس لك بين الآلهة من شبيه.. الخ»^(٢).

١ - حول هذه الآراء المتعارضة اسندت إلى كتاب

M. Fox and R. Sheldrake, The Physics of Angels, Harper, San Francisco 1996.

٢ - من أجل النصوص الكاملة التي اقتبست منها ها، راجع مؤلفي "الأسطورة والمعنى" فصل ديابات الشرق القديم، وثنية أم توحيد.

إن الخط الفاصل بين الوثنية والتوحيد مسألة فيها نظر. والديانات الوثنية تنتظر قراءة عصرية لها باعتبارها "عهداً قديماً"، إن جاز التعبير، للديانات التوحيدية.

ج - عصور الظلام

أو مرحلة التمازج

لقد عرف الله لذي يطال علمه البدايات والنهايات، أن الحرية التي أعطاها للوسيفر ولآدم سوف يساء استخدامها، وأن العالم سيقع فريسة للموت والفساد نتيجة عصيان الكائنات العاقلة. ولكنه كان يضمّر خطة لتخليص الإنسان في الوقت المناسب، دون الإخلال بمبدأ الحرية الذي ارتضاه للوعي المستقل عنه. سوف يهبط الأقنوم الثاني في الثالث ليعدو إنساناً لأملٍ معلوم، فيدخل في زمن الناس وفي دورة الحياة والموت، ليخلص حلقه من اللعنة القديمة، وهكذا كان. ففي اللحظة صفر من تاريخ الكون ولد لكلمة من رحم العذراء، وتحلى في هيئة يسوع الناصري فعاش على الأرض وشارك الدس الألم والمعاناة، ثم مات على الصليب من أجل خلاصهم. وبذلك افتدت الذبيحة الإلهية، وهي القربان الكامل، الإنسان فخلصته من الموت الذي جلبته خطيئة آدم، وفتحت أمامه بوابة الأبدية. فالمسيح هو معنى التاريخ وليس نتاجاً له. ولهذا السبب فقد جاء تجسده في منتصف الزمن لا في بدايته ولا في نهايته، ليكون بمثابة محور التاريخ الذي يصغي على البداية والنهاية معاً.

نظراً من هذه الرؤية إلى التاريخ، لم يكن اللاهوت المسيحي يظن إلى الأحداث السابقة على الميلاد إلا باعتبارها فترة مظلمة، لم يعرف الناس خلالها الله إلا من خلال ظلال قائمة لا تعكس مجده الحقيقي، بما في ذلك كامل الفترة التي تغطيها أحداث العهد القديم (=التوراة). فالتاريخ يبدأ بآدم، ثم يبدأ بداية جديدة بيسوع المسيح الذي هو آدم الثاني. وما الزمن الفاصل بين هاتين البديتين إلا شكلاً من أشكال الجاهلية الإنسانية، كان العالم خلاله ينتظر قدوم المخلص. وهكذا فقد عكس ميلاد يسوع مبدأ النسب والنتيجة في الصيرورة التاريخية. فبدلاً من أن يُقرأ الحاضر على ضوء الماضي باعتباره نتيجة منطقية له، صار الحاضر الذي هو تجسد المسيح،

ونتائجه، مفسراً لكل الأحداث الماضية التي صارت تُفهم على ضوء هذا الحدث. وصار التاريخ يُقرأ ويفسر من ميلاد المسيح صعوداً نحو البدايات، ومنه هبوطاً نحو نهاية الزمن. أما أحداث أسفار العهد القديم فقد تحولت من تاريخ يقص أحداثاً متتابعة ذات معنى وقيمة في حد ذاتها، إلى سلسلة من الرموز والإشارات التي تبشر بالمسيح وكنيسته، وتم تبيي القصص التوراتي في حدود صلاحياتها كأغماط ونماذج أولى لدورة حياة المسيح المقبلة.

من هذا المنظور، تغدو قصة التكوين والخطيئة، وسلسلة اسباب آدم، وتاريخ شعب يهوذا المحتار من إبراهيم والآباء الأولين إلى الخروج من مصر ودخول كنعان إلى سقوط أورشليم والسبي فالعودة وبناء الهيكل، تغدو كلها بمثابة دراما شبيهة تستيقظ ظهور المسيح وتُعلم عنه. إن قصة قايين وهابيل غير المبررة منطقياً، تغدو في التفسير المسيحي استباقاً لما جرى بين اليهود وجماعة المسيح. فقايين الذي قتل أخاه هو الشعب اليهودي وهابيل هو المسيح وكنيسته. لقد رفض الرب قربان قايين الذي هو تقدمات اليهود وقرايهم عبر تاريخهم، وقبل قربان هابيل الذي هو نموذج مسبق عن موت المسيح على الصليب. وصعود أخنوخ إلى السماء في الأصحاح الخامس من سفر التكوين هو استباق لصعود المسيح بعد قيامته. وملكي صادق كاهن الله العلي هو استباق ليسوع كاهن السماوات الأعلى. وقبل إبراهيم التضحية بابه إسحاق هو استباق لتضحية الرب بابه الوحيد. والأساطير الاثنا عشر من آباء يعقوب لذيئ نحدرت منهم كنيسة المسيح هم استباق للحواريين الاثني عشر الذين انحدرت منهم الكنيسة. ونزول يعقوب وأبنائه إلى مصر هو استباق لفرار العائلة المقدسة من بطش الملك هيرودس. وخروج موسى بشعبه من مصر وتحريرهم من العبودية هو استباق لتحرير المسيح للإنسانية من ربة الشيطان وسلطان الموت. والفترة التي قضاه بنو إسرائيل في الصحراء هي استباق لفترة كفاح المسيحية، بين واقعة التجسد والقسودوم الثاني للمسيح الذي يعلن نهاية الزمن ودخول المؤمنين إلى الجنة الموعودة.

وفوق هذه الطريقة في النظر إلى أحداث العهد القديم باعتبارها نماذج سابقة وتبعية للأحداث الحقيقية التي ستلي، فإن اللاهوت المسيحي ينظر إلى أهم عناصر لاهوت العهد القديم، وهي مؤسسة القربان ومؤسسة الشريعة، باعتبارهما وعداً

بالخلاص ولكنها لا تقدم في حد ذاتها خلاصاً. فالقربان اليهودي وقوامه نحر الماشية على مذبح الهيكل لا يكفي لعقد الصلة المقطوعة مع الخالق، لأن الإرادة الإنسانية التي حرقتها الخطيئة، ليس بمقدورها تحقيق استسلام خالص وفعلي للإرادة الإلهية، ولا بد من انتظار القربان الوحيد الحقيقي القادر على إرجاع العالم إلى رحمة الله، عندما يتجسد الكلمة في إنسان ويقوم ذلك الإنسان - الإله بأعظم فعل طاعة ومحبة يمكن تصويره، فيقدم نفسه طواعية إلى الموت ويتمم على هذا النحو عمل الفداء، وذلك بعبوره هو أولاً من عالم المادة والموت إلى عالم الروح والخلود. إن الله لم يسمح بخطيئة آدم ونتائجها إلا لأن يسوع المسيح كان قميناً بالانتصار عليها.

أما عن مؤسسة الشريعة؛ فإن المسيحية ترى أن ما فرضه يهوه على موسى من شرائع هو أثقل من طاقة الإرادة الإنسانية على الالتزام بها، وأنها قد فرضت لكي تُدين الخطيئة، وذلك بوضع معيار للسلوك لا يمكن تحقيقه. وبذلك تعمل الشريعة على إكثار الخطيئة لا على قمعها. يقول بولس في رسالته إلى أهل رومية: « وأما الناموس فقد دخل لكي تكثر الخطيئة. ولكن حيث كثرت الخطيئة ازدادت النعمة جداً، حتى كما ملكت الخطيئة في الموت، هكذا تملك النعمة بالبر، بالحياة الأبدية بيسوع المسيح » - رومية ٥: ٢٠-٢١. من هنا فقد أبطل تجسد المسيح الشريعة واستبدلها بسر النعمة، التي هي مدد من عند الله يجعل الإرادة المؤمنة بالمسيح قادرة على إتيان ما هو فوق طاقتها البشرية. فالإنسان لا يتبرر إلا عن طريق الإيمان بالمسيح لا بقوة الأعمال بحسب الشريعة، كما يقول بولس: « وأما الآن فقد ظهر سر الله بدون الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء، بر الله بالإيمان بيسوع المسيح » - رومية ٣: ٢١. لهذا فقد أُعطي الذين هم في المسيح من الشريعة: « لأن ناموس روح الحياة في يسوع المسيح قد أُعطيني من ناموس الخطيئة والموت » - رومية ٨: ٢. إن اليهود الذين يحوزون الشريعة ويطلبون بواسطتها البرارة هم حطأة كالثوئين سواء بسواء (رومية ٢: ١٧-٢٤). وحتى إذا نظرنا إليها من وجهتها الأخلاقية، فإن الشريعة تعطي معرفة الخير، ولكن ليس القدرة اللازمة على صنعه (رومية ٩: ٣٠-٣١). إنها بدلاً من أن تخلص البشر من الشر تكاد تغمسهم فيه، وتُعيدهم لعنة لا يستطيع إنقاذهم منها سوى المسيح بحملها على عاتقه (رسالة بولس إلى أهالي غلاطية ٣: ١٠-١٤). وإن المسيح الذي حرر الإنسان من الخطيئة (رومية ٦: ١-١٩) يحرره أيضاً من وصايا

نشرية (رومية ٧: ١-٦). وبذلك يكون قد أنهى النظام المؤقت، لأن المسيح نهاية
الشريعة (رومية ١٠: ٤). وهو الذي يجعل المؤمنين يبلغون البر بالإيمان
(رومية ١٠: ٥-١٣).

ويُلخص المنقطع البليغ التالي لبولس، كل موقف انسيحية من مسألة الشريعة
والإيمان: «لاني مت بالناموس لأحيا لله. مع المسيح صُلبت فأحيا، لا أنا بل المسيح
يحيا فيّ. فما أحياه الآن في الجسد وإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني
وأسلم نفسه لأجلي. لست أبطل نعمة الله، لأنه إن كان بالناموس برُّ فالمسيح إذا مات
بلا سب» - غلاطيه ٢: ٢٠-٢١.

إن الفترة الفاصلة بين السقوط وميلاد يسوع، هي إذن فترة انتظار وترقب
للمخلص الذي سيحرر العالم والإنسان من الظلام ومن اللعنة. وهي بشكل ما فترة
سيادة الشيطان على العالم. فهو رئيس هذا العالم بحسب إنجيل يوحنا ١٢: ٣١. وهو
إله هذا الدهر بحسب بولس، ومع زبانيته هم رؤساء وسلاطين وولاة هذا
العالم وعلى ظلمة هذا الدهر. وينجم عن هذا الوضع أن كل مولود إنساني من أبناء
هذه الفترة الوسيطة السابقة على ظهور المسيح، واقع تحت سلطان أمير الظلام ورازح
تحت لعنة الخطيئة الأصلية التي جلبها آدم على ذريته. جميع أبناء البشر هم من أبناء هذا
العالم المُدان. ولكن ظهور المسيح قد قسّم البشر إلى أبناء هذا العالم، أو هذا الدهر،
وأبناء النور (لوقا ١٦: ٨). لأن الله يسوع قد: «دعاكم من الظلمة إلى نوره
العجيب» رسالة بطرس الأولى ٢: ٩. ولأنه نجّانا من سلطان الظلمات ونقلنا إلى
ملكوت ابنه لكي نشاطر القديسين ميراثهم في النور» - رسالة بولس إلى
كولوسي ١: ١٢-١٣.

في الفترة الوسيطة من التاريخ، العالم مُدان والإنسان مُدان، لأنهما شريكان في
سر البشر الذي يعمل الشيطان خلال هذا الدهر: «فقال لهم يسوع: إن وقتي لم يحضر
بعد، أما وقتكم ففي كل حين حاضر. لا يقدر العالم أن يفضحكم ولكنه يبغضني أنا
لأنني أشهد عليه أن أعماله شريرة» - يوحنا ٧: ٦-٧. «العالم كله قد وُضِع في
الشُرير (= الشيطان)» - رسالة يوحنا الأولى ٧: ١٩. ولذلك فإنه عالم خداع مُثقل
عناصره على الإنسان وتستعبده. فالإنسان قبل ظهور المسيح كان مثل الوارث القاصر

الذي وُضع تحت وصاية وكلاء إلى الوقت المؤجل من أبيه. وكما أن هذا الوارث القاصر هو بمثابة العبد مع كونه صاحب الأرض، كذلك الإنسان استعبد من قبل قوى الشر رغم أنه وارث هذا العالم (علاطية ٤: ١-٣). وهو في كل خطوة مدعو من قبل الشيطان إلى الخطيئة. هذه الدعوة إلى الخطيئة هي ما يطلق عليه العهد الجديد اسم التجربة. فلقد سمح الله لشيطان بالتجربة ولكنه ترك للإنسان مفعلاً منها: «لم تصبكم تجربة إلا بشرية. ولكن الله أمين. الذي لا يدعكم تُجربون فوق ما تستطيعون بل سيجعل مع التجربة أيضاً المفذ لتستطيعوا أن تَحْتَمِلُوا» ١ كورنثية ١٠: ١٣. ولهذا يدعو المؤمن ربه عند كل صلاة أن ينحيه عن الشيطان ولا يوقعه في التجربة: «لا تدخلنا في تجربة ولكن نجنا من الشرير».

د - ملكوت الرب أو مرحلة الفصل

ميلاد المخلص وافتتاح الملكوت

«في الشهر السادس، أرسل جبرائيل، الملاك من الله، إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك. مباركة أنت في النساء. فلما رآته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك: لا تخافي لأنك قد وجدتِ نعمة عند الله، وها أنت ستحبلين وتلدن ابناً وتسميه يسوع. هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه، ويمسك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون ملكه نهاية، فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً؟ فأجاب: الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللُك، فذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله... فقالت مريم: هوذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك. فمضى من عندها الملاك» لوقا ١: ٢٦-٣٣.

«أما ولادة يسوع فكانت هكذا: لما كانت مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا، وجدت حبلها من الروح القدس. فيوسف رجلها إذاً كان باراً ولم يتساءل أن

يشهرها أراد تغليتها سرّاً. ونكى فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حُبِلَ به فيها هو من الروح القدس. فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم. وهذا كله لكي يتم ما قيل من النبي القائل: هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه عمانوئيل. سدي تفسيره الله معنا» متى ١: ١٨-٢٣.

«وفي تلك الأيام صدر أمر من أغسطس قيصر بأن يكتب كل المسكونة. فذهب الجميع ليكتبوا. كن واحد إلى مدينته. فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى (مقاصعة) ليهودية، إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم، لكونه من بيت داود وعشيرته؛ ليكتب مع مريم امرأته... وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد، فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجته في المذود إذ لم يكن لها موضع في المنزل»
لوقا ٢: ١-٧.

وهكذا، عند منتصف الليل، وفي منتصف الزمن، وعند أول الانقلاب الشتوي، حيث تصل الشمس أدنى مدى لها في الانخفاض مستعدة لبعود ذروة السمات مرة أخرى، وقع الحدث الذي هو بؤرة الزمن. لقد ولدت العذراء ابناً فالتقت عنده السرمدية بالزمن، لأنه إله حقيقي وإنسان حقيقي. وهنا تتابع الأدبيات غير الرسمية وصف الحدث بالطريقة الملحمية المعتادة في الأدبيات الدينية الأخرى. فعند ولادة يسوع هدأت الطبيعة وكأنما سكن نبضها لوهلة، وسرى في أرجائها وحي ينشئ كل عناصرها بأن الكلمة قد تجسد في الزمن وفي التاريخ. لقد أوحى إلى كل فصائل الخلق من الأحجار والصحور عند أسفل سُلَّم الموجدات، إلى الملائكة في أعلاه، وتضعضت أساسات معبد رومة الكبير، وفقاً لبؤرة عرافة دلّمي بأن السعد سيبقي قائماً حتى تلد العذراء ابناً. وأوحى إلى الأنبياء ويابيع الأنهار التي فاضت ريتاً بدل الماء. وإلى النباتات حتى أن الكرم أورقت في الشتاء وحملت عناقيدها. وأوحى إلى الحيوانات والطيور فصاح الديك عند منتصف الليل. وأوحى إلى الملائكة فهبطت من عليائها وأحاطت بمكان الميلاد حتى حول ألقها النيس إلى نهار. وما أن عُبِرت فترة

الصمت الشامل في الطبيعة حتى اندفع الملائكة في السماوات وعلى الأرض ينشدون:
المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة^(١).

في ما عدا الإشارات القليلة التي ورد بها الإنجيل لوقا عن طفولة يسوع، فإن
الأنجيل الرسمية تصمت صمتاً تاماً عن نشأة يسوع الأولى وبقائه، وتفتتح قصتها
بالمشهد الأول الذي يرى فيه يسوع وهو رجل مكمل في الثلاثين يأتي إلى يوحنا
المعمدان، نبي ذلك الوقت، ليعتمد على يديه بماء الأردن. وعند خروجه من الماء يهبط
عليه الروح القدس معلناً عن هوية يسوع ومفتتحاً رسالته. نقرأ في الإنجيل لوقا: « وإذا
كان الشعب ينتظر، والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح، أجاب يوحنا
الجميع قائلاً: أنا أعمدكم بماء ولكن يأتي من هو أقوى، الذي لست أهلاً لأن أحل
سيور حذائه، هو سوف يعمدكم بالروح القدس، ونار » - لوقا ٣: ١٥-١٦. وبميا
يسوع خارج من الماء: « وإذا السماوات قد انفتحت له، فرأى روح الله نارلاً عليه
مثل حمامة وآتياً عليه، وصوت من السماوات قائلاً هذا هو ابني الحبيب الذي به
سررت » - متى ٣: ١٦-١٧.

لقد افتتح هبوط الروح القدس على يسوع المرحلة الثالثة من مراحل التاريخ،
وهي مرحلة الفصل بين الخير والشر المتميزين في المرحلة السابقة. وقد شبه يوحنا
المعمدان عملية الفصل هذه بعملية تنقية بيد القمح من التبن الذي يخالطه. فالمسيح
المقبل هو: « الذي رفشه في يده، وسيبقى بيدره ويجمع القمح إلى مخزنه، وأما التبن
فيحرقه بنار لا تطفأ » لوقا ٣: ١٧. ويشبه يسوع مهمته بعملية تنقية القمح من
الزوان الذي زرعه الشيطان في وسط الحقل لإفساد الزرع: « يشبه ملكوت
السماوات إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله. وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع روائد
في وسط الحنطة ومضى. فلما طلع الثبات وصنع ثمرأ، حينئذٍ ظهر الزوان أيضاً فجاء
عبيد رب البيت وقالوا له: أترى أن نذهب ونجمع الزوان؟ فقال: لا لتلا تقتلعوا
الحطة مع الزوان وأنتم تجمعوه، دعوهما ينميان معاً إلى وقت الحصاد: وفي وقت
الحصاد أقول للحصادين، جمعوا أولاً الزوان واحزموه حزمأ ليحرق، وأما الحنطة
فاجمعوها إلى مخزني » - متى ١٣: ٢٤-٣١. كما يشبه يسوع مهمته أيضاً بعملية

١- عن ملحمة الميلاد المعروفة بعنوان The Golden Legend.

تميز الجلداء السود عن الخراف الأبيض: « ومتى جاء ابن الإنسان ... يجتمع أمامه جميع الشعوب، فيميز بعضهم عن بعض كما يميز الراعي الخراف من الجلداء، فيقيم الخراف عن يمينه والجلدء عن يساره. ثم يقول للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي لستروا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم » - متى ٢٥: ٣١-٣٤.

ولكن الشيطان م يكن يسمح لعملية الفصل أن تنطلق بهذه السهولة. فما أن طلع يسوع من غمر الأردن حتى أقبل عليه وكشف له عن هويته كأمر لهذا العالم، ثم عرض عليه أن يدفع إلى يديه ما أعطي من سلطان على العالم، لأنه يستطيع التصرف به ووهبه لمن يشاء: « ثم أضع يسوع إلى البرية من الروح ليحرب من إبليس. فبعد ما صام أربعين شهراً وأربعين ليلة جاع أحيراً، فتقدم إليه المجرّب وقال له: إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجرة خبزاً. فأجاب وقال: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكلمة تخرج من فم الله. ثم أحذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله فطرح نفسك إلى أسفل، لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك ... قال له يسوع: مكتوب أيضاً أن لا تجرب الرب إلهك .. » ثم أضعه إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان، وقال له إبليس لك أعطي كل هذا السلطان ومجدهنّ (أي مجد الممالك) فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع. فأجابه يسوع وقل اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد.. ولما اكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين » - متى: ٤، ولوقا: ٤.

ابتدأ يسوع مهمته بأن أعلن عن نفسه باعتباره مسيح الرب، ولكنه كان حذراً عني الدوام من أن يفهم من ذلك أنه المسيح السياسي الذي كان اليهود ينتظرونه يبعيد مجد مملكة داود الضائع. فبعد أن رجع من البرية حيث صام واعتكف أربعين يوماً: « جاء إلى الباصرة حيث كان قد تربى، ودخل المجمع حسب عادته يوم السبت وقام ليقرأ. فدفع إليه سفر أشعيا النبي. ولما فتح السفر وجد الموضع الذي كان مكتوباً فيه: « روح الرب عليّ لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي منكسري القلوب، للماثورين بالإطلاق والعمي بالبصر، وأرسل المسحقين في الحرية، وأكسر بسمة الرب المقبلة^(١). ثم طوى السفر وسلمه إلى الخادم وجلس، وجميع الذين في المجمع

^(١) راجع سفر أشعيا ٦١: ١-٣، ولاحظ الفروق بين النصين.

كانت عيونهم شاحصة. فابتدأ يقول لهم إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم» -
لوقا ٤: ١٦-٢١.

بعد هذا، اتخذ يسوع من قرية كفر ناحوم مركزاً لبث دعوته ونشر رسالته، فكان يُعَلِّم في مناطق الجليل ويصنع المعجزات، ويُظهر سلطانه على عالم الأرواح فُيُخرج الشياطين مع أحسام الجانين، ويشفي العاهات والأمراض المستعصية. كما أظهر سلطانه على الحياة والموت وذلك بإحيائه لثموتى. وعندما كان يوحنا المعمدان في السجن بأمر من الملك هيرود أعريبا، المتصرف بمطقة حبيب. سمع بأعمال يسوع فأرسل اثنين من مريديه لسؤال يسوع أهو حقاً المسيح: «أنت هو الذي أم ننتظر آخر؟ فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا واحبرا يوحنا بما تسمعا وتظنن. العمي يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون وساكبن يُبشرون» متى ١١: ٢-٥. ثم إنه سأل تلاميذه لذين تبعوه ومشوا معه في جولاته: «مساذا يقول الناس عني؟» وذلك لكي يكشف لهم هويته ويطلعهم على حقيقة من هو. «فقالوا: قوم (يقولون) يوحنا المعمدان. وآخرون إيليا (السي) وآخرون يرميا (السي) أو واحد من الأنبياء. قال لهم وأنتم من تقولون إني أنا؟ فأجاب سمعان بطرس وقلل: أنت هو المسيح ابن الله الحي. فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان. إن دما ولحما لم يُعلن لك، لكن أبي الذي في السموات» - متى ١٦: ١٣-١٦. وفي أكثر من مناسبة ألح يسوع إلى أنه المسيح: «انظروا، لا يضلكم أحد. فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين أنا هو المسيح، ويصلون كثيرين» - متى ٢٤: ٤. وفي مشهد محاكمته يسأله رئيس الكهنة: «استحلفك بالله الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله؟ فقال يسوع: أنت قلت» - متى ٢٦: ٦٣-٦٤. وفي حوار يسوع مع المرأة السامرية عند بئر الماء: «قالت له المرأة: أنا أعلم أن مسيحا الذي يقال له المسيح يأتي. فمتى جاء ذاك ينجحنا بكل شيء. فقال لها يسوع: أنا الذي أكلمك هو» - يوحنا ٤: ٢٥-٢٦.

ويرتبط بلقب "المسيح" اللقب الآخر "ابن الله"، والذي يرد في اتصال معه أو استقلال. فعندما مشى يسوع على الماء ليلحق بتلاميذه في السفينة، سجدوا له قائلين: في الحقيقة أنت ابن الله (متى ١٤: ٣٢ - ٣٣). وفي مشهد محاكمة يسوع، رفض مرقس، «قام رئيس الكهنة في الوسط وسأل يسوع... وقال له أنت المسيح ابن

المبارك ؟ فقال يسوع: «أنا هو» مرقس ١٤: ٦٣. وكان يسوع يشير إلى الله بقوله أبي أو أبي الذي أرسلني. فعندما شفى مريضاً في يوم السبت، طلب اليهود قتله لأنه مارس عملاً في اليوم المقدس. فقال لهم يسوع: «أبي يعمل الآن، وأنا أعمل. فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه، لأنه لم يقض السبت فقط بل قال إن الله أبوه معادلاً نفسه بالله» يوحنا ٥: ١٧-١٨. وعندنا شفى رجلاً أعمى منذ ولادته بأن وضع طيناً على عييه قال له: «أؤمن بأبن الله؟ أجاب الرجل وقال: من هو يا سيد حتى أؤمن به؟ فقال له يسوع: قد رأيته، والذي يتكلم معك هو هو. فقال: أؤمن بك يا سيد، وسجد له» - يوحنا ٩: ٣٥-٣٨.

وتتعدد في إنجيل يوحنا الأقوال الذي يطابق فيها يسوع بينه وبين الآب: «أنا والآب واحد» ١٠: ٣٠ و «إن الآب في وأنا فيه» ١٠: ٣٨ و «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي. من كنتم قد عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً، ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه. فقال له فيلبس: يا سيد، أرنا الآب وكفانا. قال يسوع: أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس؟ الذي رأيته فقد رأى الآب، كيف تقول أنت أرنا الآب؟ أليس أنت تؤمن إني في الآب والآب في؟» ١٤: ١-١٠. «أبوكم إبراهيم قبل بأن يرى يومي، فرأى وفرح. فقال له اليهود: ليس لك خمسون سنة بعد، أفرأيت إبراهيم؟ فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم، قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» ٨: ٥٤-٥٨.

والمسيح ابن الله يدعى أيضاً ابن الإنسان. وتعبر "ابن الإنسان"، كما صادفناه في سفر دانيال وفي كتابات ما بين العهدين، يشير إلى حقيقة قديمة ومثال سموي يتجلى في العالم على هيئة إنسان. وفي العهد الجديد يشير التعبير إلى الأقنوم الثاني في الثالوث الأقدس متجلى في العالم على هيئة إنسان^(١). نقرأ في إنجيل متى: «فكما يجمع الزوايا ويحرق بالنار، هكذا يكون انقضاء العالم. يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاتر وفاعلي الإثم ويطرحونهم في أتون من النار. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان» متى ١٣: ٤١-٤٢. وعندما جاءوا إليه بمشلول ليشفيه قال له: «يا بني مغفورة لك خطاياك». وكان قوم من الكتبة هناك جالسين يفكرون في قلوبهم لماذا هذا هكذا يتكلم بتجديف؟ من يقدر أن يغفر الخطايا إلا الله وحده؟ فقال لهم:

^(١) وذلك وفق التفسير الكنسي الذي التزمناه في هذا الفصل.

لماذا تفكرون بهذا في قلوبكم ؟ أيهما أيسر، أن يقال للمفلوج مغفورة لك خطاياك أم يقال له قم أحمل سريرك وامش ؟ ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا » - متى ٩ : ١-٨. وعندما تقدم إليه واحد من الكتبة : « وقال له : يا معلم أتبعك أينما تمضي. فقال له يسوع : للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه » - متى ٨ : ١٩-٢٠. ويسوع يعصل لقب ابن الإنسان على لقب المسيح، كما نقرأ عند مرقس : « فقال لتلاميذه وانتم من تقولون لي أنا ؟ فأجاب بطرس وقال له : أنت المسيح. فانتهرهم كي لا يقولوا لأحد عنه. وابتدأ يعلمهم أن ابن الإنسان ينبغي له أن يتألم كثيراً ويُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة ويُقتل، وبعد ثلاثة أيام يقوم » - مرقس ٨ : ٢٩-٣١.

وترتبط بلقب ابن الإنسان صورة مخلص العالم الذي يفدي الجنس البشري بموته، ويسقك دمه لمغفرة الخطايا، ثم يقوم من الموت ليصعد إلى المكان الذي أتى منه، في انتظار قدومه في نهاية الأزمنة : « فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً » - يوحنا ٦ : ٦٢. « خرجتُ من عند الآب وقد أتيت إلى العالم. وأيضاً أترك العالم وأذهب إلى الآب » - يوحنا ١٦ : ٢٨. « فإن ابن الإنسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته. وحينئذٍ يجازي كل واحد حسب عمله. الحق أقول لكم، إن من القيام هنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته » - متى ١٦ : ٣٧-٣٨. « وأيضاً أقول لكم، من الآن تبصرون ابن الإنسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحب السماء » - متى ٢٦ : ٦٤. « وحينئذٍ يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحابة بقوة ومجد كثير » - لوقا ٢١ : ٢٥ ٢٧. « وليس أحد يصعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء : ابن الإنسان الذي هو في السماء » - يوحنا ٣ : ١٣.

التماليم

بعد أن اعتمد يسوع على يدي يوحنا المعمدان ونزل عليه الروح القدس، ثم خرج من نجرة لشيطان متصراً، انطلق إلى الجليل يعلم ويبشر. وهذه أولى كلماته وفقاً لمرقس : « وبعد أن أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول : قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله، فتوبوا وآمنوا بالإنجيل »

مرقس ١: ١٤-١٥. وبذلك يعنن يسوع عن جوهر رسالته التي هي رسالة أخروية، تركز على فكرة نهاية الزمن والتاريخ، وحلول اليوم الذي فيه ينشر الله العالم من الشيطان، الذي كان حتى كرازة يسوع سيداً على الأرض. فبعد أن كان سلطان العالم مدفوعاً إلى إبليس الذي قال ليسوع: « لك أعطي هذا السلطان كله لأنه قد دفع إلي وأنا أعطيه لمن أريد »؛ فقد آل السلطان الآن إلى يسوع: « دفع إلي كل سلطان في السماء وعلى الأرض » - متى ٢٨-١٨. « لأجل هذا أظهر ابن الله، لكي ينقض أعمال إبليس » - رسالة يوحنا الأولى ٣: ٨. « الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء في يده » - يوحنا ٣: ٣٥. « وإذا كنت بروح الله أطرد الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله » متى ١٢: ٢٨. فملكوت الله، أو ملكوت السماوات، هو الحقبة الأخيرة من تاريخ العالم، والتي ستشهد تجلي مجد الله هنا والآن، بعد أن كان محجوباً خلال فترة الظلام التي شهدت سيادة الشيطان. وتعبير "ملكوت الله داخلكم" الوارد في إنجيل لوقا ١٧: ١٢، يعني ملكوت الله هو بينكم الآن: « وما سأله الفريسيون متى يأتي ملكوت الله ؟ أجابهم لا يأتي ملكوت الله بمراقبة، ولا يقولون هوذا ها أو هوذا هناك، لأن ها ملكوت الله في داخلكم » - لوقا ١٧: ٢١.

ولكن يسوع قدّم منذ البدء مفهومه الخاص لملكوت الله، وميزه بجدّة عن المفهوم السائد لدى يهود عصره، الذين كانوا ينتظرون مسيحاً سياسياً من سلالة داود، بعيد مجد إسرائيل ويخضع جميع الأمم تحت قدميها، ثم يسلم الحكم إلى يهوه. فملكوت يسوع ملكوت روحي، وكان متحفظاً تجاه لقب المسيح وفضل عليه دوماً لقب ابن الإنسان، لما للقب المسيح من تداعيات سياسية، كما أنه تحفظ تجاه لقب الملك ولم يقبله إلا باعتبار ما سيأتي من صعوده إلى السماء وجلسه عن يمين الآب، لأن مملكته ليست مملكة أرضية بل مملكة روحانية. وعندما سأله بيلاطس في المحكمة عما إذا كان ملك اليهود، لم يكرّر لقب توماً وإنما أعطاه روحانياً: « ليست مملكتي من هذا العالم. ولو كانت مملكتي من هذا العالم لكان حلامي يجاهدون لكي لا أسلم إلى اليهود. ولكن الآن ليست مملكتي هنا. فقال له بيلاطس: أفأنت إدن ملك. أجاب يسوع: أنت تقول إني ملك. لهذا ولدت أنا، ولهذا أتيت إلى العالم لأشهد للحق » - يوحنا ١٨: ٣٦-٣٧. لقد كان يسوع في إجابته على سؤال بيلاطس واضحاً كـ

الوضوح ودقيقاً في تحديده مفهومه عن أنثك، كما كان منسجماً مع مواقفه السبئية. فعندما تنعته الجموع بعد معجزة تكثير السمك والخبز ونادوا به ملكاً هرب وتوارى عن الأنظار: « وأما يسوع فإذا علم انهم مزمعون أن يأتوا ويحفظوه ليجعلوه ملكاً، انصرف أيضاً إلى الجليل وحده » يوحنا ٦ : ١٥.

إن مفهوم يسوع عن ملكوت الله هو عصر تتم فيه معرفة الناس للآب، ويمد إليهم يده لتخليصهم من الخطيئة الأولى ومن الموت ومن سلطانة أمير الظلام. فالملكوت رابطة روحية تجمع المؤمنين إلى بعضهم وتجمعهم إلى خالقهم، بعد عصور الظلام التي باعدت بينهما. وإذا كان الملكوت قد حل بظهور المخلص، وموته الطوعي فداءً للبشرية الخاطئة، فإنه سوف يستمر رداً من الزمن كاف لتنتيقه عناصر الخير من عناصر الشر، وحرمان الشيطان مما تبقى له من سلطة على العالم. عندها سيعود ابن الإنسان على غمام المجد في اليوم الأخير ليختتم الزمن ويفتح الأبدية.

وعلى عكس ملكوت الرب اليهودي، فإن ملكوت يسوع يشمل جميع الأمم والشعوب. ولقد أكد في أكثر من قول له عدم أهلية اليهود لدخول هذا الملكوت، رغم اعتقادهم القديم بأنهم أصحابه الشرعيين: « وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغرب ويتكثرون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السموات، وأما بوا ملكوت (أي اليهود) فيطرحون إلى الظلمة الخارجية » متى ٨ : ١٢. وأيضاً: « لذلك أقول لكم أن ملكوت الله يُزرع منكم ويُعطى لأمة تعمل أعماله » - متى ٢١ : ٤٣. وهو يقول لليهود صراحة بأنهم لم يعرفوا الله قط، وإن أباهم الحقيقي هو إبليس: « لستم تعرفوني أنا ولا أبي. لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً.. أنتم من أسفل. أما أنا فليست من هذا العالم. فقلت إنكم تموتون في خطاياكم ... أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا ... الذي من الله يسمع كلام الله. لذلك أنتم لستم من الله ... أبي هو الذي يحلني الذي تقولون إنه إلهكم ولستم تعرفونه، وأما أنا فأعرفه » يوحنا ٣ : ١٨-٢٤، و ٤٤-٤٧ و ٥٤-٥٥.

ولكن إذا كان ملكوت الله حاضراً هنا والآن، فكيف للإنسان أن يتمي إليه ويخلص من رقة الشيطان ؟ إن ما تبقى من تعاليم يسوع تدور حول الإجابة عن هذا السؤال. وهي تدور حول أربعة عناصر هي: ١- الأخلاق ٢- الإيمان ٣- المحبة ٤- الشريعة الجديدة.

بعد أن ابتدأ يسوع يكرز ببشارة الملكوت، كان أول من انضم إليه أربعة هم سمعان وأندراوس ويعقوب ويوحنا. وكان يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويشفي كل مرض، فتهبته جموع كثيرة. ولما رأى الجموع صعد إلى الجليل وجلس. وهناك ألقى أولى مواعظه الأخلاقية. وهي المعروفة بموعظة الجبل، وفيها يحدد الخطى لخطى العامة للأخلاقية المسيحية. الموعظة تتصل في إنجيل متى كمل الإصحاحات الخامس والسادس والسابع. وهذه مقتطفات منها:

« طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للحرزى لأنهم يتعززون. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون. طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعابون الله ... قد سمعتم أنه قيل للقديماء، لا تقتل، ومن قتل فإن يكون مستوجباً للحكم. وأما أنا فأقول لكم إن من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجباً للحكم ... فإذا قدّمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك عليك شيئاً عليك، فاترك هناك قربانك قدام المذبح وادهب أولاً اصططح مع أخيك. قد سمعتم أنه قيل للقديماء لا تزن. وأما أنا فأقول لكم إن كل من ي نظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنى بها في قلبه. سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخرّك ميلاً واحداً فامتن معه ميلين اثنين، ومن سألَكَ فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه. سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعبيكم، احسنوا إلى مبغضيك، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم ... احترزوا أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروا إليكم ... وأما أنت فمَن صعد صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل بميك لكي تكون صدقتك في الخفاء.. لا تكبروا لكم كنوزاً على الأرض، بل اكسروا لكم كنوزاً في السماء.. لا تُدبتوا كي لا تُدبتوا، لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون، وبالكيل الذي تكيلون به يكال لكم.. اسألوا تُعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم.. كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هذا بهم.. ادخلوا من الباب الضيق لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك. م اضيق الباب واكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، وقيل هم الذين يجدونه».

ولكن الأخلاق وحدها لا تكفي، بل لا بد من الإيمان يسوع مسيحاً ومخلصاً: «الذي يؤمن بالابن له حياة أبدية، والذي لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» - يوحنا ٣: ٣٦. «الذي يؤمن به لا يدان، والذي لا يؤمن فقد دُين لأنه لم يؤمن بابن الله الوحيد» - يوحنا ٣: ١٨. «من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» - يوحنا ١١: ٢٥-٢٦. «فقالوا له: ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟ أجاب وقال لهم: هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي أرسله» - يوحنا ٦: ٢٨-٢٩. «الحق أقول لكم، إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية» - يوحنا ٦: ٤٧. «الحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجمل انتقل من هنا إلى هنالك فينتقل» - متى ١٧: ٢٠.

ومع الأخلاق والإيمان هناك المحبة: «وصية جديدة أنا أعطيككم. أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبون أيضاً بعضكم بعضاً» - يوحنا ١٣: ٣٤. «أيها الأحباء. إن كان الله قد أحبنا، هكذا ينبغي لنا أيضاً أن نحب بعضنا بعضاً... الله محبة. ومن يثبت في المحبة يثبت في الله، والله فيه... إن قال أحدكم إني أحب الله وأبغض أخاه، فهو كاذب، لأن من لا يحب أخاه الذي أبصره كيف بقدر أن يحب الله الذي لم يبصره» - رسالة يوحنا الأولى: ٤: ١١-٢٠. وعندما سأل يسوع واحداً ناموسي ليحبره قائلاً: «يا معلم أية وصي هي العظمى في الناموس؟ فقال له يسوع: تحب الله إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. والثانية مثلها، تحب قريبك كحبك لنفسك. هاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء» - متى ٢٢: ٣٥-٤٠.

أما عن شريعة يسوع الجديدة، فإن يسوع، وهو يعلن إنجيل الملكوت، يفتح نظاماً دينياً جديداً كل الحدة. فالشريعة والأنبياء أمر ينتهي مع يوحنا المعمدان (لوقا ١٦: ١٦). ورغم أن يسوع قد قال: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل»، وهو قول ينبغي عدم أخذه بحرفيته، فقد ألقى يسوع شريعة العهد القديم بحجرة قلم عندما قال: «الست إنما جعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت» - مرقس ٢: ٢٧، وذلك في رده على الفريسيين

الذين رأوا تلاميذه يقطفون السنابل وهم سائرون بين الزروع لسد جوعهم. وعندما احتج الفريسيون على يسوع لأن تلاميذه لا يصومون. قال لهم إن خمر الإنجيل، وهي شريعة يسوع، لا يمكن صيها في أوعية قديمة هي شريعة العهد القديم: «ليس أحد يخطئ رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق، وإلا فالملء الجديد يأخذ من العتيق فيصير الخرق أردأ. ونيس أحد يجعل خمرًا جديدة في زقاني (=جرار) عتيقة لئلا تشق الخمر الجديدة الزقاق؛ والخمر تنصب والزقاق تتلف» - مرقس ٢: ٢١-٢٢. وعندما دخل يسوع المجمع «وكان هناك رجل يده يابسة. فصاروا يراقبونه هل يشفيه في السبت. فقال لرجل نسي له اليد اليابسة: قم في الوسط. ثم قال لهم: هل يحل في السبت فعل الخير أو فعل الشر؟ تخليص نفس أو قتل؟ فسكنوا فنظر حوله إليهم بغضب حرياً على غلاظه قوتهم، وقال للرجل: مَد يدك. فمدها، فعادت صحيحة كالأخرى» - مرقس ٣: ١-٥. وعندما رأى اليهود أن بعضاً من تلاميذه يأكلون بأيد غير مغسولة، لاموه على عدم تقيدهم بالشريعة فقال لهم: «ليس شيء من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه. لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجس الإنسان.. لأنه من الداخل، من قلوب الناس، تخرج الأفكار الشريرة» - مرقس ٧: ١٤-٢١. وفي قوله المشهور: «أريد رحمة لا ذبيحة» - متى ٩: ١٣ يقوض مؤسسة القربان اليهودي في شريعة موسى، ويعين سدى الطقوس التوراتية مؤسساً لصقوس تقوم على القلب لا على الدم. لقد تجاوز موسى ولم يعد للهيكلي اليهودي مل يبرر بقاءه. وهذا ما يعلن عنه صراحة في خطابه للمرأة السامرية التي طبت أنه نبي يهودي: «قالت له المرأة: يا سيد أرى أنك نبي. آباؤنا سجدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجد فيه. فقال لها: يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب. أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، وأما نحن فسجد لما نعلم». ثم يتابع فيقول إن الخلاص لا يتم قبل التخلص من اليهود: «.. لأن الخلاص هو من اليهود. ولكن تأتي ساعة وهي الآن، حين الساحدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح وحق» - يوحنا ٤: ١٩-٢٣.

لقد كان اليهود يحملون نير الشريعة، أما المؤمنون الجدد فيحملون نير المسيح، وهو نير هين وخفيف. قال يسوع: «تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا

أُرِيجُكُمْ. اجهلوا نيري عليكم وتعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم، لأن نيري هين وحملتي خفيف» متى ١١: ٢٨-٣٠. فصيما عدا الصلاة اليومية السبطة التي تؤدي لمرة واحدة بكلمات قليلة، لم يؤسس يسوع إلا لطقسين اثنين هما العماد والإفخارتسيا (=القربان المقدس).

لم يكن طقس العماد، أو المعمودية، بالطقس الجديد. فقد كان يوحنا المعمدان يعمد بالماء من أجل التوبة وغفران الخطايا، وكان يسوع من بين من تقدموا للاعتماد على يديه، جاعلاً نفسه بين الخطاة كأبي إنسان آخر، لكي يحمل خطيئة العالم على كاهله ويموت فيما بعد لأجل خلاص هذا العالم. ولكن المعمودية المسيحية التي فرضها يسوع تتخذ معنى إضافياً، فهي علامة الميلاد الجديد وبوابة الدخول إلى كنيسة المسيح. إنها بالنسبة للعهد الجديد بمثابة الختان في العهد القديم، كلاهما علامة على العهد. كما أنها شرط الخلاص، مثلها مثل الإحلاص والمحبة والإيمان: «الحق أقول لكم، إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.. وبعد هذا جاء يسوع وتلاميذه إلى أرض (مقاطعة) اليهودية، ومكث معهم هناك، وكان يُعمد» - يوحنا ٣.

أما طقس الإفخارتسيا فقد أسس له يسوع في عشائه الأخير مع تلاميذه. والكلمة يونانية، وتعني من حيث المبدأ العرفان بالجميل وإبداء الشكر. وفي العهد الجديد استخدمها يسوع عند افتتاحه تناول الطعام، فهي نوع من صلاة الشكر لله على نعمه: «وأخذ يسوع الأرزفة وشكر ووزع على التلاميذ» يوحنا ٦: ١١. «ثم أخذ الأرزفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره إلى السماء وبارك وكسر وأعطى الأرزفة للتلاميذ» - متى ١٤: ١٩. في مشهد العشاء الأخير نقرأ في إنجيل متى: «ولما كان المساء اتكأ مع الاثني عشر... وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال: خذوا كلوا، هذا هو جسدي. وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا» - متى ٢٦: ٢٦-٢٨. ونقرأ عند يوحنا: «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية، وأنا أقيم في اليوم الأخير.. من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في ونا فيه» - يوحنا ٦: ٥٤-٥٦. بهذا الطقس يتم اتحاد المؤمنين بالمسيح. ومن خلال آلامه وموته وقيامته يعبرون معه من عالم الخطيئة عالم الشيطان، إلى عالم الحرية والسعادة، عالم الرحمن. من عبودية الموت إلى رحاب الأبدية.

مراحل الملكوت واليوم الأخير

اكتملت سلسلة الأنبياء عند يوحنا المعمدان، كما اكتملت الأزمنة وافتتح عصر الملكوت. فالملكوت قائم الآن، كما علم يسوع في أكثر من قول له: «أما تقولون إنه يكون أربعة أشهر ثم يأتي الحصاد؟ ها أنا أقول لكم ارفعوا وانظروا الحقول إنها قد ابيضت للحصاد، وحاصد يأخذ أجره ويجمع ثماراً للحياة الأبدية» - يوحنا ٤: ٣٥-٣٦. ونكس لا يزال هناك وقت يفصل افتتاح الملكوت عن تحقيقه كاملاً وهو الوقت الذي يصل خلاله كل من اتحدوا بالمسيح قوى الشيطان، عاملين على تطوير الملكوت والوصول به إلى غايته الأخيرة: «يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وررعها في حفله، وهي أصغر جميع البذور ولكن متى نمت فهي أكبر البقول، وتصبح شجرة حتى إن طيور السماء تأتي وتتاوى في أغصانها. وقال لهم مثلاً آخر. يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وحباها في ثلاثة أكياس دقيق حتى احترمت الجميع» - متى ١٣: ٣١-٣٣.

هذه الفترة الوسيطة من تنامي الملكوت، تمتد فترة غير محددة عقب موت وقيامه يسوع، وتنتهي بالجيء الثاني في اليوم الأخير. لقد ظهر الابن في مجيئه الأول على هيئة إنسان هو يسوع الناصري ابن مريم، وأما في مجيئه الثاني فسيأتي إلهاً دياناً ينهي العالم القديم ويقيم على أنقاضه عالماً جديداً يرثه المؤمنون: «فإن ابن الإنسان يأتي في مجد أبيه مع ملائكته. وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله» - متى ١٦: ٢٧. ولقد منح يسوع أكثر من مرة إلى قرب المجيء الثاني: «الحق أقول لكم إن من القائمين هنا قوماً لا يدركون انوت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته» - متى ١٦: ٢٨. إلا أنه ترك في أقوال أخرى موعد هذا المجيء مفتوحاً: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا ملائكة السموات، إلا أبي وحده» ولهذا فهو يدعو المؤمنين إلى السهر والترقب والترود لذلك اليوم: «أسرعوا إذًا، لأنكم لا تعلمون في أية ساعة يأتي ربكم. واعلموا أنه لو عرف رب البيت في أي هريع يأتي السارق لسهر ولم يدع بيته يُنقب. لذلك كونوا أيضاً مستعدين، لأنه في ساعة لا تظنون، يأتي ابن الإنسان» - متى ٢٤: ٣٦-٤٤.

ومع ذلك، فقد أعطى يسوع بعضاً من علامات الساعة وإشاراتها: « تقدم إليه تلاميذه قائمين: قل لنا متى يكون هذا، وما هي علامة مجيئك وانقضاء الدهر؟ فأجاب يسوع ... سوف تسمعون بحروب وأحار حروب. انظروا ولا ترتاعوا، لأنه لا بد أن تكون هذه كلها. ولكن ليس المنتهى بعد. لأنه تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن. ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع ... الذي يصير إلى المنتهى فهذا يخلص. ويكفر ببيشارة سكوت هذه في كل المسكونة، شهادة لجميع الأمم، ثم يأتي المنتهى ... فحينئذ ليهرث نذير في اليهودية إلى الجبال، والذي على السطح فلا يزل ليأخذ من بيته شيئاً، والذي في الحقل فلا يرجع إلى ورثته ليأخذ ثيابه. وويل للحبال والمرضعات في تلك الأيام ... بعد صيق تلك الأيام تُظلم الشمس، والقمر لا يُعطي ضوءه، والنجوم تسقط من السماء، وقوات السماء تنزعزع، وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء. وحينئذ تنروح كل قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحب السماء بقوة ومجد كثير. فيرسل ملائكته يوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه » متى ٢٤: ٣-٣٠.

ويتحدث يسوع عن مسحاء كذبة يظهرون قبل اليوم الأخير فيضلون الناس: « لا يضلكم أحد. فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين أنا هو المسيح ويصلون كثيرين » - متى ٢٤: ٤-٥. وفي رسائل الحواريس يجري الحديث عن المسيح مزيف أو دجال يظهر في آخر الزمن ويدعى نقيض المسيح أو ضد المسيح: « يا أيها الأبناء هي الساعة الأخيرة. وكما سمعتم أن ضد المسيح يأتي، قد صار الآن أضداد للمسيح كثيرون. من هنا تعلم أنها الساعة الأخيرة » - رسالة يوحنا الأولى ٢: ١٨. « أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح، بل امتحنوا الأرواح هل هي من عند الله. كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله، وكل روح لا يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا هو روح ضد المسيح الذي سمعتم إنه يأتي، والآن هو في العالم » رسالة يوحنا الأولى ٤: ١-٣. ويطور بولس في رسالته شخصية الدجال ويعدد ألقابه، فيدعوه ابن الهلاك والمقاوم والأثيم، وجميعها من ألقاب الشيطان. والدجال يأتي قبل المجيء الثاني للمسيح فيحاكي هيئته في مجيئه، وموعده

الخاص المعين من الله، ويصنع آيات ومعجزات فائقة تدفع ضعفاء الإيمان إلى مواكبته والانصياع إليه. وهو الآن محجوز بقوة مجهولة، ولكنه سوف ينطلق من مكان احتجازه لينجز آخر هجوم لقوى الشيطان في هذا العالم. وعندما يظهر المسيح سوف يبيده بنفخة من فمه ويبطه بظهور مجيئه الثاني (٢ تسالونيكي ٢: ٣-١١). وفي سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي. هالك مشهد رؤيوي يصف ظهور الدجال على هيئة وحش طالع من البحر. أعطاه إبليس قدرته وعرشه وسلطاناً عظيماً ولهذا الوحش سبعة رؤوس كتب على كل واحد منها كلمة كافر أو مجدف. فصنع عجائب وأعطى سلطاناً على الأرض اثنين وأربعين شهراً، فسجد له وإبليس كل من ليس منذوراً للخلاص (رؤيا يوحنا ١٣).

واليوم الأخير هو يوم الديونة الذي يشهد بحث الموتى من قبورهم، ونشورهم إلى الحساب حيث يقفون أمام ديوان العالم، ابن الإنسان، الذي تجتمع أمامه كل الشعوب فيميز بعضهم عن بعض ويقيم المباركين عن يمينه، وهؤلاء هم أهل اليمين، ويقيم الملاعين عن يساره، وهؤلاء هم أهل الشمال: « ثم يقول الملك للذين عن يمينه تعالوا يا مباركي أبي لثروا المذكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم.... ثم يقول للذين عن يساره اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملأته... فيمضي هؤلاء إلى عذاب أبدي والأبرار إلى حياة أبدية » - متى ٢٥: ٣١-٤٦. « إن كل كلمة بطلاة يتكلم بها الدس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين. لأنك كلامك تثبر وبكلامك تدان » - متى ١٢: ٣٦-٣٧. « هكذا يكون في انقضاء العالم، يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من الأبرار ويطرحوهم في أتون النار. هناك يكون البكاء وصري الأسنان » - متى ١٣: ٤٩-٥٠.

ولدينا في إنجيل لوقا حوار حول واحد من أهل الجحيم وآخر من أهل الجنة، يعطينا صورة عن أحوال ساكني هذين العالمين. فقد « كان إنسان غني وكان يلبس الأرجوان والبر وهو يتنعم كل يوم مترهاً. وكان هناك مسكين اسمه لعازر طُرح عند بابه مضروباً بالقروح ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغني. فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم، ومات الغني أيضاً ودُفن. فرفع عينيه وهو

في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه، فنادى وقال: يا أبي إبراهيم ارحمني وأرس لعازر ليبل لإصبعه بماء ويبرد طرف لساني لأني معذب في هذا اللهب. فقال إبراهيم: يا أبي اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك، وكذلك (استوفى) لعازر البلايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب « لوقا ١٦: ١٩-٢٥.

ويعصف يسوع في إيجل لوقا حياة أهل النعيم بأنها أشبه بحياة الملائكة. فعندما جاء قوم من الصدوقيين الذي ينكرون القيامة والمعاد، وسألوه عن امرأة تروحت سبعة أخوة على التوالي ماتوا جميعاً، فلمن تكون المرأة من بينهم يوم القيامة؟ فأجاب يسوع: « أثناء هذا الدهر يزوجون ويزوجون. ولكن الذين حُسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر، والقيامة من الأموات، لا يزوجون ولا يزوجون. لأنهم مثل الملائكة، وهم أبناء الله، إذ هم أبناء القيامة » - لوقا ٢٠: ٢٧-٣٥. كما أنه وعد الأبرار بالجلوس على مائدته السماوية ليأكلوا ويشربوا: « أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي. وأنا أجعل لكم كما جعل أبي ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي، وتجلسوا على كراسي تديون أسباط إسرائيل » - لوقا ٢٢: ٢٨-٣٠. وهؤلاء يضيئون كالشمس في ملكوت أبيهم: « حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم » - متى ١٣: ٤٣. وهم يشربون بصحة المسيح من نتاج الكرمة: « وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم، حينما أشربه معكم جديداً في ملكة أبي » - متى ٢٦: ٢٩.

فلذا انتقلنا إلى الكرازة الرسولية وجدناها تعطي تفاصيل أخرى بخصوص قيامه الموتى ومصيرهم. فعند بولس، فإن الراقدين المؤمنين سيقومون على صوت نفخة الصور ويخطفون لملاقاة المسيح الهابط على سحب العمام: « لأننا إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون، يسوع سيحضرهم الله أيضاً معه.. لأن الرب ينفخ بصوت رئيس ملائكة ويوق الله، سوف ينزل من السماء. والأموات في المسيح سيقومون أولاً، ثم نحن الأحياء الباقين سوف نُخطف جميعاً معهم في السحب لملاقاة الرب في الهواء. هكذا نكون كل حين مع الرب » - ١ تسالونيكي ٤: ١٤-١٧. وهناك يرى المنعم عليهم وجه الله: « أيها الأحياء الآن نحن أولاد الله، ولم يُظهر بعد

ماذا سنكون. ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سره كما هو» - رسالة
يوحنا الأولى ٣: ٢.

ورغم تأكيد بولس على البعث المادي للأجسام، إلا أنه يقول — إن هذه
الأجسام المادية بعد بعثها سوف تلبس حلة نورانية سماوية: « هكذا أيضاً قيامة
الأموات: يُزرع الجسم في فساد ويُقام في عدم فساد، يُزرع في هوان ويُقام في مجد،
يُزرع في ضعف ويُقام في قوة، يُزرع جسماً حيوياً ويُقام جسماً روحانياً.. وكما
لبسنا صورة الترابي سنلبس صورة السماوي أيضاً» ١ كورنثة ١٥: ٤٢-٤٤ و ٤٩.
وينفخ الملائكة في الصور سبع مرات. وعند الصور السابع يستيقظ الموتى في أجساد لا
ينالها الفساد، كما تتغير أجساد من كان حياً أيضاً: « في لحظة، في طرفة عين، عند
البوق الأخير، فإنه سيُوق فيقام الأموات عديمي فساد، ونحن نتغير. لأن هذا الجسد
الفاسد لا بد أن يلبس عدم فساد، وهذا الدائم يلبس عدم موت ». وبذلك يتم
انتصار المسيح على الموت وعلى العالم الأسفل: « فحينئذٍ نصير (تتحقق) الكلمة
المكتوبة: ابتلع الموت إلى غلبة. أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا هاروبة» -
١ كورنثة ١٥: ٤٣-٥٥.

في سفر الرؤيا، ليوحنا اللاهوتي، وهو آخر أسفار العهد الجديد، لدينا تفاصيل
عن اليوم الأخير مكتوبة بأسلوب رؤيوي رمزي، مما عهدناه في لأسفار الرؤيوية
الأخرى، نقتطف منها المقاطع التالية: « ونظرت، وإذا زلزلة عظيمة حدثت، والشمس
صارت سوداء كدم، والقمر صار كالدم، ونجوم السماء سقطت إلى
الأرض كما تطرح شجرة التين سقاطها إذا هزتها ريح عظيمة. والسماء انفلقت
كدرجٍ منتفج، وكل جبل وجزيرة ترحزحاً عن موضعهما. وملوك الأرض والعظماء
والأغنياء والأقوياء وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم في المغاير وفي صخور الجبال،
وهم يقولون للجبال وللصخور اسقطي علينا وأخفينا » ٦: ١٢ - ١٦. « ثم حدث
سكوت في السماء نحو نصف ساعة. ورأيت السبعة الملائكة الذين يقفون أمام الله وقد
أعطوا سبعة أبواق... ثم إن السبعة الملائكة الذين معهم السبعة الأبواق همأوا لكى
يوقوا. فبوق الملاك الأول فحدث برد و نار مخلوطان بدم وألقيا على الأرض. فاحترق

ثلث الأشجار واحترق كل عشب أنحصر. ثم بوق الملاك الثاني فكان جبلاً عظيماً متقدماً بالنار ألقى إلى البحر، فصار ثلث البحر دماً ومات ثلث الخلائق التي في البحر وأهلك ثلث السفن. ثم بوق الملاك الثالث فسقط من السماء كوكب عظيم متقد كمصباح، ووقع على ثلث الأنهار وعلى ينابيع المياه، ومات كثيرون من الناس من المياه لأنها صارت مراً. ثم بوق الملاك الرابع فضربت ثلث الشمس وثبتت لقمرة وثلث النجوم. ثم بوق الملاك الخامس فرأيت كوكباً سقط من السماء وأعطى مفتاحاً بئر الهاوية، ففتح بئر الهاوية فصعد دخان من البئر كدخان اتون عظيم، ومن الدخان خرج جراد على الأرض فأعطى سلطاناً كما للعقارب وعذابه كعذاب عقرب إذا لدع إنساناً. وفي تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه.... ثم بوق الملاك السادس فسمعت صوتاً قائلاً للملاك: فك الأربعة الملائكة المنقيدين عند نهر الفرات العظيم، فانك الأربعة الملائكة المعدون للساعة لكي يقتلوا ثلث الناس... وأما بقية الناس الذي لم يقتلوا هذه الصربات فلم يتوبوا عن أعمال أيديهم... ثم بوق الملاك السابع فحدثت أصوات عظيمة في السماء قائلة: قد صدرت ممالك العالم لدينا ومسيحه، فسيملك إلى أبد الآبدين « ٩ ١١ ».

« ثم نظرت، فإذا سحابة بيضاء وعلى السحابة جالس شبه ابن إنسان، على رأسه إكليل من ذهب وفي يده منجل حاد. وخرج ملاك آخر من الهيكل يصرح بصوت عظيم إلى الجالس على السحابة: أرسل منجلك واحصد لأنه قد جاءت ساعة الحصاد إذ يس حصيد الأرض. فالقي الجالس على السحابة منجله على الأرض فحصدت الأرض. ثم رأيت آية أخرى في السماء، سبعة ملائكة معهم السبع الصربات الأخيرة لأن ما أكمل غضب الله... وسمعت صوتاً عظيماً من الهيكل قائلاً للسبعة الملائكة: امضوا واسكبوا جامات غضب الله على الأرض... فسكب الملاك الأول جامه على الأرض فحدثت دمايل خبيثة على الناس، وسكب الملاك الثاني جامه على البحر فصار دماً. ثم سكب الملاك الثالث جامه على الأنهار والينابيع فصارت دماً، ثم سكب الملاك الرابع جامه على الشمس فأحرقت الناس بنارها... ثم سكب الملاك الخامس جامه على عرش الوحش (= الدجال) فأباد مملكته، ثم سكب الملاك السادس

جامه على النهر الكبير الفرت فششف ماؤه، ثم سكب الملاك السابح جامه على الهواء فحدثت رعود وبروق وزلازل عظيمة فزالت الجزر والجبال، ثم نزل بردٌ ثقيل من السماء على الناس» ١٤ ١٦.

«ورأيت ملاكاً -رداً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده، فقبض على التنين. حية القديمة، الذي هو إبليس والشیطان، قيده ألف سنة وطرحه في الهاوية وأغلق عليه^(١). وعُتِم عليه لكي لا يُضل الأمم في ما بعد، حتى تتم الألف سنة، وبعد ذلك لا بد أن يُحْضَ رماناً يسيراً...» بعد ذلك يقيم المسيح مملكته على الأرض ويعيش مع المؤمنين ألف سنة: «ثم متى تمت الألف سنة، يُحل الشيطان من سجنه ويخرج ليصل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض (وهم) حوج وماحوج ليجمعهم للحرب. الذين عددهم مثل رمل البحر. فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبامدية المحبوبة. فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم. وإبليس الذي كان يضلهم طرح في بحيرة النار والكبريت.. ثم رأيت عرشاً عظيماً أبيض (ورأيت) الجالس عليه الذي من وجهه هربت الأرض والسماء ولم يوجد لهما موضع. ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام الله... وسلم البحر الأموات الذين فيسه، وسلم الموت والهاوية الأموات الذين فيهما، ودينوا كل واحد بحسب أعماله. وطرح الموت والهاوية في بحيرة النار» - ٢٠.

خلاصة

لا تنشأ أية عقيدة دينية في فراغ ثقافي تام، ولا بد للعقيدة الجديدة من أن تستوعب الفكر الديني السائد في الثقافة التي نشأت فيها، فتستفيد منه ومن المفاهيم والصور والمادج الراسخة في الصميم الشعبي، لتصب أفكارها الجديدة فيها فتعطيها معاني وأبعاد جديدة، ثم تتجاوزها نحو تركيب مغاير كل المعايير. فمسيحية هي نتاج الفكر التوراتي المسحول^(٢) الذي قصرت ثورته الدينية الصامتة (كما دعوناها) عن

(١) انظر صورة الغلام، وهي بريشة الشاعر الإنكليزي وليم بليك.

(٢) وذلك إضافة إلى تأثيرها بالبيئة السورية والمسيحية الأوسع. فالعقيدة الجديدة دوماً مثل هر عري في واد عميق تنضم إليه الروافد لتفقد نفسها فيه وتدوب.

زعزعة المؤسسة الدينية اليهودية رغم تأثيره البالغ فيها. ولكن الفكر المسيحي كما تبلور في الأناجيل وفي كرازة الرسل، وخصوصاً بولس، قد يتجاوز أصوله في ذلك الفكر المنحول مثلما تجاوز أيضاً الفكر التوراتي؛ فأسس لعقيدة أصيلة ذات طابع إنساني كوني قل مثيلها في تاريخ الدين.

الرحمن والشيطان في المعتقد الإسلامي

يقوم المعتقد الإسلامي على الإيمان بالله إلهاً واحداً وخالقاً واحداً. ويتبع هذا الركن الأساسي في إيمان المسلم عدد آخر من أركان الإيمان، تفصيلها لنا الآية ١٣٦ من سورة النساء: «يا أيها الذين آمنوا، آمنوا بالله ورسوله، والكتاب الذي نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل. ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، فقد ضلّ صلاباً بعيداً». غير أن هذا الإيمان وحده لا يكفي لإسلام المرء، بل لابد من اقترانه بالعمل الصالح، وتحليه على أرض الواقع من خلال السلوك الأخلاقي القويم. ويتضح لنا مدى اقتران الإيمان بالأخلاق، في النص القرآني، من تكرار ورود كلمة "الإيمان" وتصريفاتها المختلفة، في ارتباط مع العمل الصالح. وذلك كقوله تعالى: «وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى». «والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة». «ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله الجنة». لقد ورد الإيمان بالله مقترناً بالعمل الصالح حوالي خمسين مرة في النص القرآني (والإيمان بالله أينما ورد يتضمن حكماً الإيمان برسوله وبالكتاب الذي نزل على رسوله)، وورد مقترناً باليوم الآخر حوالي ثمانية عشر مرة، وبالكتب السماوية والرسول والملائكة حوالي عشر مرات. وهذا يدل على أن المسلم الذي ينطق بالشهادتين لا يصح إيمانه إلا إذا تجلّى في السلوك الأخلاقي أولاً. وبالإيمان باليوم الآخر ثانياً، ثم بالكتب السماوية والرسول والملائكة ثالثاً.

لا يشكك الإيمان بالشیطان عنصراً من عناصر العقيدة القرآنية، ولكن الاعتقاد بوجوده ودوره في حياة الفرد واجمعة أمر مفروض على كل مسلم. فاستيطان عدو للإنسان يترصد به عند كل روية وباب ليضله عن سبل الحق: «ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين» البقرة ٢٠٨. «إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبياً» - الإسراء ٥٣. «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء» البقرة ٢٦٨. «ويريد الشيطان أن يضلكم صلاً لا بعيداً» - النساء ٦٠. «إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء» - النمل ٩٤. «وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل» - النمل ٢٤. فنحن الشيطان على نفسه عهداً. منذ أن خلق الله آدم، بالإيقاع بالإنسان ونزوين المنصية له وحرفه عن سبل الحق والخلق القويم: «قال فيما أوعيتني لأفعلن هم صراطك المستقيم. ثم لأتيتهن من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شكركين» - الأعراف ١٦-١٧.

رغم ما يبدو من شبه ظاهري بين الشيطان في معتقد قرآني وشيطان العقائد الثنوية، فإن فحوى المعتقد القرآني يختلف عن فحوى التوحيث الجذرية والمطلقة في نقطة مدئية حاسمة. وهي أن الشيطان في الإسلام ليس سراً مخمراً ولا حتى بصورة مرحية مؤقتة، ولذا فإنه لا يتمتع بالسيطرة أو القوة اللارميتين للخلق، أو للتدخل في مظاهر خلق الله وإفسادها: «أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون» النحل ١٧. «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه» - لقمان ١١. كما يختلف فحوى المعتقد القرآني عن فحوى لثويات الأخلاقية في نقطة حاسمة أخرى، وهي أن الشيطان ليس مبدأ كويماً للشر، وليس حاكماً على مملكة لشر تقع في مواجهة مملكة أخرى للخير، كما أنه ليس متصرفاً بشؤون هذا العالم يتصرف به كما يشاء خلال الفترة الوسيطة من التاريخ. فخير والشر احتمالان مجردان وخياران أخلاقيان سيّرهما الله لبني البشر ليكونا موضوعاً لبحرية التي وهبها، تمييزاً لهم وتكريماً على بقية الكائنات غير العاقلة: «كل نفس ذائقة الموت. ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإليكم ترجعون» - الأنبياء ٣٥.

ورغم سلطة الشيطان على المجال الأخلاقي وحده من دون بقية المجالات، فإن مقدرته على التأثير في هذا المجال محدودة أيضاً، لأن سلطانه يقتصر على الأشخاص

الذين اتخذوا خياريهم واتخاؤا إلى جانب الشر، فهو يعاضدهم ويزيد في غيهم. أما من اختار جانب الخير فلا سلطان لشيطان عليه. وهذا ما تنص عليه آيات كثيرة عديدة: «إنه ليس له سلطان على سبي آمنوا وعلى رحمهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه وهم به مشركون» - لحن: ٩٩ - ١٠٠. «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلًا» - يسراء: ٦٥. «إن عبادي ليس لك عليهم من سلطان، إلا من اتبعك من الغاوين» - حجر: ٤٢. «ولقد صدق عليهم إبليس ظله فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، وما كان نه عليهم من سلطان» - سبأ: ٢١. وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم. وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي. فلا تومئوني ولوموا أنفسكم» - إبراهيم: ٢٢.

وإننا لو احدثنا في مودي قول الشيطان أعلاه: «وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم، فلا تلموني ولوموا أنفسكم» خلاصة مفهوم الخير والشر في المعتقد القرآني. فهذا النزاعان موجودان في النفس الإنسانية ولا يأتيها من خارجها: «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها» - الشمس: ٧-٨. أمام هذهحنة الكبرى يقف الإنسان بكل عزة وكرامة تليق بخليفة الله على الأرض، ليكافح الشر في داخله وفي خارجها، ويسير بالتاريخ نحو غاية سامية، والخروج به من عالم المتناقضات إلى عالم الخير الكامل. «هو الذي جعلكم خلائف في الأرض. فمن كفر فعليه كفره» - فاطر: ٣٩. لقد قبل الإنسان ما وهبه الله من وعي ومن حرية وتحمل مسؤولية هذه الهبة، وما عليه سوى السير في درب التاريخ الشاق ليثبت أهليته لعطية ربه: «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً» - الأحزاب: ٧٢. أي ظالماً لنفسه بقبوله هبة الله، جاهلاً بعواقب مرقفه البطولي هذا. لقد رفض الإنسان أن يكون جهاداً، أو حيواناً مُشترطاً بغرائزه، أو ملاكاً مسيراً لا إرادة له، وفصل ما تسبعه عليه الحرية من تميز على جميع خلق الله، وما تعطيه هذه الحرية من مغزى ومعنى لحياته، فكان عليه أن يتحمل كل وطأة وجور التاريخ، قبل أن يحقق انتصاراً بعيداً ولكنه مؤكد بعون الله وعطفه.

بعد أن نرى الله الإنسان بالخير والشر. وقبل الإنسان أمانة نوعي الحر والمسؤول. يمكن الله ليقف موقف الحيد تجاه خلقه. فهو الخير المحض وهو الذي يحفظ خلقه المؤمن من شرور إبليس: «فإنه خير، حافظاً، وهو أرحم الراحمين»، يوسف ٦٤. وتتجلى رحمة الله وتطعمه بعباده في عونه لهم ومدهم بالقوة أمام إغواء الشيطان، وتزيين الخير هم: «اركعوا وسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير» - الحج ٧٧. «وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان، وليربط على قلوبكم تشكيل ويتثبت به الأقدام. إذ يوحى ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا المؤمنين» - الأنفال: ١١-١٢. «ولولا فصل الله عليكم ورحمته لا تبغتم الشيطان إلا قليلاً» النساء ٨٣. «وإما يسزعلك من الشيطان نازع فاستعذ بالله، إنه سميع عليم» الأعراف ٢٠٠. «إن الذين انقروا إذا مسهم صائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون» - الأعراف ٢٠١. فالله يريد الخير لعباده، وما يأتيهم الشر إلا من أنفسهم: «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك» - النساء ٧٩. ولكن المبادرة يجب أن تأتي من الإنسان أولاً: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» - الرعد ١١. «من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها» - الباقية ١٥، «يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه» - الانشقاق ٦.

إن دور الشيطان كوكيل للشر وحافظ عليه دور ثانوي، وهو لا يستطيع ممارسة سلطانه إلا على من حجب عو لسيئة واحتار الشر، عند ذلك يغدو الشيطان وليه وموجهاً لخطاه. فالشر يبيع من النفس أولاً ثم يتفاهم بعون الشيطان: «هل سئلت لكم أنفسكم أمراً، فصرت حميلاً والله استعذ» - يوسف ١٨. «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه» - ق ١٦. «وكذلك سولت لي نفسي» - طه ٩٦. من هنا فإن كيد الشيطان ضعيف إذا لم يكن عند الفرد قابلية مسقة لتلقي الكيد: «فقاتلوا أولياء الشيطان، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً» - النساء ٧٦. وهو رغم استقلالته الظاهرية إلا أنه خاضع لرحمن يأمر بأمره متى شاء، فيرسله على من ضل ليزيده ضلالاً: «ومن يغترب عن ذكر الرحمن يقبض له شيطاناً فهو له قرين. وإهم ليصدوهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون» - الزحرف: ٣٦-٣٧. «ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً. فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عذاباً». مريم ٨٣-٨٤. وهو رغم دعوته إلى الكفر إلا أنه يبطن الإيمان والخضوع لرب العالمين: «كمثل الشيطان إذ قال

للإنسان اكفر، فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين» - الحشر ١٦.
 وها هو يعلن أن اتبعه أنه يكفر بإشراكهم له مع الله في الطاعة: « ما أنا، مُعَصِّرُكُمْ^(١)
 وما أنتم مُعَصَّرُحِي. إني كفرت بما أشركتمون من قبل، إن الظالمين لهم عذاب أليم » -
 إبراهيم ٢٢.

والإنسان محيرٌ في سعيه، وهو الذي يحدد مصيره بنفسه: « إنا هديناه السبيل إما
 شاكرًا وإما كفرًا » - الإسراء ٣. ولو شاء الله لآتى بخلق مؤمن منذ البداية، ولكنه
 ارتضى للإنسان مكنة متميزة، وأعلنها للملائكة عندما أمرهم بالسجود لآدم، وذلك
 إشعاراً منه لجميع خلقه بأن الوعي يسمو على كل ما في الكون: « ولو شاء ربك
 لآمن من في الأرض جميعاً. أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » - يونس ٩٨.
 « ولو شاء الله ما شركوا، وما جعلناك عليهم حفيظاً » - المائدة ١٠٧.
 « ولقد خلقناكم ثم صورناكم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم
 يكن من الساجدين » - الأعراف ١١.

ولكن سعي الإنسان وكدحه إلى ربه، لن يقيض له النجاح بغير مدد من عند
 الله وعون. وخلاص الإنسان في النتيجة هو مئة علوية، ورحمة من الله الذي التزم
 بخلاص البشرية منذ البداية: « لهم فيها ما يشاؤون، خالدين، كان على ربك وعداً
 مسئولاً ». « وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن. ومن أوفى بهذه من
 الله » - التوبة ١١١. « إن علينا للهدى، وإن لنا الآخرة والأولى » - الليل ١٢ و١٣.
 « فاصبر إن وعد الله حق واستعفر لذنبك » غافر ٥٥. « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا
 ضراً إلا ما شاء الله » الأعراف ١٨٨. « يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل
 العظيم » - آل عمران ٧٤. « وما كنوا ليؤمنوا، إلا أن يشاء الله » - الأنعام ١١١.
 « ثم يتوب الله بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » - التوبة ٢٧. « ولكن
 يُدخل من يشاء في رحمته » - الشورى ٨. « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب
 العالمين » - التكاوير ٢٩. « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من
 الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم » المائدة ١٦.

١- أي معيكم ومنجكم.

سوف تتضح هذه الأفكار أمامنا بشكل أوسع وأدق من خلال تقصينا لمفهوم التاريخ في القرآن الكريم، وهو المفهوم المركزي الذي يدور حوله تعليم القرآن من أوله إلى آخره. فالآيات والسور تترى لتروي للمؤمنين قصص البدايات والنهايات، خلق العالم وخلق الإنسان، سير الأولين ومن تلاهم إلى يوم الدين. فالتاريخ هو المسرح الذي تتجلى فيه مشيئة الله وقصده الخلاصي. فهو منذ أن تاب على آدم بعد معصيته، ملتزم بتخليص خليفته وهدايته إلى سُبُل العيش القويم، وإلى حياة السـرمدية، بعد عصور الامتحان الطويلة.

يتحرك التاريخ عبر ثلاث مراحل تعقب الحالة السابقة على التكوين عندما لم يكن سوى الله والعرش والماء.

أ - الخلق والتكوين

السـرمدية

لا يوجد في القرآن الكريم سوى آية واحدة تصف الحالة السابقة على الخلق، وهي الآية السابعة من سورة هود: « وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكان عرشه على الماء، ليبوكم أيكم أحسن عملاً » - هود ٧. فقبل ظهور العالم لم يكن سوى الماء والعرش وخالفهما. ثم خلق الله السماوات والأرض على ستة مراحل متتابعة. وأما هدف الخلق فهو الإنسان الذي أخلفه الله في الأرض ليظهر جدرانه بهذه الخلافة، ويبدل ما هو صالح لنفسه ولبقية كائناتها التي سخرها الله له، مثلما سخر له نقيّة مظاهر الكون والطبيعة.

وقد ورد في تفسير الكشاف لهذه الآية ما يلي: « أي خلقهما في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا. وفي ذلك حث للعباد على التأني في الأمور، فإن الله القادر على خلق الكائنات بلمح البصر قد خلقها في ستة أيام. وكان عرشه على الماء: أي وكان العرش قبل خلقهما على الماء. وفي هذا قال الزمخشري: أي ما كان تحته خلق. وفيه

دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السماوات والأرض»^(١). وقال الطبري إن الله قد خلق العالم من هذا الماء البدئي: «إن الله تعالى كان عرشه على الماء. ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخنا، فارتفع فوق الماء فسماء عليه فسماء سماء. ثم أيس ماء فجعله أرضا واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين»^(٢).

خلق العالم

لا تعطى الآيات الكريمة المتعقبة بالخلق والتكوين جدولا زمنيا لتتابع أعمال الخلق، وإنما يكفي معظمها بالحديث عن خلق السماوات والأرض إجمالا في ستة أيام واستواء الخالق بعد ذلك على العرش؛ ومنها: «إن ربكم الله. خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش» - الأعراف ٥٤. «إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدير الأمر» - يونس ٣. «الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، الرحمن فسأل به خبيرا» - نوح ٥٩. «هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يعلم ما يخفى وما ينجس منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أين ما كنتم» - الحديد ٤. «ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وما مسنا من لغوب» - ق ٣٨. وكلمة لغوب في الآية الأخيرة تعني التعب. وقد ورد في تفسير القرطبي أن في الآية الكريمة رد على اليهود الذين زعموا أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أو لها يوم الأحد وآخره يوم الجمعة، وأنه نعب فاستراح في يوم السبت^(٣).

على أننا نعلم من آيات معية أن خلق الأرض قد تم أولا: «هو الذي خلق لكم في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، وهو بكل شيء عليم» - البقرة ٢٩. «قل أنكم لتكفرون بالذي خلق لأرض في يومين وتجعلون له أنبادا

١- تفسير الكشاف ٢/٢٨٠.

٢- تاريخ الطبري، الجزء الأول.

٣- تفسير القرطبي: ٤/١٧.

ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين، وأوحى في كل سماء أمره»^(١) - فُصِّلَتْ: ٩-١٢. وقد جاء خلق الأرض مناظراً لخلق السماء، ففي الأعلى سبع سموات وفي الأسفل سبع أرضين: «الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن» الطلاق ١٢.

أما عن خلق بقية مظاهر الكونية والطبيعية، فقد تم خلال هذه الأيام الستة ولكن دون الإشارة إلى ترتيب معين في أسبقية الظهور: «الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمة والنور» الأنعام ١. «يغشى الليل نهار يطببه حينئذ، والشمس والقمر والحجور مسحرات بأمره» - الأعراف ٥٤. «لا الشمس يسعي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق لنهار وكل في فلك يسبحون» - يس ٤٠. «وزيد السماء الدنيا بمصباح وجعلها، ذلك تقدير العزيز العليم» - فُصِّلَتْ ١٢. «هو الذي جعل الشمس صياءً والقمر نوراً» - يونس ٥. «سخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار» - إبراهيم ٣٣. «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب» - الصافات ٦. «والذي أخرج امرئى فجعله غثاءً أحوى» - الأعلى ٤. «انزل من السماء ماءً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى» - طه ٥٣. «الله الذي يرسل لرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء» - الروم ٤٨. «وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه» الحجر ٢٢.

وقد جاء خلق الله هذا تداً وكملأ، وسيبقى كذلك إلى اليوم الموعود. فلعلنا كلة حسن وخير، يسير وفق خطة التي وضعها الله له، ولا سنطه للشيطان عليه: «الذي أحسن كل شيء خلقه» السجدة ٧. «فتبارك الله أحسن الخالقين» المؤمنون ١٤. «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه» النجم ١١. «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت» - الملك ٣. «وكل شيء عنده بمقدار» - الرعد ٨.

^(١) ترافقت عملية خلق الأرض معها مع عملية سطيها وخلق ما عليها من نبات وحيوان. من هنا فإن المؤمنين الذين أفردهما الآية الكريمة خلق الأرض، هما جزء من الأيام الأربعة التي قدر فيها الله للأرض أقواتها.

«الشمس والقمر بحسبان» - الرحمن ٥. «والسمااء رفعها ووضع الميزان» - الرحمن ٧. وهذا يعني أن ما يبدو من اضطراب في عمليات الطبيعة أحياناً مثل العواصف والأعاصير والفيضانات والزلازل والبراكين، هو جزء من نظام الطبيعة ذاتها لا اختلال في ذلك النظام. كما أن الله يسخر بعض هذه الظواهر كأدوات عقاب على الأقوام العاصية، التي فسدت وتحت فيها الأخلاق والنعاملات: «فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم» - الإسراء ٦٩. «فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات» - قصص ١٦. والشيء نفسه يقال عن المخلوقات المؤذية بطبيعتها وعن الأمراض والأوبئة. وتعبير آخر، فإن كل ما يبدو حولنا من تعارضات ذات طبيعة قطبية، هو جزء من النظام الخفي لصيرورة العمليات الكونية والطبيعية.

الملائكة

لا تفيدنا آيات الخلق والتكوين عن ترتيب ظهور الملائكة في خطة الخلق. ولكننا نعرف أنها كائنات سماوية ذات قوى متفوقة تحيط بعرش الله وتسبح بحمده^(١). «وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم» - الزمر ٧٥. «والملائكة يسبحون بحمده ويستغفرون لمن في الأرض» - الشورى ٥. «ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيافته» - الرعد ١٣. «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم» - غافر ٧. ومن أهم صفاتهم الانصياع التام لخالقهم، فهم مسيروا لا مغيروا: «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» - التحرتم ٦.

وللملائكة عدد متنوع من الوظائف. فهم رسل بين السماء والأرض: «الحمد لله فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً» - فاطر ١. ويتصلون بالأنبياء والمختارين لإبلاغهم بمتابعة الرب: «فأدته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب» - آل عمران ٣٩. «وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على ساء العالمين» - آل عمران ٤٢. وقد ذكر القرآن الكريم من أسماء الملائكة: جبريل وميكال ومالك. وجبريل هو الذي حمل الوحي إلى الرسول محمد (ص): «قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله» - البقرة ٩٧.

^(١) وقد ورد في الحديث الشريف: «خلق الملائكة من نور، وخلق الجن من نار».

والملائكة تحمل رحمة الله إلى المؤمنين: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخْفَوُا وَلَا تَحْزَنُوا وَابْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» - فصلت ٣٠. ومنهم أولياء وحفظة على المؤمنين: «نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» - فصلت ٣١. «كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالْبَدِينِ، وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ، كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» الانفطار: ٩-١٢. ولكل فرد من أفراد السرائر اناس من هؤلاء الملائكة الحافظين يرافقانه طيلة حياته، واحد عن يمينه وآخر عن شماله: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» (*) ق: ١٧-١٨.

ومن الملائكة من يرسله الله ليعاضد المؤمنين في القتال: «إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودُ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَمْ تَرَوْهَا» - الأحزاب ٩. ومنهم موكلون بقبض أرواح البشر عند تحين أنية: «الَّذِينَ تَوْفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَائِلِي أَنْفُسِهِمْ» - النساء ٩٧. «وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ» - الأنعام ٩٣. «وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ» - الأنفال ٥٠. فوق هذه الزمرة من الملائكة التي تقبض الأرواح رئيس تدعوه الآية بملاك الموت دون أن تذكر اسمه (**): «قُلْ يَتُوفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» - السجدة ١١. ومنهم خزنة للآثار وخزنة للجنة (الزمر: ٧١ و ٧٢)، فملائكة الجنة تُيسر أسباب السعادة لأهل الجنة بينما تقوم ملائكة الجحيم على تعذيب المجرمين (الواقعة: ١٧-٢٤، التحريم ٦).

وللملائكة في يوم القيامة دور هام يلعبونه: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ» المحن ٣٣. «يَوْمَ تَشْهَقُ السَّمَاءُ بِالسَّعَابِ وَتُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا» - الفرقان ٢٥. «يَوْمَ يَرَوُ الْمَلَائِكَةُ لَا يَشْرِي يَوْمُئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ» الفرقان ٢٢. وللملائكة أجنحة يختلف عددها على ما يبدو باختلاف طبقاتها: «جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رِيسَالًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرِبَاعَ» - فاطر ١. على أن هذا لا يضيفي الصفة المادية على الشكل الملائكي، والسر لا يقدر على رؤيتها، في حال تجليها،

(*) ورد في تفسير القرطبي أن الله قد وُكِّلَ بكل إنسان، مع علمه بأحواله، ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ويكتشان أثره. أحدهما عن اليمين يكتب الحسنات وآخر عن شماله يكتب السيئات - القرطبي ٩/١٧.

(**) ورد في الحديث الشريف أن سمه عزرائيل.

إلا في هيئة إنسانية عادية: « وقالوا لولا أنزل عليه مَلَكٌ. ولو أنزلنا مَلَكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون. ولو جعلناه مَلَكاً لجعلناه رجلاً، ولَبَسْنَا عليهم ما يلبسون » - الأنعام ٨. وكلمة "رجل" في هذه الآية الكريمة تدل على الإنسان لا على جنس الذكر، لأن الملائكة لا جنس لها.

الجن

الجن هم فريق آخر من الكائنات غير المادية، خلقها الله قبل الإنسان من عنصر النار: « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من همأ مسنون، والجان خلقناه من قبل من نار السموم » - الحجر ٢٧. « وخلق الجان من مارج من نار » - الرحمن ١٥. إن تعبير "نار السموم" وتعبير "مارج من نار" في الآيتين السابقتين يدلان على النار الصافية التي لا يخالطها دحان. وهذا يعني أن الجن مخلوقون من نار غير أرضية، فهم طاقة صافية لا أحساد لها. ومع ذلك فإنهم يسكنون الجبال الأرضية ويقسمون إلى أمم وشعوب شأنهم في ذلك شأن البشر. ومثل البشر أيضاً هم يخشون وعرضة للامتحان غير صيرورة الزمن: « يا معشر الجن والإنس، ألم يأتيكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا » - الأنعام ١٣٠. « ولقد درأنا جهم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها » - الأعراف ١٧٩. « قال ادخلوا في أمم قد حلت من قبلكم من الجن والإنس في النار، كلما دخلت أمة لعبت أحتها » - الأعراف ٣٨. ثم إنهم في النهاية مطالبون بالإيمان برسالة الإسلام: « وإذ صرفنا إليك نفر من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قصي الأمر ولوا إلى قومهم مندريين » - الأحقاف ٢٦. « قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً » - الجن: ١-٢.

ويبدو أن الأمة التي عبدها البشر من دوا الله كانت من الجن الكافر: « وجعلوا لله شركاء الجن » - الأنعام ١٠٠. « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهولاء إياكم كانوا يعبدون. قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » - سبأ: ٤٠-٤١. وللجن شياطين تغويهم مثلهم

للإنس: « شياطين الإنس و الجن يوحى بعصمهم إلى بعض زخرف القول غروراً. ولو شاء ربك ما فعلوه، ولتصعي إليه أفئدة الدين لا يؤمنون بالأخرة » - الأنعام: ١١٢-١١٣.

ولدينا في سورة النمل مودج عن القوة فوق الطبعانية التي للجن، وذلك في قصة ملكة سبأ مع سليمان. فلقد سمع الملك سليمان بخبر ملكة سبأ، فأرسل إليها يدعوها للإيمان بالله وترث عبادة الشمس والكواكب، فأرسلت إليه هدايا ثمينة ولم تحبه للإيمان، فرد سليمان هداياها إليها وعزم على السير لمحاربتها، ولكنها بادرت به بالسير لزيارتها. وقبل أن تصل الملكة أراد أن يريها آية تدفعها إلى الإيمان. ولما كان سليمان متسلطاً على الجن يأمرهم بأمره: «ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه»-سبأ ١٢، فقد دعا الحن وسألهم أنهم قادر على إثباته بعرض الملكة من بلدها قبل أن تصل: «قال يا أيها الملأ أئكم يأتي بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيت به قبل أن نغوم من معامك، وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك ظرْفك. فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فصل ربي » سورة النمل ٣٨ ٣٩ ٤٠.

خلق الإنسان وسقوطه

بعد أن فرغ الله من خلق السماوات والأرض عزم على خلق الإنسان، فأطعم الملائكة على بوابه: « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات. وهو بكل شيء عليم. وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدهك. قال إني أعلم ما لا تعلمون » البقرة: ٢٩ ٣٠. ثم خلق الله آدم من تراب الأرض الممزوج بالماء، مثلما تصنع الآنية الفخارية: « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال كالفخار » - الرحمن ١٤. « إنا خلقناكم من طين لازب » الصافات ١١. والطين اللازب هو الطين اللزج لرخو. وكذلك الحمأ المسنون: « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » الحجر ٢٦. وقد تولى الله خلق آدم بنفسه، على ما نفهم من خطابه لإبليس بعد دنت: « قل يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » - ص ٥٧. وقد ورد في التفسير أن الله تعالى جعل آدم من تراب لأرض ففجعه ماء

فصار طيناً لازباً، أي متلاصقاً يصبق باليد، ثم تركه حتى صار حمأ مسنوناً، أي طيناً أسوداً، ثم صورته كما تُصَوَّرُ الأولوي، ثم أيسسه حتى صار في عاية الصلابة كالفخار إذا نُقِر صوت^(١).

وبعد أن انتهى الحائق من صنع جسد آدم نفخ فيه من روحه: «وبسأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه» - السجدة ٩. ولذلك صار آدم نفساً حية يجمع في تركيبه عنصريين، الأول مادي ينتمي إلى الأرض، والثاني روحاني هو قيس من روح الله ذاته.

هذه التكوين الخاص اجماع بين سادة و"الروح"، هو الذي جعل آدم مميزاً على بقية الكائنات التي خلقها الله، ومعضلاً على الملائكة وعلى الجن. ولكي يُظْهِرَ الله للملائكة فضل آدم عليهم، فقد علّمه أسماء جميع مخلوقات الأرض ثم عرضهم على الملائكة ليشهوه بأسمائهم فحجروا، ولكن آدم فعل: «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم، قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» - البقرة ٣٣. عند ذلك أمرهم الله بالسجود لآدم سجود تبجيل وتكريم: «وإد قلبنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين» - البقرة ٣٤. «قال ما معك ألا تسجد إذ أمرتك. قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها، فاعرج إنك من الصاغرين» - الأعراف: ١١-١٢.

أُسكن الله آدم في الجنة، ثم خلق منه زوجة له، وقال لهما أن يأكلا من كل شجرة الجنة عدا شجرة معية^(٢)، وحذرهما من عواية الشيطان الذي صار عدواً لهما بعد عصيانه وطرده. وانص لا يصف كيفية حق المرأة ولا يطلق عليها اسماً معيناً: «يا أيها

١ - انظر صعوة التماسر للصاوي ٥٠/٢٧. وحاشية شيخ راده على البصاوي ٤٣٠/٣. وحاشية الصاوي على الجلالين ١٥٤/٤.

(٢) يدعو الشيطان هذه الشجرة شجرة الخلد (= الخلود)، وذلك في سورة طه ١٢٠. ولا ندري هل التسمية صحيحة أم أنها تليق من إبليس.

الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها» - النساء ١ .
«ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين» - الأعراف ١٩ «فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا تخرجنكما من الجنة فتشقى. إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وإنك لا تظلم فيها ولا تضحي» طه: ١١٧-١١٩. ولكن الشيطان الذي حلت عليه لمة ربه بسبب آدم، جاء إلى آدم ووسوس إليه مزيد له الأكل من الشجرة: «فوسوس إليه الشيطان وقتل يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى. فأكلا منها فبدت لهما سوءا فلهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وعصى آدم ربه فغوى. ثم جتبه ربه فتأب عليه وهدى. قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو. فإذا يأتىكم منى هدى، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا» طه: ١٢٠-١٢٤.

وفي آية أخرى يوسوس الشيطان إلى الزوجين معا: «فوسوس لهما الشيطان ليبيد ما ووري عهما من سوءا فلهما وقال ما تكأكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقسمهما إلى لكما لمن النصحين. فدلأهما بعرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءا فلهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وناداهما ربهما ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا طعنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين» - الأعراف: ٢٠-٢٤. ولكن رحمة الله ترافقت مع غضبه، فما لبث طويلا حتى غفر للإنسان خطيئته: «فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتأب عليه إنه هو التواب الرحيم» - البقرة: ٣٦-٣٧.

نلاحظ من الآيات لكرمة التي أوردناها أعلاه عددا من النقاط الأساسية التي تميز الرواية القرآنية عن الروايات الكيدية الأخرى. فالشيطان قد وسوس إلى آدم أولا ثم إلى الزوجين معا. ثم إن الاثنين قد أكلا من الشجرة دون إشارة إلى من كان البدئ بالأكل واغرض عليه. وبذلك فقد برأ القرآن الكريم المرأة من التحريض على

المعصية الأولى، وألقى الدوم على الطرفين معاً. ثم إن الله لم يلعن الإنسان بسبب معصيته ولم يلعن الأرض بسببه. بل طرده من الجنة إلى الأرض ليحصل فيها قوته بالكد والتعب. وأعلى من ندابة التزامه هدايته وخلاصه: «قدنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتىكم منى هدى، فمن تنع هداي فلا تخوف عليهم ولا هم يحزنون» - البقرة ٣٨. كما أن الله قد سامح الإنسان وغفر له ذنبه ما أن دعاه وطلب غفرانه. وهذا يعني أن مفهوم الخطيئة الأصلية غير موجود في المعتقد القرآني، وأن نسل الإنسان لم يرث خطيئة آدم ليسوء به غير ندرجه، بل هو قادر على تحقيق خلاصه بمجرد الإيمان بالله تعالى والإخلاص له. وبخصوص الأمر الإلهي عدم الأكل من الشجرة، فإن ذلك الأمر لم يكن أمراً غير مبرر أو مفهوم بالنسبة للزوجين الأولين، بل إن الله قد أوضح لهما مسبقاً أن الشيطان عدو لهما، وأنه سوف يعمل على إغوائهما ودفعهما إلى المعصية وإخراجهما من الجنة. فالتحريم والحالة هذه هو تبيان لسبيل الخير وسبيل الشر منذ البداية.

إبليس

كان إبليس من قوم الجن ولم يكن من الملائكة. ويبدو أنه كان رئيساً على الجن، على ما يذهب إليه بعض المفسرين^(١). أما لماذا كان بين الملائكة عندما أمرهم ربهم بالسجود لآدم، فإن البص يصمت عن هذه المسألة ولا يذهب أبعد من ذلك. ولربما كانت له مهمة معينة تستدعي احتلاظه بالملائكة ومصاحبته لهم: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخلون وذرته أولياء من دوني وهم لكم عدو، يمس للظالمين بدلاً» - الكهف ٥٠. وعندما حلت عليه لعنة ربه بسبب عجرته وتكبره وعصيانته، وأذن بهلاك مؤكداً، طلب التأجيل إلى يوم القيامة: «إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين. فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين. قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي، استكبرت أم كنت من العالين. قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين. قلل أخرج منها فلأنك رجيم. وإن عليك لعني إلى يوم الدين. قال رب فانظرني إلى يوم

١ - انظر تفسير الجلالين للآية ١٥ من سورة الرحمن.

يعتون، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم. قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين. قال فالحق والحق أقول، لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين» - ص: ٧١-٨٥.

لم يكن عصير إبليس واتحاده جانب لشر بالأمر المهم في صيرورة تاريخ العلم وتاريخ الإنسانية. فالشر لا يصدر عن إبليس بقدر ما يصدر عن النفس الإنسانية الواعية والحررة والمسؤولة. كما أن نهاية التاريخ مقررة ومقدرة سلفاً وهي جزء لا يتجزأ من خطة الله في الخلق، ولم يكن لمعصية إبليس أو خطيئة الإنسان أي أثر على هذه الخطة. ونحس إذا نظرنا إلى الآيات الكريمة المتعلقة بالخلق والتكوين نجد معظمها قد ربط الخلق باللهية، لأن العالم مخلوق لأجل مسمى: «وما خلقنا السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى» - الأحقاف ٣. «ونسخر الشمس والقمر كي يجري إلى أجل مسمى» - لقمان ٢٩. «خلق السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت» - الجاثية ٢٢. فالعالم مخلوق لأجل الإنسان، وهو المسرح الذي يحقق فيه خياراته عبر صيرورة التاريخ. ورغم أن مسيرة الزمن والتاريخ مرسومة مسبقاً في خطوطها العامة، إلا أن ما يجري في هذا التاريخ هو مسؤولية الإنسان.

ضمن هذه الخطة متكاملة التي تجمع الجبرية في صيرورة التاريخ، والحرية في نشاط الإنسان ضمن هذا التاريخ، لا يبعث الشيطان إلا دوراً ثانوياً، وليس العهد الذي حذ على نفسه بعوايه بني البشر، بل ذي أثر حقيقي على خطة الرحمن. نقرأ في سورة الإسراء: «وإذا فند للملائكة سجودوا لآدم فسجدوا إلا إبليس. فسأل أأسجد من خلقت طيباً. قال أرايتك هذا الذي كرمت عني، لئن أخرجتسن إلى يوم القيامة لأحتسكن دريته إلا قليلاً. قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جراًؤكم جزء موفوراً، واستغفر من استطعت منهم بصوتك، واحلب عليهم بخيلك ورجلك، وشاركهم في الأموال والأولاد، وعدهم، وما يعلهم الشيطان إلا غروراً. إن عادي ليس لك عليهم سلطان. وكفى ربك وكيلاً» - الإسراء ٦١-٦٥. ونقرأ في سورة الأعراف: «قال انظري إلى يوم يعتون، قال إنك من المنظرين. قال فيما أغويني لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لأنبهم من بين أيديهم ومن خلفهم ومن أمائهم وعن شمائلهم. ولا تجد أكثرهم شاكرين. قال اخرج منها مذموماً مدحوراً، من تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين» - الأعراف: ١٤-١٨.

باشر إبليس مهمته فوراً. وبعد إغوائه لآدم وزوجته عمد إلى ضلالة فريق من الجن فأنحازوا إلى جانبه وتوكلوا على شياطين تعمل كجند تحت إمرته: « وبرزت الجحيم للغاوين - الشعراء ٩١ ... فككبوا فيها هم والغاؤون وحشود إبليس أجمعون » - الشعراء ٩٥. كما صار له ذرية ونسل تقفوا أثره: « أفتتخذونه وذريته أولياء من دوبي، وهو لكم عذر نفس للظالمين بدلاً » الكهف ٥٠. وكلمة "ذرية في هذه الآية الأتخرة قد تعني نسلاً بمعنى الحرقي للكلمة. وقد تعني النظائر والأشباه، وذلك كقوله تعالى: « إن سائرهم كانوا إخوة الشياطين » - الإسراء ٢٧. فأخوة بعض البشر للشياطين هـ ليست أخوة فعلية بل أخوة معنوية.

وهكذا ابتدأ الشيطان والإنسان تاريخهما معاً، ودخلتا المرحلة الثانية من التاريخ، مرحلة الامتحان الكبير.

ب- مرحلة الامتحان الكبير

قال تعالى: « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين. ما خلقناهم إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون. إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » - الدخان: ٣٨-٤٠. « أولم يتفكروا في أنفسهم. ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى، وإن كثيراً من الناس بقاء رهم لكافرون » - الروم ٨. فالإنسان هو معنى العالم وغايته، وإليه أوكل الله الأمانة الكبرى التي لم يحملها أحد من خلق الله. وإن عليه خلال المرحلة الثانية من التاريخ أن يثبت جدارته بهذه الأمانة ويصل بها إلى هدفها الأخير، وهو تنقية النفس الإنسانية من شوائب الشر، وتحقيق الخيار الوحيد اللائق بالجنس السري، خيار الحق والخير، ليكون أهلاً للدخول في السرمدية. وهو رغم مسؤوليته الكاملة عن مصيره، فإنه ليس وحيداً في خضم الامتحان، لأن الله يقف على الدوام إلى جانب من تولوه في صراعهم مع نوازعهم ومع الشيطان، ويحارب الباطل بالحق: « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين. لو أردنا أن نتخذ لهم آتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمعه فإذا هو راقق » الأنبياء: ١٦-١٧.

مذ أن طرد الله آدم من الفردوس أعلى من مقصده في التاريخ، والتزامه بهداية الإنسان وحلاصه من عالم التجربة والخطية إلى حياة الأبدية: «يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبيكم من الجنة» - الأعراف ٢٧. «ومن يؤمن بالله يهد قلبه» - التباين ١١. «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم» - يونس ٩. «فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم. الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات» - البقرة: ٢٥٦ ٢٥٧ «يا بني آدم إنا يأتيكم رسل منهم يقصون عليكم آياتي. فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» - الأعراف ٣٥. «ثم أرسلنا رسلنا تترى» - المؤمنون ٤٤.

خلال المرحلة الثانية ينشط إبليس وجنوده فيضلون ويفسدون، ونكس الله الأمين على عهد ووعد، يتابع صلته بالبشر ليحنهم مهاوي الشيطان: «ولقد أرسلنا رسلاً بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» - الحديد ٢٥. «ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت» - النحل ٣٦. «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه لينبئهم» - إبراهيم ٤. «قد جاءكم الحق من ربكم، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنا نضل عليه» - يونس ١٠٨. «تلك آيات الكتاب الحكيم، هدى ورحمة للمحسنين» لقمان ٣. ولكن هذه المرحلة تتميز بعزوف معظم الناس عن الهداية، وعدم الإصغاء لصوت الحق: «كل ما جاء أمة رسوفاً كذبوه» - المؤمنون ٤٤. «ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين. وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون» الحجر ١١. «يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون» - يس ٣٠.

ولكن حسرة تعالى على العباد تقلب إلى غضب ونقمة، عندما يستفحل الظلم والصلالة والخطيئة: «وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قنثون^١». «وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها، فتلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم» - القصص ٥٨. «وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا ناهلكهم موعداً» - الكهف ٥٩. «وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون» القصص ٥٩. ومع

^١ قائلون: أي في يوم القيامة. بياتاً: أي في نوم الليل.

ذلك فإن رحمة الله تسبق غصه: « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياته. وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » - القصص ٥٩. « ولو يؤاخذ الله الناس بـ كسبهم ما ترك على ظهرها من دابة. ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى » - فاطر ٤٥.

هذا الصراع المفتوح بين خير والشر لن يستمر أبداً، لأن الزمن يسير نحو نهاية محتومة ومقررة سلفاً في صلب خلق الأول. ولسوف ترجح كفة الخير في الهزيع الأخير من التاريخ، الذي يُتَوَجَّعُ باستئصال شأفة الأشرار ووليهم إبليس: « ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » - المجادلة ١٩. والهزيع الأخير من التاريخ يتبدى بالبعثة المحمدية.

ج - البعثة المحمدية ونهاية التاريخ

خسائم الأنبياء

قال تعالى: « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الأحزاب ٤٠. « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » - ساء ٢٨. قبل البعثة المحمدية كان الله يختص كل أمة برسول. أما وقد اقترب الزمن من نهايته^(١)، وجاءت مرحلة الفصل الأخير بين الخير والشر، فقد حاطب الله الناس كافة، كل الشعوب والأمم، وبعث رسوله الأمين برسالة عالمية شاملة ليكون آخر الأنبياء، ورسالته حاتمة الرسالات: « هذا بلاغ للناس، ولينذروا به، وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب » - إبراهيم ٥٢. « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » - الجاثية ٢٠. « أَلَمْ يَكُنْ أُنزِلْنَا إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » - إبراهيم ١. « هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخبر حكم من

^(١) ورد عن النبي (ص) أنه رفع أصبعيه الوسطى والسابعة وقال: « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ ». وفي رواية ثانية: « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، كفصل إحداهما على الأخرى ». وفي رواية ثالثة: « بُعِثْتُ فِي مِصْرَ السَّاعَةِ فَسَبَقَهَا كَفَصْلِ هَذِهِ عَلَى الْأُخْرَى » - أخرجه البخاري ومسلم.

الظلمات إلى النور» - الطلاق ١١. لقد بيت الرسالة المحمدية لجميع الناس، وللمرة الأخيرة، الحد الواضح بين الهدى والضلالة. وما زال هنالك وقت للاختيار قبل أن يأتي يوم الفصل: «لا إكراه في الدين. قد تبين لرشد من الغي. فمن يكفر بالطغاسوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها» - البقرة ٢٥٦. ولنسوف يشهد هذا الهزيع الأخير من التاريخ فلاح القصد الإلهي في تخليص البشر: «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا» - النصر: ١-٢. أما من بقي وليه الشيطان فموعد الساعه، يوم تتم هزيمة الشيطان وجنده وأتباعه: «سيهزم الجمع ويونون الدبر. بل الساعه موعدهم، والساعه أدهى وأمر» - الفجر ٤٦.

الساعه واليوم الآخر

تتخذ الرسالة المحمدية طابعا آخرويا واضحا، فلا تكاد تحبو سورة من سور القرآن الكريم من آية أو عدد من الايات التي تُذكر باليوم الآخر وفيها الساعه. لقد بلغ عدد مرات ذكر "الاحرة" و "اليوم الآخر" في الكتاب الكريم حوالي ١٤١ مرة. وذكر "الساعه" حوالي ٤٨ مرة. وذلك إضافة إلى التعبيرات الأخرى التي تحمل الدلالة نفسها مثل "الغاشية" و "الواقعة" و "الفارعة" و "الآفة" و "اليوم يوعود" و "يوم الوعيد" و "الموعد" و "الميعات" وغيرها. فاليوم الآخر هو تجسيد لعادلة الله الحق، وكل تعاليم القرآن الكريم تصب في النهاية في تعليم واحد، هو آخر الزمن وهاية التاريخ.

يُفتتح اليوم الآخر بالساعه الرهيبه التي تُزعزع الأرض وتشتقق السماء وتبعثر الجيوم وتفيض البحار. هذه الساعه قريبة ولكن موعدها لا يعلم به سوى الله: «يسألونك عن الساعه آيات مرسها، قل إنما علمها عند ربى» - الأعراف ١٨٧. «وعنده علم الساعه وإليه ترجعون» - الرحرف ٨٥. «وما يدريك لعل الساعه تكون قريباً» - الأحزاب ٦٣. «وما يدريك لعل الساعه قريب» - التورى ١٧. فهي تأتي بعتة دون إنذار: «أو تأتيهم الساعه بغتة وهم لا يشعرون» - يوسف ١٠٧. «ولا يزال الذين كفروا في مرة منه حتى تأتيهم الساعه بعتة» - الحج ٥٥. «بل تأتيهم بغتة فتسههم» - الأنبياء ٤٠. يسبق الساعه ثلاث إشارات هي الدخان، ودابة الأرض التي

تكلم الناس، وحروج شعب يأجوج ومأجوج: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يعشى الناس، هذا عذاب أليم» الدخان ١٠. « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم. ^١ ناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ». النمل ٨٢. « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. واقترب الوعد الحق، فإذا هي سانشصة أبصار الذين كفروا، ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بن كما ظالمين » - الأنبياء: ٩٦ - ٩٧. ويأجوج ومأجوج هم القوم الذي حجبهم ذو القرنين وراء سد كبير انتقاء ذأهم (نكهف ٩٤-٩٧). وهم قبل الساعة ينقبون السد ويخرجون للفساد في الأرض.

ينته الأحياء من عففتهم على صوت بوق عظيم تضطرب له الأرض وتفرغ الكائيات: « يوم يُنفخ في الصور فمزع من السماء ومن في الأرض إلا ما شاء الله » - النمل ٨٧. ويأتي صوت البوق أتيه بصيحة واحدة لا متقطعة ولا متكررة: «وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فوق» - ص ١٥. يلي ذلك عدد من الكوارث الطبيعية والكونية: «فإذا نفخ في الصور نفحة واحدة، وحملت الأرض والجبـال فذكرنا ذكة واحدة. فيومئذ وقعت الواقعة، واشتسقت السماء فهي يومئذ واهية» الحاقة: ١٣ - ١٤. «إذا السماء انشطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت» - الانفطار: ١-٣. « إذا رُلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها، يومئذ تُحَدَّث أخبارها بأن ربك أوحى لها » الزلزلة: ١-٥. « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » - الزمر ٦٧. «إذا الشمس مس كُورَت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سُيِّرَت، وإذا العِشَار عُطِّلَت » التكوير: ١-٥. «إن عذاب ربك لواقع، ما له دفع. يوم تمور السماء موراً، وتُسَيَّر الجبال سيراً» - الصور ٧ - ١٠. «يوم تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميمٌ حميماً» - نعرح: ٨ - ١٠. «يوم تروها تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها. وترى اساس سكارى وما هم بسكارى» الحج: ١-٢. ثم يُنفخ في البوق مرة ثانية فينفخ ^(٢) كل من بقي حياً بعد تلك الكوارث: «ونُفخ في الصور فصُعِق من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله» - الزمر ٦٨.

^(٢) لا يتحدث النص عن اسم للملاك الذي ينفخ في البوق. ولكن الأحاديث الشريفة تذكر اسم الملاك مِسْرافيل.

« إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم حامدون » يس ٢٩. « كل ما عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » الرحمن: ٢٦ ٢٧. بعد أن يموت الجميع ويستوي من مات حديثاً مع من مات منذ آلاف السنين، يُنفخ في البوق مرة ثالثة فيبعث الموتى من مرقدهم، وتعود إليهم الأرواح التي فارقتهم: « ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » - الرمر ٦٨. « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » - يس ٥١. « خُشِعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » القمر ٧. « قالوا يا ويلتنا من بعثنا من مرقدنا. هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » يس ٥٢. ثم ينفخ في الصور مرة رابعة فيُجمع الناس إلى مكان الحشر. « يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا » - البأ ١٨. « ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا » الكهف ٩٩. « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميعٌ لدينا مُحضرون » يس ٥٣. « وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً » - الكهف ٤٧.

عند ذلك ينزل الله من السماء آية مع السحاب: « هل يظنون إلا أن يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام والملائكة، وقُضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور »^(١) - البقرة ٢١٠. « ويوم تشق السماء بالغمام، ونزل الملائكة تنزيلاً » الفرقان ٢٥. « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، وأنك على أرجائها، ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية »^(٢) - الحاقة ١٦-١٧. « كلا إذا دُكب الأرض دكاً، وجاء ربك والملك صفُ صفاً »^(٣) الفجر: ٢٢-٢٣. « وجوه يومئذ ناضرة إلى رها ناضرة »^(٤) - القيامة ٢٣. « إذ تنبى عليه آياتنا قال أساطير الأولين. كلا بن را على قلوبهم ما كانوا يكسبون، كلا إهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون »^(٥) - المطففين: ١٣-١٥. عندها يُعرض الناس على الواحد القهار من أجل الحساب: « يومئذ يُعرضون فلا تخفى منكم خافية » - الحاقة ١٧. « وبرزوا للواحد القهار » - إبراهيم ٤٨.

١ - ورد في تفسير ابن كثير هذه الآية: أي ما ينظرون شيئاً إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لمصل القضاء بين الخلائق،

حيث تشق السماء وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام، وحمله العرش الذين لا يعلم عددهم إلا الله.

٢ - ورد في صفوة التفاسير: ويحمل عرش الرحمن ثمانية من الملائكة العظام فوق رؤوسهم.

٣ - ورد في التفسير لعلوم لتبريل: معناه ظهوره تعالى للخلق هنالك.

٤ - ورد في تفسير اجلالين: أي يرون الله سبحانه وتعالى في الآخرة.

٥ - ورد في صفوة التفاسير: قال الشافعي: وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل.

وعندها تُبرز صحفٌ أو كتب لأعمال التي كان الملائكة يسجلون فيها أعمال كل فرد خلال حياته: « ووضع الكتاب فترى المحرمين مشفقين مما فيه، ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغدر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » - الكهف ٤٩. « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » - الإسراء: ١٣-١٤. « إنا نحن نحيي الموتى، ونكتب ما قدموا وآثارهم، وكل شيء أحصيناه في كتاب مبين » - النبأ ٢٩. ومع إبراز صحف الأعمال ينقسم المحشورون إلى أهل اليمين وأهل الشمال: « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » الواقعة ٢٧. « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال » - الواقعة ٤١. « فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً » - الانشقاق: ٩٠٧. « وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابية، ولم أدر ما حسابه، يا ليتها كانت الفاضية، ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه » الحاقة: ٢٥-٢٩.

بعد استلام صحف الأعمال يتجه المحشورون إلى ميزان الحساب المصوب: « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة - الأنبياء ٤٧. « والوزن يومئذ الحق. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم » - الأعراف: ٨-٩. « فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه فأما هاهنا^(١)، وما أدراك ما هاهنا، نار حامية » القارعة: ٦-١١. بعد اختبار الميزان يتجه أهل اليمين إلى نعيم مقيم، ويتجه أهل الشمال إلى عذاب السعير.

أحوال الجنة وأحوال النار

« للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وأزواج مطهرة ورضوان من الله » - آل عمران ١٥. وللجنة أبواب تستقبل أهلها وفق طبقاتهم، وعليها خزنة موكلون بشئونها: « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً،

(١) الهاوية اسم من أسماء جهنم، سميت بها لغاية عمقها ويُعد مهوَاهَا، انظر تفسير أبي السعود ٢٨٢/٥.

حتى إذا جازوها وقتحت أبوابها، قال لهم خزنتها سلام عليكم، طبتن فادخلوها
 حالدين » الزمر ٧٣. وللجنة درجات: « لمن خاف مقام ربه جنتان » « دوات -
 أفنان » - الرحمن ٤٦ و ٤٨. « ومن دونهما جنتان » « فيهما عينان نضحتان » -
 الرحمن: ٦٢ و ٦٦. وفيها أنهار من ماء عذب وأنهار من لبن وعسل وخر: « فيها
 أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين.
 وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم » - محمد ١٥.
 ولكن خمر الجنة لا يسكر: « يطاف عليهم بكأس من معين، بياض لذة للشاربين، لا
 فيها غول ولا هم عنها ينزفون » - الصافات: ٤١-٤٧. « يطوف عليهم ولدان
 مخللون بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا يـُـرفون »
 الواقعة: ١٧ ١٩. « يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك. وفي ذلك فليتنافس
 المتنافسون، ومراحه من نسيم، عينا يشرب منها المقربون » الإنسان: ١٧-١٨.

وأهل الجنة لا يحملون ولا يكدسون، بل يأتيهم رزقهم دون سعي أو مشقة، ولهم
 فيها أزواج مطهرة: « جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب، إن وعده كـان
 مأتياً. لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً، ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً » مريم: ٦١-٦٢.
 « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون، هم وأزواجهم في ظلال على الآرائك
 متكئون، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون. سلام قولاً من رب رحيم » - يس: ٥٥-٥٨.
 « أولئك لهم رزق معلوم، فواكه وهم مكرمون، في جنات النعيم، على سُرر متقابلين »
 - الصافات: ٤١ ٤٤. « ولحم طير مما يشتهون، وحور عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون،
 جزاء بما كانوا يعملون » الواقعة: ٢١ ٢٤.

« ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل
 وجدتم ما وعد ربكم حقاً، قالوا نعم » - الأعراف ٤٤. « ونادى أصحاب النار
 أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، قالوا إن الله حرمها على
 الكافرين » - الأعراف ٥٠.

ولجهم أيضاً أبواب تستقبل أهلها حسب طبقاتهم، وعليها حفظة يديرون
 شؤونهم: « وإن جهنم نـوعدهم أجمعين، لها سبعة أبواب، لكل باب منهم من جزء

مقسوم» الحجر ٤٣: ٥٠ «وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً، حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها: «لم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ويدرونكم لقاء يومكم هذا. فقلوا بلى، ولكن حقَّت كلمة العذاب على الكافرين» - الزمر ٧١. ولها أيضاً درجات تتسلسل صعوداً من الأسفل إلى الأعلى: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ولن نجد لهم نصيراً» - النساء ١٤٥. فإذا اقتربوا منها سُمع عن بُعد صوت غليان النار فيها، مثلما يعلو صدر العضبان من الغيط، وسمع لها شهيق وزفير: «وأعتدنا لهنَّ كدَّباً بالساعة سعيراً». إذا رأتهنَّ من مكان بعيد سمعنَّ لها تغيطاً وزفيراً» الفرقان. «إذا ألقوا فيها سمعنَّ لها شهيقاً، وهي تفور تكاد تميز من الغيظ. كما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير» - الملك ٧-٨. فإذا رأى الكافرون ما هم فيه من عذاب ندموا وطبخوا فسخة من الوقت يرجعون خلالها إلى الحياة الدني ليعملوا صالحاً. ولكن هيئات إقامتهم هنا أبدية: «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا لبيتنا ثرؤنا لم نأتكم بأيات ربنا ونكون من المؤمنين» الأنعام: ٢٧. «فأما الذين تنقَّوْا فمِى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض، إلا ما شاء ربُّه، إن ربك فعال لما يريد» - هود ١٠٦-١٠٧.

ومن صوف العذاب التي يلقونها على يد ملائكة العقاب: «فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة، أُعدت للكافرين» البقرة ٢٤. «عليها ملائكة علاظ شدداد لا يعصون لله ما أمروهم ويفعلون ما يؤمرون» - التحريم ٦. «إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصيبهم نارا. كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب» - النساء ٥٦. «إد الأغلال في أصنافهم والسناسل يسحبون» - غافر ٧١. «إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً» - الإنسان ٤. «فالذين كفروا قُطعت لهم ثياب من نار، يصب فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود. ولهم مقامع من حديد. كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها، وذوقوا عذاب الحريق» الحج: ١٩-٢٢. «لا يُقصى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها» - فاطر ٣٦. وفي مقام طبابت رزق الجنة فإن لأهل النار طعام أيضاً: «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، كل ليل يغلي في البطن كغلي الحميم» - الدخان: ٤٣-٤٦.

«إله شجرة تخرج من أصل الجحيم طَلَعُهَا كأنه رؤوس الشياطين، فإنهم لا يكون منها
فماثلون البطون» - الصفات: ٦٤-٦٥.

الخلق الجديد

ورد في الآية ١٠٦ من سورة هود، التي أوردناها أعلاه، أن الذين شَقُّوا هم في
النار «خالدين فيها ما دامت السموات والأرض». وفي هذا دلالة على أن العلم لم
يَقْنِ عقب يوم القيامة، وإنما قد تم تجديده بعد الدمار الشامل الذي حلَّ به. ويدعم هذا
التفسير الذي نتقدم به هنا الآيات الكريمة التي تتحدث عن "الخلق الجديد". ففي بعض
هذه الآيات يرد تعبير "الخلق الجديد" للدلالة على إعادة خلق الموتى وبعثهم، وذلك
كقوله تعالى: «إله يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات
بالقسط» - يونس ٤. وكقوله: «وإن نَعَجَبَ فعَجَبٌ قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي
خلق جديد» - الرعد ٥. ولكن تعبير الخلق الجديد يرد في مواضع أخرى للدلالة
على إعادة خلق العالم. وذلك كقوله: «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ
الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة، إن الله على كل شيء قدير» - العنكبوت ٢٠.
«يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب. كما بدأنا أول خلق نعيده» -
الأنبياء ١٠٤. «أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى
وهو الخلاق العليم» - يس ٨١. من هنا، فإن الجنة والنار اللتين لم يحدد العصر
صراحة مكانهما وموضعهما، قد تكونان في هذه الأرض الجديدة. خصوصاً وأن بعض
الآيات بص صراحة على أن المؤمنين يرثون الأرض في اليوم الآخر: «وقالوا الحمد لله
الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض تنبؤاً من لجنة حيث نشاء» - الزمر ٧٤. «كما
بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين. ولقد كتبنا في الزبور، من بعد الذكر،
أن الأرض يرثها عبادي الصالحون» - الأنبياء: ١٠٤-١٠٥.

أي إن الله يخلق بعد تدمير السماء والأرض، سماءً جديدة وأرضاً جديدة
تدخلان في السرمدية مع المؤمنين، الذين يسقيهم رهم شراباً طهوراً هو شراب الخلود

في عالم انتفت منه التناقضات والتعارضات، بعد أن توقف التاريخ وصب تيار الزمن في الأبدية.

في الحديث الشريف

لقد التزمنا فيما سبق من هذا الفصل نص القرآن الكريم، من دون الأحاديث النبوية الشريفة^(١)، ولكننا سوف نتوقف فيما يلي من نهاية هذا الفصل، عند أحاديث نبوية مختارة، في موضوع الساعة واليوم الآخر، وذلك بسبب تطرقها إلى مسائل لم ترد في النص القرآني، وذلك مثل أشرط الساعة وعلاماتها، وعودة المسيح، والمنهدي، والدجال، وحروب آخر الزمن، والموت وعذاب القبر.

الموت وعذاب القبر

« إن أحدكم إذا مات، عَرَضَ عليه مقعده بالغداة والعشي . إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »^(٢). « القبر أول منزل من منازل الآخرة. فمن يحا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم يحج منه فما بعده أشد »^(٣). « إن العبد إذا وُضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع وقع نعالهم، إذا انصرفوا أتاه الملكان فيقعدا فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل، محمد؟ وأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة. وأما الكافر فيقول لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس فيه. فيقال لا دريت ولا نليت. ثم يضرب بمطرقة من حديد بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه »^(٤).

(١) وذلك بسبب وجهة نظراً الخاصة من مسألة الثبوت وحسن الإسناد.

١- أخرجه الجماعة. إلا ابوضاً.

٢- أخرجه الترمذي.

٣- رواه البخاري ومسلم.

وهناك حديث طويل عن عمل الميت يأتيه في صورة رجل حسن أو في صورة رجل قبيح، نقتبس بعض أحزائه: « ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب، فيقول ابشر بالذي يُسرّك، هذا يومك الذي كنت توعده. فيقول من أنت فوجهك الحسن يجيء بالخير، فيقول أنا عملك الصالح. فيقول رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي » وإن كان العبد كافراً: « يأتيه رجل قبيح بوجه متنن الريح، فيقول ابشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعده فيقول من أنت فوجهك القبيح يجيء بالشر، فيقول أنا عملك الخبيث » « كنت نصيّك عن ساعة الله سريعاً في معصيته فجزاك الله شراً » « ثم يُفتح له باب من النار. ويتهجد به فرش من النار »^(١).

عن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها وذكرت عذاب القبر. فقالت لها أعاذك الله من عذاب القبر. قالت عائشة فسألت رسول الله عن عذاب القبر فقال نعم، عذاب القبر حق. قالت فما رأيت رسول الله، بعد، صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر^(٢). وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي (ص) قال الله: « إن الموتى ليعذبون في قبورهم حتى إن النّهار لتسمع أصواتهم »^(٣). عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: « خرج رسول الله (ص) بعدما غربت الشمس، فسمع صوتاً فقال يهود يُعذب في قبورها »^(٤).

أشراط الساعة

عن عائشة رضي الله عنها: « سمعت رسول الله (ص) يقول: لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد الآلات والعزى. قلت يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله تعالى: - هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون - أن ذلك تام. قال إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فتتوفى كل من كان في قلبه مثقال درة من خردل من إيمان، فيبقى من لا خير

١ - رواه الإمام أحمد بإسناد رواه، صحيحهم في الصحيح. قال الخافظ هذا حديث حسن رواه صحيحهم في الصحيح.

٢ - أخرجه البخاري ومسلم.

٣ - رواه الطبري بإسناد حسن.

٤ - رواه البخاري ومسلم والنسائي.

فيه. فيرجعون إلى دين آبائهم»^(١). وورد في أحاديث أخرى «يذهب الصالحون الأول فالأول، وتبقى حثالة كحثة الشعر أو التمر»^(٢). «إن الله يبعث من اليمن رجلاً أئين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته»^(٣).

بعد أن يرحم الله المؤمنين من فتن الساعة وأهوالها يعم الشرك ويفقد الإيمان وتنتشر الفوضى في كل مكان: «والذي نفسي بيده، لا تقوم الساعة حتى تقتلوا إمامكم، ويحتلدوا بأسيا فكم، ويرث دنياكم شراركم»^(٤). «ويل للعرب من شر قد اقترب، قطعاً كالليل المظلم. يصح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً. يبيع قوم دينهم بعرض من الدنيا قليل. المتمسك بدينه يومئذ كالقابض على الجمر»^(٥). «إن بين يدي الساعة أياماً يسرن فيها الجهل، ويرفع العمى، ويكثر الهرج أي القتل»^(٦). «ليأتين على الناس زمان لا يدري القتلى في أي شيء قتل، ولا يدري المقتول في أي شيء قتل»^(٧). «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وحروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف. خسف بالمشرق وخسف بمغرب وحسف بحجزرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»^(٨).

حروب آخر الزمان

«وتقاتلون بين يدي الساعة قوماً نعالهم الشعر، كأن وجوههم الخان المطرقة، حمر الوجوه، صغار الأعين»^(٩). «إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً يتعلون نعال الشعر. وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً عراض الوجوه كأن وجوههم الخان المطرقة»^(١٠). «إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقسم ميراث ولا يُعرج بغيمة. ثم قال بيده هكذا ونحوها نحو الشام، فقال عدو يجمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام. قلت: الروم تعني؟ قال نعم. ويكون ذلكم القتال ردة شديدة»^(١١). «لا تقوم الساعة

- | | | |
|--------------------------|-----------------------|--------------------------|
| ١ - أخرجه مسلم. | ٢ - أخرجه البخاري. | ٣ - أخرجه مسلم. |
| ٤ - أخرجه البخاري ومسلم. | ٥ - رواه الإمام أحمد. | ٦ - البخاري ومسلم. |
| ٧ - أخرجه مسلم. | ٨ - أخرجه مسلم. | ٩ - أخرجه البخاري ومسلم. |
| ١٠ - أخرجه البخاري. | ١١ - أخرجه مسلم. | |

حتى يقاتل اسسمون اليهود، فيقتلهم اسسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر. فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خفي تعال واقتله»^(١)

ويخرج من أقاصي شعب الأرض يدعى يأجوج ومأجوج، بعد أن نقب السد الذي بناه ذو القرنين، فتشق جيوشهم الطريق وصولاً إلى ديار الإسلام: «فينشفون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم. فيرمون سهامهم إلى السماء فترجع وعليها هيئة الدم. فيقولون قهرنا أهل الأرض وعونا أهل السماء. فيبعث الله إليهم بغلاً في أقفاصهم فيقتلهم بها»^(٢).

المسيح والمسيح الدجال:

الدجال في الحديث الشريف، رجل من بني آدم، ضخم الجثة، أكرد الشعر، أعور العين اليمنى، وعينه اليسرى شديدة الضوء كأنها كوكب دري، مكتوب على جبهته كافر. يأتي الدجال من المشرق فيدعي الإصلاح، ثم يدعي النبوة ويقول إنه المسيح، ثم يدعي الألوهية. يدخل كل ديار الإسلام عدا مكة والمدينة فهما محرمتان عليه. يجري الحق سبحانه وتعالى على يديه معجرات باهرة، لأن الله جعله فتنة للناس بينيها العباد. من معجراته إحياء الموتى وإظهار حصب الأرض الجرداء بدعوته، وإمحاء الأرض الخضراء تمشيئته، وإسقاط المطر بإشارته. ومع صورة حمة ونار يريهما من يشاء. يبادي على الصحراء أن تخرج كموزها فتتبعه كور الأرض جميعاً. فيهلك من يتبعه من المرتابين والموافقين، وينجو من يكذبه ويبطل حيله من المؤمنين. يلبث في الأرض أربعين يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كأسبوع، وبقية أيامه مثل أيام الناس.

بعد ذلك يبعث الله عيسى ابن مريم، فينزل عند الموضع الذي يدعو الحديث الشريف بالمنارة البيضاء شرقي دمشق، فينفخ عيسى على الكفار فيبيدهم، وتنفسه تمتد إلى حيث ينتهي بصره. فيهرب الدجال ويتبعه عيسى حتى يدركه عند باب مدينة الد فيقتله هناك. والأحاديث الشريفة في موضوع الدجال عديدة وطويلة جداً، نسوق فيما

يلي أقصرها: « ما من بي إلا وقد أندر أُمته من الأعور الكذاب. ألا إنه أعور، وبكم ربكم ليس بأعور. مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤها كل مسلم »^(١). « إني حدثكم عن الدجال حتى حشيت أن لا تعقلوا. إن المسيح الدجال قصير أفحج، جعد، أعور مطموس العين، ليست نائته ولا حجاء. فإن التمس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور »^(٢). « يقتل ابن مريم الدجال بباب لُد »^(٣). « الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان، يتبعه قوم كأن وجوههم الخان المطرقة »^(٤). « يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالة »^(٥).

بعد أن يقتل المسيح عيسى بن مريم الدجال ويفني أتباعه. يحكم الأرض بللعد لفترة يسود خلالها الأمن والسلام والإيمان. ورد في الحديث الذي رواه النور بن سمعان عن ظهور المسيح وقتله للدجال: « فيسما هو كذلك - أي الدجال - إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام. فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهردتين^(٦) واضعاً كفيه على أحجرة ملكين. إذا طأطأ رأسه قَطَرًا، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ. فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه »^(٧). وفي حديث آخر: « يسزل ابن مريم إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويرجع المسيح، ويتخذون السيوف ماحل، ويُذهب حُمّة كل ذات حُمّة، وتنزل السماء ررقها، وتخرج الأرض بركتها، حتى يلعب الصبي بالثعبان فلا يضره، ويراعي الغنم الذئب فلا يضرها، ويراعي الأسد البقر فلا يضرها »^(٨). « وإنه أي عيسى - نازلٌ فإذا رأيتموه فاعرفوه. رجل مرسوع إلى الحمرة والياض، عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل. فيندق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع - أي يرفع - الخزيرة »^(٩). وعلى ما ورد في

١ - أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود.

٢ - أخرجه الترمذي وقال هذا حديث صحيح.

٣ - أخرجه مسلم.

٤ - أي لباساً حلتين مهردتين. والمهردة هي الحلة المصبوغة بالورس والزعفران.

٥ - أخرجه مسلم.

٦ - أخرجه الإمام أحمد.

٧ - رواه البخاري

أحاديث أخرى، فإن المسيح ابن مريم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون.

كما تظهر في آخر الزمن شخصية فذة أخرى يدعوها الحديث الشريف بالمهدي: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً مني - أو من أهل بيتي - يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً»^(١). «المهدي مني، أجلي الجبهة، أقبني الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، ويملك سبع سنين»^(٢).

انتهى

إميسا - حمص

كانون الثاني - يناير / ٢٠١٠ /

٢- أخرجه أبو داود وإسناده حسن.

١- رواه أبو داود بترمذي.

خاتمة

يا عبدُ

إذا رأيْتني في الضدَّينِ مرَّةً واحدةً،
اصْطَفَيْتُكَ لِنَفْسِي

((النَّفَّري)) *

من كتاب المخاطبات فقرة ٢٦

(*) هو محمد ابن عبد الجبار النفري . مشصوف من القرن الرابع الهجري . توفي حوالي سنة ٣٥٤ ، ولا نعرف عن حياته شيئاً لأنه عاش متجولاً في الأصفاع ولم يتصل بأهل العلم والتصوف في زمانه . له مؤلفان جمعتهما ونسقتهما بعد وفاته ابنه أو حفيده ، الأول بعنوان (المواقف) والثاني بعنوان (المخاطبات) . ويحتويان على مناجيات باطنية بينه وبين منبع الحقيقة . يُعتبر نسيجاً واحداً في عالم التصوف .

مراجع البحث

- Barnstone. W, ed, The Other Bible, Harper, New York 1984.
- Baigent. M, The Holy Blood and The Holy Grail, Jonathan Cape, London 1982.
- Byoce. Mary, Zoroastrians, Rotledge, London 1985.
- Budge. Wallis, Egyptian Religion, Rotledge, London 1975.
- Budge. Wallis, Osiris, Dover, New York 1973.
- Budge. Wallis, Gods of The Egyptians, Dover, New York 1969.
- Campbell. Joseph, Occidental Mythology, Penguin, London 1977.
- Charlesworth. J. H, ed, The Old Testament Pseudepigrapha , Dobleday, New York 1983.
- Dally. Stephanie, Myths From Mesopotamia, Oxford 1991
- David. A. Rosalie, The Ancient Egyptians, Routledge, London 1982.
- Fox. M, and Sheldrake. R, The Physics of Angeles, Harper, San Francisco 1996.
- Golb. Norman, Who Wrote the Dead Sea Scrolls, Scribner, New York 1995.
- Gonoli. Gerardo, Mani, Manicheanism in: Encyclopedia of Religion
- Gonoli. Gerardo, Zoroastrianism. in: Encyclopedia of Religion.
- Grand. R. M, The Apocryphon of John. in: W. Barnston. ed, The Other Bible.
- Haurdt. R, Mani Manicheanism. In: W. Barnston, ed, The Other Bible.
- Isaac. E, Ethiopic Apocalypse of Enoch. In: The Old Testament Pseudepigrapha, vol. 1
- Jacobsen. Th, The Treasures of Darkness, Yale, New Haven 1976.
- Kee. H. C, Testament of The Twelve Patriarchs. In: The Old Testament Pseudepigrapha, vol.1
- Lurker. Manfred, The Gods and Symbols of Ancient Egypt, Thames and Hudson, London 1984.

- Metzger. B. M, The Fourth Book of Ezra. In: The Old Testament Pseudepigrapha.
- Noss. J. B, Man s Religion, MacMillan, London 1969.
- Robenson. J. M, ed, Th Nag Hammadi Library, Harper, New York 1972.
- Tigay. J. H, The Evolution of the Gilgamesh Epic, University of Pennsylvania 1982.
- Wisse. F, The Apocryphon of John. In: The Nagg Hammadi Library.
- Widengreen. Geo, Mani and Manicheanism, New York 1965.
- Watts. Allan, Myth and Ritual in Christianity, Thames and Hudson, London 1983.
- Wintermut. O. S, The Book of Jubilees. In: The Old Testament Pseudepigrapha, vol.2
- Zaehner. R. C, The Down and Twilight of Zoroastrianism, London 1961.
- Zaehner. R. C, Hinduism, Oxford 1984.
- Zimmer. H, Myths and Symbols in Indian Art and Civilization, Prenceton 1974.

موسوعات

- New Larousse Encyclopedia of Mythology, Hamlyn, London 1977.
- Encyclopedia of Religion, MacMillan, London 1987.
- New Encyclopedia Britanica, 15th Edition.

مراجع باللغة العربية

- ابن النديم: الفهرست. تحقيق د. ناهدة عباس عثمان — الدوحة ١٩٨٥.
- جيو ويندفرن: ماني والمناوية — ترجمة د. سهيل زكار — دار حسان — دمشق ١٩٨٥.
- جبور، باسم ميخائيل: ملحمة أتراسيس — رسالة دكتوراه محفوظة في جامعة حلب.
- السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى — اتحاد الكتاب العرب — دمشق ١٩٧٦.
- السواح، فراس: حلجامش — ملحمة الرافدين الخالدة — دار علاء الدين — دمشق ١٩٩٦.
- الفغالي، د. بولس: كتابات قمران — الرابطة الكتابية، بيروت ١٩٩٧.
- شويتزر، ألجير: فكر الهند — ترجمة يوسف شلب الشام، دار طلاس، دمشق ١٩٩٤.
- سومر، أندريه دوبون: كتابات ما بين العهدين — ترجمة موسى اخوري، دار الطليعة الجديدة دمشق ١٩٩٨.
- الكتاب المقدس، العهد القديم والعهد الجديد.
- القرآن الكريم.

المحتويات

فاتحة ص ٥

الفصل الأول: الثنوية الكونية ص ١١

الثنوية المطلقة، الثنوية الجذرية، الثنوية المعتدلة ص ١٢ — الثنوية والقطبية ص ١٣

الفصل الثاني: المفهوم الديني للتاريخ ص ١٧

المعتقد الربوبي ص ١٨ — المعتقد الحلولي ص ١٩ — المعتقد الألوهي ص ٢١

المعتقد الربوبي والتاريخ المفتوح، بلاد الرافدين نموذجاً ص ٢٣

المعتقد الحلولي والتاريخ النوري، الهندوسية نموذجاً ص ٣٧

المعتقد الألوهي والتاريخ الدينامي، الزرادشتية نموذجاً ص ٥١

لاهوت التاريخ وفكرة الشيطان ص ٥٤

الفصل الثالث: فكرة الشيطان في الديانة المصرية، وبذور الثنوية ص ٥٧

ثنائية سيت — حوروس ومفهوم القطبية الكونية ص ٥٨ — صعود أوزيريس ومقدمات

الثنوية الأخلاقية ص ٧٠ — الإله سيت ومقدمات الشيطان الكوني ص ٧٥

الفصل الرابع: الزرادشتية وميلاد الشيطان ص ٧٧

مقدمة تاريخية ص ٧٧ — زرادشت ص ٧٩ — المعتقد الزرادشتي ص ٨٢

الأخلاق والعبادات ص ٩١ — التطور التاريخي ص ٩٦ — ميراث الزرادشتية ص ٩٨

الفصل الخامس: الشيطان في التوراة بين إشكالية التوحيد وإشكالية الأخلاق ص ١٠٣

إشكالية التوحيد ص ١٠٣ — إشكالية الأخلاق ص ١١٣ — الشيطان الحاضر الغائب ص ١٢٧

لاهوت الملائكة ص ١٣٤ — الزمن ومفهوم التاريخ ص ١٣٨ — التصورات الآخريّة ص ١٥٠

الفصل السادس: على هامش التوراة، الثورة الدينية الصامتة ص ١٥٥

سفر أختوخ الأول ص ١٥٧ — سفر عزرا الرابع ص ١٦٥ — كتاب اليوبيلات ص ١٧١

وصايا الأسباط الاثني عشر ص ١٧٦ — سفر أسرار أختوخ ص ١٨٧

عندما امتنع إبليس عن السجود ص ١٩١ — الهاجده ص ١٩٥

الفصل السابع: يهو، شيطان الغنوصية ص ٢٠٣

مبادئ الغنوصية ومفكرها ص ٢٠٤ — الميتولوجيا الغنوصية: منحول يوحنا ص ٢٠٧
الحل الغنوصي لمشكلة الشر ص ٢١٢

الفصل الثامن: الغنوصية المانوية وشرطانية المادة ص ٢١٣

ماني ص ٢١٥ — المعتقد المانوي ص ٢٢٣ — الأخلاق والعبارات ص ٢٢٧
انتشار المانوية ص ٢٢٩ — المانوية كنموذج للتثوية المطلقة ص ٢٣٠

الفصل التاسع: الكاثارّة وغنوصية القرون الوسطى ص ٢٣٣

اليوجوميل والمهرطقات المسيحية ص ٢٣٣ — الثقافة الكاثارّة في فرنسا والمعتقد
الكاثاري ص ٢٣٤ — الحملة الصليبية الكاثارّة ونهاية الكاثارين ص ٢٣٧

الفصل العاشر: أمير هذا العالم — الشيطان في اللاهوت المسيحي ص ٢٣٩

الشيطان في الأناجيل ص ٢٤٠ — مراحل التاريخ: * أ — السرمديّة أو ما قبل التلوخيخ ٢٤٤
* ب — الزمن الكوزموغوني ص ٢٤٥ (أول خلق الله ٢٤٥ — ثورة في السماء ٢٤٧
عصيان على الأرض ٢٤٩) * ج — مرحلة التمازج وسيادة إبليس ص ٢٥٢
* د — ملكوت الرب أو مرحلة الفصل ص ٢٥٦ (ميلاد المخلص وافتتاح الملكوت ٢٥٦
تعاليم يسوع ٢٦٢ — مراحل الملكوت واليوم الأخير ٢٦٩)

الفصل الحادي عشر: الرحمن والشيطان في المعتقد الإسلامي ص ٢٧٧

الإيمان والأخلاق في القرآن ص ٢٧٧ — الشيطان في العقيدة القرآنية ومفهوم الحرية
الإنسانية ص ٢٧٨ — مراحل التاريخ: * أ — الخلق والتكوين ص ٢٨٢ (السرمدية ٢٨٢
خلق العالم ٢٨٣ — الملائكة ٢٨٥ — الجن ٢٨٧ — خلق الإنسان وسقوطه ٢٨٨
إبليس ٢٩١) * ب — مرحلة الامتحان الكبير ص ٢٩٣ * ج — البعثة المحمدية ونهاية
التاريخ ص ٢٩٥ (خاتم الأنبياء ٢٩٥ — الساعة واليوم الآخر ٢٩٦ — أحوال الجنة
وأحوال النار ٢٩٩ — خلق الجديد ٣٠٢) — في الحديث الشريف ص ٣٠٣

خاتمة ص ٣٠٩

المؤلف في سطور

❖ فراس السواح، مفكر سوري يبحث في الميثولوجيا وتأثير الأديان، كمدخل لفهم البعد الروحي عند الإنسان.

من مواليد حمص / سورية ١٩٤٦.

❖ صدرت له الأعمال المطبوعة التالية:

- مغامرة العقل الأولى. دراسة في الأسطورة
- الطبعة الأولى، دمشق ١٩٧٨، الطبعة الحادية عشر، دمشق. دار علاء الدين ١٩٩٦.
- لغز عشتار. الألوهة الموثقة وأصل الدين والأسطورة
- الطبعة الأولى، دمشق ١٩٨٥. الطبعة السادسة، دمشق. دار علاء الدين ١٩٩٦.
- كوز الأعماق. قراءة في ملحمة جلجامش
- الطبعة الأولى، دمشق ١٩٨٧.
- الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم
- الطبعة الأولى ١٩٨٩. الطبعة الثانية ١٩٩٧، دمشق. دار علاء الدين
- دين الإنسان. بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني
- الطبعة الأولى ١٩٩٤. الطبعة الثالثة ١٩٩٨، دمشق. دار علاء الدين
- آرام دمشق وإسرائيل. في التاريخ التوراتي
- الطبعة الأولى، دمشق. دار علاء الدين ١٩٩٥.
- الأسطورة والمعنى. دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية
- الطبعة الأولى، دمشق. دار علاء الدين ١٩٩٧.
- كتاب التاو. إنجيل الحكمة التاوية في الصين
- الطبعة الأولى، دمشق. دار علاء الدين ١٩٩٨.
- الرحمن والشیطان. التوبة الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات المشرقية
- الطبعة الأولى، دمشق. دار علاء الدين ٢٠٠٠.